عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

عصر المأمون

بقلم
الدكتور
أحمد فريد رفاعي
المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

[الطبعة الثانية]
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٦هـ — ١٩٢٧م

فهرس

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث — عصر الأمين والمأمون

باب المنثور : صفحة

رسائل سهل بن هارون :

رسائل عمرو بن مسعدة :

التحاميد :

التحاميد فى أواخر الكتب :

مختار ما كتب من باب التهانى فى كل فن :

باب المنظـــوم :

صفحة

ملحق الكتاب الثالث

باب المنثور

(أ) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ — نص كتاب الأمين الى المأمون، وهو الكتاب الذى أشرنا اليه فى الجزء الأول.

إذا ورد عليك كتابُ أخيك — أعاذه الله من فقدك — عند حلول ما لا مردّ له ولا مَدْفع، مما قد أخلف وتناسخ الأمم الخالية، والقرون الماضية، بما عزّاك اللهُ به . وٱعلم أن الله جلّ ثناؤه، قد آختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارين، وأَجْزَلَ الحظين، فقبَضه الله طاهرا زاكيا، قد شكَر سعيَه، وغفر ذنبه، إن شاء الله . فقُمْ فى أمرك قيامَ ذى الحزم والعزم، والناظرِ لأخيه ونفسه، وسلطانه وعامة المسلمين . وإيّاك أن يَغلب عليك الجزعُ، فإنه يُحْبِط الأجر، ويُعقِب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيًّا وميّتًا، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون . وخُذِ البيعة على مَنْ قِبلَك، من قُوّادك وجُنْدك، وخاصّتك وعامّتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشّريطة التى جعلها لك أميرُ المؤمنين : من نسخها له وإثباتها، فإنك مُقلَّد من ذلك، ما قلّدك اللهُ وخليفتُه .

وأَعْلِمْ مَنْ قِبَلك رأيي فى صلاحهم، وسدّ خَلّتهم، والتوسعة عليهم؛ فمن أنكرتَه عند بيعته، أو آتّهمتَه على طاعته، فابعثْ الىّ برأسه مع خبره . وإياك وإقالتَه، فإنّ النارَ أولى

به . وٱكْتُبْ الى عُمّال ثُغورك، وأُمَراءِ أجنادك، بما طَرَقك من المصيبة بأمير المؤمنين ؛ وأَعلِمْهم أنّ الله لم يرضَ الدنيا له ثوابا ، حتى قبضه الى رُوحه وراحته وجنّته ، مَغْبوطا محمودا، قائدا لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله . ومُرْهم أنْ يأخذوا البيعةَ على أجنادهم، وخواصّهم وعوامّهم، على مثل ما أمرتك به، مِنْ أخذها على مَنْ قِبَلك ؛ وأوعز إليهم فى ضبط ثُغُورهم، والقوّة على عدوّهم، إنّى متفقّدٌ حالاتهم، ولامٌّ شَعَثَهم، ومُوَسّع عليهم، ولا آنٍ فى تقوية أجنادى وأنصارى . ولتكنْ كُتبُكَ اليهم كُتُبا عامةً لتُقْرأ عليهم، فإنّ ذلك ما يسكّنهم، ويبسُط أملَهم . وٱعمل بما تأمُرُ به لمَنْ حضرك، أو نأَى عنك من أجنادك على حسب ما ترَى وتُشاهد . فإن أخاك يعرف حسْن ٱختيارك، وصحّة رأيك، وبُعد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يَشُدَّ بك عضده، ويجمعَ بك أمره، إنّه لطيف لما يشاء . وكتب بكر بن المُعْتَمِر بين يدىّ وإملائى فى شوّال سنة ١٩٢ هـ

٣ — وهذا كتاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بسم الله الرحمن الرحيم

اذا ورد عليك كتابى هذا، عند وقوع ما قد سبَق فى علم الله، ونفَذ من قضائه، فى خُلفائه وأوليائه، وجرَت به سنته فى الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فاحمَدوا الله على ماصار اليه أمير المؤمنين، من عظيم ثوابه ومُرافقة أنبيائه، صلوات الله عليهم، إنّا إليه راجعون، وإيّاه نسأل أنْ يُحسن الخلافة على أمّة نبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم . وقد كان لهم عِصْمَةً وكهفا، وبهم رءوفا رحيما .

فشمّر فى أمرك، وإيّاك أنْ تُلْقِيَ بيدبك، فإن أخاك قد ٱختارك لما ٱستنهضك له، وهو مُتفقّد مواقع فقدانك، فحقق ظنه، ونسأل اللهَ التوفيق . وخذ البيعة على مَنْ قِبَلَك، من ولد أمير المؤمنين، وأهْل بيته ومواليه وخاصته وعامته لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشَّريطة التى جعلها

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسخها على القاسم أو إثباتها . فإنّ السعادة واليُمْن فى الأخذ بعهده والمُضِىِّ على مناهجه .

وأعلم مَنْ قِبَلَك من الخاصة والعامّة رأيى فى آستصلاحهم، وردّ مَظالمهم، وتَفَقُّد حالاتهم، وأداء أرزاقهم، وأعْطياتهم عليهم . فإن شَغَب شاغب، أو نَعر ناعر، فاسْطُ به سَطْوةً تجعله نَكَالا لما بين يدَيْها وما خَلْفَها ومَوْعظةً للمتقين . وآضْمُم إلى الميمون ابن الميمون الفَضْل بن الربيع ولدَ أمير المؤمنين وخدَمه وأهله، ومُرْه بالمسير معهم فيمن معه، وجنده ورابطته؛ وصَيِّر الى عبد الله بن مالك أمرَ العسكر وأحداثه، فإنّه ثِقَةٌ على ما يلى، مقبولٌ عند العامّة؛ وآضْمُم إليه جميع جند الشُّرَط، من الروابط وغيرهم، الى مَنْ معه من جنده؛ ومُرْه بالجدّ والتيقّظ، وتقديم الحزْم فى أمره كلّه، ليلَه ونهارَه . فإنّ أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يَغْتنمون مثلَ حلول هذه المصيبة؛ وأقِرّ حاتم بن هرثمة على ما هو عليه، ومره بحراسة ما يحفظ به قصور امير المؤمنين، فإنّه ممن لا يُعْرَف إلّا بالطاعة، ولا يَدين إلا بها، بمعاقدَ من الله، ممّا قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء؛ ومُر الخدم بإحضار روابطهم، مَنْ يُسَدُّ بهم وبأجنادهم مواضعُ الخلل من عسكرك، فإنّهم حدٌّ من حدودك؛ وصيّر مُقَدِّمَتك الى أسَد بن يزيد بن مَزْيد، وساقَتك الى يحيى بن مُعاذ، فيمن معه من الجنود، ومرهما بمناوبتك فى كل ليلة .

وآلزم الطريقَ الأعظم، ولا تَعْدُوَنَّ المراحل، فإنّ ذلك أرفق بك؛ ومر أسد بن يزيد، أن يَتخيّر رجلا من أهل بيته أو قوّاده، فيَصير الى مقدّمته، ثم يصيرَ أمامَه، لتهيئة المنازل، أو بعض الطريق؛ فإن لم يَحْضُرْك فى عسكرك بعضُ مَنْ سميتُ، فاختَرْ لمواضعهم مَنْ تثق بطاعته، ونصيحته وهيبته، عند العوامّ؛ فإنّ ذلك لن يُعْوِزَك، من قوادك وأنصارك، إن شاء الله .

وإيّاك أن تُنْفِذَ رأيا، أو تُبْرِم أمرا، إلّا برأى شيخك، وبقية آبائك، الفضل بن الربيع، وأقرر جميع الخدم على ما فى ايديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك؛

ولا تُخْرِجَنّ أحدا منهم، مِن ضمن ما يلي، الى أن تقدم علىّ .. وقد أوصيت بكر بن المُعْتَمِر بمـا سَيُبَلِّغكه، واْعْمَلْ فى ذلك بقـدر ما تشاهد وترى . وإن أمرت لأهل العسكر بعطاءٍ أو رزق فليكن الفضــل بن الربيع المتولى لإعطائهم، على دواوينَ يتّخذها لنفسه، بمَحْضَرٍ مِن أصحاب الدواوين؛ فإنّ الفضل بن الربيع لم يزَل مثلَ ذلك لمهمات الأمور . وأنفِذْ إلىّ عند وصول كتابى هــذا إليك إسماعيــلَ بن صَبِيح ، وبكرَ بن المُعْتَمِر، على مَرْكَبَيْهما من البريد؛ ولا يكون لك عُرْجَة ولا مُهْلة، بموضــعك الذى أنت فيــه، حتى تُوَجّه الىّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله . أخوك يَسْتدفع الله عنك، ويسألُه لك حسن التأييد برحمته . وكتب بكر بن المُعْتَمِر بين يدىّ وإملائى فى شوّال سنة ١٩٢ هـ .

(ب) القول بخلق القرآن

وهاك مثلا مما كتبه المأمون إلى وُلاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عامله إسحاق بن إبراهيم وما يَرويه لنا الطبرى مما حصل .

أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإنّ حقّ الله على أئمّة المسلمين وخُلفائهم الاجتهادُ فى إقامة دين الله الذى استحفظهم، ومواريث النبوّة التى أورثهم، وأَثَرِ العلم الذى استودَعَهم، والعمل بالحق فى رعيّتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم؛ والله يسأل أميرُ المؤمنين، أنْ يوفّقه لعزيمة الرُّشد وصريمته، والإقساط فيما ولّاه الله من رعيّته، برحمته ومنّته؛ وقد عرَف أمير المؤمنين أنّ الجُمْهور الأعظم، والسوادَ الأكبر، من حشو الرعيّة، وسِفْلَة العامّة، ممن لا نظر له ولا رويّة، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، فى جميع الأقطار والآفاق، أهلُ جهالة بالله وعمًى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونُكوبٍ عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصورٍ أن يقدُروا اللهَ حقّ قَدْره، ويعرفوه كُنْهَ معرفته، ويفرّقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكر والتذكّر؛ وذلك أنّهم ساوَوْا بين الله تبارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، واتّفقوا غير متعاجمين، على أنّه قديمٌ أوّل، لم يخلقه الله ويُحدِثه ويَخْترعه، وقد قال الله عز وجل فى مُحْكم كتابه، الذى جعله لما فى الصدور شفاءً، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿إنّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . فكلّ ما جعله الله فقد خلقه، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ . وقال عز وجل : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ . فأخبر أنه قَصصٌ لأمور أحدثه بعدها، وتلا به مُتقدِّمها، وقال : ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ . وكلّ مُحْكَم مُفصَّل، فله مُحْكِمٌ مُفصِّل، والله مُحْكِم كتابه ومفصِّله، فهو خالقه ومبتدعه،

ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوْا إلى قولهم، ونسبوا أنفسَهم إلى السنَّة، وفي كلّ فصل من كتاب الله قَصَصٌ من تلاوته، مُبطل قولَهم، ومكذِّب دعواهم، يردّ عليهم قولهم ونِحلتَهم، ثم أظهروا مع ذلك أنّهم أهل الحق والدين والجماعة، وأنّ مَنْ سواهم أهلُ الباطل والكفر والفُرقة؛ فاستطالوا بذلك على الناس، وغرُّوا به الجُهّال، حتى مال قومٌ من أهل السَّمْت الكاذب، والتخشُّع لغير الله، والتقشُّف لغير الدين الى مُوافقتهم عليه، ومواطأتهم على سَيّئ آرائهم، تزيُّناً بذلك عندهم، وتصنُّعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحقّ إلى باطلهم، واتّخذوا دون الله وليجةً إلى ضلالتهم، فَقُبِلَتْ بتزكيتهم لهم شهادتُهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم، على دَغَل دينهم، ونَغَل أديمهم، وفساد نيّاتهم ويقينهم، وكان ذلك غايتهم التي اليها جَرَوْا، وإيّاها طلبوا في متابعتهم، والكذِب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ألّا يقولوا على الله إلّا الحقّ، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمَّهم الله، وأعمى أبصارَهم، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورءوس الضّلالة، المَنْقوصون من التوحيد حظا، والمَخْسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجَهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليسَ الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحقّ مَن يُتَّهَمُ في صدقه، وتُطْرح شهادتُه، ولا يوثّق بقوله ولا عمله، فإنّه لا عمَل إلّا بعد يقين، ولا يقينَ إلّا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد؛ ومَنْ عمِي عن رشده وحظّه، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده، كان عمّا سوى ذلك من عمله، والقصْد في شهادته، أعمَى وأضلّ سبيلا؛ ولعَمْر أمير المؤمنين أنّ أحجَى الناس بالكذب في قوله، وتَخرّص الباطل في شهادته مَنْ كذَب على الله ووحيه، ولم يَعرِف الله حقيقةَ معرفته، وأنّ أولاهم بردّ شهادته، في حكم الله ودينه مَن ردّ شهادة الله على كتابه، وبهَتَ حق الله بباطله، فاجمَعْ مَن بحضرتك من القضاة، واقرا عليهم كتابَ أمير المؤمنين هذا إليك، فابْدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، في خلق الله القرآن وإحداثه. وأعْلِمْهم أنّ أمير المؤمنين غيرُ مستعين في عمله، ولا واثِق

فيما قلّده الله، واستحفظه من أمور رعيّته بمن لا يوثق بدينه، وخُلوص توحيده ويقينه، فإذا أقرّوا بذلك، ووافقوا أميرَ المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمُرْهم بنصِّ مَن يحضُرهم من الشهود على الناس، ومسْألتهم عن عِلْمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يُقِرّ أنّه مخلوق مُحْدَث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده؛ واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك، عن قُضاة أهل عَملك في مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أَشرِف عليهم، وتفقّدْ آثارهم، حتّى لا تُنْفَذَ أحكامُ الله، إلّا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد؛ واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله. وكتب في شهر ربيع الأوّل سنة ٢١٨ ه.

وكتب المأمون، الى إسحاق بن ابراهيم، في إشخاص سبعة نفرَ، منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيي بن مُعين، وزُهير بن حَرْب أبو خَيْثَمَة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدَّوْرَقِيّ، فأُشخصوا اليه، فامتحنهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعا أنّ القرآن مخلوق، فأَشْخَصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم دارَه، فشهَّر أمرهم وقولَهم بحضرة الفقهاء، والمشايخ من أهل الحديث، فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم، وكان ما فعَل إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون.

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن ابراهيم:

أما بعد، فإن من حق الله على خُلفائه في أرضه، وأُمنائه على عباده، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحمّلهم رِعاية خلقه، وإمضاءَ حُكْمه وسُنَنه، والائتمامَ بعدله في بريّته، أن يَجْهَدوا لله أنفسَهم، وينْصَحوا له فيما استحفظَهم وقلّدهم، ويَدُلّوا عليه — تبارك اسمُه وتعالى — بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفةِ التي جعلها فيهم، ويَهْدوا إليه مَن زاغ عنه، ويردوا مَن أدبرَ عن أمره، ويَنْهجوا لرعاياهم سَمْت نجاتهم، ويَقِفوهم على حدود إيمانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكْشفوا لهم عن مُغَطّيات أمورهم، ومشتبهاتها

عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعودُ بالضياء والبينة على كافتهم ؛ وأنّ يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصــيرهم ، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم ، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أنّ الله مُرْصِدٌ من مساءلتهم عمّا حُمِّلوه ، ومجازاتهم بمــا أسلفوه ، وقدّموا عنده ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين ، إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . وممّــا بيّنه أمير المؤمنين بَرويّته ، وطالعه بفكره ، فتبيّن عظيمَ خطره ، وجليــلَ ما يرجع فى الدين من وَكَفِه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماما لهم ، وأثرًا من رسول الله صلى الله عليه وســلم ، وصفيه محمد صلى الله عليه وســلم باقيا لهم ، واشتباهه على كثير منهم ، حتّى حسُن عندهم ، وتزيّن فى عقولهم ، ألّا يكون مخلوقا ، فتعرّضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذى بان به عن خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلّها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدّم عليها بأوّليته ، التى لا يُبْلَغ أُولاها ، ولا يدرك مداها ، وكان كلّ شىء دونه ، خلقا من خلقه ، وحدَثا هو المُحْدِثُ له ، وإن كان القرآن ناطقا به ، ودالا عليــه ، وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهَوْا به قول النصارى ، فى ادّعائهم فى عيسى بن مريم أنّه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمةَ الله ، والله عز وجل يقول : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وتأويل ذلك : إنا خلقناه ، كما قال جل جلاله : « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » . وقال : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا » . « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » . فسوى عز وجل ، بين القرآن ، وبين هــذه الخلائق ، التى ذكرها فى شِــية الصنعة ، وأخبر أنّه جاعلُه وحده ، فقال : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » . فقــال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحاط إلّا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » . وقال : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » . وقال : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » . وأخبر عن قوم ذمّهم بكذبهم ، أنهم قالوا : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » . ثم أكذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى » . فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرا وإيمانا ونورا وهدى ومبار[illegible]

وقصصا، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القرآن ﴾ . وقال : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ . وقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . فجعل له أوّلا وآخرا، ودلّ عليه، أنه محدودٌ مخلوق، وقد عظّم هؤلاء الجهلةُ بقولهم فى القرآن؛ الثّلم فى دينهم، والحَرَجَ فى أمانتهم، وسهّلوا السبيل لعدوّ الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا، ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده وشبّهوه به، والإشباه أولى بخلقه، وليس يرى أميرُ المؤمنين، لمن قال بهذه المقالة حظًّا فى الدين، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين، ولا يرى أنْ يُحِلّ أحدا منهم محلّ الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة، ولا صِدْقٍ فى قول ولا حكاية، ولا تولية لشىء من أمر الرعية؛ وإن ظهرَ قصد بعضهم، وعُرِف بالسداد مُسدّدٌ فيهم، فإنّ الفروع مردودة الى أصولها، ومحمولةٌ فى الحمد والذم عليها، وَمَن كان جاهلا بأمر دينه، الذى أمره الله به، من وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جَهلا، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضى كتابَ أمير المؤمنين، بما كتب به إليك، وانصصهما عن عِلْمهما فى القرآن، وأعلمْهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىءٍ من أمور المسلمين، إلّا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنّه لا توحيد لمن لم يُقِرّ بأن القرآن مخلوق، فإنْ قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك فتقدّم اليهما فى امتحان مَن يحضُر مجالسهما، بالشهادات على الحقوق، ونصّهم عن قولهم فى القرآن، فمن لم يقل منهم إنّه مخلوق، أبطَلا شهادته، ولم يقطعا حكمًا بقوله، وان ثبت عفافُه بالقصد والسداد فى أمره، وافعل ذلك بمن فى سائر عمالك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله .

ثم لننظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبريّ قال :

فأحضر إسحاقُ بن إبراهيم لذلك جماعةً من الفقهاء والحُكّام والمحدِّثين ، وأحضر أبا حسّان الزِّيادىّ ، وبشر بن الوليد الكِندىّ ، وعلى بن أبى مُقاتل ، والفضل بن غانم ، والذَّيّال بن الهَيْثَم ، وسَجّادة ، والقَوارِيرىّ ، وأحمد بن حنبل ، وقُتَيْبة ، وسَعْدويه الواسطىّ ، وعلىّ بن الجَعْد ، وإسحاق بن أبى إسرائيل ، وابن الهَرْش ، وابن عُلَيّةَ الأكبر ، ويحيى ابن عبد الرحمن العُمَرىّ ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطّاب ، كان قاضى الرقّة وأبا نصر التمّار وأبا مَعْمَر القَطِيعىّ ، ومحمّد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح المَضْروب ، وابن الفَرُّخان ، وجماعة منهم النَّضْر بن شُمَيْل ، وابن علىّ بن عاصم ، وأبو العَوّام البَزّاز ، وابن شُجاع ، وعبدالرحمن بن إسحاق ، فأُدخِلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرّتين ، حتّى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن؟ فقال : قد عرّفت مقالتى لأمير المؤمنين غيرَ مرّة ، قال : فقد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أَسألْكَ عن هذا ، أمخلوقٌ هو؟ قال : الله خالق كلّ شىء ، قال : ما القرآن شىء؟ قال : هو شىء ، قال : فمخلوق؟ قال : ليس بخالق ، قال : ليس أَسْأَلكَ عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : ما أُحسن غيرَ ما قلتُ لك ، وقد آستعهدت أميرَ المؤمنين ألّا أتكلّم فيه ، وليس عندى غير ما قلتُ لك ، فأخذ إسحاق بن ابراهيم رُقْعَةً كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووَقَفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شىءٌ ، ولا بعده شىء ، ولا يشبهه شىء من خلقه ، فى معنًى من المعانى ، ولا وجهٍ من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كنتُ أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : آكتب ما قال .

ثم قال لعلىّ بن أبى مُقاتل : ما تقول يا علىّ ؟ قال : قد سمّعتُ كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غيرَ مرّة ، وما عندى غيرُ ما سمع ، فامتحنه بالرقعة ، فأقرّ بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله وإن أمرَنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا ، فقال للكاتب : أكتب مقالته .

ثم قال للذيّال نحوا من مقالته لعليّ بن أبي مُقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسّان الزّيادىّ : ما عندك؟ قال : سَلْ عما شئت ، فقرأ عليه الرُّقعة، ووقّفه عليها فأقرّ بما فيها . ثم قال : من لم يقل هـذا القولَ فهو كافر، فقال : القرآن مخلوق هو؟ قال : القرآن كلام الله والله خالقُ كلّ شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامُنا وبسببه سمِعنا عامةَ العلم، وقد سمِع ما لم نسمع ، وعلِم ما لم نعلم، وقد قلّده الله أمرنا، فصار يُقيم حجّنا وصلاتنا، ونؤدّى اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا، قال : القرآن مخلوق هو؟ فأعاد عليه أبو حسّان مقالته، قال : إن هذه مقالةُ أمير المؤمنين، قال : قد تكون مقالةَ أمير المؤمنين ولا يأمُر بها الناس ، ولا يدعوهم اليها ، وإن أخبرتنى أنّ أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلتُ ما أمرْتنى به ، فإنك الثقة، المأمون عليه ، فما أبلغتنى عنه من شيء ، فإن أبلغتَنى عنه بشيء صِرتُ اليه ، قال : ما أمرنى أن أبلّغك شيئا ، قال علىّ بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها، قال له أبو حسّان : ماعندى إلا السمعُ والطاعة ، فمرنى آتمِرْ، قال . ما أمرنى أن آمرك، وانما أمرنى أن أمتحنك .

ثم عاد الى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول فى القرآن؟ قال : هو كلام الله ، قال : أمخلوق هو؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنه بما فى الرقعة ، فلما أتى الى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وأمسك عن لا يُشْبِهه شيءٌ من خلقه ، فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البَكّاء الأصغر، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول: سميع من أذنٍ ، بصير من عَيْنٍ ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سميع بصير؟ قال: هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه؟ قال : لا أدرى هو كما وصف نفسَه ، ثم دعا بهم رجلا رجلا كلّهم يقول : القرآن كلام الله ، إلّا هؤلاء النفر : قتيبةَ، وعبيدَ الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُلَيّة الأكبر، وابن البَكّاء ، وعبد المُنعم بن إدريس

ابن بنت وَهْب بن مُنَبّه، والمُظَفَّر ابن مُرَجّا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفِقْه ، ولا يُعَرف بشيء منه إلّا أنّه دُسّ في ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمرَ بن الخطاب قاضي الرقة ، وابنَ الأحمر ، فأما ابن البَكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ، والقرآن مُحْدَثٌ لقوله : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق؟ قال : لا أقول مخلوق ولكنّه مجعول ، فكتب مقالته ، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم اعترض ابن البَكاء الأصغر فقال — أصلحك الله — : إن هذين القاضيين أئمة ، فلو أمرتهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : هما مَن يقوم بحجّة أمير المؤمنين ، قال : فلو أمرتهما أن يُسمعانا مقالتهما لنَحْكي ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدتَ عندهما بشهادة فستعلم مقالتهما إن شاء الله ، فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووُجِّهت الى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون ، جوابُ كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم . وهاك هو مانجعله ختاما لكلمتنا .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك جوابُ كتابه ، كان اليك فيما ذهب إليه متصنّعة أهل القبلة ، وملتمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول في القرآن ، وأمرك به أمير المؤمنين ، من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالّهم ، تذكر إحضارك جعفرَ بنَ عيسى ، وعبدَ الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أحْضَرْت ممن كان ينسب الى الفِقْه ، ويُعرَف بالجلوس للحديث ، ويَنْصب نفسه للفُتْيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعا كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ، وإطباقهم على نفي التشبيه ، واختلافهم في القرآن ، وأمرك مَن لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى ، في السرّ والعلانية ، وتقدُّمك الى السِّنْدي ، وعباس مولى أمير المؤمنين بما

تقدّمتَ به فيهم الى القاضيَيْن بمثل ما مثّل لك أميرُ المؤمنين، من آمتحان مَن يحضُر مجالسَهما من الشهود ، وبثّ الكتب الى القضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليك، لتحملَهم وتمتحنَهم على ما حدّه أميرُ المؤمنين، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماءَ مَنْ حضر ومقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت، وأميرُ المؤمنين يحمد الله كثيرا كما هو أهلُه ، ويسأله أن يصلّى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرغب الى الله فى التوفيق لطاعته، وحسن المَعُونة، على صالح نيّته برحمته .

وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألتَ عن القرآن ، وما رجع اليك فيه كل آمرئ منهم ، وما شرحتَ من مقالتهم؛ فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد فى نفى التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وآدّعى من تركه الكلامَ فى ذلك وآستعهاده أميرَ المؤمنين ، فقد كذَب بشرٌ فى ذلك وكفر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن جَرَى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره، عَهْدٌ ولا نظر أكثرَ من إخباره أميرَ المؤمنين من آعتقاده كلمة الإخلاص والقولَ بأنّ القرآن مخلوق ، فادعُ به إليك ، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله فى القرآن، واستَتِبْه منه، فإنّ أمير المؤمنين يرى أن تستتيبَ مَن قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفرَ الصُّراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقَه ، وآبعث الى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدىّ فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، فإنّه كان يقول بقوله، وقد بلَغَتْ أميرَ المؤمنين عنه بوالغُ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره وآكشفه، وإلّا فاضرب عنقه، وآبعث الى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما علىّ بن أبى مُقاتل فقل له : ألستَ القائلَ لأمير المؤمنين إنك تحلّل وتحرّم والمكلّم له بمثل ما كلّمته به، مما لم يذهب عنه ذكرُه؛ وأما الذّيال بن الهيثم، فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يَسْرقه فى الأنبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبى العباس ما يشغَله ، وأنّه لو كان مقتفيا آثارَ سَلَفه ، وسالكا مناهجهم ، ومُحْتذيا سبيلَهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ؛ وأمّا أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَوَّام ، وقوله إنّه لا يُحْسِن الجواب فى القرآن ، فأعلمه أنه صبىٌّ فى عقله ، لا فى سنه ، جاهل ، وأنّه إن كان لا يُحْسِن الجواب فى القرآن فسَيُحْسِنه ، اذا أخذه التأديبُ ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء اللهُ .

وأمّا أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمْه أنّ أمير المؤمنين قد عرَف فَحْوى تلك المقالة ، وسبيلَه فيها ، واستدلَّ على جهله ، وآفته بها ؛ وأما الفضل بن غانم ، فأعلمْه أنّه لم يَخْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقلّ من سنة ، وما شجَر بينه وبين المُطَّلب بن عبد الله فى ذلك ، فإنّه مَن كان شأنُه شأنَه ، وكانت رغبتُه فى الدينار والدرهم رغبتَه ، فليس بمُسْتَنْكر أنْ يبيع إيمانَه طمعا فيهما ، وإيثارا لعاجل نفعهما ، وإنّه مع ذلك القائلُ لعلىّ بن هشام ما قال ، والمخالفُ له فيما خالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك ، ونقله الى غيره ؛ وأمّا الزِّيادىّ ، فأعلمْه أنّه كان مُنْتَحِلا لأوّلِ دعىٍّ كان فى الإسلام خُولِف فيه حكمُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وكان جديرا أن يسلُك مسلكه فأنكر أبو حسّان أن يكون مولًى لزياد ، أو يكونَ مولًى لأحد من الناس ، — وذُكر انّه إنّما نُسِب الى زياد لأمر من الأمور — وأمّا المعروف بأبى نصر التمّار ، فإن أمير المؤمنينُ شبّه خساسةَ عقله بخساسةَ متجَره ؛ وأمّا الفضل بن الفرُّخان ، فأعلمْه أنّه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذَ الودائع التى أودعها إيّاه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تربّصا بمن استودعه ، وطمعا فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادُم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وائتمانك إيّاه ، وهو معتقدٌ للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأمّا محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأنّ أمير المؤمنين لو لم يستحلَّ محاربتَهم فى الله ومجاهدتَهم ،

إلّا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم، لآستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للنصارى مثلا؛ وأما أحمد بن شجاع، فأعلمْه أنّك صاحبُه بالأمس، والمستخرِج منه ما آستخرجته من المال الذى كان آستحلّه من مال علىّ بن هشام، وأنّه ممن الدينارُ والدرهم دينُه؛ وأما سَعْدَوَيْه الواسطىّ فقل له : قبّح الله رجلا بلغ به التصنّعُ للحديث، والتزين به، والحرصُ على طلب الرياسة فيه، أنْ يتمنّى وقت المحنة فيقولَ بالتقرّب بها : متى يُمتحَن فيجلسُ للحديث؛ وأما المعروف بسَجَّادة، وإنكارُه أن يكون سمِع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القولَ بأنّ القران مخلوق، فأعلمْه أنّه فى شغله بإعداد النوى، وحكّه لإصلاح سَجّادته، وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيرُه ما أذهله عن التوحيد وألهاه، ثم سلْه عما كان يوسف بن أبى يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريرىّ ففيما تَكشَّف من أحواله، وقبوله الرُّشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وسَخافة عقله ودينه، وقد آنتهى إلى أمير المؤمنين أنّه يتولّى لجعفر بن عيسى الحَسنىّ مسائله، فتقدّم إلى جعفر بن عيسى فى رفضه، وترك الثقة به، والآستنامة إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العُمَرىّ، فإن كان من ولد عمرَ بن الخطاب فجوابه معروف؛ وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم فإنه لوكان مقتديا بمن مضى من سلَفه لم ينتحل النِّحلة التى حَكَيْتَ عنه، وإنه بعدُ صبىّ يحتاج الى تَعَلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبى مُسْهِر، بعد أن نصّه أميرُ المؤمنين عن محْنته فى القرآن، فجَمْجَمَ عنها، وتَلَجْلَج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ ذميما، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيما عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله؛ ومَن لم يرجع عن شركه ممن سمّيتَ لأمير المؤمنين فى كتابك، وذكَره أميرُ المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدى، فاحملهم أجمعين، مُوثَقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهـم فى طريقهم ، حتّى يؤدّيهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلّمهم الى من يُؤمَر بتسليمهم اليه ، لينُصّهم أميرُ المؤمنين ، فإن لم يرجعوا و يتو بوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلّا بالله ؛ وقد أنفـذ أمير المؤمنين كتابه هـذا فى خريطة بُنْدارِيّة ، ولم ينظر به آجتماع الكتب الخرائطية مُعجّلا به ، تقرّبا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما آعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأنفذْ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بُنْدارِيّة مفردةٍ عن سائر الخرائط ، لتعرّف أميرَ المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

(ج) عَهْد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عَهِد طاهرُ بن الحسين الى عبدالله ابنه هذا العهدَ، تنازعه الناسُ وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمونَ، فدعا به وقرئ عليه، وقال: ما أبقى أبو الطيب شيئا من الدين والدنيا، والتدبير والرأى، وإصلاح المُلك والرعية، وحفظ البَيْعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه، وأوصى به، وتقدّم فيه . وأمر أن يُكتَبَ بذلك الى جميع العمال فى نواحى الأعمال . ولما كان هذا العهدُ من الوثائق التاريخية التى لها قيمتُها العلميةُ والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منّا فى ألا يخلو كتابُنا من هذا الأثر العظيم القيمةِ والخطرِ، وهاكه :

«عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلة سَخَطه، وحفظ رعيّتك، والْزَم ما ألبسك الله فى العافية بالذكر لمَعادك، وما أنت صائر اليه، وموقوف عليه، ومسئول عنه، والعمل فى ذلك كله بما يَعصمك الله ويُنجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن اليك، وأوجب عليك الرأفةَ بمن استرعاك أمرَهم من عباده، وألزمك العدلَ عليهم، والقيامَ بحقه وحدوده فيهم، والذبّ عنهم، والدفعَ عن حريمهم وبيْضتهم، والحقنَ لدمائهم، والأمنَ لسبيلهم، وإدخالَ الراحة عليهم فى معايشهم، ومُؤاخذُك بما فرض عليك من ذلك، ومُوقِفُكَ عليه، ومُسَائِلُكَ عنه، ومُثِيبك عليه بما قدّمت وأخّرت، ففرّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويّتك، ولا يُذهِلكَ عنه ذهل، ولا يَشغَلُكَ عنه شغل، فإنه رأس أمرك وملاكُ شأنك، وأوّل ما يوفقك الله به لرشدك، وليكن أوّلَ ما تُلزِم به نفسَك وتُنسبَ اليه فِعالُكَ، المواظبةُ على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قِبَلك فى مواقيتها على سننها فى إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها، وترتل فى قراءتك، وتمكّن فى ركوعك وسجودك وتشهدك، ولْتَصْدُق فيها لربك نيّتك، واحضض عليها جماعة مَنْ معك وتحت يدك، وادأب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذَ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه ، من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وائتمام ماجاءت به الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قُمْ فيه بما يَحِق لله عليك ، ولا تَمِلْ عن العدل فيما أحببت أو كرهت ، لقريبٍ من الناس أو بعيد ، وآثِر الفقهَ وأهله ، والدين وحَمَلَتَه وكتاب الله والعاملين به ، فان أفضلَ ما تزيّنَ به المرء الفقهُ فى دين الله ، والطلب له والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله ، فإنه الدليلُ على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العبادُ معرفةً بالله ، عز وجل ، وإجلالا له ودَرْكا للدرجات العلى فى المعاد ، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك ، والأَنَسة بك والثقة بعدلك . وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلّها فليس شىء أبينَ نفعا ولا أحضرَ أمنا ولا أجمعَ فضلا من القصد ، والقصد داعيةٌ الى الرشد ، والرشدُ دليلٌ على التوفيق ، والتوفيق منقادٌ الى السعادة ، وقِوامُ الدين والسنن الهادية بالاقتصاد ، فآثره فى دنياك كلها ، ولا تُقصّر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ومَعَالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البر والسعى له ، اذا كان يُطلَبُ به وجهُ الله ومرضاته ، ومرافقة أوليائه ، فى دار كرامته .

واعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ، ويحصّن من الذنوب وأنك لن تحوط نفسك ومن يليك ، ولا تستصلحُ أمورك ، بأفضلَ منه ، فأته ، واهتدِ به تتم أمورك ، وتَزِد مقدرتك ، وتصلح خاصّتك وعامّتك ، وأحسِن الظنَّ بالله عز وجل ، تستقم لك رعيّتُك ، والتمس الوسيلةَ اليه فى الأمور كلها ، تَسْتدم به النعمةَ عليك ، ولا تُنهِضْ أحدا من الناس ، فيما توليّه من عملك ، قبل تَكَشُّف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثمٌ ، واجعل من شأنك ، حسنَ الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوءَ الظن بهم ، وارفُضه عنهم ، يُعِنْكَ ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ، ولا يجدنّ عدوُّ الله الشيطانُ فى أمرك مغمزًا ،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهْنِكَ فيدخلُ عليك من الغمّ، فى سوء الظن، ما يُنغّص عليك لذاذةَ عيشك، وٱعلم أنك تجد بحسن الظن، قوةً وراحةً، وتكْفَى به ما أحببتَ كفايته من أمورك، وتدعو به الناسَ الى محبّتك، والٱستقامة فى الأمور كلها لك. ولا يمنعك حسنُ الظن بأصحابك، والرأفة برعيّتك، أن تستعمِلَ المسئلة والبحثَ عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرعية، والنظر فيما يُقيمها و يُصلحها، بل لِتكُنِ المباشرةُ لأمور الأولياء، والحياطةُ للرعية، والنظر فى حوائجهم، وحمل مؤوناتهم، آثرَ عندك ممـا سوى ذلك، فإنه أقومُ للدين، وأحيا للسنة، وأخلِص نيّتكَ فى جميع هذا، وتفرّد بتقويم نفسك، تفرّدَ من يعلم أنه مسئولٌ عما صنع، ومجزيّ بما أحسن، فإن الله جعل الدينَ حِرزًا وعزًّا، ورفع من ٱتبعه وعزّزه، فاسـلُك بمن تسوسه وترعاه، نهج الدين، وطريقةَ الهدى، وأقِمْ حدودَ الله فى أصحاب الجرائم على قدر مَنازلهم، وما ٱسـتحقّوه، ولا تُعطّل ذلك، ولا تَهاون به، ولا تؤخّر عقوبةَ أهل العقوبة، فإن فى تفريطك فى ذلك، لمـا يُفسدُ عليـك حسنَ ظنك، واعزِم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة، وجانِب الشُّبهَ والبدعات، يسلَمْ لك دينُـك، وتَقُمْ لك مروءتك، وإذا عاهدت عهدا فَفِ به، واذا وعدتَ الخيرَ فأنجزه، وٱقبل الحسنةَ، وٱدفع بها، وأَغمِضْ عن عيب كل ذى عيب من رعيتك، وٱشدُدْ لسانَكَ عن قول الكذب والزور، وأَبغِض أهـله، وأَقصِ أهلَ النميمة، فإن أوّل فسـاد أمرك فى عاجل الأمور وآجلهـا، تقريبُ الكذوب، والجرأةُ على الكذب، لأن الكذبَ رأسُ المآثم، والزور والنميمةَ خاتمتُها، لأن النميمةَ لا يسلمُ صاحبُها، وقائلُها لا يسلم له صاحبٌ ولا يستقيم لمطيعها أمرٌ، وأَحبَّ أهلَ الصدق والصلاح، وأعِن الأشرافَ بالحقّ، وواصل الضعفاءَ، وصِلِ الرَّحمَ، وٱبتـغ بذلك وجهَ الله، وعزّة أمره، وٱلتمس فيه ثوابه والدارَ الآخرة، وٱجتنب سوءَ الأهواء والجورَ، وٱصرِفْ عنهما رأيكَ، وأظهِر مر ذلك لرعيتك، وأنعِمْ بالعدل سياستَهم، وقم بالحق فيهم، و بالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى، وٱملِكْ نفسَك عند الغضب، وآثِرِ الوقارَ والحلمَ، وإياك والحِدّةَ والطيش والغرور فيما أنت بسبيله، وإياك أن

تقول : إنى مُسَلَّطٌ أفعل ما أشاء فان ذلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأى، وقلّة اليقين بالله وحده لاشريك له ، وأخلِصْ لله وحده النية فيه ، واليقين به ،وآعلم أن الملكَ لله، يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء ولن تجدَ تغيرَ النعمة ، وحلولَ النِقمة، الى أحدٍ أسرعَ منه،الى حَمَلة النعمة، من أصحاب السلطان ،والمبسوطِ لهم فى الدولة، اذا كفروا بنعم الله وإحسانه وآستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدّخر وتكنزُ، البرَّ والتقوى ، والمعدلةَ، وآستصلاحَ الرعية وعمارةَ بلادهم، والتفقّدَ لأمورهم ، والحفـظَ لدمائهم، والإغاثة للهوفهم ، وآعلم أن الأموال اذا كثُرت وذُخرت فى الخزائن، لا تُثمر، وإذا كانت فى إصلاح الرعية، وإعطاء حقوقهم، وكفّ المؤونة عنهم، نَمت وربَت، وصلَحت به العامّة، وتزيّنت به الولاة، وطاب به الزمان،وآعتُقد فيه العزّ والمنفعة، فليكن كنْزُ خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله، ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قِبَلك حقوقَهم، وأوفِ رعيّتك من ذلك حِصَصهم ، وتعهّد بما يصلِح أمورَهم ومعايشهم، فإنك اذا فعلتَ ذلك قرّت النعمة عليك ، وآستوجبتَ المزيد من الله ، وكنت بذلك على جِباية خَراجك، وجَمْع أموال رعيّتك وعملك أقـدر، وكان الجميع لمـا شمِلهم من عدلك وإحسانك أسلَس لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردتَ، فاجهَد نفسَك، فيما حدّدتُ لك فى هـذا الباب، وَلْتَعظُمْ حِسْبتُك فيه ، فإنما يبقى من المـال، ما أُنفِق فى سبيل حقه، وآعرِف للشاكرين شكرَهم ، وأثِبهم عليه، وإياك أن تُنسيك الدنيا وغرورُها هَوْلَ الأخرة ، فتتهاوَن بمـا يحق عليك ، فان التهاون يوجب التفريط والتفريطَ يورث البَوارَ، وليكن عملُك لله، وفيه تبارك وتعالى ، وآرجُ الثواب، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته فى الدنيا، وأظهر لديك فضلَه، فاعتصِم بالشكر، وعليه فاعتمد، يَزِدك الله خيرا وإحسانا . فان الله يثيب بقَدْر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين، وقضاء الحقّ فيما حمل من النّعم ، وآلبَس من العافية والكرامة، ولا تحتقرن ذنبًا، ولا تمـالئن حاسدا، ولا ترحمـن فاجرا، ولا تصِلَنّ كفورا، ولا تداهنن عدوا ، ولا تصدّقنّ نمّـاما ، ولا تأمَنَنّ غدّارا، ولا توالِيَنّ فاسقا، ولا تتبعنّ غاويًا، ولا تحمدنّ

مُرائيـا ، ولا تحقرن إنسانا ، ولا تردّن سـائلا فقيرا ، ولا تجيبن باطلا ، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تُخلفن وعدا ، ولا تذهبن فخرا ، ولا تظهرن غَضَبـا ، ولا تأتين بَذَخًا ، ولا تمشين مَرَحا ، ولا تركبن سفهًا ، ولا تُفرِطن فى طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عِيانا ، ولا تُغْمِضن عن الظالم رهبة منه ، أو مخافةً ، ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيـا ، وأَكْثِر مشاورة الفقهاء ، وٱستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهـل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدْخِلنّ فى مشـورتك أهل الدّقة والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهـم ، وليس شىء أسرع فسادا لمـا استقبلتَ فى أمر رعيّتك من الشُّحّ ، وٱعلم أنك اذا كنت حريصا ، كنت كثير الأَخْذ ، قليلَ العطيّة ، واذا كنت كذلك لم يَستَقم لك أمرك إلا قليـلا ، فان رعيّتك انمـا تعتقد على محبّتك بالكَفّ عن أموالهم ، وترك الجور عليهم ، ويدوم صفاءُ أوليائك لك ، بالإفضال عليهم ، وحسن العطيّة لهم ، فاجتنب الشـحّ ، وٱعلم أنه أوّل ما عَصى به الانسـانُ ربّه ، وان العاصى بمنزلة خِزْى ، وهو قول الله عز وجل ، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فسهّل طريقَ الجود بالحق ، وٱجعل للسلمين كلهم من نيّتك حظا ونصيبا ، وأَيْقِنْ أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدده لنفسك خُلُقا ، وٱرْضَ به عملا ومذهبا ، وتفقّد أمور الجند فى دواوينهم ، ومكاتبهم ، وأدرِر عليهم أرزاقهم ، ووسّع عليهم فى معايشهم ، ليُذهِب بذلك اللهُ فاقتهم ، ويقوّم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهـم فى طاعتك وأمرك ، خُلُوصا وانشراحا ، وحَسْبُ ذى سلطان من السـعادة ، أن يكون على جنده ورعيّته ، رحمة فى عدله وحيطته وإنصافه وعنايته ، وشفقته وبِرّه وتَوْسعَته ، فزايل مكروه إحدى البَلِيّتين ، باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تَلْق ان شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا .

وٱعلم ان القضاء من الله ، بالمكان الذى ليس مثله شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلُحُ الرعيّة ، وتُؤَمّن السبلُ ، وينتصِف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهـم ، وتحسُن المعيشـة ، ويُؤدّى حقّ

الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجرى السنن والشرائع، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعـدل فى القضاء. وآشـتد فى أمر الله وتورّع عن النّطف وآمض لإقامة الحـدود، وأقلل العجلة، وآبعـد من الضجر والقلق، وآقنع بالقسم، ولتسكن ريحك، ويقرّ جدّك، وانتفع بتجربتك، وانتبه فى صمتك، واسدد فى منطقك، وأنصف الخصم، وقف عنـد الشبهة، وأبلغ فى الحجّة، ولا يأخذك فى أحد من رعيّتـك محاباة ولا مجاملة، ولا لوم لائم، وتثبّت وتأنّ، وراقب وآنظر، وتدبّر وتفكّر، وآعتبر وتواضع لربك، وارأف بجميع الرعيّة، وسلّط الحقّ على نفسك، ولا تسرعنّ الى سفك دم، فان الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكًا لها بغير حقها، وآنظر هـذا الخراج الذى آستقامت عليه الرعيّة، وجعله الله للإسلام عزّا ورفعة، ولأهله سـعة ومنعة، ولعدوّه وعدوّهم كبتا وغيظا، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلّا وصـغارا، فوزّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعموم فيـه، ولا تدفعن منـه شيئا عن شريف لشرفه، وعن غنيّ لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصّتك، فلا تأخذن منـه، فوق الاحتمال له، ولا تكلّفن أمرا فيه شطط، وآحمل الناس كلهم على مُرّ الحق، فان ذلك أجمع لألفتهم، وألزم لرضى العامة، واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا، وراعيا، وانما سمّى أهل عملك رعيّتك، لأنك راعيهم، وقيّمهم، تأخذ منهم ما أعطوك، من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقـه فى قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم، فاستعمل عليهـم فى كور عملك، ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخـبرة بالعمل، والعـلم بالسياسة والعفاف، ووسّع عليهم فى الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت، وأسند اليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرفنّك عنه صارف، فإنك متى آثرته، وقمت فيه بالواجب، آستدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحدوثة فى عملك، وآستجررت به المحبة من رعيّتك، وأعنت على الصـلاح، فدرّت الخـيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتـك، وظهر الخصب فى كورك، وكثر خراجك، وتوفّرت أموالك، وقويت بذلك على آرتباط جنـدك، وإرضاء العامة، بإفاضـة العطاء فيهم من

نفسك، وكنتَ محمودَ السياسة، مَرضيَّ العدل فى ذلك عند عدوّك، وكنت فى أمورك كلها، ذا عدل وقوة، وآلة وعُدّة، فنافس فى هذا، ولا تقدّم عليه شيئا، تُحمد مَغَبّة أمرك، ان شاء الله، وآجعل فى كل كورة من عملك أمينا، يخبرك أخبار عُمالك، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله، مُعَاينٌ لأمره كله، وإن أردت أن تأمره بأمر، فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع، والنُّصح والصُّنع فأْمضه، وإلا فتوقّف عنه، وراجع أهل البصر والعلم، ثم خُذ فيه عُدّته، فإنه ربما نظر الرجل فى أمر من أمره، قد واتاه على ما يهوى، فقوّاه على ذلك وأعجبه، وان لم ينظر فى عواقبه أهلكه، ونُقض عليه أمره، فاستعمل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعد عوْن الله بالقوة، وأكثِر آستخارة ربك، فى جميع أمورك، وآفْرَغ من عمل يومك، ولا تؤخّره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لغدٍ أمورا وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذى أخّرت، وآعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بما فيه، واذا أخّرت عملَه آجتمع عليك أمر يومين، فشغَلك ذلك حتى تُعرِض عنه، فاذا أمضيتَ لكل يوم عمله، أرَحْتَ نفسك وبدنك، وأحكمت أمور سلطانك، وانظُر أحرار الناس وذوى الشرف منهم، ثم آستيقن صَفاء طويّتهم، وتهذيب مودّتهم لك، ومُظاهرتهم بالنّصح والمحافظة على أمرك، فاستخلصهم، وأحسن اليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممّن قد دخلتْ عليهم الحاجة، فاحتمل مؤونتهم وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا لخلّتهم مَسًّا، وأفرد نفسك للنظر فى أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، والمحتَقَر الذى لا علم له بطلب حقه، فاسأل عنه أخفى مسألة، ووكّل بأمثاله أهلَ الصلاح من رعيّتك، ومُرْهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم، وتعاهد ذوى البأساء ويَتَاماهم وأراملهم، وآجعل لهم أرزاقا من بيت المال آقتداءً بأمير المؤمنين أعزه الله فى العطف عليهم والصِّلة لهم، ليُصلح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركة وزيادة، وأجْرِ للأضراء من بيت المال، وقدّم حَمَلة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، فى الجراية على غيرهم، وٱنصُب لمرضى المسلمين دُورا تؤويهم، وقُوّاما يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يُؤدّ ذلك إلى سَرَف فى بيت المال، وٱعلم أن الناس اذا أُعْطُوا حقوقهم، وأفضلَ أمانيهم لم يُرضِهم ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رَفْع حوائجهم إلى وُلاتهم، طمعا فى نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما بَرِم المتصفِّح لأمور الناس لكثرة ما يَرِد عليه، ويشغَل فكره وذهنه، ومنها ما يناله به مؤونة ومشقة، وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل، كالذى يستقبل ما يقرّبه الى الله، ويلتمس رحمته به، وأكْثِر الإذن للناس عليك، وأبْرِز لهم وجهك، وسكِّن لهم أحراسك، وٱخْفِض لهم جناحك، وأظهِر لهم بشرك، ولِنْ لهم فى المسألة والمنطق، وٱعطِف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيتَ فأَعطِ بسماحة وطيب نفس، وٱلتمس الصنيعة والأجر، غير مكدّر ولا منّان، فإن العطيّة على ذلك تجارة مُرْبِحة ان شاء الله، وٱعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى من قبلك، من أهل السلطان والرياسة، فى القرون الخالية والأمم البائدة، ثم ٱعتصم فى أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبّته، والعمل بشريعته وسنّته وإقامة دينه وكتابه، وٱجتنب ما فارق ذلك وخالفه، ودعا الى سَخَط الله، وٱعرف ما تجمع عُمّالك من الأموال، ويُنفقون منها، ولا تجمع حَراما، ولا تُنفق إسرافا، وأكْثِر مُجالسة العلماء، ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك ٱتّباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرمُ دُخَلائك وخاصّتك عليك من اذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هَيبتُك من إنهاء ذلك اليك، فى سرّ، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك، وٱنظر عمالك الذين بحضرتك، وكتّابك فوقّت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكُتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمّالك وأمرِ كورك ورعيّتك، ثم فرِّغ لما يُورده عليك من ذلك سمعَك وبصرك، وفهمك وعقلك، وكرِّر النظر اليه والتدبير له، فما كان موافقا للحزم والحق فامضه وٱستخر الله فيه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسألة عنه،

ولا تمنُن على رعيّتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم، ولا تقبَل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعَوْن فى أمور أمير المؤمنين، ولا تَضَعنّ المعروف إلا على ذلك، وتفهّم كتابى اليك، وأكثر النظر فيه، والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره، فإن الله مع الصَّلاح وأهله، وليكن أعظم سِيرتك، وأفضل رغبتك، ما كان لله رِضًا، ولدينه نظاما، ولأهله عزّا وتمكينا، وللذمة والمِلّة عدلا وصلاحا، وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك، ورشدك وكلاءك، وأن ينزل عليك فضله ورحمته، بتمام فضله عليك، وكرامته لك، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا، وأوفرهم حظا، وأسناهم ذكرا وأمرا، وأن يُهلك عدوّك ومن نَاوأك وبَغى عليك، ويرزقك من رعيتك العافيةَ، ويحجُز الشيطان عنك ووساوسه، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوّة والتوفيق، إنه قريب مجيب .

(د) رســالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المُبايعين على الحقّ، والناصرين للدّين، من أهل خُراسانَ وغيرهم من أهــل الإسلام : سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يَحْمَد اليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو، ويسأله أن يُصلّى على محمد عبده ورسوله .

أما بعــد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذى العــزّ والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمُتَقدّم بالمنّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل آستحقاقهم لَمثُوبَته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى جعل ما أَوْدَع عباده من نعمته، دليلا هاديا لهم الى معرفته، بما أفادهم من الألباب، التى يَفْهَمون بها فصلَ الخطاب، حتى آقتنَوْا عِلْمَ موارد الآختبار، وثقِفوا مصادر الآعتبار، وحكموا على مابطَن بما ظهَر، وعلى ما غاب بما حضَر، وآستدلّوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومُتْقَن صَنْعته، وحاجة متزايل خَلْقه ومُتواصله، إلى القوم[1] بمــا يَلُمّه ويُصْلِحُه، على أن له بارئًا أنشأه وآبتدأه، ويَسّر بعضه لبعض . فكان من أقــرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم فى تَصَرُّف أحوالهم ، وفنون آنتقالهم ، وما يَظْهرون عليــه من العجز عن التأتى لمــا تكاملتْ به قُواهم، وتمّت به أدواتُهم، مع أثر تدبيرِ الله عزّ وجل وتقــديره فيهــم ، حتّى صاروا إلى الخلقــة المُحْكَمة، والصورة المُعْجِبة، ليس لهم فى شىءٍ منها تَلَطّف يَتَّمونه، ولا مقصِــدٌ يَعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ . ثم ما يَتفكّرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنُّجوم مسخّرات، على مسيرٍ لا يَثْبت العالَم إلّا به من تصاريف الأزمنــة التى بها صلاح الحَرث والنسل، وإحياء الأرض، ولِقاح النبات والأشجار، وتعاوُر الليل والنهار، ومر الأيام والشهور والســنين التى تُحْصى بها الأوقات ، ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طَبَقات السقف المرفوع، والمهاد الموضوع، باختــلاف أجزائه وآلتئامها، وخرق الأنهار، وإرساء

(١) القوم كالقيام مصدر قام .

الجبال . ومن البيان الشاهد ما أخبرَ الله عز وجل به من إنشائه الخلقَ ، وحدوثه بعد أنْ لم يكن مترقياً فى النماء ، وثَباته إلى أجلَه فى البقاء ، ثم مَحاره مُنْقضيا الى غاية الفَناء . ولو لم يكن له مُفتتَحُ عدد ولا مُنْقطَع أمد ، ما ازداد بنشوء ، ولا تَحيَّفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ؛ لأنّ ما لا حدّ له ولا نهايةَ ، غيرُ ممكن الاحتمال للنقص والزيادة . ثمّ ما يوجد عليه منفعتُه من ثبات بعضِه لبعض ، وقِوامِ كلّ شيء منه بما يَسّر له ، فى بدء استمداده إلى منتهى نَفاده ؛ كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ . وقال عز وجل : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ . وكلّ ما تقدّم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته فى سمواته التى بنَى ، وأطباقِ الأرض التى دَحا ، وآثارِ صُنعه فيما برَأ وذرَأ ، ثابتٌ فى فِطَر العقول ، حتى يُسَخِّر أولى الزيغ ما يُدْخِلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد . جلّ عما يُشْركون . ولولا توحّده بالتدبير ، عن كلّ مُعين وظهير ، لكان الشركاءُ جُدراءَ أنْ تختلف بهم إرادتُهم فيما يَخلُقون ، ولم يكن التخلفْ فى إثباته وإزالته ليخلو من أحد وَجهَيْه ، وأيّهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه وبرَأه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علوا كبيرا ؛ كما قال سبحانه : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ . ثمّ من عظيم نعمة الله عز وجل على خَلْقه افتقادُه إياهم ، وأنه يُسدّدهم ويَدُلّهم على منافعهم ، ويُجنّبهم مضارَّهم ، ويَهديهم لِما فيه صلاحُهم ، ويُرغّبهم فى المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل ، الذى جعله عِصْمةً لهم وحاجزًا بينهم .

ولولا ما تقدّم به من تلافيهم واستدراكهم بفضل رحمته ، لاجتاحهم التلُف ، لقصور معرفتهم عن التأتّى لأقواتهم ومعايشهم ، ولم يكونوا ليَقْتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بنَوْا عليه من الجمع والرغبة ، ولتَهالكوا ببغى بعضِهم على بعض ، وعدوان قويّهم على ضعيفهم ، ولكنّه بعد تعريفه إيّاهم مُلْك قدرته وجلالةَ عزّته ، بعث إليهم أنبياءه ورسله مُبشّرين ومُنذرين ،

بالآيات التى لا تنالها أيدى المخلوقين، فرضوا بما قسط بينهم، وآرتدعوا عن التباغى والتظالم، لما وعدوا من الثواب الجسيم وخوفوا من العقاب الأليم، ولم يكونوا ليطيعوا أمرا لآمر ولا نهيا لناه، إلّا بحجّة يتبيّن بها الحقّ على من خالفه من المبطلين، وتخويف يتّقون به مقارفة ما حرّم عليهم، ورجاء يتجشّمون له مؤونة ما تعبّدوا به . فافتتح الله عز وجل بأبيهم آدم عليه السلام، فعلّمه الأسماء كلّها، وأمر الملائكة بالسجود له — كما آقتص فى وحيه المنزل — وكرّم ولده وفضّلهم، فقال جل وعز : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ . وجعل ما فطرهم عليه من العطف على ذراريهم وأبنائهم سبباً لما أراد من بقائهم وتناسلهم، وما آختصّهم به من العلم والفهم حجّة عليهم، ليمتحن طاعتهم، ويبلوهم أيّهم أحسن عملا . ولم تزل رسل الله عز وجل الى خلقه تترى بالنور الساطع، والبرهان القاطع، لا يجدون لما يوردون عليهم من الحق القاهر مردّا ولا مدفعا، لقول الله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . فلم يجد المكذّبون مساغا الى دفع ما أقيم عليهم من لازم الحجّة، إلّا المعاندة والمجاحدة . وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم، يبعثون فى أعصار الحقب، نذرا للامم، حتى ختمهم الله عز وجل بالنبيّ الأمّيّ محمد صلى الله عليه وسلم، فبعثه فردا وحيدا لا عاضد له ولا رافد، إلى قوم يعبدون أصناما بكما، وحجارة صمّا، فكذّب به القوم الذين بعث فيهم أوّل ما دعاهم، ورامه ملوك أقطار البلاد بتوجيه الأجناد، ومرافدة القوّة والعتاد وبغى الغوائل، ونصب الحبائل، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به، إذ يقول تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . ثم جاهد بمن أطاعه من عصاه، وبمن آتبعه من خالفه، حتّى أعزّ الله كلمته، وأظهر دعوته، وأكمل لعباده دينهم الذى آرتضى لهم . فلمّا آختار الله له ما لديه، وآختصّه بما عنده : من النعيم المقيم، والجزاء الكريم، بعد آستقامة الدين

ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أدانيه ولُحمته، لإقامة الشرائع المُفترضة، وإنفاذ حكم الله المنزّل، واقتفاء السنّة المأثورة وحفظا له فى قرابته ومجيبى دعوته، وإتماما لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وانجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذى اصطفاه وارتضاه. وكان اختيار أُولى الفضل من لُحْمته وعصبته لإرث خلافته، ومن عظيم الزُّلَف التى رغب الى الله فيها أنبياؤه، وبما اقتصّ فى مُنْزل وحيه، واختص تبارك وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودّته فى القربى جزاءه ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة؛ فكانت فضيلتهم عزيمةً من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ألزمه تأديته الى خلقه وألزمهم أداءه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم وإذهابه الرجس عنهم، على اصطفائه لهم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حقَّ الوراثة فى محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرَن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلّهم من النباهة والصيت بالمحلّ الذى أعلى به أمرَهم ورفع به ذكرهم، لما أحب من النبيين فى الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الأئمّة المُقلَّدون أمرَ عباده خاملةً أنسابُهم، متقطِّعة أسبابُهم، غيرَ مخصوصين بفضيلة يَرَوْنهم بها دون غيرهم، لم تعد طَلِبَتُهم عقْدَ الخلافة لهم، وأنْ تكون من المُفْترضات على كافّة الأمة، أو على بعض دون بعض؛ فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس فى اجتماع آرائهم مع تفرقهم واختلافهم طمعٌ آخرَ أيّامِ الدهر. وإن كان الى خاصةٍ دون عامةٍ، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال إلى مثل ما احتاجوا اليه فى أئمتهم، إذ لم يكن أهل الارتياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطئوا على اتفاق،

لنفاد آجالهم قبل بلوغهم غاية الاجتهاد فى الفحص والتكشيف ، وحاجتهم الى اختبار البُلدان ، وتمحيص أُولي الفضائل بالامتحان ، وما هو حاق عليهم من الشبَه فى اختيارهم ، والاختلاف فيمن عَسَوْا أن يجتبوه و يُقدِّموه ، حتّى تتهالك الرَّعيّة بتظالمها بينها ، و يَطْرُق من يليها من الأمم إيّاها ، إذ لا ذائد عنها ولا مُحامىَ . فإذا ألزمت الأمّةَ الحاجةُ إلى نَصْب الحكّام لإقامة الدين ، وتقسيط الحقوق من المسلمين ، ومُجاهدة عدوّهم من المشركين ، لم يكن لهم فى الإمام عليهم مَجازٌ إلى التخلص من حقّه إليهم ، ولا ريبَ عند المعرفة برأفة الله ورحمته ، ولطفه وحكمه ، فى دفعه عن عباده ما لم يجعل فى حيلتهم له وُسْعا ، ولا فى حيلتهم له دَرْكا ، وكفايته إيّاهم ما يُعْجزهم من البحث والتنقيب عن ولاة أمرهم ، بنَصْبه إيّاهم ، وما رفعهم إليه من الدرجة التى أعلاها وأسناها ، إذ وصَل نسبَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترض مودّتهم على خلقه ، ولم يَشِنهم جهلهُم للغرض الذى لزِمهم له ، ولم يَجِب عليهم فرضٌ فى معرفة مَن سواهم . ولم يزل سياقُ أئمة الهدى مُطّردا ، ونظامُهم مُتّصلا ، يتلقاه كابرٌ عن كابر ، و يؤدّيه أوّل الى آخر ، حتّى تناهى الى أمير المؤمنين ، وهو حالٌّ دار دعوته ، و بين أنصاره من أهل خُراسان ، فنظر به خيرَهم ، وعرَفوا ما تصرّفت به أحوالُهم ، وظهر لهم من بيان حُجّته على مَن نازعه فى الأمر ، وشاهدوا من إبلاغه فى العذر ، واستظهاره بالتأنّى والصبر ، ما أزاح عنهم الشبهَة وكَشَط الحيرة ، حتّى استزالوا(١) نهوضَه بحقّه ، وخافوا الزيغ على أديانهم فيما أعطَوْه من صَفقة أيمانهم ؛ وهو ماضٍ على عادته ، مستديمٌ للوادعة ، مُتَلوِّمٌ على المراجعة ، بالغ غايةَ ما فى وُسْعه من الرخصة فى دفع الولاية التى نَهَنَهَ بها الرَّعيّة ، حتى ضاق عليه فى دينه تركُ القيام بما أنهضه الله به من ثقلها وقلّده من حمْلها ، وخاف المخلوعُ فانبعث بالشِّرّة والغِرّة ، فتناول أولياءَ الحق باغيا طاغيا ، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والحُجّة التى يَجِبُ لها قلبُه ، و يُفَتُّ بها فى عضده ، و يقبل الله ما شرّفكم به من النصر والغَلَبة فيه التى جعلها الله للمتقين . فاجتمع

(١) كذا فى الأصل .

لكم معشرَ أهل خُراسان فى دولة أمير المؤمنين ثلاث خِلال آختصّكم الله بفضيلتها، وسنِيّ مراتبها، دون ثلاث شَمِلَتْكم وغيركم .

أما الأولى من اللّواتى خصّكم الله بهنّ، فما تقدّم لأسلافكم من نُصْرة أهل بيت النبىّ، والقائمين بميراثه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية، فما آثركم الله به من نُصْرته فى دعوته الثانية .

وأما الثالثة، فما تقدّمتم به من صحة ضمائركم، ومحض مُناصحتكم .

وأمّا الثلاث اللواتى هنّ لكم ولغيركم :

فمنهنّ ما أكّد الله لأمير المؤمنين فى أعناق المسلمين : من العهد الذى أخذ إصْرَه، وألهمهمُ الوفاء به والتمسّكَ بوثائق عصمته، عند محاولة المخلوع ماحاول من الإعلان بالرّدّة، وآلتمس من تبديل معالم الدين وتَعْفية آثاره، فلم يُلْفِ الرعيّة سُدًى مهمَلين، لا جامع لأمرهم، ولا ضامَّ لنشرهم .

ومنهنّ ما أفادكم الله وإيّاهم من العبر، عند حاول الغِيَر بمَنْ غَدَر وخَتَر، تذكرةً لأولى النُّهى، وحجةً بالغةً على من أدبر وتولّى، ليهتدى متحيِّرٌ ويتّعظ مُزْدَجِر، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومنهنّ آجتماع أهل الفضل من المسلمين : ممن لم يكن له نَصْر ولا أَزْر فى الدعوة الأولى على المشايعة فى الدعوة الثانية؛ فأصبح دُعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمِصْرين ومدينة السلام والمشرق والمغرب ممن غَارَ أو أنجد من المتمسّكين بذممهم المُوفين بنذورهم، من إخوانكم؛ ؛ إن كان الله قد قدّمكم فى الأمرين جميعا بتفوّق حالكم على غيركم، يعتدّون من معاضدتكم ومكانفتكم بما جعله الله عزّ وجلّ أُلفةً لكم ومَوَدّة بينكم، يبيد بها ما كان الشيطان يَنزغ به بين أهل التباعد فى الأنساب، والتنائى فى الأوطان من إيقاع العداوة والبَغْضاء، والانطواء على الأحقاد والدِّمن، وطلب تقديم الإحن، وصار أهل السمو الى الدرجة العليا والاعتصام بالعُرْوَة الوُثقى من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، منشرحةً صدورُهم بمكانفته، مُنْبسطةً أيديهم بمُعاونته على حقّه،

منفسحةً آمالهم فى إذكاء ناره على عدوّه والإثخان فى بلاده وآفتتاح ممتنع حُصونه، بما جمعهم الله عليه من الأُلفة، ورفع عنهم من الحميّـة والعصبية، راجين عودتهم الى أحسن مامضى عليه سلفُهم، فى عهد نبيّه صلى الله عليه وسلم، من سلامة الصدور، وصلاح ذات البين، وآجتماع القُوَى على مجاهـدة مَن شاقّهم؛ قد أفرد الله عنهم نُفْرة التحارب والتجاذب، وجعل ما كان يسعى به بعضُهم من الإعداد لبعض، زيادة فى ريحهم، وحدّا فى شوكتهم، لائتـلافهم فى دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصـدق الضمائر، ونفـاذ البصائر. والى الله يرغبَ أميرُ المؤمنين فى إعانتـه على صـالح نيتـه، وتبليغه منتهى سُؤْله وغايةِ همّته، فى اعزاز دينه وإذلالِ مَن صدّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب.

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تَذَكّر ما كانتْ عليـه الحال قبلها، فاستَديموا الإفاضــة فيما رفع الله من خَساستكم وأعلَى من أقداركم، بنُصْرة أهل بيت نبيّكم صلى الله عليه وسلم، وما أبلاكم اللهُ فى الدعوة الأولى ممّا لا يؤدَّى حقُّه إلا بعون الله وتوفيقه، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه، فأنالهم رغائب الأقسام وسَنِيَّ الحُظُوات، ورفع درجهم ودرج خلوفهم وأعقابهم من بعدهم، بعدَ إذ هم مُسْتَضْعفون يخافون أن يتخطّفهم الناس، مُذْعنون بقهر عدوّهم واستئثاره عليهـم، ثم لم يَلبثوا أن صاروا الى الحال التى يَرَوْنهم بها من الغبْطة والبَهْجة، إلّا أنّهم أخذوها بحقِّها، وكانت فى أيدى الظلمة من أهل بيت اللعْنَة وأتباعهم بحُدْه(١) الباطل ومِحْنة الابتـلاء، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. وليس أحد منكم بخارج من المحنة بمـا أُلْبِس من النعمــة، وإن كنتم أهلَها الآخذين لهـا بحقّها، بل الذى يلزمكم آستدامتُها والقيامُ بحفظها، على حَسَب ما أولاكم الله منها، فربّما كان الذى يُعْقِب أهلَها من الغفلة والآغترار ويُلْهيهم بها من حبورها وسرورها، أعظمَ إثما وحُوبًا ممـا يخاف على أهـل البَطالة والصبر من ضـعف العزم وقلّة الصبر، لمـا يَستولى عليهم من آستكانة الذّلة، والآغترار بالتقصير، والفزع الى ربهـم فى تنفيس كُرَبِهم، فإنه

(١) كذا فى الأصل.

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ . فحاجتكم اذا أنجح الله سعيكم وأظفركم بطلبتكم ، الى حياطة ما أودعكم الله من مننه وحراسة ما آتاكم من فضله ، بالشكر الممترى للمزيد . فتعهّدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسكم بتذكّر ما سهّل الله لكم من الحزونة ، وذلّل لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُرّاق الملة ومخالفى أهل القبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصبحتم بمنّ الله عليكم حُماةَ الدين ، وأنصارَ الأئمة الراشدين ، وحصونَ كافّة المسلمين ، بعد ما اجتثّ الله بكم قُرونَ النِّفاق ، وأباد بكم صناديدَ الضلالة ، وشرّد من لم تستحمله سيوفكم ، وأضرع اليكم مَن أذْعن واستسلم ، وقد استشرفكم معشرَ شيعة أمير المؤمنين أهلُ الشنآن ، ولاحظوكم بأعين الحسد والمنافسة ، فبين ذلك مُجْهِرٌ مُعالِنٌ ، ومُسْتَتِسرٌ مداهن ، وداخلٌ فى عدادكم ، وواجٌ فى سوادكم ، يرى أمْنَه بين ظهوركم ، فطعنُه عليكم فى دولتكم بريبة التمويه وخُدَع التشبيه ، أيسرُ عليه كُلفةً وأعظمُ فيكم جرحا ونكاية ؛ فتوقَّوْا هذه الطبقةَ أشدّ التوقى ، فإنّ أكثر مَن يلجأ الى استباحة الحيلة ، مَن عجز عن المباداة والإصحار ، وعند ظهور الحازم وغلبته يحترز من لطيف الخُدع وخفىّ الاستدراج .

واحذروا معشَرَ شيعة أمير المؤمنين من استمراء الطراءة ، والركون الى راحة الدّعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله ، وأورثتهم عواقبُه طول الندم والحَسْرة ، فإنّكم قد كنتم فى حال المراقبة لعدوّكم ، والخوف لبائقته مُتيقّظين مُتحفّظين لما كان يرومكم به من خَتْله وحيله ، ثمّ أفضيتم الى الجِمّ وقد جهدكم السعى ومسّكم النصَب ، وسيُلقى الشيطان فى أمانيكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم ، ويجد من ضَعْف العزائم مُعينا داعيا الى اغتنام الخفض ، والإخلاد الى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عاينتم من الاعتبار ، وتمثّلوا مواضىَ الآثار فيمَنْ سلف من القرون الخالية ، وما أفضتْ به اليه العزّةُ من زوال النعم ووقوع الغِيَر ، فإنّ جميع ما خوّلكم الله وأفادكم مُرتَهَنٌ بما ألزمكم من حياطته واستنمائه ، فقد وجبتْ عليكم الحُجّة بما حضّكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنّة بما هداكم اليه ، وأراكم من آياته ومُثُلاته فيمن خلا قبلكم مافيه أبلغُ الإعْذار والإنذار لكم . ومن ٱجتمع له اقتناءُ صواب من تقدّمه الى ما ينبعث من نفسه ، فكأنّه قد ٱختبر بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ، ويستزيد ما يفتح لُبّه ورأْيَه ، وأَيْقنُوا أنّكم لن تصلوا الى مَن سواكم ، ممن هو أعسرُ طاعةً عليكم وأعذرُ بمعصيتكم ، حتّى تبدءوا باستصلاح أنفسكم ، وأنّه لن يرجى لكم القوّة على مُجاهدة عدوّكم حتّى تقوَوْا على مجاهدة أهوائكم ، فإنّ على كل امرئ ريبةً من أمره ، وغطاء من غيبة ، لايكشفه إلا صحّة المعرفة ، والإذعان بالنّصفه ، فهنالك يُؤمَنُ عليه الجهل والمعاندة ، واذا أُمنت هاتان الخلّتان ٱنسدت بإذن الله ثُلَم الآفات ، وفُتوق المكاره ، فإنّه لا يُخاف الضلالُ على من ٱهتدى ، ولا ٱعتماد الجَوْر على مَن ٱنتصف من هوى .

وليكن أوّلُ ما تتعهّدون به أنفسَكم ، وتُثابرون عليه من صالح أدبكم تناصُفَ الحق بينكم ، بتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم وتفخيم أمركم ، فقد علمتم أنّ منكم المبرّز الفائت الذى لا يُدرك شأوُه ولا يُوازَى بلاؤُه ، حين كشف الإبلاء ضمائر القلوب وجلا مُشْتَبِهات الظنون ، فصرّح بالمحاربة بعد التقدّم فى الجُنّة ، وفاءً بمؤكَّد العهد وركوبا منه لهائل الخطَر ، غيرَ هائب مع صحُبة الحقّ ما بَرق لديه الناكثُ المخلوع ورَعد ، ولا مُستوحش فيما تفرّد به الى من تولى وأدبَر ، حتّى أتى الغاية التى أجرى اليها فى الله عز وجل وفى خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المُشايَعة والمُكانَفة والنُّصرة والحظ الجزيل والأثر المُبين ، ثوابُهم واجب وحقّهم لازمٌ ، ثم منكم من يُحفَظُ لسلفه وأوّله من الآباء الذين يحفظون ولا يتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمَين : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوبَ لٱبنه يوسفَ : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يَرَى توريثَ الحكمة والذمامَ سنّةً عليه فى أخلاقه التى يرعاها ويحافظ عليها ، كما أنّه يرى وراثة التركة فريضةً واجبة ، فيخلف السلَف الصالحَ عنده من المزّية والفضل ما يتلون به أهل الغَناء بأنفسهم ، ثم

يتلوهم من ٱقتدى [بهم] وٱهتدى بَهدْيهم . والسابق المتقدّم من ٱعتد ببلاء نفسه الى بَلاء سلفه ، ثمّ يتبعه بعــدُ المبلي بنفسه ، ثم يتلوهما المُتوَسّل بآبائه ، ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طبقــةً فطبقة ؛ فليقصر كلُّ ٱمرئ منكم على المرتبــة التي أحلّه بها سَعيُه ، وليَسلك الى الازدياد فيها بالزيادة من نفســه ؛ فإن من الفُتُوق العظيمــة على أهل الدوَل ما ينزغ به الشيطان بينهم ، ويكثر عندهم ما يكون منه ، فيوافق من الحَيْف للأنفس ما يجد به مساغا الى ما يروم من إيقاع الشحناء بينهم ، وتثبيت الإحَن في صدورهم ، بعد التآزر والتناصر . ومتى يجمع المرءُ لمزيةِ مَن فوقه ، واغتباط مَن دونه كُفِيَ ماترك . وإن تخلُص نيّاتكم . وتسلم ضمائركم ، حتّى تَمْحَضوا شكر ما أُوليه إخوانُكم ، وتعتدّوا ما نالهم شاملا لكم ، وتُجانبوا طريقة من اقتصر بأُمْنيّتــه على خاصّته ، وتعتّب فيما أُوثر به أهلُ الفضــل دونه . وكَفَى عِظةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك ؛ يقول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية . ولا يَلتمِسنّ أحد مودّته عن سوء نيــة بحسن مداراة في ظاهر ، فإن الله مقلّد كلّ امرئ رِبقــة عمله ومُطوِّقه طوقَ سريرته . ولا يغدرنّ فيما يلزمه لإمامه ؛ فإنه إنمــا يغدر في حظّه ويبخَس قِسْمه ، ويَنْحس نفسه . ثم لا يقتصرنّ على استصلاحها حتّى يتناولَ مَنْ كانتْ مِنّته عليــه من أقربيه وحسويه[(١)] ، فإن يسير ما هو مُعانٍ من تأديتهــم لا ينشَب أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصيها ، وقريبها الى مُتناهيها ، حتّى يستفيض شاملا عاما ، بعد أن بدا محلّلا خاصا .

واعلموا أنّ أمير المؤمنيــ متفقد من تثقيفــكم وتقويمكم على صــالح الأدب ومحمود السيرة ، ما لا يَتفقّد به مَن سِوَاكم ؛ فإنّه إن كان يُوجب على نفسه استصلاحَ الرعيّــة وحمَلَهم على ما فيه رُشدُهم وقِوامهم ، لمــا يلزمه مــن فضل العنــاية بالأخصّ والأولى فالأولى ، فإنّ في أخلائكم من التقديم في التأديب والتعهد ، وجوها من الضرر : منهــا : أنّكم أَوْلى بحسن الطاعة وسرعةِ الإجابة ، للطف محلّكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

---

(١) كذا في الأصل .

ومنهـا : أنكم يأنس بكم المؤتمّون ويقتـدى بكم التابعـون ، فمتى قصّرتم وأخللتم ، آقتفى أثركم مَن نُصِبتم له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تَزروا عليه ، ولا أنْ تأخذوا فوق يده ، بل كان قمِينا أن يكون يَسومكم الرضا بمثْل ما سمِعتموه ، ثم تَجري هذه العادةُ فى الطبقات ، حتّى يطّرِد السياق ، الى أن يستفيض الفساد فى حَشو النـاس وعامتهم ، فلا تُغـنِي قوة ولا حزمٌ ولا شدّة ، إلّا العجزَ والاضاعة ، ثم يجد الأعداء مَساغا الى الطعن والعيب ، فلا يَملِكون أن يُرهِقوكم ويَسـتوْلِي عليكم الفشلُ ، فإن الأيدى إنّمـا تُبْسَط بنفاذ العزائم ، والعزائم إنّما تَنْفُذ بثبات الحجّة ، والحجّة إنمـا تثبت إذا كانت عن الحـق . وإذا أُضيع أوّل هذه الرسوم ، التى رسم لكم أميرُ المؤمنين ، تَبِعته تواليه وشَفَعته اواحقُه ، ووجد العدوّ الملاحظُ مكان العَوْرة ، مَطْمَعا فى إهمال ما كان يُعِدّ له من الغرّة ، ويَتوقّق به من مناهزة الفُرْصة ، وليكن ما تُفيضون فيه وتعـدّونه ظهيرا على طاعنٍ إن طعَن فى دولتكم ، ما ألهم الله أميرَ المؤمنين : من شُمول رَعيّته بالعدل ، وفرش الأمر فى مضمـراتها ومنقلَبها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسَط به يده من إثابة أهل البلاء ، وتغمُّد الجرائم لأولى الزَّلَل ، والإبلاغ فى دعاء من عانَد وشاقّ الى التوبة والإنابة ، وإقالة العَثْرة بعدَ القدرة ، والحَقْن لمُباح الدماء ، فلم تعلموه صَبَر محملا ، ولا هَتَـك لأحد ممّن أظفره الله به سِترا ، ولا وَقَفه على عورة . ثم تولّى الله أميرَ المؤمنين ، فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صـنع الله لكم فيهـا ، لاستفاضة أخبارها فى دَهْمائكم ، مع ما أحبّ من مطالعتـه إيّاكـم ببالغ أدبه وشافى عطفه ، أن يتنكّب من الإسهاب ، فى غير ما صمَد له ورأى من تقريع أسماعكم وأذهانكم ، لوعى ما التمس أن تَعُوه من تبصيركم حظّكم ، وتنبيهكم على رشدكم . وحَسْبُ أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم الله ، وكفى به مبينا .

وإنّ أمير المؤمنين مع ما تقـدّم به اليكم لعَلَى ثقة من حِياطة الله خلافتـه التى جعلها عزّا لدينه وقِواما لخلقه ، وأنّه ليس بهـا ممن أدبر عن حقها آختـلالٌ بل من خلع ربقتها وأضاع حظّه منها ، جلب الخَلّة والحاجة وخَسرانَ الدنيـا والآخرة . وإنمـا أُتِيَ

المُقَصِّرون فى إعظام حقّها من ضعف الروية عن بلوغ ما تُفْضى بهم إليه مصادرُ العواقب ، وتُؤديهم إليه رواجعُ ما قدّموا ، فلا يكونون بعملهم غيرَ متجاوزين بهممهم ، وفيهم الذى هم فيه الى ما يمنعه (١) .

واستديموا معشرَ المسلمين سابغ النعمة بحمد مُوليها والمُتطوّل بها . وقد ترَوْن ما كنتم فيه قبلها وما آلت اليه حالُ مَن سُلبها ، ثم يُعْقِب الندامةَ حين لا مُسْتعتَبٌ ولا نَظِرةٌ يمكن فيها استقالةُ الفارط بتقصيرٍ ولا هَفْوةِ زَلل . وثقوا من رِعاية أمير المؤمنين محمود آثاركُمْ ، وما مضى من بلاء كلّ آمرئ منكم ، بما تطمئنون اليه وتتوقّعون عادته ، بأسنَى ما ترتفع اليه آمالُكم وتسمو اليه هممكُم ، الى ما يَدّخر الله لمن تمسّك بهداه ، واعتصم بتقواه ، وجاهد عن حقه ، وافيا بأمر عهده من جزيل ثوابه وكريم مآبه ، الى الدار التى هى أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلا .

أحبّ أمير المؤمنين أن يتعهّدكم بعظةٍ تنّبهكم على حظّكم ، وتُثبت من بصائركم ، وتقطع من طمع الشيطان وحزبه فيكم ، لِما يجب عليه من إرشادكم ، ويرجو من تأدية حقّ الله عز وجل فيكم ، ولِما يرى من اتصالكم بحبله ، وما يشملُه من الصنيع فيما ولّاكم الله به ، وتولّاه لكم .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تَطوّلا ، وتكفّل بالإجابة حتما ، فقال عز وجل : ﴿ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، أن يجمع على رضاه أُلفتكم ، وأن يصل على الطاعة حبلَكم ، وأن يُمتِّعكم بأحسن ما أودعكم من مننه ، ويوزِعكم عليها من شكره ، ما يواصل لكم مزيدَه ، وأن يكفيَكم كيد الكافرين ، وحسد الباغين ، ويحفظ أميرَ المؤمنين فيكم بأفضل ما حُفظ به أمام هدى فى أوليائه وشيعته ، ويحمل عنه ثقل ما حمّله منكم . وبالله يستعين أميرُ المؤمنين ، على ما ينوى من جزائكم بالحسنى ، وحملِكم على الطريقة المُثلَى ، وبه يرضى ناصرا ووليّا ، وكفى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) كذا فى الأصل .

ومنهـا : أنكم يأنس بكم المؤتمون ويَقتــدى بكم التابعــون ؛ فمتى قصّرتم وأخللتم ، آقتفى أثركم مَن نُصبتم له أعلاما ، ثمّ لم يكن لكم أن تزروا عليه ، ولا أنْ تأخذوا فوق يده ، بل كان قمِينا أن يكون يَسومكم الرضا بمثل ما سمعتموه ، ثمّ تجري هذه العادةُ في الطبقات ، حتّى يطّرِد السياق ، الى أن يستفيض الفساد فى حَشو النـاس وعامتهم ، فلا تُغـنِي قوة ولا حزمٌ ولا شدّة ، إلّا العجزَ والاضاعة ، ثم يجد الأعداء مَساغا الى الطعن والعيب ، فلا يَملِكون أن يُرهِقوكم ويَسـتَوْلِي عليكم الفشلُ ؛ فإن الأيدى إنّمـا تُبْسَط بنفاذ العزائم ، والعزائم إنّما تَنْفُذ بثبات الحجّة ، والحجّة إنمـا تثبت إذا كانت عن الحـق . وإذا أضيع أوّل هذه الرسوم ، التى رسم لكم أميرُ المؤمنين ، تَبِعته تواليه وشَفَعته لواحقُه ، ووجد العدوّ الملاحظُ مكان العَوْرة ، مَطْمَعا فى إهمال ما كان يُعِدّ له من الغرّة ، ويَتوفّق به من مناهزة الفُرْصة ، وليكن ماتُفيضون فيه وتعـدّونه ظهيرا على طاعنٍ إن طعَن فى دولتكم ، ما ألهم الله أميرَ المؤمنين : من شُمول رَعيّته بالعدل ، وفرش الأمر فى مضمراتها ومنقلَبها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسَط به يده من إثابة أهل البلاء ، وتغمُّد الجرائم لأولى الزَّلَل ، والإبلاغ فى دعاء من عانَد وشاقّ الى التوبة والإنابة ، وإقالة العَثْرة بعدَ القدرة ، والحَقْن لمُباح الدماء ، فلم تعلموه صَبَر مجملا ، ولا هَتَـك لأحد ممّن أظفره الله به سِترا ، ولا وَقَفَه على عورة . ثم تولّى الله أميرَ المؤمنين ، فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صـنع الله لكم فيهـا ، لاسـتفاضة أخبارها فى دَهْمائكم ، مع ما أحبّ من مطالعتــه إيّاكــم ببالغ أدبه وشافى عَطفه ، أن يتنكّب من الإسهاب ، فى غير ما صمَد له ورأى من تقريع أسماعكم وأذهانكم ، لوعى ما التمس أن تَعُوه من تبصيركم حظّكم ، وتنبيهكم على رشدكم . وحَسْبُ أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم الله ، وكفى به مبينا .

وإنّ أمير المؤمنين مع ما تقــدّم به اليكم لعَلَى ثقة من حِياطة الله خلافتَــه التى جعلها عزًّا لدينــه وقِواما لخلقه ، وأنّه ليس بهـا ممن أدبَر عن حقها آختـلالٌ بل من خلع ربقتها وأضاع حظّه منها ، جلب الخَلّة والحاجة وخَسرانَ الدنيـا والآخرة . وإنمـا أُتِيَ

المُقَصِّرون فى إعظام حقّها من ضعف الروية عن بلوغ ما تُفْضى بهم إليه مصادرُ العواقب ، وتُؤديهم إليه رواجعُ ما قدّموا ، فلا يكونون بعملهم غيرَ متجاوزين بهممهم ، وفيهم الذى هم فيه الى ما يمنعه (١) .

وآستديموا معشرَ المسلمين سابغ النعمة بحمد مُوليها والمُتطوّل بها . وقد تَروْن ما كنتم فيه قبلها وما آلت اليه حالُ مَن سُلبها ، ثم يُعْقِب الندامةَ حين لا مُسْتعتَبٌ ولا نَظِرةٌ يمكن فيها استقالةُ الفارط بتقصيرٍ ولا هَفْوةِ زَلل . وثقوا من رِعاية أمير المؤمنين محمود آثاركُم ، وما مضى من بلاء كلّ آمرئ منكم ، بما تطمئنون اليه وتتوقّعون عادته ، بأسنَى ما ترتفِع اليه آمالُكم وتسمو اليه هممكُم ، الى ما يَدّخر الله لمن تمسّك بهداه ، واعتصم بتقواه ، وجاهد عن حقه ، وافيا بأمر عهده من جزيل ثوابه وكريم مآبه ، الى الدار التى هى أكبر درجاتٍ : وأكبر تفضيلا .

أحبّ أمير المؤمنين أن يتعهّدكم بعظةٍ تُنبّهكم على حظّكم ، وتُثْبت من بصائركم ، وتقطع من طمع الشيطان وحزبه فيكم ، لِما يجب عليه من إرشادكم ، ويرجو من تأدية حقّ الله عز وجل فيكم ، ولِما يرى من آتصالكم بحبله ، وما يشملُه من الصنيع فيما ولّاكم الله به ، وتولّاه لكم .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تطوّلا ، وتكفّل بالإجابة حتما ، فقال عز وجل : ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، أن يجمع على رضاه أُلفتكم ، وأن يصل على الطاعة حبلَكم ، وأن يُمتّعكم بأحسن ما أودعكم من مننه ، ويوزعكم عليها من شكره ، ما يواصل لكم مزيدَه ، وأن يكفيَكم كيد الكافرين ، وحسد الباغين ، ويحفظ أميرَ المؤمنين فيكم بأفضل ما حُفِظ به أمام هدى فى أوليائه وشيعته ، ويحمل عنه ثقل ما حمّله منكم . وبالله يستعين أميرُ المؤمنين ، على ما ينوى من جزائكم بالحسنى ، وحملكم على الطريقة المُثلَى ، وبه يرضى ناصرا ووليّا ، وكفى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) كذا فى الأصل .

وللمأمون — لمّا كتبتْ اليه السيّدة زُبَيدة بعد مَقْتل ولدها الأمين خطابَها الآتي تستعطفه :

كُلّ ذنب يا أميرَ المؤمنين وإن عَظُم صغير فى جَنْب عَفْوك . وكُلّ زَلَل وإن جَلّ حَقِير عند صَفْحك . وذلك الذى عوّدك الله ، فأطال مدّتَك ، وتَمّم نعمتَك ، وأدام بك الخيرَ ، ورَفَع بك الشرّ .

هذه رُقْعة الوَالِه التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر . فإنْ رأيتَ أن ترحم ضَعْفى ، وآستكانتى ، وقلّة حيلتى ، وأنْ تَصِلَ رَحِمِى ، وتحتسب فيما جعلك الله له طالبا وفيه راغبا فافعل ، وتذكّرْ مَنْ لو كان حيًّا لكان شَفِيعى اليك .

فكتب اليها المأمون :

وَصَلَتْ رُقْعتُكِ يا أمّاه ، أحاطكِ اللهُ وتَوَلّاكِ بالرِّعاية ، وَقَفْتُ عليها وساءنى — شهد الله — جميعُ ما أوضحتِ فيها ، لكنّ الأقدارَ نافذةٌ ، والأحكامَ جاريةٌ ، والأمورَ متصرِّفةٌ ، والمخلوقون فى قَبْضتها ، لا يَقْدِرُون على دفاعها ، والدنيا كلّها الى شَتَات ، وكلّ حىّ الى ممات ، والغَدْر والبَغْى حَتْف الإنسان ، والمَكْرُ راجعٌ الى صاحبه . وقد أمرتُ بردّ جميع ما أُخِذَ لك ، ولم تفقدى ممّن مضى إلى رحمة الله إلّا وجهه . وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين ، والسلام .

(هـ) أحمد بن يوسف (١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور فى آختيار المنظوم والمنثور وهى :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذى أحاط بكل شىء علما، ونطق به خُبْرا، وأتقنه حكمة وعلما، وألّف بين مُخْتَلِفه ومُتَّفِقه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على آتصال تدبير مشيئته ومُبْتَدَعه، وانه أَحَد صَمَد، لا ضدّ له ولا نِدّ، إذ قدّر له حاجته ثم شدّها ببلاغها الى الغاية التى جعلها، فقال جل وعز «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» وحكى عن نَجِيّه موسى عليه السلام، «قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» ، وقال الله تعالى «وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا» ثم لم يكلّف العباد من شكره كِفاء نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدةً عليهم بجزيل الحظّ فى دينهم ودنياهم، لغناه عن عبادتهم، وآتّساع قُدرته بالتطوّل عليهم، مُفْتَتِحا وخاتما، وبادئا وعائدا .

والحمد لله الذى آصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم، نبيّا لرسالته، وأْتَمَنه على وَحْيه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدّى الى خلقه الرسالة، وآستنقذهم من الضّلالة، وصَدَع بأمر ربه وجاهد فى سبيله، ونصح لأمته حتى أتاه اليقين من ربّه، بعد آستنارة الحقّ، وظهور الحجّة، فصلّى الله عليه بشيرا ونذيرا، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلافى من الهلكة، وجمع الأُلفة بعد الفُرقة، وأوضح الهدى بعد الدُّروس، ومعالمَ الرشد بعد الطُّموس، وكان بالمؤمنين رحيما .

والحمد لله الذى قَفّى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين، الهاديَ التقيّ، الطاهر الزكيّ، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعزّ الله نصره، فسدّ ثُلْمتهم، ورأب صَدْعهم وقلّده خلافتهم، وجعله لكافّة المسلمين غياثا ورحمةً، وجعل ما ألهمه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبناه عنه فى الفصل العاشر من الكتاب الثالث فى المجلد الأول .

اليهم ، منّة عليه ورحمة ذخرها له ، دون الخلفاء قبله ، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة ، وسياسة من تقدّمه ، ومنح الرعيّة من عطفه ونظره ، ما لا يحمل عنهم أو به ولا يؤدّى عنهم شكره ، الا هو لا شريك له ؛ وأحسن الله جزاء أمير المؤمنين ومثوبتــه ، على صلة رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى هى رحمه وقرابته ، واختياره لولاية عهده الأمير الرّضى علىّ بن موسى ، حفظه الله ، حين أحمد سيرته ، ورضى محبته ، وعرف استقلاله ، بما قلّده فى هديه ، ودينه ووفائه ، بما أكّد الله به عليه ، من عهد أمير المؤمنين أيّده الله ، فى اعتيامه من ازره وأساه بما شفع رأيه ، وأنفذ تدبيره ، حين همّ لاستصلاح ما استرعاه الله ، من أمور عباده ، لما انتقى القائم بدعوته ، ورئيس شريعتــه ، الأمير ذا الرّياستين رحمه الله ، فاتّخذه مكاتفا ظهيرا ووزيرا دون من سواه ، فاتّبع منهاج أمير المؤمنين أيّده الله ، وسار بسيرته ، شرقا وغربا ، وغورا ونجدا ، موفيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفيا لأثره وسنّته ، فحسم الله به الأدواء ، وقمع به الأعداء ، من عتاة الأمم ، وطواغيت الشّرك ، وأباد على يده ، أهل الشّقاق والنّفاق ، فى كل أفق وطرف ، بجدّ أمير المؤمنين أعزّه الله ، وبركة سياسته ودولته ، ونجح سعى من قام بنصرة من قام بحقّه ، وأنار برهانه ، حتى توفّاه الله عز وجل ، حين بلغ همّته وغايته ، وحمّ أجله ، وانقطعت مدّته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عند إمامه أكرمه الله ، وعند الخاصّة والعامّة ، وكان من إجلال أمير المؤمنين ، الحادث الذى نزل به ، فأحيا آثاره ، بوصف محاسنه ، فى مشاهده ومجامعه ، وترحّمه عليــه عند ذكره ، وحفظه فى لحمته ، وأهل حرمته ، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتمّ به نعمته ، عندنا وعندكم معشر الشّيعة ، فقد أصبح أمره بكم متّصلا ، وموقعــه من جماعتكم متمكّنا ، يقبضكم ما قبضه ، ويبسطكم ما بسطه من اومة المصيبة ، وحسن العقبى ، وقد علمتم معشر أهل الحجا والنّهى ، والطاعة لله عز وجل وخليفتــه ، وذوى الغناء والبلاء فى دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حضر ممّن امتحن الله قلبــه بوفاء العهد والاستبصار فى حقّ أمير المؤمنــين أبقاه الله ، والمجاهدة دونه ، والصبر على مواطن الصّدق واللأواء ، والذّبّ عن البيضة والحريم ،

والمتحمّلين للنَّصَب، والمصائب التى انجلَت، حتى كأن لم تكن، وبقى أجرها على الله عزّ وجل، ومحمودُ ذكرها شائعا فى الناس، إن نِعَم الله، قد جلّت ولَطُفت، وخَصّت وعمّت، وعلَت وسَمَقت، وتمّت ودامت، حتى قصّرنا عن موازينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سببٌ الى مكافأة بَلائه بالعمل، فنحن جُدَراء أن نجتهد فى القول، ونُطنِب فى الوصف إن شاء الله جَلّ وعزّ، فقد جعل ذكرَ النِّعم من أسباب الشكر، وقد جدّد لنا أميرُ المؤمنين أيّده الله من الحياة والكرامة، وجزيل الحيطة، وسَنِيّ الرتبة التى قُرئ بها عليكم كتابُه ما يَستغرق جَهْدنا، ويستفرغ وُسْعنا، فنرغب إلى الله عز وجل، وَلِيّ الرغبة، ومُؤْتى السُّؤْل والطَّلبة، فى إعانتنا على تأدية ما وجَب له، فيما منحنا من فوائده ونَحَله، ثم نسترفدكم ونستعينكم على شكره، وإمدادنا بما بلَغته طاقتكم فى السّعى له فقد آدَنَا ثِقْلُ ما حمّلنا، وثقل ما طوّقنا، وعظُمت فاقتنا الى آستعمال القُوى من الأنْفُس والحامّة، والخاصّة والعامّة، فى جَزاء ما جَلّل أمير المؤمنين فينا من سُنَنه، وشملنا من تالد أياديه وطارفها، وقديمها وحديثها، وكيف يُوجد الى موازاة أمير المؤمنين سبيل ببذل جَهْد، أو بلوغ حَشْد، فإنما نقتدى بهُداه، ونَعْشُو بنوره فى ديننا، وليس عَجْزُنا عن أن نجزى حقّه، بواضِع عنّا مؤونة الدُّؤوب فى التّحرّى لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه، وجعله من أسمائه، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقد قال تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾، وقال تعالى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، ولولا أن الله عزّ وجل رَضِيه لنفسه، لأجللناه عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، ونعرفه فى مكافأة من منّ وتطوّل، ثم ثنّى بذكر فضله فى العباد، فإن الله تبارك وتعالى آفتتح أوّل ما علّم خلقه بالحمد، وجعله بَدْء كتابه، وخاتمة دعوة أهل جنّته، فقال عزّ وجل، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وخلق الله السموات والأرض، ومن بَرأ وذرأ فى الحياة لِيَبْلو عباده بشكره، وأعدّ الجنة فى الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ›› ، وقال الله تعالى : «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ، بجمل التقوى واقعةً ، والشكر مرجُوّا ليَدل على ارتفاع رتبته ، وعلوّ درجته عنده ، وقال لنَجيّه موسى عليه السلام : «إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ» . فلم يكلّفه الا أخذ ما أعطاه ، والشكر على ما أتاه ، وأخبر بعزّته في العباد ، فقال تعالى : «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ» ، فأيّة نعمة أجلّ قَدَرا ، وأسنى أمرا ، معشرَ الشّيعة من نعمة أمير المؤمنين ، أيّده الله ، عند الأمير ذى الرّياستين ، ومراتبه التى رتّبه بهـا ، فإنه أعطاه رياســة الحرب ، ورياســة التدبير ، وعقد له على رأسهما عَلَما فى رواية دعوته ، وقلّده سيفهما وخَتّمه بخاتم الخلافة ، وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حَرَسه ، وصاحب شُرْطَته ، ومَسيره بين أمير المؤمنين و بينهما ، أَمَامه وخلفه ، وصيّر له الجلوسَ على الكرسى بحضرته ، فى صدر كل مجلس جلس ، الا أن يُؤثر به من أحبّ من أبناء الخلفا ، وقدّمه فى دخول دار الأمير راكبا الى أقصى مكان ينتهى إليه أحد من بنى هاشم ، لأنه منهم ، وأعظمهم غَناء عنهــم ، فسمّاه صــاحب دعوته وسيفه على عدوّه و بابه الذى يدخل اليه منه ، وولّاه خروله فى أقطار الأرض ، ومُقدّمته بحضرته ، وقلّده من الثغور ما قد علمت ، بما أفرده فى عهده ، الى ما أنفذه من أمره ، فى جميع سلطانه ومُلكه ، من مشارق الأرض ومغاربهـا ، وأين يأتى الوصفُ على ما فضّــله به ، وقدّمه وشرّفه على النــاس كافّة ، ولكنا نُخطِر بذكره ، ثم نَكِل السامعين الى ما يرجعون إليــه من المعرفة التى لا تبلغها الصّفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته بأعلى ممّا أكرمه به فى وفاته ، تولّى غسله وتكفينه ، ومباشرته بجهازه ، إلى حفرته بيده ، وقاسى من الغُصَص ، و برحاء الحزن ، و إذراء العَبْرة ، و إراقة الدمعة ما حال بينه و بين الكلام ، وكاد يمنعه من القول والدعاء فى صلاته عليه ، من الحكم ، وحفظ أهل الحُرْمة ، به رعايةً له فيهم ، ووفاءً بعهده من بعده ، وأقرّ خاصّته ، وقوّاده وعُماله ، وكتّابه على مراتبهم ، وحمد بحمده ، وذمّ بذمّه ، وجدّد لجنده ، وتل كريته (١) ، نَظَرا وعطفا ، فلم يبْق عليه فى إحياء ذكره ، وبلوغ كل ما يحبه فى حياته غايةٌ الا أتى من ورائها ،

(١) كذا فى الأصل .

وأمر بقراءة فُتُوحه، كما كانت تُقرأ على عهده، وأضاف كل ما حَدَث من بعده الى ما تقدّم من سَعْيه، وأخبر أنه كان سببَه، والمفتتحَ به، وولّى محمد بن الحسن خلافته، ونصّبه مَنْصبه، وأقامه مُقامه الى أن جَدّد العهد لى، فاستخلفتُه على ما وَلِى بحضرته، ثم تتابعت كتبُ أمير المؤمنين، أكرمه الله بعد مصاب الأمير ذى الرياستين، بما لا يقارب التفضيل، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم، فلم يكن يرى وراءه مجاراة، ولا فوقه مَصْعَدا، حتى جدّد لنا من كرامته، ما قد قُرِئ عليكم فى كتابه، فبلَغ بنا ما لم تكن الهمم تبلُغه، والأمانى لتُحيط به، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقّى فى الفضل، الى ما تتحسّر من دونه الأبصار، وتنقطع دونه الآمال، وإنما آقتصصناه وذكرنا ما أبلانا وأصطنع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيّته والنظر بالصفح، والأَخْذ بالفضل، والأمر بالمعروف، وصِلَة المروءة بالوفاء بالعهد، والشكر للمَن، ورعاية الأخلاق المحمودة، وإحْظَاء أهلها، وإقامة سوقها، حتى تنافسوها وتَشَاحُّوا فيها، وصارت هى الذّرائع اليه، والوسائل عنده، فلو تأمل متأملُ أهلِ الزُّلْفة، والأَثْرة لديه، لوجد الأَخَصّ فالأخصّ، والأعلى قدْرا عنده هو الأفضل دينا ومروءة، فلو لم يكن فى الحُظْوة عنده إلا إيجابها لصاحبها صحّة المحبة، والنزاهة عن كل ظِنّة، لكان فيها أعظمُ الغبطة، وأعدل الشهادة والدّلالة، وسنقُصّ عليكم بما أخبرناكم عنه ما لا سبيل الى جحْده وإنكاره، بوضوح معَالمه ومَنَائره، أو ليس المجاهد عن دين الله، والمحامى عن بَيْضة المسلمين، والمُواتى لأغلظ عدوّهم شوكة، وأخوَفهم عداوة، والمُنْجِح فى بلادهم، بمن كان لا يرام، ولا يحاول لآستصعابه وشِدّة مُقاساته، حتى أذعن جيغويه بالعُبوديّة له، ثم أباح حريمه حين تمرّد عليه، حتى بلغ السّبي الى ولده، وحاربونا به، ونفلت خيولُه، حتى توصّلت الى قُبّته، ومنتهى عِزّه، أو ليس مُسكِن التهيج بالمرف، حتى خَبَت النيران فيه، وأذعن رؤساؤها وقادتها، أوَ ليس غازى بلاد بابل حين طغى أميرها، وبدّل ونكث ونقض، حتى آحتفلت أرومته، وأباح حريمه، وأراح البلاد من [illegible] الثغور مشحون

عَوْراتها ، والمباشر لتدبيرها ، والمُسْعَدا لمُكايدة المُنْجَح فيمن أرادها ، وفَاكّ العُنَاة ، من رِقّ الإسار ، وناشر الرحمة على فقراء المسلمين وضُعَفائهم وأهل المَسْكنة ، والخَلّة منهم ، وقاسِم الصّــدقات فى أهلها ، وعامر الموسم ومحصّــنه من الآفات حِياطَةً للسلمين فى حَجّهم ، وما يتقرّبون به الى ربهم ؛ وهل اقترن لأحد من الائمة ما اقترن له فى الملك والدّين والعزّ ، والتواضع والسَّعَة ، والبَذْل والقدرة ، والعفو والغلظة ، واللّيان فى مواضعها ، والنُّســك مع الهمّة ، والسطوة مع الاقالة ، وهل ترك معشرَ الأولياء والاخوان فى الدين غايةٌ لم يَسْمُ بنا الى شرفها ، وعلى مراتبها ، ومستزاد الحظّ فى عاجل وآجل ، لم يبلغناه ونختار لنا خاصّ مكرمته ، ومُدّخَر عاقبته ؛ أرشدنا إلى الدين ، وسلك بنا سُـبُل الجنة ، حاز لنا الملك ، فلم يبق وراء ما ملكنا غاية ، ووَرَدَ بنا الحروبَ وسامَها لنــا ، فلم يدَع غايةً للتعليم والدّراية ، سُــلِّط علينا بسلطان الله الذى أتاه فلم يدع غاية فى التقلد والفقه ، فكم علّمنا الفضائل ، ثم فَضَّلَنا بهــا ، غلّب لنا الأممَ ، ثم خوّلناها ، علّمنا طَرائق الشّرف ، ثم شرَّفنا بها ، أخْبَرنا عن الأنباء فكَفَانا مؤونة التماسها ، وأغنانا بما عنده فيها ، أخذ على أيدينا الخير للرعيّة ، فوهَب لنا شكرَها ، وصدّق مقالتنا عند الشُّبهة ، وأنْفَذ أمرنا فى التدبير .

فيا أيّهــا الامام المنصور المهدىّ الرشــيد حُزْتَ فضائل الآباء ، واهْتَدَيْت بهَــدى الأنبياء ، أنشكرك عن الاسلام ، فأنت القائم به الداعى له ، والناصر لحقّه ، أم نشكرك عن الأمصار ، فأنت المُفتتِح لممتنعها عَنْوة ، والمتطوِّل على أهلها بالرحمــة ، والمنعطف عليهم بحسن الفائدة بعــد ما هيجت منك سَوْرة الغضب ، فأطفأتَ نارها ، وأخمــدتَ لَهَبها ، وعُدت على من سَفِه ، وأضاع حظّه ؛ أم نشــكرك على المساجد ، فأنت الذى أسّسْتُها على التّقوى ، وعَمَرتها بتِــلاوة القرآن ، وطهّرت المنابر وركبتها ، تعلُوها صائمــا ، وتنطق عليها صادِقا ، وتدعو الى الرشد عليها ناصحا ، وتختم القرآن قبل أن تَبْدَأها محسنا ، وتتلو من قوارعه ، ما تصيخ له الأسمــاعُ وتلين له القلوب ؛ أم نشكرك على البيت العتيق ، والركن والمقام ، والحِجْر وزمزم ، ومَشَاعر الحج ، وأنت ذبتَ عنها ، وأعَدْتَ اليها عهدها ، فى مبعث نبيها ،

صلى الله عليه وسلم ، فأمنتَ النازع اليها ، من كلّ فجّ عميق ، والحالّين بها من الركوع والسجود ، أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظت فيه من عِتْرته ، بعفوك عن مُجْرمهم ، ومضاعفتك ثواب محسنهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد ٱندرس وٱنطمس ، بعد اللقاء بنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه فى قرابته وقرابتك ، وذوى رحمه و رحمك ، ماضيّع الناس . ووَصَلْتَ منهم ما كان وصلَهُ ، إذ كان الله عز وجل ، قد فَرَض صِلةَ الأرحام ، فكان أطوع خَلْق الله عز وجل فيما فَرَض عليه . أم نشكرك عن العوامّ ، فقد ألبست المسلمين ثوبَ الأمن ، وأذقتهم طعم السَّعَة والرَّفاهة ، وعدَلت بينهم بالإنصاف ، وتولّيت دونهم النَّصَب ، وآثرتَهم الراحةَ . أم نشكرك عن الملوك والقوّاد والأجناد ، فأنت الذى رفعتَ منازلهم ، ووفّرت عددهم ، فلم يكن فى دهر أحدٍ من الخلفاء أسعدَ ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاون ، ووليّتهم من الثغور والأمصار ، وأدررتَ عليهم من الأرزاق والخَواصّ ، أم نشكرك عن الأحكام والسُّنَن ، فأنت الذى أنهجتَ سبيلَها ، فأوجبتَ فَرْضها ، ونافستَ فى أهلها ؛ أم نشكرك عن الأعداء فأنتَ الذى بدأتَهم بالحُجّة ، ودعوتَهم الى الفَيْئة والإنابة ، ثم ثنّيتَ معقّبا بالعفو ، ونعَشْتَهم بعد البؤس ، وآنَسْتهم من الوَحْشة ؛ أم نشكرك على مكارم الأخلاق ، وأنتَ الذى ثبّتَ وطْأتَها ، ونفيْتَ عنها أضدادها ، ولو نَطَقتْ بالفضل ، لنطقت بشكرك ، فى إزالتك إياها عن اللئام ، و إخطائك من ٱعتزى اليها . أم نشكرك عن الثغور ، فأنتَ الذى تمّمتها ، وحصّنت عوراتها ؛ أم نشكرك عن السلَف ، فأنتَ الذى أشدْتَ بفعالهم ، وحَفَظْتَهم فى أبنائهم ؛ أم نشكرك عن بُرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القضيب الذى شخّص به ، حتى جعلتهما زِينتك ، وسموتَ بهما فى أعيادك ، عند حَشْدك ، على الطُّهر والزكاة ، والنّسك والتّقوى ؛ أم نشكرك عن المسلمين فى رعايتك إياهم ، وما تُرْعيهم من جَنابك ، وتنفى عنهم من الآفات ، وتزيل عنهم من جبابرة الكفر ، وتُفضّ من جيوش الشّرك والنّكْث ، وتفتح من ٱلحصون المُسْتَصْعَبة ، وتسهّل من الطُّرق الوعرة ، أم نشكرك عن تواضعك لله عزّ وجَلّ ولصالح

المسلمين طلبا للرفعة عند الله ، أم نشكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وقائدا ومنقذا ، وكان مأمورا بجماعة آمرا ، وآلة للقوة بجعلت القوة له آلة ، فيامن اتصل شكره بشكر الله عز وجل ، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته ، بطاعة الله فوهب الله لك شرف المنازل ، ورقاك دَرَج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكر من ناطق أو صامت ، جزيلَ الثواب ورفيعَ الدرجات ، وأمتعك ما أتاك وأمتع الأمة ما آتاهم منك ، والحمد لله ذى الرّغبات ، ومتمّم الصالحات ، شكرا لرب العالمين ، فإنه مَبلَغ طاقتنا ، ومُنْتَهى جَهدنا ، وبه نستعين على تأدية فرائضه ، أنه لا يعين على ذلك الا هو ، أحببتُ أن نشكر اليكم أمير المؤمنين أيّده الله ، اذ ورد علىّ من أنعامه وافضاله ، مالا أبلغه بالفعل ، وأن يكون ما اقتصصنا عليكم ، داعيا لكم ، الى أن تشكروه عنّا ، وعن أنفسكم ، وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت بما وفّقنا الله له ، فيما شرحنا وأوضحنا ، من الدّلالة والبيان أن يكون مجتمعا ينتفع به من حضرنا ، ومن عسى أن يُؤَدّى اليه الخبرُ عنا ، أو حدث بعدنا ، وضننت بهذه المكرمة الرائعة ، والمأثرة البارعة ، التى آدخرها الله لأمير المؤمنين ، أعزّ الله نصره ، وأفرده بها ، دون الأئمة والخلفاء ، أن تمر بالأسماع صفحا ، وتجتاز على القلوب سهوا ، حتى تؤكّد بالشواهد والبرهان ، ليبقى ذكرها ونفعُها فى الخُلوف والأعقاب ، ونحن نسأل الله عزّ وجل الذى جمع بأمير المؤمنين — مدّ الله فى عمره — أُلْفتنا ، وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا ، وأنالنا من الغبطة فى دولته وسلطانه ، مالم تَحْوِه شيعة إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يُتمّ نورَ أمير المؤمنين ، ويُعلى كعبَه ، ويمتّعنا ببقائه ، حتى يبلّغه سؤله وهمّته فى الاستكثار من البرّ وادّخار الأجر ، واستيجاب الحمد والشكر ، وأن يلمّ به الشّعث ، ويرأب به الصّدع ، ويُصلح على يديه الفساد ويرتُق به فُتوق هذه الأمة ، ويُثْخن بسياسته ونكايته فى عدوها ، ويتابع الفتوحَ فى بلدانهم حتى يؤتيه من نُجْح السعى ، ورغائب الحظّ فى الدنيا ، ما يُجزل عليه ثوابه فى الآخرة ، وأرشد أنبياءه واصفياءه ، الذين يقول لهم ، ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

ومن توقيعاته نقلا عن كتاب الصُّولى .

وقّع الى عامل ظالم « الحقُّ طريق واضح لمن طلبه تَهْديه مَحَجّته ولا تُخاف عَثْرته وتُؤْمن فى السرّ مَغَبّته فلا تَستقِلَنّ منه ولا تعدِلنّ عنه فقد بالغتُ فى مُناصحتك فلا تُحوجنى الى مُعَاودتك فليس بعد التّقْدِمة اليك إلا سطوةُ الإنكار عليك » .

ووقّع فى عناية بإنسان الى بعض العمّال « أنا بفلان تامّ العِناية وله شديدُ الرِّعاية وكنتُ أُحِبّ أن يكون ما أرعيتُه طرَفك من أمره فى كتابى مستودعًا سَمْعك من خطابى فلا تعدلنّ بعنايتك الى غيره ولا تَمْنحنّ بعقدك سواه حتى تنيله إرادته وتجاوز به أُمنيّته إن شاء الله » .

وفى كتاب ابن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيءُ الكثير فارجع اليه إن شئتَ .

(و) رسـائل سهل بن هارون (١)

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لق رجل سهل بن هارون فقال : هب لى ما لا ضَرَرَ به عليك ؛ فقال : وما هو يا أخى ؛ قال : درهم ؛ قال : لقـد هوّنتَ الدرهم وهو طائع الله فى أرضه

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة فى دولتى الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب كليلة ودمنة وسماه « ثعلة وعفرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) فى عهد المأمون . ولد سهـل بن هارون فى مدينـة ميسان بين واسط والبصرة ، وفى رواية فى دستميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، فى أواخر النصف الأول من القرن الثانى تقديرا ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهيون (راهبون) وكنيته أبو عمرو ، فارسى الجنس ، أهوازى أو خوزى المولد ، عراقىّ المنشأ ، تحوّل الى البصرة فى سنّ لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم فى الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم فى العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإسـلام ، وخزانة العرب » حوت من العلم الانسانى أصوله وفروعه ، ومن القائمين على تمية [illegible] وبخوله ، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها فتخرج بعلمائها ، ولا [illegible] كانوا طبقة عالية جدا ، فى كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل : أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق فى زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه أنه تنقص أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، إعتداله مع الأحياء ، وما أثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التى كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما فى البصرة ودار السلام بغداد ، واتهموه بأنه كان مع الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلا ، وإذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذى فسر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا فى نفسه ، عتيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيدا من الفدامة (العىّ) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قبل الخبرة ، وبرقة الذهن ، قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان ، وبالنبل ، قبل التكشف (الظهور) » . وكان الجاحظ مازجه وثافنه . وقيل للحرانى ولعله ابراهيم بن ذكوان كاتب الهادى ووزيره : بينك وبين سهل بن هارون صداقة فأنعته لنا كى نعرف ، فقال : « هو كالخير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب ، كالغيث أين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالأرض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور للتمسه ، وناقع لغله من أحرّ إليه ، وكالهواء الذى تقطف منه الحياة بالتنسم ؛ وكالنار التى يعيش بها المقرور ، وكالسماء التى قد حسنت بأصناف النور » ا . هـ . صورتان جميلتان فى وصف سهل صوّرهما مصوّران مبدعان عاشا بقربه ، وفتنهما بخلقه وخلقه .

واتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصا ونوادر ، وربما كان اتهامه بالبخل مبالغا فيـه تراد به النكتة والنادرة ا . هـ . من محاضرة للاسـتاذ الباحث السيد محمد كرد على ألقاها بالمجمع العلمى العربى بدمشق ونشرها بمجلتى المجمع والمقتطف .

لا يعصى ، وهو عُشْر العشرة، والعشرةُ عشر المـائة، والمـائةُ عشر الألف ، والألف دِية المسلم ، ألا ترى الى أين آنتهى الدرهم الذى هوّنتــه ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل، ولولا آنصرافه لم يسكت .

وحكى دِعْبِل الخزاعىّ الشاعر قال : أقمنا يوما عند سهل بن هارون، وأطلْنا الحديث حتى أضرّ به الجوع، فدعا بغــدائه فأُتِىَ بصَحْفة فيها مَرَقٌ تحته ديك هَرِم، فأخذ كسرةً وتفقّد ما فى الصحفة فلم يجــد رأس الديك فبــقى مطرقا ، ثم قال للغــلام : أين الرأس؟ قال : رميتُ به ، قال : ولِمَ ؟ قال : لم أظنــك تأكله، قال : ولِمَ ظننت ذلك ! فوالله إنى لأمقُتُ من يرمِى برِجله فكيف برأســه ! ولو لم أكره ما صــنعتَ الا للطِّــيرَة والفأل لكَرِهتُه ، أما علمتَ أن الرأس رئيس يُتَفاءل به ، وفيه الحواسّ الخمس، ومنه يَصيح الديك، ولولا صوتُه ما أُرِيد، وفيه فرقه الذى يُتَبَرّك به، وعينُه التى يضرب بصفائها المثل فيقال : شرابٌ كعين الديك، ودماغه عجب لوجع الكُلْيــة، ولم أَرَ عَظْمًا قطُّ أهشّ تحت الأسنان منــه، وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله، فعنــدنا من يأكله، أو ماعلمتَ أنه خيرٌ من طرف الجَناح ومن رأس العُنُق ! أنظر أين رميته، فقال : والله ما أدرى، قال : أنا والله أدرى ! إنك رميتَ به، والله فى بطنك، فالله حسيبك .

ومن مؤلّفاته كتابُ البخلاء .

ولمـا صنّف سهلٌ كتابه فى البخل أهداه الى الحسن بن سهل وآستماحه، فكتب إليه الحسن : قد مدحتَ ما ذمّه الله، وحسّنت ما قبّحه الله، وما يقوم بفساد معناك صلاحُ لفظك، قد جعلنا ثوابَ مدحك فيه قبولَ قولك، فما نُعطيك شيئا .

وآتّهــم سهلُ بن هارون بالبخل واورد له فى ذلك قِصَصٌ ونوادرُ وعدّه الجاحظ من "متعاقلى البخلاء وأشحّــاء العلماء" قال : ما علمتُ أن أحدا جرّد فى البخل كتابا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى ، والبخل فى الفرس غالب فى الجملة ، غلبة الكرم على

طبائع العرب ، فاقتضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبـذير العرب ، أن يُدلى لقومه بآرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُوهد قطّ تفريطٌ ألا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهلُ بن هارون مُنقَطع القرين فى صنوف العلم والآداب، وناهيك بعَـالِم كبير كالجاحظ كان يؤلّف الكتابَ الكثيرَ المعانى، الحسن النَّظْم، فينسُبُه الى نفســه فلا يرى الأسماع تُصْغِى اليه، ولا القلوب تَيَمَّمُ نحوَه ثم يؤلّف كما قال عن نفسه، ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقلّ منه فائدةً، فينحَلُه عبد الله بن المقفّع، أو سهل بن هارون، فيُقبِل الناس عليها، ويسارعون الى نَسْخها .

ويقال إن طريقة سهل فى كتابته طريقةُ أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب لا يتكلّف لكلامه، فلا يُشاهد فيــه الناقدُ أثرَ التعمُّل، بل لا يكلّف بغير إرسال النفس على سجيّتها، فهو وآبنُ المقفّع والجاحظ على غِرَارٍ واحدٍ .

وقيل إن سهلا كاتبُ سلاطين، والجاحظ مؤلِّفُ دواوين. وكأنّ كلامَه نَغمةٌ موسيقيّةٌ تعرف آنتهاءَ جُمْلته من رَنّتها بعــد أن ملكتْ عليك مشاعرَك ، لا يَحْفِلُ بالأسجاع إلّا إذا جاءت عَفْوَ الخاطرِ، شأن بُلغَاء الصدرِ الأوّل . وكان يقول الشعر وأكثرُ شعره ممّا أملاه قلبُه، فى غرض من أغراض المجتَمع . وعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطِّوَالَ والقِصَار، والكتب الكبَار المجلّدة، والسِّيَرَ الحسَان المولّدة، والأخبار المدوّنة . ولقّبــه مرةً بالكاتب ، ولعلّ لقب الكاتب فى شرفه أكبرُ من عالم .
وذكره آبن النديم فى البلغاء وقال: إنّه شاعرٌ مُقِلٌّ، وعدّه فى الشعراء الكُتّاب . وقال: إنه كان ممن يعمل الأسْمَار والخُرافَات على ألْسِنة الناس والطَّيْر والبهائم هو وعبدُ الله بن المقفّع وعلىّ بن داود كاتب زبيْدة . وشعره نحسون ورقةً . أما الدهشة ففى تآليفه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب، وكتاب اسباسيوس (أسانوس) فى آتخاذ الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب ثَعْلة والعفراء، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

فى القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغزالين، كتاب ندود وودود ولدود، كتاب الرِّياض، كتاب ثعلة وعفراء، (وفى رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة، قلّده فى أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودىّ : يَزيد عليه أى على كليلة ودِمْنة فى حسن نَظْمه وقد صنّفه للمأمون . ومن تآليفه : كتاب الهزليّة والمخزومىّ، كتاب الوامق والعذراءالى غير ذلك من المصنّفات التى لم تُبْقِ الأيامُ ويالالأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهلٌ على الرشيد وهو يُضاحك المأمون، فقال : اللهم زِدْه من الخيرات، وٱبْسُط له من البركات، حتى يكون فى كلّ يوم من أيّامه مُرْبِياً على أمسه، مُقصرا عن غده، فقال الرشيد : يا سهلُ، مَن رَوَى من الشعر أحسنَه وأرصنَه، ومن الحديث أفصحه وأوضحَه، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القولُ؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحدا تقدّمنى الى هذا المعنى، قال بل أعشى هَمْدان حيث يقول :

رأيتُك أمسِ خيرَبنى لُؤَىٍّ ‍ ؛ وأنتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ

وأنت غدًا تَزيد الخيرَ ضعفًا ‍ ؛ كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد شَهِد مقتلَ البرامكة فى سنة ١٨٧هـ وحدّث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إنّ سَجّاعى الخطب، ومُحبرى القَريض عِيالٌ على يحيى بن خالد بن بَرْمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلامٌ يتصوّر دُرًّا، ويُحيله المَنْطِق السَّرِىّ جوهرًا، لكان كلامَهما، والمُنْتَقَى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد فى بديهته وتوقيعاته فى كُتُبه، فَدْمين عَيِين، وجاهلين امّيين، ولقد عُمّرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم، وهم يرَوْن أن البلاغة لم تُستكمل الا فيهم، ولم تكن مقصورةً إلا عليهم، ولا آنقادت الا لهم، وأنهم مَحْضُ الأنام، ولُبَاب الكِرَام، ومِلْحُ الأيام، عِتْقُ منظرٍ، وجودة مَخْبر، وجَزالةُ مَنْطق، وسهولةُ لفظ، ونزاهةُ نفس، وٱكتمالُ خِصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور

من خِصَالهم، كثير أيام مِن سواهم من لَدُن آدَم أبيهم الى النفخ فى الصور، وآبتعاث أهـل القبور، حاشا أنبياء الله المكرّمين، وأهل وَحْيه المرسَلين، لمـا باهتْ إلّا بهم، ولا عوّلتْ فى الفخر إلا عليهم، ولقـد كانوا مع تهذيب أَخلاقهم، وكريم أعـراقهم، وسعةِ آفاقهـم، ورِفْق ميثاقهم، ومعسولِ مذاقهم، وبهاءِ إشراقهم، ونقاوةِ أعـرَاضهم، وتَهذيبِ أغـراضهم، وآكتمالِ خِلَالِ الخير فيهم، الى ملء الأرض مثلهم فى جنب محاسن المأمون كالنَّفْثَة (التفلة) فى البحر، والخَرْدَلة فى المَهْمَهِ القفْر .

قيل : وهذا الكلام على ما فيـه من حقيقة فى بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختتم بالنَّصَفَة الحقّة، ومال به سهل الى المصـانعة، وخرّجه على نحو مبالغة الفُرْس، فى الإطراء والمَلَق لوليّ الأمر .

ورَوى بعضُ الرُّواة أن المأمون كان آستقل سهل بن هارون؛ وقد دخل عليه يوما والناسُ على مراتبهم، فتكلّم المأمونُ بكلام ذهب فيه كلَّ مَذْهب، فلما فَرَغ مـن كلامه أقبـل سهل بن هارون على الجَمْـع فقال : مالكم تسمعون ولا تَعُون ، وتُشاهدون ولا تَفْقهون، وتفهمون ولا تعجبون، وتعجبون ولا تُنْصِفون! والله إنه ليقول ويفعل فى اليوم القصير ما فَعَل بنو مَرْوان فى الدهر الطويل، عَرَبُكم كعَجَمكم، وعجمُكم كعبيدكم، ولكن كيف يُعَرَّف بالدواء مَن لا يشـعرُ بالداء . فرجع المأمونُ فيـه الى الرأى الأوّل؛ وعرف أنه الرجل كلّ الرجل ، فقرّبه وأدناه على النحو الذى كان عليه فى عهد والده .

ومن كلام له فى كتابه ثعلة وعفرة :

"اجعلوا أداءَ ما يجبُ عليكم من الحقوق مُقَـدَّما قبل الذى تجودون به من تفضلكم، فإنّ تقديم النافلة مع الإبطاء فى الفريضة شاهدٌ على وَهْن العقيدة ، وتقصيرِ الرَّويّة ، ومُضِرٌّ بالتدبير ، ومخلٌّ بالآختيار، وليس فى نفع تحمـد به عوض من فساد المروءة، ولزوم النقيصة " .

وهذا مأخوذ من قوله فى يحيى بن جعفر :

عَدُوُّ تِلَادِ المَالِ فيما يَنُوبُه * مَنُوعٌ اذا ما مَنْعُهُ كان أَحْزَمَا

مُذَلِّلُ نفسٍ قد أبتَ غيرَ أن ترَى * مكارِهَ ما تأْتِى من العيشِ مَغْنَمَا

وكتب الى صديق له أَبَلَّ من ضعف :

" بلغنى خبر الفَتْرة فى إلمامها وٱنحسارها ، والشكاةِ فى حلولها وٱرتحالها ، فكاد يشغل القَلَق بأوّله عن السكون لآخره ، وتَذْهَل الحَيْرةَ فى ٱبتدائه ، عن المَسرَّة فى ٱنتهائه ، وكان تَغَيُّرِى فى الحالين بقدرهما ٱرتياعاً للأولى ، وٱرتياحا للأُخْرى " .

* * *

وكتب فى البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح اللهُ أمْرَكم و جمع شَمْلَكم وعَلَّمكم الخير وجعلكم من أهله . قال الأحنفُ بن قيس : يا معشرَ بنى تميم ، لا تُسْرِعوا الى الفتنة فإنّ أسرع الناس الى القتال أقلُّهم حَياء من الفِرار . وقد كانوا يقولون : اذا أردتَ أن ترَى العيوب جَمَّةً فتأمل عَيَّاباً فإنه إنما يَعيب الناس بفضل ما فيه من العَيْب . ومن أعيب العيب أن تَعيب ما ليس بعيب . وقبيحٌ أن تَنْهَى مُرْشِداً وأن تُغْرِىَ بمُشْفِقٍ . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتَكم وتقويمَكم ، و إصلاحَ فاسدكم ، و إبقاءَ النعمة عليكم . وما أخْطَأْنا سبيلَ حُسْنِ النية فيما بيننا و بينكم . وقد تَعْلَمُون أنا ما أوصيناكم إلا بما ٱخترناه لكم ، ولأنفسنا قَبْلَكم ، وشُهِرنا به فى الآفاق دونكم ، ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿وَمَا أُرِيد أن أُخَالِفَكم الى ما أَنْهَاكم عنه إن أريد إلا الإصلاحَ ما ٱستطعتُ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أُنيب﴾ ، فما كان أحَقَّنا منكم فى حُرْمَتِنا بكم أن تَرْعَوْا حَقَّ قَصْدنا بذلك اليكم على ما رَعَيْناه من واجب حقّكم ، فلا العُذْرَ المبسوطَ بَلَغْتم ولا بواجب الحرمة قُمْتم . ولو كان ذِكْرُ العيوب يُرادُ به فَخْرٌ لرأينا فى أنفسنا من ذلك شغلا .

عِبْتُمونى بقولى لخادمى : أجيدى العَجينَ فهو أطْيَب لطَعْمه وأزْيَدُ فى رَيْعه[(١)] . وقـد قال عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه : أَمْلِكوا[(٢)] العجينَ فإنّه أحَدُ الرَّيْعَين .

وعِبْتُمونى حين خَتَمْتُ على ما فيه شيء ثَمين من فاكهةٍ رَطْبَةٍ نَقيّـة ومن رَطْبَة غريبة على عَبْد نَهِمٍ وصَبىّ جَشِع وأَمَةٍ لَكْعاء[(٣)] وزوجة مُضيعةٍ .

وعبتمونى بالخَتْم وقد خَتَم بعضُ الأئمّة على مِزْود[(٤)] سَـوِيق وعلى كيس فارغ . وقال : طِينَةٌ خير من ظَنّةٍ ، فأمسكتم عمّن ختَم على لا شىء وعِبْتم من خَتَم على شىء .

وعبتمونى أن قلتُ للغـلام : اذا زدتَ فى المَرَق فَزِد فى الإنضاج ليجتمع مع التأدُّم باللّحم طِيبُ المرق .

وعبتمونى بخَصْف[(٥)] النّعـل وبتَصْدير[(٦)] القميص وحين زَعَمْتُ أن المخْصُوفة من النّعل أبقى وأقوى وأشْبَه بالشّدّ وأن التّرقيع من الحَزْم والتّفْريط من التضييع . وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ويُرَقّع ثوبَه ويقول : لو أُهدى الىّ ذِرَاعٌ لقَبِلتُ ، ولو دُعِيتُ الى كُرَاعٍ لأجَبْتُ . وقالت الحكماءُ : لا جديدَ لمن لم يَلْبَس الخَلَق . وبعَثَ زِيادٌ رجلا يَرْتاد له مُحَدّثا وآشترط عليه أن يكون عاقلا فأتاه به موافقا فقال له : أكنتَ به ذا معرفة ؟ قال : لا ، ولكنى رأيته فى يوم قائظ يَلْبَس خَلَقا ويلبس النـاس جديدا ، فتفرَّستُ فيه العقلَ والأدبَ . وقد علمت أنّ الخَلَق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه . وقد جعل اللهُ لكل شىء قَدْرا وسمّا به مَوْضعا كما جعل لكل زمانٍ رجالا ولكل مقام مَقالا . وقد أحْيَا اللهُ بالسّمّ وأمات بالدواء وأغَصّ بالمـاء . وقد زَعَموا أن الإصلاح أحَدُ الكاسبين كما زعموا أن قِلّة العيال أحد اليَسَارَيْن . وقـد جَبَر الأحنفُ بن قيس يد عَنْز وأمر مالكُ بن أنس

(١) الريع : النماء والزيادة . (٢) إملاك العجين : إنعام عجنه . (٣) اللكعاء : الحمقاء .
(٤) المزود : وعاء الزاد . والسويق : طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير . (٥) خصف النعل : خرزها .
(٦) تصدير القميص : أن يجعل لصدره بطانة .

بِفَرْكِ النَّعل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْضَةً فقد أكل دَجَاجةً . ولَبِس سالم بن عبد الله جِلْد أُضْحِية . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أُهْدى اليك دجاجةً . فقال : إن كان لابد فاجعلها بَيُوضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضِعَ السَّرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى المُمْتَنَع الغالى . ولقد أُتِيتُ بماء للوضوء على مبلغ الكِفَاية وأشدّ من الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء والى التّوفير عليها من وَضيعة الماء (١) وجدتُ فى الأعضاء فَضْلا عن الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ سلكتُ الاقتصادَ فى أوائله لخرج آخرُه على كِفاية أوّله ولكان نصيبُ الأوّل كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذلك وشنّعتم علىّ ؛ وقد قال الحسن وذكر السّرف : أما إنه ليَكونُ فى الماء والكَلا فلم يَرْض بذكر الماء حتى أردفه الكَلا .

وعبتمونى أن قلت : لايَغْتَرّنّ أحدُكم بطول عمره وتَقْوِيس ظهره ورِقّة عَظْمه ووهْن قوّته وأن يرى نحوه أكثر ذُرِّيّته ، فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده وتحويله الى مِلْك غيره والى تحكيم السّرف فيه وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمرا وهو لا يدرى ، وممدودًا له فى السنّ وهو لايَشْعر ، ولعله أن يُرْزَق الولدَ على اليأس ويَحْدُث عليه من آفات الدهر ما لا يَخْطُر على بال ولا يُدْركه عقل ، فيستردّه ممن لا يردّه ويُظْهِر الشكوى الى من لا يرحمه أصْعَبَ ما كان عليه الطّلب وأقبح ما كان به أن يَطْلُب ، فعبتمونى بذلك ؛ وقد قال عمرو بن العاص : "اعْمَل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" .

وعبتمونى بأن قلت : بأنّ السّرف والتبذير الى مال المواريث وأموال الملوك وأنّ الحفظ للمال المكتسب والغنى المجتلب والى من لا يُعرِّضُ فيه ذهاب الدِّين واهتضام العرض ونَصَب البدن واهتمام القلب أسرع ومن لم يحسبْ نفقته لم يحسب دَخْلَه

(١) الوضيعة هنا : النقص .

ومن لم يحسب الدخل فقــد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغنى قَدْرَه فقد أُوذِن بالفقر وطاب نفسًا بالذل .

وعبتمونى بأن قلت : إن كَسْب الحلال يضمن الإنفاق فى الحلال . وإنّ الخبيث يَنْزِع الى الخبيث ، وإنّ الطّيّب يدعو الى الطيّب ، وإنّ الإنفاق فى الهوى حِجاب دون الهُدى ، فعبتم علىّ هــذا القول ، وقد قال معاوية : لم أر تبــذيرا قط إلا والى جنبه حقّ مُضَيَّع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجلُ مالَه فانظروا فيماذا يُنفقُه فإن الخبيث إنما يُنْفَق فى السّرف . وقلت لكم بالشّفقة عليكم وحسن النظر منى لكم وأنتم فى دار الآفات ، والجوائحُ غير مأمونات : فإن أحاطَتْ بمال أحدكم آفةٌ لم يرجِع إلا الى نفسه . فاحذروا النِّقَمَ باختلاف الأمكنة فإن البَلِيّة لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطـاب رضى الله عنه فى العبْـد والأَمة والشاة والبعير : فرّقوا بين المنـايا . وقال ابن سِيرين لبعض البَحْريّين : كيف تَصْـنَعون بأموالكم ؟ قالوا : نُفَرّقها فى السُّفُن فإن عَطِب بعضٌ سَلِم بعض . ولولا أن السلامة أكثر ما حَملنا أموالَنا فى البحر . قال ابن سِيرين : "تحْسَبها خَرْقاء وهى صَنَاع"(١) .

وعبتمونى بأن قلت لكم عند إشْفاقى عليكم : إن للغِنى لَسُكْرًا وللمـال لَنَزْوةً(٢) فمن لم يحفَظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المـال لخوف الفقر فقد أهمله .

فعبتمونى بذلك وقد قال زيد بن جَبَلة : ليس أحد أقصرَ عقلا من غنىّ أمِن الفقرَ ، وسُكْرُ الغِنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعرُ فى يحيى بن خالد بن بَرْمك :

وَهُوبٌ تِلادَ المـال فيما يَنُوبه * مَنُـوعٌ اذا ما مَنْعُه كان أحزما

وعبتمونى حين زعمتم أنى أقدّم المـال على العلم ، لأن المـال به يُفَاد العـلمُ وبه تقوم النفسُ قبل أن تَعْرِف فضلَ العلم ، فهو أصل والأصل أحقّ بالتفضيل من الفرع ، فقلتم :

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يقظ . (٢) النزوة : الثورة أو الوثبة .

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء أكثر ما يأتى الأغنياءُ أبوابَ العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجَهْل الأغنياء بحقّ العلم . فقلت : حالُهما هي القاضية بينهما . وكيف يستوى شيءٌ حاجةُ العامّة اليه وشيءٌ يَغْنَى فيه بعضُهم عن بعضٍ .

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياءَ باتّخاذ الغَنَم والفقراء باتّخاذ الدّجاج . وقال أبو بكر رضى الله عنه : إني لأُبغِضُ أهلَ بيْتٍ يُنفقون نفقةَ الأيامِ فى اليوم الواحد . وكان أبو الأسْود الدُّؤلىّ يقول لولَده : اذا بَسَط الله لك الرزقَ فابْسُط واذا قبَض فاقبِض .

وعبتموني حين قلت : فَضْلُ الغنى على القُوت إنما هو كفضل الالة تكون فى البيت اذا ٱحْتِيج اليها ٱستُعْملت وإن ٱستُغْنِيَ عنها كانت عُدّةً . وقد قال الحُصَيْن بن المنذر : وَدِدْتُ أن لى مثل أُحُدٍ ذَهَبًا لا أنتفع منه بشيء . قيل له : فما كنتَ تَصْنع به ؟ قال : لكثرة من كان يَخْدُمُني عليه لأن المال مخدوم . وقد قال بعضُ الحكماء : عليك بطلب الغِنَى فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك وذُلّ فى قلب عدوّك لكان الحظ فيه جسيما والنفع فيه عظيما .

ولسنا نَدَعُ سِيرةَ الأنبياء وتعليمَ الخلفاء وتأديبَ الحكماء لأصحاب اللّهو . ولستم علىّ تردّون ولا رأيي تُفَنِّدون ، فقدِّموا النظرَ قبل العزم وأدْركوا ما لكم قبل أن تُدْركوا مآلكم . والسلام عليكم .

وسَهْلٌ هو القائل :

نَقَسَّمني هَمّانِ قد كَسَفَا بالِي ... وقد تركا قلبي مَحَلّةَ بِلْبالِ

هما أَذْرَيا دَمْعِي ولم تُذْرِ عَبْرَتي ... رهينةُ خَدّ ذاتُ سِمْطٍ وخَلْخَالِ

ولا قَهْوةٌ لم يبْقَ منها سوى الذى ... على أن تُذاكى النور فى رأس ذُبّالِ

تحلّل منهـا جُرْمُها وتماسكتْ * لها نفسُ معـدومٍ على الزّمنِ الخالي
ولكنما أبكِي بعينٍ سَخِيَّـةٍ * على حَـدَثٍ تَبْكِي له عينُ أمثـالى
فِرَاقُ خليــلٍ لا يقــومُ به الأَسَى * وخَـلَّةُ حُرٍّ لا يقــومُ بهـا مالى
فَوَاحسرتى حتّى مَتَى القلبُ مُوجَعٌ * لنَفْر خليـــلٍ أو تعـــذُّر إفضال
وما الفضــلُ إلّا أن تَجُودَ بنائلٍ * وإلا لِقاء الخِــلِّ ذى الخُلُقِ العَالِي

وهو القائل :

اذا آمرؤٌ ضاقَ عنِّى لم يَضِقْ خُلُقِي * من أن يَرانى غَنيًّا عنـــه باليَأس
لا أطلبُ المـالَ كى أُغْنَى بفَضْلَتِهِ * ما كان مَطْلَبُهُ فَقْــرًا من الناس

(ز) عمـــرو بن مَسْعدة (١)

كان كاتبا بليغـا، جَزْلَ العبارة وجيزَها، سديدَ المقاصد، فضـلُه شائع، ونُبلُه ذائع؛ أشهرُ من أن يُنبّـه عليه، أو يُدَلَّ بالوصف اليه؛ قد وَلِيَ للمأمون الأعمـالَ الجليلةَ، وأُلحِقَ بذوي المراتبِ النبيلةِ. وسمّاه بعضُ الشعراء وزيراً لعظَم منزلته لا لأنه كان وزيرا، وهو قوله:

لقد أسعدَ اللهُ الوزيرَ بن مَسْعَدَهْ * وبُثَّ له فى النـاس شُكْرٌ ومَحْمَدَهْ

---

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول . وصول (بضم الصاد) كان رجلا تركيا وكان ملك وأخوه فيروز على جرجان وبجسا بعد التركية وتشبها بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة فى خدمة الدوله عاملا من العمال فظهرت كفايته و بلاغته ، و بالبلاغة توصـل الى الخليفة فعدّ أحد أفراد قلائل فى رجاله ، قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوما على المأمون و بيـده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعد فيه و يصوّب ، فلما مرت على ذلك مدّة من زمانه التفت الىّ وقال : يا أحمد أراك مفكرا فما تراه منى ، قلت : نعم ، فقال : ان فى هـذا الكتاب كلاما نظير ما سمعت الرشيد يقول فى البلاغة ، زعم أن البلاغة إنما هى التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معـنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على ذلك . وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا ، ففككته فاذا فيه : « كتابى الى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده ، ورؤساء أجناده ، فى الانقياد والطاعة ، على أحسن ماتكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم » . فلما قرأته قال : ان استحسانى اياك بعثنى أن أمرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله فى صناعته . وفى رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ! ألا ترى الى إدماجه المسألة فى الأخبار ، وإعفائه سلطانه من الاكثار .

وكان عمـرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الرومى لبياض وجهه وكان يخضب وتوفى بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم نعـرف منشأه ومولده وأساتيذه وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم — وكان كاتبا أيضا — تربيتهم كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التى كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون ، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويتصاولان معه ويمازحانه . ولكى يصل الرجل الى هذا المقام مع مثل هـذا الخليفة العظيم فى كل شؤونه يجب أن ينطوى على صفات عالية يعز مثلها فى الأقران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أوقع بين يدى جعفر بن يحيى البرمكى فرفع اليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها الى وقال : أجب عنها فكتبت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهرى وقال :

فهو كما كتبَ الحسنُ بنُ سهل الى محمد بن سَمَاعة القاضى وقد آحتاجَ الى رجلٍ يُوَلِّيه بعضَ الأعمال فقال: إنه يريد رجلا جامعا لخصال الخير، ذا عِفّة ونزاهة طِعمة (١)، قد هذَّبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بظَنِينٍ فى رأيه، ولا بمطعونٍ فى حَسَبه إن أُؤْتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مُهِمًّا من الأمور أجزأَ فيه (٢)، له سِنٌّ مع أدب ولسان، تُعقده الرزانة، ويُسكته الحلم، قد فُرَّ عن ذكاء وفِطْنة (٣)، وعضَّ على قارحة من الكمال (٤)، تكفيه اللحظةُ، وتُرشده السكتة، قد أبصر خدمةَ الملوك وأحكمها، وقام فى أمور فحُمِد فيها، له أَناةُ الوزراء، وصَوْلةُ الأمراء، وتواضُع العلماء، وفهمُ الفقهاء، وجوابُ الحكماء، لا يَبيع نصيبَ يومه بحرمان غده، يكاد يَسترِقّ قلوبَ الرجال بحَلاوة لسانه، وحُسْنِ بيانه، دلائلُ الفضل عليه لائحةٌ، وأماراتُ العلم له شاهدةٌ، مُضطلِعاً بما آستنهض، مستقِلًّا بما حمل .

= أى وزير فى جلدك . وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان فى عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه : إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد اذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فاذا رامه بعد عليه . وهذا كما قيل لأحد البلغاء : ما حد البلاغة؟ فقال : التى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فاذا رامها استصعبت عليه .

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف فى موضوع خاص وأفرد مسألة فى التأليف، وعدّه ابن النديم فى الشعراء الكتّاب ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهى من الضائع أيضا . والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتا يصرفه فى درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة : وما تلقطه العلماء والأدباء من كلامه، فهو مما صدر عنه بالمناسبات، ورواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه . والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أعواما طويلة وهو قابض على يراعته يعالج بها الموضوعات السياسية والادارية فى ذاك المجتمع العظيم لا شك أنه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلا معروفا بالايجاز . اهـ من محاضرة للاستاذ الباحث محمد كرد على نشرها بمجلة المجمع العلمى العربى . وفى عمرو بن مسعدة قال محمد البيدق وقد اعتل :

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم * نفسى الفداء له من كل محذور

يا ليت علته بى غير أن له * أجر العليل وإنى غير مأجور

وتجد ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوافى بالوفيات للصفدى (ج ٥ ص ٥٠٢ قسم ثالث من الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية) .

(١) فى الأساس : ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة (بالكسر) وهى الجهة التى منها يرتزق (بوزن الحرفة) . (٢) أجزأنى كذا : كفانى . (٣) فرعن ذكاء، وفطنة، أى جرب واختبر فيهما . (٤) وعض على قارحة، كناية عن بلوغه درجة الكمال .

ومن كلام عَمْرو بن مسعدة :

أعظمُ الناس أجراً، وأنبهُهُم ذِكْراً ، مَنْ لم يَرْضَ بموت العدل فى دولته ، وظهورِ الجحة فى سلطانه ، وإيصـال المنافع الى رعيّته فى حياته ، وأسـعدُ الرعاة مَن دامتْ سعادةُ الحقّ فى أيامه ، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال : الخطّ صُوَرُ الكُتُبِ تُرَدّ اليها أرواحُها .

وقال : الخطّ صورةٌ ضئيلةٌ لهـا معَانٍ جليلة ، ورُبّمـا ضاق عن العيون ، وقد ملأ أخطار الفنون .

وقال : لا تستصحبْ مَن يكون استمتاعُه بمالك وجاهك ، أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه ، ومَن كانت غايتُـه الاحتيالَ على مالك وإطراءَك فى وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا رديء الغيب ، سريعاً الى الذم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد ، فإنّك ممّن اذا غَرَسَ سَقَى ، واذا أسّس بَنَى ، ليستتمّ تشييدَ أُسُسِه ، ويجتنيَ ثِمَارَ غَرْسه ، وثناؤُك عندى قد شارفَ الدروسَ ، وغرسُك مُشْفٍ على اليبوس ، فتداركْ بناء ما أسّستَ ، وسقْيَ ما غَرَستَ إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه فى شخص يعزّ عليه :

أما بعد ، فموصِّل كتابى اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُديرونَنِي عن سالمٍ وأُديرُهم ، وجِلدَةُ بين العينِ والأنْفِ سالمُ

أى يَحُلّ منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون فى رجل من بنى ضبّة يستشفع له بالزيادة فى منزلتـه وجعل كتابه تعـريضا :

أما بعـد ، فقد استشفع بى فلانٌ يا أمير المؤمنين لتطوّلك علىّ ، فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمتُه أنّ أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المُستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام .

فكتب اليه المأمون : "قد عرفنا توطئتَكَ له ، وتعريضَك لنفسك ، وأجبناك اليهما ، ووافقناك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعتــه" : من الكلام السرّي الذي يدلّ على مَبْلغ أدبِ عمرو وبُعْــدِ غَوْره في السياسة ووقوفِه على رُوح عصره ونفسيّة الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أبناءِ دَهَاقِين(١) قريش ، على المأمون لِعِدَة سلفتْ منــه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوَصِّلُ مني رُقْعــةً الى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبُها تكن لك عليّ نعمتان . فكتب : "إن رأى أميرُ المؤمنين أن يَفُكَّ أَسْرَ عبــدِه من رِبْقة المَطْل بقضاء حاجته ، أو يَأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عَمْرا فجعل يَعْجَب من حسن لفظها ، و إيجازِ المراد . فقال عمرو : فما نتيجتُها يا أمير المؤمنين؟ قال : الكتّاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخَّر فضــلُ استحساننا كلامَه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صِــلَةً عن دناءة المَطْل . وسَمَاجة الإغفــال .

وهــذا ممــا يدلّ على ســعة عقل المأمون وولُوعه بالبلاغة وقدره أهلَها حقّ قَدْرهم ، دع ما هنالك من نفسٍ ما أحبتْ إلا الجُودَ والعطاءَ .

ومن حِكَم عمرو بن مسعدة :

العبوديّة عبوديةُ الإخاء . لا عُبُودية الرِّق . الودّ أعطف من الرَّحِم . إن الكريم لَيَرْعَى من المعرفة ما رعى الوَصْلُ من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينةٌ في الرخاء ، وعُدَّةٌ للبلاء . مَثَلُ الإخوان مَثَلُ النار ، قليلُها مَتاعٌ ، وكثيرُها بَوَار . النفس بالصديق ، آنَسُ منها بالعشيق ، وغَزَلُ المودة ، أَرَقُّ من غَزَل الصبابة . من حقوق المودة ، عفوُ الإخوان ، والإغضاءُ عن تقصيرٍ إن كان . ذكر رجلٌ رجلا فقال : حسبُك أنه خُلِقَ كما تشتهي إخوانُه . المودّةُ قرابةٌ

(١) الدهاقين : الزعماء أرباب الأملاك بالسواد ، وأحدهم دهقان (بكسر الدال معرّب) .

مستفادةٌ . ما تواصل اثنان فدام تواصلُهما، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرعُ الأشياء انقطاعا مودةُ الأشرار . المحروم من حُرِم صالحى الإخوان . لقاءُ الخليل شفاءُ الغليل . قلّةُ الزيارة، أمانٌ من المَلالة . إخوانُ السوءِ كشَجَر النار يُحرق بعضُه بعضا . علامةُ الصّديق اذا أراد القطيعة أن يُؤخّر الجوابَ ، ولا يبتدئ بالكتاب . لا يُفسدَنّك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقينُ له . من لم يُقدِّم الامتحانَ قبل الثّقة، والثقةَ قبل الأُنْس، أثمرتْ مودتُه نَدَمًا . اذا قدمتَ الحُرمة، تشبّهتَ بالقرابة . العِتابُ حياةُ المودة . ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد . ما أكثر مَن يُعاتَب لطلب علّة ، ويبقَى الوُدُّ ما بقى العتابُ . كُمُون الحقد فى الفُؤاد ككُمون النار فى الزّناد . القريب بعيدٌ بعداوته ، والبعيد قريبٌ بمودّته . لا تأمنَنّ عدوّك وإن كان مقهورا، واحذره وإن كان مفقودا، فإن حدَّ السيف فيه وإن كان مغمودا لا تتعرّضْ لعدوّك فى دولته، فإنها اذا زالت كفتْك مؤونتَه . نُصح الصديق تأديبٌ، ونصحُ العدو تأنيب .

روَى البَيْهَقِيّ قال : أخبرَنا بعضُ أصحابنا قال : شهدتُ المأمون يوما وقد خرج من باب البُستان ببغداد فصاح به رجل بَصْرِيّ : يا أمير المؤمنين إنى تزوجتُ بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازىّ فرّق بيننا وقال : هى امرأة من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن مسعدة فكتب الى أبى الرازى :

إنه قد بلغ أميرَ المؤمنين ما كان من الزيادية وخَلْعك إيّاها إذ كانت من قريش . فمتى تحاكمت اليك العرب ؟ لا أمّ لك فى أنسابها ، ومتى وكّلتك قريش يابن الخناء بأن تُلْصِق بها من ليس منها؟ فخَلِّ بين الرجل وامرأته ، فلئن كان زياد من قريش ، إنه لابن سُميّةَ بَغِيّ عاهرة، لا يُفتخر بقرابتها ولا يُتطاول بولادتها . ولئن كان ابن عُبَيد، لقد باء بأمر عظيم، اذ ادّعى الى غير أبيه، لحظ تعجّله، ومُلكٍ قهره .

وأمر المأمونُ عمرَو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عِناية الى بعض العُمّال فى قضاء حقّه، وأن يختصر كتابَه ما أمكنه، حتى يكونَ ما يكتبُ به فى سطر واحد، لا زيادةَ عليه . فكتب عمرو :

كتابى اليك كتابُ واثقٍ بمَن كتبتُ اليــه ، معْنىٍّ بمن كُتِب له ، ولن يَضيع بين الثِّقة والعناية حاملُه .

وكتب الى بعض الرؤساء، وقد تزوّجتْ أُمه فساءَه ذلك ، فلمـا قرأها ذلك الرئيس تَسلَّى بها، وذهب عنه ما كان يجِده . وقيل: إن هذه الرسالةَ من إنشاء ابن العَميد وهى :

الحمد لله الذى كشَفَ عنا سِتْرَ الحَـيْرة ، وهدانا لسَتْرِ العَوْرة . وجَدَعَ بمـا شَرَعَ من الحَلَال أَنْفَ الغَيْرة ، ومنع مَن عَضَل الأمهاتِ ، كما منع من وَأْدِ البناتِ ، استنزالا للنفوس الأبيّة ، عن الحَمِيّة حَمِيّـةِ الجاهليّة ، ثم عَرّض لجزيل الأجر ، مَن استسلم لواقع قضائه ، وعوّض جليلَ الذخر مَن صَبَرَ على نازل بلائه ، وهنّأكَ الذى شرح للتقوى صــدرك ، ووسّع فى البَـلوى صَبْرَكَ ، وألهمك من التسليم لمشيئته ، والرِّضا بقضيته ، ما وفّقك له من قضاء الواجب فى أحد أَبَوَيْك ، ومَن عَظُم حقّه عليـك ، وجعل الله تعـالى جَدُّه ما تجرّعْتَه من أَنَف ، وكظمتَه من أَسَف ، معدودا فيما يُعظِّم به أجرك ، ويجزل عليه ذُخْرك ، وقَرَن بالحاضر من امتعاضك بفعلها ، المُنتظر من ارتماضك بدفنها ، فتستوفِى بها المصيبة ، وتَستكمل عنها المَثُوبة ، فوصل الله لسيدى ما استشعره من الصّبرِ [illegible] يكتسبُه من الصبر على نفسها ، وعوّضه من أَسِرّة فرشها ، أعواد نعشها ، وجـ[illegible] جدُّه ما ينُعم به عليه بعدها من نعمة ، معرّى من نقمة ، وما يولّيه بعد قبضها من منْحة ، مُبرّأً من مِحْنَة ، فأحكام الله تعالى جَدُّه ، وتقدّستْ أسماؤه ، جاريةٌ على غير مُراد المخلوقين ، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خيرٌ لهم فى العاجلة ، وأبقى لهم فى الآجلة ، اختار الله لك فى قبضها اليــه ، وقدومها عليه ، ما هو أنفعُ لها ، وأولى بها ، وجعل القبر ، كُفُوءاً لها والسلام .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكىّ الذى ناظر بِشْر بن غِيَاث المِرِّيسىّ بحضرة أمير المؤمنين فى مسألة خَلْق القرآن :

جاءنى خليفةُ عمرو بن مسعدة ومعه جمْعٌ من الفرسان والرّجّالة فحملنى مُكْرَماً على دابّته حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفنى حتى جاء عمرُو بن مَسْعدة فدخل فجلس فى حُجرته

التى كان يجلس فيها ثم أَذِن لى بالدخول عليــه فدخلتُ فلما صرتُ بين يديه أجلسنى ثم قال لى : أنت مقيمٌ على ما كنتَ عليه أَو قد رجعت عنه؟ فقلتُ : بل مقيمٌ على ما كنتُ وقد ازددتُ بتوفيق الله تعالى إياى بصيرةً فى أمرى؛ فقال لى عمرو بن مسعدة : أيها الرجل، قد حملتَ نفسكَ على أمرٍ عظيم، و بلغتَ الغايةَ فى مكروهها، وتعرّضتَ لما لا قِوَامَ لك به فى مخالفة أمير المؤمنين، وادّعيتَ بما لا يثبتُ لك به حجةٌ على مخالفتك، ولا لأحدٍ غيرك، وليس وراءك بعــد الحُجّة عليك الا السيفُ ، فانظرْ لنفسك و بادر أمرَكَ ، قبــل أن تقعَ المناظرةُ وتَظْهَرَ عليك الحجةُ ، فلا تنفعك النّدامةُ ولا يقْبلُ منك معذرةٌ ولا تُقال لك عثْرةٌ؛ فقد رحمتُك وأشفقتُ عليك مما هو نازلٌ بك، وأنا أَستقيلُ لك أميرَ المؤمنين وأسألُه الصفحَ عن جُرْمك ، وعظيم ما كان منك اذا أظهرتَ الرجوعَ عنه والندمَ على ما كان ، وآخذُ لك الأمانَ منه والجائزةَ ، فان كانت لك ظُلَامةٌ أزلتُها عنك وان كانت لك حاجةٌ قضيتُها لك ، فانما جلستُ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أقمتَ على ما أنت عليــه ورجوتَ أن يخلصك الله تعالى على يدىّ من عظيم ما أوقعتَ نفسَك فيه .

شــــعره :

نقلْنا أمثلةً قليلةً من نثر عمرو بن مسعدة، أما شعرُه فقليلٌ جدا. ذَكَر المترجمون له أنه كان له فَرَسٌ أدهمُ أغَرُّ، لم يكن لأحد مثله فَراهَةً وحُسنا . فبلغ المأمونَ خبرُه، و بلغ عمرو ابنَ مسعدةَ ذلك . فخاف أن يأمر بقَوْده اليه فلا يكون له فيه مَحْمَدة، فوجّه به اليه هدية وكتب معه :

يا إماماً لا يُــدا ۔ نيــه اذا عُدّ إمامُ
فَضَلَ الناسَ كما يَفْـ ۔ ـضُل نقصانا تمامُ
قــد بعثْنا بجــوادٍ ۔ مثــلُه ليس يُرامُ
فــرَسٌ يُزْهى به لل ۔ ـحُسن سَرْجٌ ولجامُ
دُونه الخيــلُ كما دُو ۔ نك فى الفضلِ الأنامُ

وجهُهُ صُبحٌ ولكن * سائرُ الجسم ظــلامُ
والذى يَصْلُح للمــو * لَى على العبــدِ حَرَامُ

وعمرو هو القائل :

ومستعذِب للهَجْرِ والوصل أعذَبُ * أُكاتِمُه حُــبِّى فَيَنْأَى وأَقْــرُبُ
اذا جدتُ منى بالرضا جاد بالجَفَا * ويَزْعُمُ أنّى مُذْنِبٌ وهـــو أذنبُ
تعلّمتُ ألوانَ الرضا خوفَ هَجْـرِه * وعلّمه حُـــبِّى له كيف يَغْضَبُ
ولى غيرُ وجه قد عرفتُ طريقَهُ * ولكن بلا قلبٍ الى أين أذهبُ

ووقّع مرّة فى ظهر رُقْعة لرجل :

أَعْزِزْ عَلَىَّ بأمرٍ أنت طَالِبُـــهُ * لم يُمكن النُّجْحُ فيه وٱنقضى أَمَدُهْ

ولعمرو بن مسعدة حكاياتٌ منها ما حكاه القاضى التنوخىّ فى كتاب الفرج بعد الشدّة (١) : قال عمرو بن مســعدة : كنتُ مع المأمون عنــد قدومه من بلاد الروم حتى اذا نزلتُ الرَّقّة قال : يا عمرو، ما ترى الرَّخّجىّ قد احتوى على الأَهْوَاز، وهى سلّة الخير وجميعُ المــال قِبَلَه وطمع فيها، وكُتُبُهُ متّصــلة بحملها، وهو يتعلّل و يتربّص بى الدوائر؟ فقلتُ : أنا أكفى أمير المؤمنين هذا، وأنفذ مَن يضطره الى حَمْل ما عليه، فقال : ما يقنعنى هذا، فقلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فاخرُج اليه بنفسك حتى تُصَفِّده بالحديد، فتحمله الى بغداد وتَقبض على جميع ما فى يده من أموالنا، وتنظر فى أعمالنا وترتّب لها عُمّالا، فقلتُ : السمع والطاعة، فلما كان فى غدٍ دخلتُ عليــه فقال : ما فعلتَ فيما أمرتك به ؟ قلتُ : أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجىء فى غدٍ مُوَدّعا؟ قلت : السمع والطاعة، فلمــا كان فى غدٍ جئتــه مودّعا، فقال : أريد أن تحلف لى أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا، فاضطربتُ من ذلك الى أن حضّنى وآستحلفنى ألا أقيمَ فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجتُ

(١) راجع (ج ٢ ص ٥ ٣ طبعة الهلال) . والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق) .

حتى قدمتُ بغداد ، فلم أُقِم بها إلا ثلاثة أيام وٱنحدرتُ فى زَلالىّ أريد البصرة وجُعل لى فى الزلالى خَيش واستكثرتُ من الثلج لشدّة الحرّ .

فلما صرتُ بين جُرْجان(١) وجَبُّل سمعتُ صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملّاح ، فرفعتُ سَجِف الزَّلالىّ وإذا بشيخ كبير السنّ جالسٍ حاسرِ الرأسِ حافِي القدمين خَلَقِ القميص ، فقلت للغلام : أجبْه ، فأجابه ، فقال : ياغلام ، أنا شيخ كبير السنّ على هـذه الصورة التى ترى ، وقد أحرقَتْنى الشمسُ وكادتْ تتلفنى ، وأريد جبل ، فاحملونى معكم فإنّ الله يحسن أجر صاحبكم ، قال : فشتمه الملّاح وٱنتهره ، فأدركَتْنى رقّةٌ عليه وقلتُ : خذوه معنا ، فتقدّمنا الشطّ وصِحْنا به وحَمَلناه ، فلما صار معنا فى الزلالىّ وٱنحدَرْنا تتقدّم فدفعتُ اليـه قميصا ومِنْديلا وغَسَلَ وجهه واستراحَ وكأنّه كان مَيْتا وعاد الى الدنيا فحضرَ وقتُ الغذاء وتقدّمت وقلتُ للغلام : هاتِه يأكلْ معنا ، فجاء وقعَدَ على الطعام ، فأكل أكلَ أديبٍ نظيفٍ غير أنّ الجوع أثّر فيه ، فلما رُفِعتْ المـائدةُ أردت أن يقوم ويَغْسل يده ناحية كما تفعل العامة فى مجالس الخاصّـة فلم يفعل ، فغسلتُ يدى وتذمّمتُ أن آمر بقيامه ، فقلتُ : قدّموا له الطشت فغسل يده ، وأردتُ بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل ، فقلتُ : يا شيخ ، أىّ شيء صناعتك؟ قال : حائك أصلحك الله ، فقلتُ فى نفسى : هذه الحياكة علّمته سوءَ الأدب ، فتناومتُ عليه ومددتُ رجلى فقال : قد سألتنى عن صناعتى وأنت أعزّك الله ما صناعتك؟ فأكبرتُ ذلك وقلت : أنا جَنَيْتُ على نفسى هذه الجناية ولا بدّ من احتمالها ، أتراه الأحمق لا يرى زَلالىّ وغلمـانى ونعمتى وأنّ مثلى لا يقال له هذا ! فقلتُ : كاتب ، فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإنّ الكتّاب خمسـة ، فأيّهم أنت ؟ فورد علىّ قول الحائك موردا عظيما وسمعتُ كلاما أكبرته وكنت متكئا فجلست ، ثم قلت : فَصِّل الخمسة قال :

نعم ، كاتبُ خراج يحتاج أن يكون عالمـا بالشروط والطسوت والحسـاب والمساحة والبثوق والفتـوق والرتوق . وكاتبُ أحكام يحتاج أن يكون عالمـا بالحلال والحرام

(١) فى العقد الفريد : «بين دبرهرقل ودير العاقول» .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبُ مَعُونة يحتاج أن يكون عالمـا بالقصاص والحـدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكاتبُ جَيْش يحتاج ان يكون عالمـا بحُلَى الرجال وشِيَات الدوابّ ومُدَاراة الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالمـا بالصدور والفصول والإطالة والايجاز وحُسْن البلاغة والخط ، قال : فقلت : إنى كاتب رسائل ، قال : فأسألك عن بعضها ، قلت : قل ، فقال لى :

أصلحك الله ، لو أنّ رجلا من إخوانك تزوّج أمّك فأردت أن تكاتبــه مهنئا فكيف كنتَ تكاتبه ؟ ففكرتُ فى الحـال فلم يخطر ببالى شىء ، فقلتُ : ما أرى للتهنئة وجها ، قال : فكيف تكتب اليه تعزّيه ففكرت فلم يخطر ببـالى شىء ، فقلت : اعفنى ، قال : قد فعلت ، ولكنّك لست بكاتب رسائل ، قلت : أنا كاتب خَرَاج ، قال : لا بأس ، لو أنّ أمير المؤمنين ولاّك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيتظلم اليك بعضهم من مسّاحيـك وأحضرتهم للنظر بينهم و بين رعيتك ، فحلف المسّاح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا ، وحلفتْ الرعيّة بالله إنهم لقد جاروا وظلموا ، وقالت الرعيّة : قف معنا على ما مَسَحوه وانظر مَن الصادق مِنَ الكاذب ، فخرجتَ لتقف عليه ، فوقفوا على براح شَكْلُه قاتل قثا ، كيف كنتَ تمسحه ؟ قلت : كنت آخذ طوله على انعراجه وعرضــه ثم أضربه فى مثله ، قال : إنّ شكل قاتل قثا أن يكون زاويتاه محدودتين وفى تحديده تقويس ، قلت : فآخذ الوَسَــط فأضربه فى العَرْض ، قال : إذًا ينثنى عليــك العمود ، فأسكتنى ، فقلت : ولستُ كاتبَ خراج ، قال : فإذًا ما أنت ؟ قلت : أنا كاتبُ قاضٍ ، قال : أرأيتَ لو أنّ رجلا توفى وخَلّف امرأتين حاملتين إحداهما حُرّة والأخرى سَرِيَّة ، فولدتْ السريّة غلاما والحـرّة جارية ، فعَـدَتْ الحرّة الى ولد السريّة فأخـذته ، وتركتْ بدله الجارية فاختصما فى ذلك ، فكيف الحُكْم بينهـما ؟ قلتُ : لا أدرى ، قال : فلستَ بكاتب قاض ، قلتُ : فأنا كاتبُ جيش ، فقــال : لا بأس ، أرأيتَ لو أنّ رجلين جاءا اليك لتُحَلِّيهما وكلّ واحد منهما اسمــه واسم أبيــه كاسم الآخر إلا أنّ أحدهما مشقوقُ الشفة العليا ، والآخرَ مشقوقُ

الشفة السفلى ؟ كيف كنتَ تحليهما ، قال : قلتُ : فلانٌ الأفلح وفلان الأعلم ، قال : إنّ رزقهما مختلفان وكلّ واحد منهما يجيء فى دعوة الآخر ، قلتُ : لا أدرى ، قال : فلستَ بكاتب جَيْش ، قلتُ : أنا كاتب مَعُونة ، قال : لا تبالى ، لو أنّ رجلين رُفِعا اليك قد شَجّ أحدُهما الآخَر شجّةً مُوضِحَةً(١) ، وشجّ الآخرُ شجّةً مأمونة ، كيف كنتَ تفصل بينهما ؟ قلت : لا أدرى ، قال : لستَ إذًا كاتب مَعُونة ، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا ، قال : فصَغُرَتْ الىّ نفسى وغاظنى ، فقلت : قد سألتُ عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندى ، فإن كنت عالما بالجواب فقل ، فقال .

نعم ، أما الذى تزوّج أمك فتكتب اليه : أما بعد ، فإنّ الأمور تجرى من عند الله بغير محبّة عباده ولا اختيارهم ، بل هو تعالى يختار لهم ما أحبّ ، وقد بلغنى تزويج الوالدة خار الله لك فى قبضها ، وإنّ القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قثا فتمسح العمود حتى اذا صار عددا فى يدك ضربته فى مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما الجاريةُ والغلامُ فيُوزَن لَبَنُ الاثنتين ، فأيّهما كان أخفّ فالجارية له .

وأما الجنديان المتفقا الاسمين ، فإن كان الشقّ فى الشفة العليا قيل فلان الأعلم ، واذا كان فى الشفة السفلى قلتَ فلان الأفلح .

وأما صاحبُ الشجّتين فلصاحب الموضحة ثُلْث الدية ، ولصاحب المأمونة نصف الدية ، فلما أجاب بهذه المسائل تعجّبتُ منه وامتحنتُه بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرا فى جميعها حاذقا بليغا ، فقلتُ : ألستَ زعمتَ أنك حائك ، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولستُ بحائك نَسّاجة ، وأنشأ يقول :

ما مَرّ بؤسٌ ولا نعيمٌ ٭ إلا ولى فيهما نصيبُ
فذقتُ حُلْوًا وذقتُ مُرًّا ٭ كذاك عَيْش الفتى ضروبُ
نوائبُ الدهر أدّبتنى ٭ وإنّما يُوعَظُ الأديبُ

(١) الموضحة : الشجة التى تبدى وضح العظام .

قلتُ : فما الذى بك من سوء الحال؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامتْ عُطْلتى، وكَثُرَتْ عَيْلتى، وتواصلتْ مِحْنتى، وقَلّت حِيلتى، فخرجتُ أطلبُ تصرُّفا فقُطِع علىَّ الطريق فصرتُ كما ترى، فمشيت على وجهى، فلمّا لاحَ لى الزّلالى استغثتُ بك، قلتُ : فإنى قد خرجتُ الى مُتَصَرَّف جليل أحتاجُ فيه الى جماعةٍ مثلك، وقد أمرتُ لك بخِلْعة حَسَنَة تصلح لمثلك وخمسةِ آلاف درهم تُصلِح بها أمرَك، وتُنفِذُ منها الى عيالك، وتُقَوِّى نفسَك بباقيها، وتصير معى الى عَمَلى فأولّيك أجلَّه، فقال : أحسنَ الله جزاءك إذًا تجدُنى بحيث أسرّك، ولا أقومُ مقامَ معذر اليك إن شاء الله، وأمرت بتقبيضه ما رَسَمتُ له قَبْضه، وانحدر الى الأهواز معى، بجعلته المناظرَ للرجحى والمحاسبَ له بحضرتى، والمستخرجَ لمَا عليه، فقام بذلك أحسن قيام وعَظُمت حاله معى، وعادتْ نعمته الى أحسن ما كانت عليه .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيُّوب التَّيْمى :

أَعِنِّى على بارقٍ ناصبٍ * خَفِىٍّ كوَحْيك بالحاجبِ
كأنّ تألّقه فى السماء * يدا كاتبٍ أو يدا حاسبِ
فروّى منازلَ تذْكارُها * يُهَيِّج من شوقك الغالب
غريبٌ يحِنّ لأوطانه * ويَبْكى على عصره الذاهب
كفاك أبو الفضل عمرُو النَّدَى * مطالعةَ الأملِ الكاذبِ
وصدقُ الرجاء وحُسْنُ الوفاء * لعمرو بن مَسْعَدَة الكاتبِ
عريضُ الفِناء طويلُ البِنا * ء فى العِزِّ والشَّرَف الثاقب
بنى الملك طودٌ له بيْته * وأهلُ الخلافة من غالب
هو المرتجَى لصروف الزمان * ومُعْتَصَمُ الراغبِ الراهب
جوادٌ بما ملكتْ كفُّه * على الضيف والجار والصاحب
بأدْمِ الرِّكاب ووَشْيِ الثيا * بِ والطِّرْف والطَّفْلة الكاعب
نؤمِّلُه لجِسامِ الأمور * ونرجوه للجَلَل الكارب

خَصِيبُ الجنابِ مَطِيرُ السحاب * بشيمته لَيِّنُ الجانب
يُرَوِّى القَنَا من نحور العِدَا * ويُغْرِقُ فى الجُود كاللّاعب
اليك تبدّت بأكوارها * حراجيجُ فى مَهْمَهٍ لاحب
كأنّ نعامًا تَبَارَى بنا * بوابِل من بَرَدٍ عاصب
يَرِدْنَ نَدَى كفِّك المُرْتَجَى * ويَقْضِينَ من حقّك الواجب
ولله ما أنتَ من خابرٍ * بسَجْلٍ لقومٍ ومن خارب
فتَسْقِى العدا بكؤوس الرَّدَى * وتسبِقُ مسئلةَ الطالب
وكم راغبٍ نلتَه بالعَطَا * وكم نلتَ بالعَطْف من هارب
وتلك الخلائقُ أعْطِيتَها * وفَضْلٌ من المانح الواهب
كَسَبْتَ الثناءَ وكسبُ الثنا * ء أفضلُ مَكْسَبةِ الكاسب
يقينُك يجلو ستورَ الدُّجَى * وظنُّك يُخْبِر بالغائب

رسائل الجاحظ

رسالته في بني أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ (١) : أطال الله بقاءك ، وأتمّ نعمته عليك ، وكرامته لك . اِعلم أرشد الله أمرَك ، أنّ هذه الأمةَ قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقاتٍ مُتَفاوتة ، ومنازلَ مختلفةٍ : فالطبقة الأولى عصر النبي صلّى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وستّ سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض (٢) ، مع الأُلْفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولابِدْعة فاحشة ، ولا نزعُ يد من طاعة ، ولاحسدٌ ولا غِلٌّ ولا تأوُّل ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمانَ ، رضى الله عنه ، وما انْتُهِك منه ، ومن خَبْطهم إيّاه بالسلاح ، وبَعْج بطنه بالحِراب ، وفَرْى أَوْداجه بالمَشاقِص ، وشَدْخ

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى صاحب التصانيف الممتعة والرسائل المبدعة . وقد تقدّم الكلام عليه فى المجلد الأوّل من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه مما وضع فى الاسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والموات . وصاف لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحياهم إلا أنه غالب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة فهو أوّل من ألف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما .

وكان غاية فى الذكاء ودقة الحسّ وحسن الفراسة إلى دعابة فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس انفسهم ويتحاونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وعدم مبالاة بوقوع المتورّعين فيه . وكان سمحا جوادا كثير المواساة لإخوانه وكان على دمامة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح ، فكه المجلس ، غاية فى التظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وأحد حجج اللسان العربى . توفى سنة ٢٥٥ هـ ببغداد بمقبرة الخيزران . وتجد ترجمته فى معجم الادباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٣) .

(٢) فى الأصل : « المخلص » .

هامته بالعُمُد، مع كفّه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبلَ ذلك : من كم وجهٍ يجوز قتلُ من شهِد الشهادة، وصلّى القبلة، وأكل الذبيحة؛ ومع ضرب نسائه بحضرته، وإقحام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلة بنت الفَرافِصَة[1] عنه بيدها، حتى أَطَنُّوا[2] إصبعَيْن من أصابعها، وقد كشفتْ عن قِناعها، ورفعتْ عن ذَيلها ليكون ذلك رادعا لهم، وكاسرا من غَرْبهم ؛ مع وطئهم فى أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المَزْبلة جسدَه مُجرّدا بعد سحبه، وهى الجزرةُ التى جعلها رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم كُفْئا لبناته وأَيامِاه وعَقائله، بعدَ السبّ والتعطيش والحصْر الشديد، والمنع من القوت، مع احتجاجه عليهم وإفحامه لهم؛ ومع اجتماعهم على أنّ دمَ الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلّا مَن ارتد بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قتل مؤمنا على عَمْد، أو رجلٍ عدا على الناس بسيفه فكان فى امتناعهم منه عطبه ؛ ومع اجتماعهم على ألّا يُقْتل من هـذه الأمّة، ولا يُجْهَز منها على جَرِيح ؛ ثم مع ذلك كلّه ذَمَّرُوا[3] عليه وعلى أزواجه وحُرَمِه وهو جالس فى مِحْرابه ومُصْحفُه يلوح فى حِجْره، لن يُرَى أنّ مُوَحِّدا يقْدِم على قتل مَن كان فى مثل صفته وحاله .

لاجَرم لقد احْتَلَبوا به دمًا لاتطير رغوتُه، ولا تَسْكُنُ فورتُه، ولا يموت ثائرُه، ولا يكِلّ طالبُه، وكيف يُضيِّع اللهُ دم وَليّه، والمنتقم له، وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، غلا غليانُه، وقُتِل ساَفِحُه، وأُدْرِكَ بطائلته، وبلغ كلُّ محبته، كدمه رحمة الله عليه .

ولقد كان لهم فى أخذه، وفى إقامته للناس، والاقتصاص منه، وفى بيع ما ظهَر من رباعه، وحَدائقه، وسائر أمواله، وفى حَبْسه بما بَقِي عليه، وفى طَمْره حتى لا يُحَسّ، بذكره، ما يُغْنيهم عن قتله إنْ كان قد رِكب كلّ ماقذفوه به، وادَّعَوْه عليه، وهـذا كلّه بحضرة جِلّة المهاجرين والسلَف المقدَّمين، والأنصار والتابعين .

(١) قال فى شرح القاموس : كل مافى العرب من هذا الاسم «فرافصة» فهو بضم الفاء الا فرافصة أبا نائلة فهو بالفتح لاغير .

(٢) أطنوا : قطعوا .

(٣) حض بعضهم بعضا عليه متهددين .

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفــة، ومراتبَ متباينــة : من قاتلٍ ومن شادّ على عضده، ومن خاذل عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته، وإنّمــا الشك منّا فيــه، وفى خاذله، ومن أراد عزله والاســتبدالَ به؛ فأمّا قاتله، والمعينُ على دمه، والمُريدُ لذلك منــه، فضُلّالٌ لاشــكّ فيهم، ومُرّاقٌ لا امتراء فى حكمهم؛ على أنّ هــذا لم يَعْــدُ منهم الفجورَ : إمّا على ســوء تأويلٍ، وإمّا على تعمّد للشّقاء، ثم ما زالت الفتن مُتّصلة، والحروبُ مترادفةً، كحرب الجمل، وكوقائع صِفِّين، وكيوم النَّهْرَوان، وقبل ذلك يوم الزَّابُوقة[1]، وفيه أُسِر ابن حُنَيف، وقُتل حَكِيم بن جَبَلة، الى أن قتَل أشقاها عليّ بن أبى طالب رضوان الله عليه، فأسعده الله بالشهادة، وأوجب لقاتله النار واللعنة؛ الى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروبَ وتخْليته الأمورَ، عند انتشار أصحابه، وما رأى من الخلل فى عسكره، وما عرَف من اختلافهم على أبيه، وكثرة تلونهم عليه؛ فعندها استوى معاويةُ على الملك، واســتبدّ على بقية الشُّورَى، وعلى جماعة المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، فى العام الذى سَمَّوْه عامَ الجماعة، وما كان عامَ جماعةٍ، بل كان عام فُرقــةٍ وقهْرٍ وجَبَرِيّةٍ وغَلَبَةٍ، والعامَ الذى تحوّلت فيــه الإمامة مُلْكا كِسْرَوِيّا، والخلافةُ غصبا قَيْصَريّا، ولم يَعْــدُ ذلك أجمعُ الضلالَ والفسقَ، ثم مازالت معاصيه من جنس ماحكيْنا، وعلى منازِلِ مارتّبنا، حتى رَدّ قضِــيةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوفا، وجحَد حكمَه جَحْدا ظاهرا، فى ولد الفِــرَاش وما يَجب للعَاهِر، مع اجتماع الأمة انّ سُمَيّــة لم تكن لأبى ســفيان فِراشا، وأنّه إنمــا كان بها عاهرا . فخرج بذلك من حُكم الفجّار الى حكم الكفار، وليس قتل حُجْر بن عَدِىّ، وإطعامُ عمرو بن العاص خراجَ مِصر، وبيعةُ يزيد الخَلِيع، والاستئثارُ بالفىْء، واختيارُ الوُلاة على الهوى، وتعطيلُ الحدود بالشفاعة والقرابة، من جنس جحد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسُّنَنِ المَنْصوبة، وسواءٌ فى باب مايستحقّ من الكفار جحَد الكتاب، وردُّ الســنة اذا كانت الســنة فى شُهْرة الكتاب وظهوره، إلا أنّ أحدَهما

---

(١) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أوّل النهار .

أعظم، وعقابَ الآخرة عليه أشدّ، فهذه أوّل كَفْرَة، كانت من الأمّة، ثم لم تكن إلّا فيمن يدّعى إمامتها، والخلافة عليها؛ على أنّ كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره، وقد أرْبَتْ عليهم نابتةُ عصرنا، ومُبْتَدِعةُ دهرنا، فقالت : لا تسبّوه، فإنّ له صحبة، وسبّ معاوية بدعة، ومَن يُبْغِضه فقد خالف السنة، فزعمتْ أنّ من السنة ترك البَرَاءة، ممن جحَدَ السنة؛ ثم الذى كان مِن يزيدَ ابنهِ، ومن عمّاله، وأهل نُصْرته، ثم غزو مكّةَ، ورمى الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين عليه السلام، فى أكثر أهل بيته، مصابيح الظلام، وأوتاد الإسلام، بعد الذى أعطى من نفسه، من تفريق أتباعه، والرجوع الى داره وحَرَمه، أو الذّهاب فى الأرض، حتّى لا يُحسّ به أو المُقام حيث أُمِرَ به، فأبوْا إلّا قتله، والنزولَ على حكمهم، وسواءٌ قتل نفسَه بيده، أو أسْلَمها الى عدوّه، وخُيِّر فيها مَن لا يبرُد غليلُه إلّا بشُرْب دمه، فاحسبوا قتلَه ليس بكفر، وإباحةَ المدينة، وهتْكَ الحُرمة، ليس بحجة؛ كيف تقولون فى رمْى الكعبة، وهدمِ البيت الحرام، وقبلة المسلمين؟ فإن قُلتم ليس ذلك أرادوا بل إنّما أرادوا المتحرّز به، والمتحصّن بحيطانه، أفما كان فى حق البيت وحريمه أن يَحْصُروه فيه، الى أنْ يُعْطى بيده! وأىّ شىءٍ بَقِى من رجل، قد أُخِذَتْ عليه الأرض إلا موضعَ قدمه! واحسُبوا ما رووا عليه من الأشعار، التى قَوْلها شِرْك، والتمثّل بها كفرٌ، شيئا مصنوعا؛ كيف تصنع بنَقْر القضيب بين ثَنِيَّتَى الحسين عليه السلام، وحمل بنات رسول الله صلّى الله عليه وسلم حواسرَ على الأقتاب العارية، والإبل الصِّعاب، والكشف عن عورة على بن الحسين عند الشك فى بلوغه! على أنّهم إنْ وجدوه، وقد أنبت قتلوه وإنْ لم يكن أنبت حملوه، كما يصنع أميرُ جيش المسلمين، بذرارى المشركين؛ وكيف تقول فى قول عُبَيْد الله بن زياد لإخوته وخاصّته، دعونى أقتلْه، فإنّه بقيّةُ هذا النسل، فأَحسِم به هذا القرنَ، وأُميت به هذا الداءَ، وأقطع به هذه المادة !

خبّرونا علام تُدل هذه القسوةُ، وهذه الغلظة! بعد أنْ شفوْا أنفسهم بقتلهم، ونالوا ما أحبّوا فيهم، أتدلّ على نَصْب، وسوء رأى وحقد، وبغضاء ونفاق، وعلى يقين مدخول

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص، وعلى حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، والحفظ له، وعلى براءة الساحة وصحـة السريرة ! فإنْ كان على ما وصفنا لا يَعْـدو الفسقَ والضلال، وذلك أدنى منازله؛ فالفاسق ملعون، ومَن نَهى عن نهى الملعون فملعون .

وزعمتْ نابتة عصرنا، ومبتدعةُ دهرنا، أنّ سبّ وُلاةِ السوء فِتنـةٌ، ولعنَ الجوَرَةِ بِدْعَة، وإنْ كانوا يأخذون السّمِيّ بالسّمِيّ، والوليّ بالوليّ، والقريبَ بالقـريب، وأخافوا الأولياءَ، وأمّنوا الأعداء، وحكموا بالشفاعة والهوَى، وإظهارِ الغدرة والتهاون بالأمّة، والقَمْع للرّعيّة، وأنّهم في غير مُداراة ولا تقيّة، وإنْ عدا ذلك الى الكفر، وجاوز الضلال الى الجَحْد، فذاك أضلّ ممّن كفّ عن شَتْمهم، والبراءةِ منهـم، على أنّه ليس مَن استحقّ اسمَ الكفر بالقتـل كمَن استحقّه بردّ السـنة وهدم الكعبة، وليس مَن استحقّ اسم الكفر بذلك كمَن شبّه الله بخلقه، وليس مَن استحقّ الكفر بالتشبيه كمَن استحقّه بالتجْوِير(1)، والنابتة في هذا الوجه أكفرُ من يزيدَ وأبيه، وابن زِياد وأبيه، ولو ثبت أيضا على يزيدَ أنّه تمثل بقول بن الزِّبَعْـرَى :

ليتَ اشياخي ببدْرٍ شهِدوا * جزعَ الخزْرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ
لاسـتطاروا واستهلّوا فَرَحًا * ثم قالوا يا يزيدُ لا تَسَـل
قد قتلنا الغُرّ من ساداتهم * وعدَلْنـاهُ ببـدرٍ فاعتـدَل

كان تجويرُ النابتي لربّه، وتشبيهه بخلقه، أعظمَ من ذلك وأقطع، على أنهـم مُجْمِعون على أنّه ملعون من قتـل مؤمنا، متعمدا أو متأولا؛ فاذا كان القاتل سلطانا جائرا، أو أميرا عاصيا، لم يستحلوا سـبّه، ولا خلعه، ولا نفيه، ولا عيبه، وإنْ أخاف الصلحاء، وقتل الفقهاء، وأجاع الفقير، وظلم الضعيف، وعطّل الحدود والثغور، وشرب الخمور، وأظهر الفجور؛ ثم ما زال الناس يتسكعون مرّة، ويداهنونهم مرّة، ويقاربونهم مرّة، ويشاركونهم مرّة إلّا بقيّةً ممن عصمَه الله تعالى ذكرُه، حتى قام عبد الملك بن مرْوان، وابنه الوليد،

(١) نسبه الله الى الجور .

وعاملهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبي مُسْلِم، فأعادوا على البيت بالهدم، وعلى حَرَم المدينــة بالغزْو، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحُرْمة، وحوّلوا قبــلة واسطَ، وأخّروا صلاة الجمعة، الى مُغَيْرِبَانِ الشمس، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أخّرت الصلاة عن وقتها، قتله على هــذا القول جِهارا غيرَ خَتْلٍ، وعَلانيةً غيرسرّ، ولا يُعْــلَم القتل على ذلك إلّا أقبحَ من إنكاره، فكيف يكفّر العبد بشيء ولا يكفّر بأعظم منه !

وقدكان بعض الصالحين ربّما وعظ الجبابرة، وخوّفهم العواقبَ، وأراهم أنّ فى الناس بَقيّةً يَنْهَوْن عن الفساد فى الأرض، حتى قام عبد الملك بن مروان، والحجاجُ بن يوسف، فزجرا عن ذلك، وعاقبا عليه، وقتلا فيه، فصاروا لا يَتَناهَوْن عن منكر فعلوه، فاحسبْ تحويل القبلة كان غلطا، وهدم البيت كان تأويلا، واحسبْ ما رووْا من كلّ وجه، انّهم كانوا يزعمون أنّ خليفة المرء فى أهله أرفعُ[(١)] عنده من رسوله اليهم، باطلا ومسموعا مولّدا، واحسب وَسْمَ أيدى المسلمين ونقشَ أيدى المسلمات، وردّهم بعد الهجرة الى قُراهم، وقتلَ الفقهاء، وسبَّ أئمة الهُدَى، والنّصْب لعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يكون كفرا، كيف تقول فى جمع ثلاث صلوات فيهنَّ الجمعة، ولا يُصَلّون أُولاهنّ، حتى تصير الشمسُ على أعالى الجُدران، كالمُلَاءِ المُعَصْفَر، فإن نطقَ مسلمٌ، خُبِطَ بالسيف، وأخذته العُمُد، وشُكّ بالرّماح، وإن قال قائل : اتّق الله أخذتْه العِزّة بالإثم، ثم لم يَرْضَ إلا بنثر دماغه على صدره، وبصلبه حيث تراه عِيــالُه، وممــا يَدُلّ على أنّ القومَ لم يكونوا إلا فى طريق التمــرّد على الله عزّ وجلّ، والاستخفاف بالدين، والتهاون بالمسلمين، والابتذالِ لأهل الحق، أكلُ أمرائهم الطعامَ، وشربُهم الشرابَ على منابرهم أيّامَ جُمَعِهم وجُموعهم، فَعلَ ذلك حُبيش[(٢)] بن دُلْجَة، وطارق مولى عثمان، والحجّاج بن يوسف، وغيرهُم، وذلك إنْ كان كفرا كلّه فلم يبــلغ كفرَ نابتة

---

(١) يشير بذلك الى ماورد عن الحجاج انه قال فى كلام له : ويحكم أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله اليهم، يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة و بمثل هـذا رمى الحجاج بالكفر وقد عقــد ابن عبد ربه فى العقد الفريد فصلا فيمن زعم ان الحجاج كان كافرا راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣

(٢) فى الأصل : «حسن» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه كما فى شرح القاموس والطبرى .

عصرنا، وروافض دهرنا، لأنّ جنس كفر هؤلاء غيرُ كفر أولئك. كان اختلاف الناس في القَدَر على أنّ طـائفة تقول كلّ شيء بقضاءٍ وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقَدَر إلا المعـاصيَ، ولم يكن أحد يقول إنَّ الله يعذّب الأبناء ليَغيظَ الآباء، وإنّ الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثلَ العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إنّ الله يرى، لا تزيد على ذلك، فإن خافتْ أن يُظَن بها التشبيهُ قالت يُرَى بلا كيف تَقَزّزًا من التجسيم والتصوير، حتى نبتت هذه النابتة، وتكلّمت هـذه الرافضة، فقالت جسما، وجعلتْ له صورة وحدّا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أنّ كلام الله حَسَن وبين وحجةٌ وبرهان، وأنّ التوراة غير الزبور، والزبورَ غيرُ الانجيـل، والانجيلَ غيرُ القرآن، والبقرةَ غيرُ آل عمران، وأن الله تولّى تأليفه، وجعلَه برهانَه على صدق رسوله، وأنّه لو شاء أن يَزيد فيه زاد، ولو شاء أن يَنقُص منـه نَقَص، ولو شاء أن يبدّله بدّله، ولو شاء أنْ يَنْسَخَه كلّه بغيره نسخَه، وأنه أنزله تنزيلا، وأنّه فصله تفصيلا، وأنّه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلّا هو، غيرَ أن الله مع ذلك كله لم يخلقــه، فأَعْطَوْا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق.

والعجبُ أنّ الخلْقَ عند العرب إنّمـا هو التقدير نفسُه، فلذا قالوا: خَلَقَ كذا وكذا، ولذلك قال: ﴿أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾. وقال: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ﴾ فقالوا: صنَعه وجعلَه وقدّره، وأنزلَه وفصّله وأحدثه، ومنعوا خلقَه، وليس تأويلُ خلقَــه أكثر من قَـدّره، ولو قالوا بدلَ قولهــم: قدّرَه ولم يخلُقْه خلقــه ولم يقَـدّره ما كانت المسألة عليهم إلّا من وجهٍ واحد؛ والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يَزعُم أنّه مخلوق، أنه لم يســمع ذلك من سَلَفه، وهو يعـلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق، وليس ذلك بِهِمْ، ولكنْ لمّـا كان الكلام من الله تعالى عندَهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهةِ تقطيع الحروف، وإعمـال اللّسان والشفتين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام، ولمّـا كنّا عندهم على غيرهذه الصفة،

وكنا لكلامنا غيرَ خالقين ، وجب أنّ الله عز وجل لكلامه غيرُ خالق ، اذ كنا غيرَ خالقين لكلامنا ، فإنّما قالوا ذلك ، لأنّهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرْقا ، وإنْ لم يُقرّوا بذلك بألسنتهم فذلك معناهم وقصدُهم .

وقد كانتْ هذه الأمّةُ لاتجاوز معاصيها الإثمَ والضلالَ ، إلّا ما حكيتُ لك عن بنى أمية ، وبنى مرْوان ، وعمّالهم ، ومن لم يَدِن بإكفارهم حتّى نجَمَت النوابت ، وتابعتْها هذه العوام ، فصار الغالبُ على هذا القرن الكفرَ ، وهو التشبيهُ والجبْر ، فصار كفرهُم أعظمَ مِن كفر مَن مضى فى الأعمال التى هى الفسقُ ، وشركاءَ(١) مَن كفر منهم بتولّيهم ، وترك إكفارِهم ، قال الله عز وجل مِن قائل : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ .

وأرجو أن يكونَ اللهُ قد أغاث المُحِقّين ، ورحِمهم وقوّى ضَعفهم ، وكثّر قِلّتَهم ، حتّى صار وُلاة أمرنا فى هذا الدهرِ الصعبِ والزمن الفاسد أشدَّ استبصارا فى التشبيه من علْيتنا ، وأعْلَم بما يلزم فيه منّا ، وأكشفَ للقناع من رؤسائنا ، وصارفوا الناس وقد انتظموا معان(٢) الفساد أجمع ، و بلغوا غاياتِ البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبيّةَ التى هلَك بها عالَمٌ بعد عالم ، والحميّةَ التى لا تُبْقِى دينا إلّا أفسدتْه ، ولا دنيا إلّا أهلكتها ، وهو ماصارت اليه العجم من مذهب الشُّعُوبية ، وما قد صار اليه الموالى من الفَخْر على العجم والعرب ، وقد نجَمت من الموالى ناجمةٌ ، ونبتتْ منهم نابتةٌ ، تزعم أن المولى بوَلائه قد صار عربيا ، لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلم : «مَوْلَى القومِ منهم» ولقوله : « الوَلاء لُحْمَةٌ كلُحْمَةِ النسبِ لا يُباع ولا يُوهب » .

قال : فقد علِمنا أنّ العجم حين كان فيهم المُلْك والنبوّة كانوا أشرفَ من العرب ، ولمّا حُوِّل ذلك الى العرب صارتِ العربُ أشرفَ منهم ، قالوا : فنحن معاشرَ الموالى بقديمنا فى العجم أشرفُ من العرب ، و بالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرفُ من العجم ، وللعرب القديمُ دون الحديث ، ولنا خَصْلتان جميعا وافرتان فينا ، وصاحب الخَصْلتين

(١) كذا فى الأصل ، ولعله : وصاروا شركاء الخ . (٢) معان بفتح الميم والعين : المباءة والمنزل .

أفضلُ مِن صاحب الخصْلة ، وقد جعل الله المولى بعــد أن كان عجميا عربيا بولائه ، كما جعل حليفَ قُريش من العرب قرشيا بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا ولولا قول النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « إنّ اسماعيل كان عربيّا » ما كان عندنا الّا أعجميا لأنّ الأعجميّ لا يَصير عربيّا، كما أنّ العربيّ لا يصير أعجميّا، فإنما علمنا أنّ اسماعيل صيّره الله عربيا بعد أن كان أعجميا، بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكذلك حكم قُوله «مولى القوم منهم» وقوله : « والوَلاء لُحْمَة» . قالوا: وقد جعل الله إبراهيمَ عليه الســلام أبًا لمَن لم يلِد، كما جعله أبا لمن وَلَد ، وجعل أزواجَ النبيّ أُمّهات المؤمنين، ولم يَلِدْن منهم أحدا ، وجعل الجار والد مَن لم يَلِد فى قوى غير هذا كثير قد أتينا عليه فى موضعه ، وليس أدعى الى الفساد، ولا أجلَبَ للشرّ من المفاخرة، وليس على ظهرها إلّا فَخور (الّا قليل) وأىّ شيءٍ أغيظُ من أنْ يكونَ عبدُك يزعم أنّه أشرفُ منك، وهو مُقِرّ أنّه صار شريفا بعِتْقك إيّاه .

وقد كتبتُ — مدّ الله فى عمرك — كُتبا فى مُفاخرة قحطان ، وفى تفضــيل عَدْنان ، وفى ردّ الموالى الى مكانهم من الفضل والنقص، والى قدر ما جعــل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ؛ وأرجو أنْ يكون عدلًا بينهم، وداعيــةً الى صلاحهم ، ومَنْبَهةً عليهم ولهم ؛ وقد أردتُ أن أرسل بالجزء الأوّل اليك ثم رأيتُ ألّا يكونَ إلّا بعد استئذانك، واستئمارك، والانتهاء فى ذلك الى رَغبتك، فرأيُك فيه موفّق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب الى بعض إخوانه فى ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفِظك الله حفظ من وفّقه للقناعة، واستعمله بالطّاعة؛ كتبتُ اليك وحالى حالُ من كثُفت غمومه ، وأَشكلت عليه أموره ، واشــتبه عليه حالُ دهره، ومَخْرج أمره ، وقلّ عنده من يثِق بوفائه، أو يحمَد مغبّة إخائه، لاستحالة زماننا، وفساد أيامنا، ودولة أنذالنا؛ وقِدْما كان مَنْ قدّم الحياءَ على نفسه، وحكّم الصدق فى قوله، وآثر الحق فى أموره، ونبذ المُشتبهات عليه من شؤونه، تمّتْ له السلامة ، وفاز بوُفور حظّ العافية ، وحمد مغبّة مكروه

العاقبة ؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمه، وتحوّلت دولته ، فوجدنا الحياء متّصلا بالحرمان والصدق آفة على المال، والقصد فى الطلب بترك آستعمال القِحة ، و إخلاق العرض من طريق التوكّل دليلا على سخافة الرأى، إذ صارت الحُظوة البالغة ، والنعمة السابغة ، فى لؤم المشيئة ، وسَناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء ، ومُلابسة مَعَرّة العار ؛ ثم نظرنا فى تعقّب المتعقّب لقولنا ، والكاشر لحُجّتنا ؛ فأقمنا له عَلَما واضحا ، وشاهدا قائما ، ومَنارا بيّنا ؛ إذ وجدنا مَنْ فيه السُّفوليّة الواضحة ، والمَثالب الفاضحة ، والكذب المُبَرّح ، والخُلف المصرّح ، والجَهالة المُفرطة ، والركاكة المُستخَفَّة ، وضعف اليقين والآستنبات ، وسرعة الغضب والجراءة ، قد آستكمل سروره ، وآعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والحظ الأوفر ، والقَدْر الرفيع ، والجَوَاز الطائع ، والأمر النافذ ؛ إن زَلّ قيل حكَم ، و إن أخطأ قيل أصاب ، و إن هَذَى فى كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نَسَمة مباركة ؛ فهذه حُجّتنا والله على من زَعم أنّ الجهل يخفض ، وأنّ النُّوك يُرْدى ، وأنّ الكذب يضُرّ ، وأنّ الخُلف يُزرى ؛ ثم نظرنا فى الوفاء والأمانة والنُّبل والبلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسَعَة الصدر وقلّة الغضب وكرم الطبيعة ، والفائق فى سعة علمه ، والحاكم على نفسه ، والغالب لهواه ، فوجدنا فلان بن فلان ؛ ثم وجدنا الزمان لم يُنْصفه من حقه ، ولا قامَ له بوظائف فَرْضه ، ووجدنا فضائلَه القائمة له قاعدةً به ؛ فهذا دليل أنّ الطِّلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفضل قد مضى زمانُه ، وعفّت آثارُه ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضدّه ؛ ووجدنا العقل يَشقى به قرينُه ، كما أنّ الجهل والحمق يَحْظَى به خَدينُه ؛ ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان ، ومُعْربا عن الأيام حيث يقول :

تحامَقْ مع الحمقى اذا ما لَقيتَهم ولاقِهم بالجهل فِعْلَ أخى الجهل
وخلِّط اذا لاقيتَ يوما مخلِّطا يُخَلِّط فى قول صحيح وفى هَزْل
فإنى رأيت المرء يَشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

فبقيتُ — أبقاك الله — مثلَ من اصبح على أوفاز،[(١)] ومن النُّقلة على جِهاز، لا يسوغ له نعمة ، ولا تَطْعَم عينهُ غَمْضة ، فى أهاويلَ يبا كره مكروهُها ، ويُراوحه عَقائبها ؛ فلو أنّ الدعاء أجيب ، والتضرّع سُمع ، لكانت العِدّة العظمى ، والرَّجْفة الكبرى ؛ فليتَ أىّ أخى ما أستبطئه من النَّفْخة ، ومن فَجْأة الصَّيْحة ، قُضِى فكانَ ، وأُذِن به فكان ؛ فوالله ما عُذِّبتْ أمة برَجْفة ، ولا ريح ولا سَخْطة ، عذابَ عينى برؤية المُغَايَظة المُدْمنة ، والأخبار المهلكة ، كأنّ الزمانَ يُوكَّل بعذابى ، أو يُنْصَب بأيامى ، فما عيشُ من لا يُسَرّ بأخ شفيق ، ولا يَصْطبح فى أوّل نهاره ، إلا برؤية من يكرهه ، ويَغُمّه بطلعته ؛ فقد طالت الـمة ، وواظبت الكُربة ، وٱدلهمّت الظُّلمة ؛ وخمَد السراج ، وتَبَاطأ الآنفراج .

وصف الجاحظ لقريش وبنى هاشم

قد علِم النـاسُ كيف كرمُ قريش وسَخـاؤها ، وكيف عقولها ودَهاؤها ؛ وكيف رأيُها وذكاؤها ، وكيف سياستُها وتدبيرها ؛ وكيف إيجازها وتحسـيرها ، وكيف رجاحة أحلامها اذا خَفّ الحليم ، وحِدّة أذهانها اذا كَلّ الحديد ؛ وكيف صَبْرها عند اللقاء ، وثباتها فى اللَّأْواء ؛ وكيف وفاؤها اذا ٱستُحْسن الغـدر ؛ وكيف جـودها اذا حُبّ المـال ؛ وكيف ذكرها لأحاديث غَدٍ ، وقلّة صـدودها عن جهة القصد ؛ وكيف إقرارها بالحقّ وصـبرها عليه ؛ وكيف وصفها له ودُعاؤها اليه ؛ وكيف سماحة أخلاقها ، وصونُها لأعْراقها ؛ وكيف وصلوا قديمَهم بحديثهم ، وطريفَهم بتليدهم ؛ وكيف أشـبه عَلانِيَتهم سرَّهم ، وقولَهم فعلُهم ، وهل سلامة صـدر أحدهم إلا على قدر بُعدِ غديره ، وهل غفلته إلا فى وزن صِدق ظنّه ، وهل ظنه إلا كيقين غيره .

---

(١) أى على سفر .

وكتب فى الاعتذار :

أما بعد فنعم البَديلُ مِنَ الزَّلَّة الاعتذار، و بئس العِوَضُ من التوبة الإصرار، وإن أحقَّ من عطَفتَ عليه بحلمك من لم يَسْتَشفع إليك بغيرك، و إنى بمعرفتى بمَبْلغ حِلْمك وغايةِ عفوك، ضمِنت لنفسى العفو من زَلّتها عندك، وقد مسّنى من الألم ما لم يَشْفِه غير مُواصلاتك .

وله فى الاستعطاف :

ليس عندى أعزّك اللهُ سببٌ ولا أقدُر على شفيع إلا ما طَبَعَك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نِتاج حسن الظن و إثبات الفضل بحال المأمول وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير مُعْتِب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للإنقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أَنْمى بقيّة من ذنب أصبحت فيه، و بمثلك — جعلتُ فداك — عاد الذنبُ وسيلةً، والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشرّ خيرا والغُرْم غُنْمًا .

من عاقَب فقد أخذ حظّه، و إنما الأجر فى الاخرة، وطيب الذكر فى الدنيا، على قَدْر الاحتمال وتَجَرُّع المرائر وأرجو، ألا أَضِيع وأَهْلَك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو عمّن صَغُر ذنبُه وعظُم حقّه، و إنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحُرْمة، و إن كان العفو عظيما مُسْتَطْرَفا من غيركم فهو تِلادٌ فيكم، حتى ر بما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أنتم عن ذلك تَنْكُلون، ولا على سالف إحسانكم تندَمون، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمرّ بمَلإ من بنى اسرائيل إلا أسمعوه شرًّا وأسمعهم خيرا، فقال له شَمْعُون الصفا : ما رأيتُ كاليوم كلّما أسمعوك شرّا أسمعتهم خيرا فقال : كلّ امرئ يُنفِق ممّا عنده وليس عندكم إلا الخير ولا فى أَوعِيَتكم إلّا الرحمة ”وكلُّ إناءٍ بالذى فيه ينضح“ .

وله فى ذمّ الحسد :

الحسد ــ أبقاك الله ــ داءٌ ينهك الجسد، علاجه عسير وصاحبه ضَجِر وهو باب غامض، وما ظَهر منه فلا يُداوَى وما بَطَن منه فمُداويه فى عَناء، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « دَبّ اليكم داءُ الأمم من قبلكم : الحسدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيد الكفر، وحليف الباطل، وضدّ الحقّ منه تتولّد العداوةُ وهو سبب كلّ قطيعة ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رَحِم من الأقرباء ومُحْدِث التفرّق بين القرناء، وملقّح الشرّ بين الخلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفـاته :

وقد ذكر الجاحظ جلَّ مؤلَّفاته فى كتاب "الحيوان"(1) ودافع عنها بعد أن وصفها فقال: جنّبك الله الشبهة، وعصَمك من الحَيْرة وجعل بينك وبين المعرفة نَسَبا، وبين الصدق سَبَبا، وحبّب اليك التثبّت، وزيّن فى عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عِزّ الحقّ، وأودع صدرَكَ بَرْدَ اليقين، وطرد عنك ذُلّ الطمع، وعرّفك ما فى الباطل من الذّلّة، وما فى الجهل من القِلّة، ولعَمْرى لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ فى أمرك، وأدلّ على مقدار وَزْنك، وعلى الحال التى وَضعْت نفسك فيها، ووسمْت عِرْضك بها، ورَضِيتها لدينك حظّا، ولمُروءتك شكْلا؛ فقد انتهى الىّ ميلُك على أبى إسحاق، وحَمْلُك علىّ، وطعنُك على مَعْبَد، وتنقّصُك له فى الذى كان جرى بينهما فى مَساوى الديك ومحاسنه، وفى ذكر منافع الكلب ومَضارّه، والذى خرجا اليه من آستقصاء ذلك وجمعه، ومن تتبّعه ونظمه، ومن الموازنة بينهما، والحكم فيهما .

ثم عِبْتنى بكتاب حِيَل اللصوص، وكتاب غِشّ الصناعات، وعِبْتنى بكتاب المُلَح والطُّرَف، وما حرّ من النوادر وبَرُد، وعاد باردُها حارّا بفرط بردْه، حتّى أمتَع باكثر من آمتاع الحارّ، وعِبْتنى بكتاب آحتجاجات البُخَلاء، ومناقضتهم للسُّمحاء، والقولِ فى الفَرْق بين

---

(1) اعتمدنا فى تصحيح هذه الفصول على الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ آداب، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر فى غاية التحريف وملأى بالأخطاء .

الصدق اذا كان ضارا فى العاجل، والكذب اذا كان نافعا فى الآجل، ولم جعلنا الصدق أبدا محمودا، والكذب أبدا مذموما، والفرق بين الغَيْرة وإضاعة الحُرْمة، وبين الإفراط فى الحَمِيّة والأَنَفَة، وبين التقصير فى حِفْظ حقّ الحُرْمة، وقلّة الاكتراث بسوء القالة؛ وهل الغَيْرة اكتساب وعادة، وبعضُ ما يَعْرِض من جهة الديانة ولبعض التزيّد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك شيئا فى طبع الحرية وحقيقة الجوهريّة، ما كانت العقول سليمةً، والآفات مَنْفِيّة، والأخلاطُ مُعْتدِلة؛ وعبتنى بكتاب الصُّرحاء والهُجَناء، ومُفاخرةِ السودان والحُمْران، والموازنةِ بين حقّ الخُؤُولة والعُمُومة؛ وعبتنى بكتاب الزرع والنخل، والزيتون والأعناب، وأقسامِ فضولِ الصناعات، ومراتبِ التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفَرْقِ ما بين الذكور والإناث، وفى أىّ موضع يَغْلِبن ويَفْضُلن، وفى أىّ موضع يكنّ المغلوبات والمَفْضولات، ونصيبُ أيِّهما فى الولد أوفر، وفى أىّ موضع يكون حقّهنّ أوجبَ، وأىّ عمل هو بهنّ أليقُ، وأىّ صناعة هنّ فيها أبلغُ؛ وعبتنى بكتاب القَحْطانية وكتاب العَدْنانيّة فى الرد على القحْطانيّة، وزعمت أنّى تجاوزتُ فيه حدّ الحَمِيّة، الى حدّ العصبية، وأنّى لم أصل الى تفضيل العَدْنانيّة إلا بتنقّص القَحْطانيّة؛ وعبتنى بكتاب العرب والمَوالى، وزعمتَ أنّى بَخَسْت الموالىَ حقوقهم، كما أنّى أَعْطيت العرب ما ليس لهم؛ وعبتنى بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول فى فَرْق ما بين العرب والعجم هو القولُ فى فرق ما بين الموالى والعرب، ونسبتنى الى التَّكرار والتَّرْداد، والى التكثير والجهل بما فى المَعاد من الخَطَل، وحمْل الناس المُؤَن؛ وعبتنى بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا فى جهة العلّة مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبّاد البَددَة (١) والمتمسّكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشدَّ الناس إلفا لما دانوا به، وشغفا بما تعبّدوا له، وأظهرَهم جِدّا، وأشدّهم على مَن خالفهم ضِغْنا، وبما دانوا صبابة وعُجْبا، وما الفرق بين البُدّ والوثَن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق

(١) البددة جمع بدّ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نفسه كما قال ابن دريد.

بين الدُّمْية والجُثّـة ، ولِم صوّروا فى محاريبهم وبيوت عِبـاداتهم صُوَر عظمائهم ورجالِ دعوتهم ، ولِم تأنّقوا فى التصوير، وتجرّدوا فى إقامة التركيب ، وبالغوا فى التحسين والتفخيم ، وكيف كانت أوّلية تلك العبادات ، وكيف افترقت تلك النِّحَل ، ومن أىّ شىء كانت خُدَعُ تلك السَّدَنة ، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا ، وكيف شمِل ذلك المذهبُ الأجناس المختلفـــة !

وعبتنى بكتاب المعـادن ، والقول فى جواهر الأرض ، وفى اختلاف أجناس الفِلِزّ ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يُسْرِع الانقلابُ الى بعضها ويُبْطِئ عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يَصْبغ ولا ينصبغ ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ، وما القول فى الإكسير والتلطيف ؛ وعبتنى بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وبكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجنّ ، وكيف القول فى معرفة الهُدْهُد واستطاعة العفريت ، وفى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما ذلك العـلم ، وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم ؛ وعبتنى بكتاب الأوفاق والرياضات ، وما القول فى الأرزاق والإنفاقات ، وكيف أسباب التثمير[(١)] والترقيح وكيف تجتلب التجّارُ الحُرَفاء ، وكيف الاحتيالُ للودائع ، وكيف التَّسَبُّبُ إلى الوصايا ، وما الذى يوجب لهم التعـديل ، ويَصْرِف اليهم بابَ حُسـن الظنّ ، وكيف ذكرنا غشّ الصناعات والتجارات ، وكيف التَّسَبُّب الى تعَـرّف ما قد ستَرُوا ، وكشف ما موّهُوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وعبتنى برسائلى ، وبكلّ ما كتبتُ به الى إخوانى وخُلَطائى من مَزْح وجِدّ ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافُلٍ وتوقيف ، ومن هِجاء لا يزال وسْمُهُ باقيـا ، ومديح لا يزال أثرُه ناميا ، ومن مُلَح تُضْحِك ، ومواعظَ تبكى ؛ وعبتنى برسائلى الهاشميّات ، واحتجاجى فيهـا ، واستقصائى معانيَها ، وتصويرى لهـا فى أحسن صورة ، وإظهارى لها فى أتمّ حِلْيَة ، وزعمتَ أنّى قد خرجتُ بذلك من حد المُعْتَزِلة الى حدّ الزَّيْدِيّة ،

(١) التثمير والترقيح : نمو المال واصلاحه .

ومن حدّ الاعتدال فى التشيّع والاقتصاد فيه الى حدّ السَّرَف والإفراط فيه ، وزعمت أن مقالة الزيْديّة خطبة مقالة الرافضة ، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية ، وزعمت أن فى أصل القضيّة ، والذى جرت عليه العادة أنّ كلّ كبير فأوّله صغير ، وأن كلّ كثير فإنما هو قليل جُمِع الى قليل ، وأنشدتَ قول الراجز :

قد يَلْحَق الصغيرُ بالجليل * وإنّما القَرْمُ من الأَفيل (١)

* وسُحُقُ النَّخْلِ من الفَسيل *

وأنشدتَ قول الشاعر :

رُب كبيرٍ هاجَه صغيرُ * وفى البحور تَغْرق البُحورُ

وقلتَ وقال يزيد بن الحكم :

وأعلم بُنَىّ فإنّه * بالعلم يَنْتَفِع العليم

إنّ الامور دَقيقُها * مما يَهِيج له العظيم

وقلت وقال الاخر :

صار جِدّا ماَمَزَحتُ به * رُبَّ جِدٍّ ساقه اللَّعِبُ

وأنشدت قول الاخر وهو عنترة (٢) :

ما تَنْظرون بحقّ وَرْدَةَ فيكُمُ * تُقْضى الأمور ورَهْط وردة غُيَّبُ

قد يَبْعثُ الأمرَ الكبيرَ صغيرُه * حتّى تَظَلَّ له الدِّماء تَصَبَّبُ

وقالت كَبْشَةُ بنت مَعْديكرب :

جَدَعْتُم بِعبْد الله آنُفَ قَوْمِه * بَنِى مازِنٍ أَنْ سُبّ راعِى المُخَزَّمِ

وقال الآخر :

أيَّة نارٍ قدَح القادح * وأىَّ جِدٍّ بلغ المازِحُ

(١) الأفيل : صغر الإبل .

(٢) والصواب أن البيتين لطرفه وهما من جملة أبيات فى ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من العُصَيَّة ولا تلد الحيّة إلا حُيَيّة » ؛ وعبت كتابى فى خَلْق القــرآن ، كما عبت كتابى فى الردّ على المُشَـبِّهة ؛ وعبت كتابى فى أصول الفُتْيا والأحكام ، كما عبت كتابى فى الاحتجاج لنظْم القرآن ، وغَريب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ وعبت مُعارَضَتى الزَّيْديّة ، وتفضيلى الاعتزالَ على كلّ نِحْلة ، كما عبت كتابى فى الوعد والوعيد ، وكتابى على النصارى واليهود ؛ ثم عبت جُمْلة كتبى فى المعرفة ، والتمست تهجينها بكلّ حِيلة ، وصغّرت من شأنها ، وحطَطْت من قدرها ، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها .

وعبت كتاب الجوابات وكتاب الرسائل ، وكتاب الرد على أصحاب الإلهام ، وكتاب الحُجّة فى تثبيت نُبُوّة النبىّ صـلى الله عليه وسـلم ، وكتاب الأخبـار ؛ ثم عبت كتابى إنكارى بَصيرةَ غَنّامٍ المُرتدّ ، وبصيرة كلّ جاحد ومُلْحد ، وتفريقى بين اعتزام الغُمْر (١) وبين استبصار المُحِقّ ؛ وعبت كتاب الرد على الجَهْميّة فى الإدراك ، وفى قولهم فى الجهالات ، وكتاب الفرق ما بين النبيّ والمُتنَبّى ، والفرق بين الحيل والمَخاريق ، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة ؛ ثم قصدت الى كتابى هــذا بالتصغير لقدره ، والتهجين لنَظْمــه ، والاعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه فزرَيْت على نحتــه وسبكه ، كما زرَيْت على معناه ولفظه ، ثم طعنت فى الغرض الذى اليه نَزَعنا ، والغايةِ التى اليها أجرينا (٢) ، وهنا كتاب معناه أنبه من اسمه ، وحقيقته آنَقُ من لفظه ، هو كتاب يحتاج اليه المتوسِّط العامّى ، كما يحتاج اليه العالم الخاصّى ، ويحتاج اليــه الريِّض ، كما يحتاج اليه الحاذق .

أما الريِّض فللتعَلُّم والدُّرْبة ، وللترتيب والرياضــة ، وللتمرين وتمكين العادة ، اذ كان جليله يتقدّم دقيقه ، واذ كانت مُقَدّماته مُرَتّبة ، وطبقات معانيه مُنزّلة ؛ وأما الحاذق فلكفاية المُؤونة ، ولأنّ كلّ مَن التقط كتابا جامعا ، وبابا من أمهات العلم مجموعا كان له غُنْمه ، وعلى مُؤلِّفه غُرْمُه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كدّه ، مع تعرُّضــه لمطاعن البُغاة ، ولاعتراض

(١) الغمر مثلثة الغين : من لم يجرب الأمور ، والجاهل الأبله .

(٢) أجرينا : قصدنا .

المنافسين، ومع عَرْضه عقله المَكْدودَ على العقول الفارغة، ومَعانيَه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأوّلين والحَسَدة، ومتى ظفر بمثله صاحب علم، أو هجم عليه طالب فِقْه، وهو وادع رَافِه، ونشيط جام، ومُؤلِّفه مُتْعب مكدود، فقد كُفِيَ مَؤونة جمعه، وخزنه وتتبعه، وطلبه، وأغناه ذلك عن طُول التفكير، واستنفاد العمر، وفَلّ الحَدّ، وأدرك أقصَى حاجته، وهو مُجْتَمع القوة، وعلى أنّ له عند ذلك أن يجعــل هُجُــومَه عليه ضربا من التوفيق، وظفَره به بابا من التسديد .

(وهذا كتاب) تستوى فيه رَغْبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيّا، فقد أخذ من طُرَف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتّاب والسـنّة، وبين وِجدان الحاسة وإحساس الغـريزة، ويشتهيه الفِتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المِجدّ ذو الحزم، ويشـتهيه الغُفْل كما يشتهيه الاديب، ويشتهيه الغبيّ كما يشـتهيه الفَطِن؛ وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضِّراريّة وأنت تسمعنى أقول فى أوّل كتابى: وقالت العثمانية والضِّراريّة، وكما سمعتنى أقول : وقالت الرافضة والزَّيْديّة، فحكمت على بالنّصْب لحكَايتى قول العثمانية، فهلّا حكمت على بالتشيّع لحكايتى قول الرافضة، وهلّا كنتُ عندك من الغالية لحكايتى حُجَج الغالية، كما كنتُ عنـدك من الناصبة لحكايتى قول الناصـبة، وقد حكينا فى كتابنا قول الإباضـيّة والصُّفْرِيّة، كما حكينا أقاويل الأزارقة والنجديّة، وعلى هذه الأركان الأربعـة بُنيت الخارجيّة، وكل آسم سواها فإنمـا هو فرع ونتيجة وآشتقاق منها، ومحمول عليها، فهلّا كنّا عندك من المحكّمة الخارجة، كما صرنا عندك من الضِّراريّة، والنـاصبة! وكيف رضيت بأن تكون الشيعة الى أعراض النـاس أسرع من المـارقة! أللهـم إلّا أن تكون وجدت حكايتى عن العثمانية والضِّراريّة أشبع وأجمع، وأتمّ وأحكم وأجود صَنْعةً، وأبعد غايةً، ورأيتنى قد وَهّنْتُ حقَّ أوليائك بقـدر ما قوّيتُ باطـل أعدائك، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدُك من الكتاب حاضرا، وبرهانُك على ما آدّعيتَ واضحا .

وعبتني بكتّاب العبّاسيّة فهلّا عبتني بحكاية مقالة من ادّعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمـة الذين زعموا أن ترك الناس سُدًى بلا قيّم أردّ عليهم ، وهلّا بلا راعٍ أربح لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل ، وغنيمة الآجل ، وأنّ تركهم نَشَرا لا نظام لهم أبعد لهم من المفاسد ، وأجمع لهم على المراشد ! بل ليس ذلك بك ، ولكنّه لمـا بهرك ما سمعت ، وملأ صـدرك الذى قرأت ، وأبعلك وأبطرك فلم تجد للحُجّة وهى لك مُعرِّضـة ، ولم تعرف المَقاتل وهى لك بادية ، ولم تعرف باب المَخرج إذ جهلتَ باب المَدْخل ، ولم تعرف المصادر اذ جهلت الموارد ؛ ورأيت أن سَبّ الأوليـاء أشفى لدائك ، وأبلغَ فى شفاء سُقْمك ؛ ورأيت أنّ إرسال اللسان أحضرُ لذّة ، وأبعـدُ من النَّصَب ، ومن إطالة الفِكْرة ، ومن الاختلاف الى أرباب هـذه الصناعة ؛ ولو كنتَ حين فطَنت لعجزك وصَلْت نقصك بتمـام غيرك ، وٱستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبيسٌ على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزينَ فى العـاجل ، وأحقّ بالمَثُـوبة فى الآجل ، وكنتَ إن أخطأتك الغنيمة لم تُخطئك السـلامة ، ولقد سلِم عليك المخالف ، بقـدر ما ٱبتُلى به منك الموافق ؛ وعلى أنه لم يُبْتل منك إلّا بقدر ما ألزمته من مَؤونة تثقيفك ، والتشاغل بتقويمك ؛ وهل كنت فى ذلك إلّا كما قال العربى : * وهل يضرّ السحابَ نبح الكلاب * ؟ وإلّا كما قال الشاعر :

هل يضرّ البحـرَ أمسى زاخرا * أنْ رَمَى فيـه غلامٌ بحجر

وهل حالنا فى ذلك إلّا كما قال الأوّل :

ما ضرّ تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَـوْتَها * أمْ بُلْتَ حيث تَنَاطَحَ البَحْرانِ

وقال حسان :

ما أُبالى أَنَبّ بالحـزن تَيْسٌ * أم لَحَانى بظهـرِ غَيْبٍ لئيمُ

وما أشك أنّك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطيّة لك ، ووجّهتَ حِلْمنا عنك الى الخوف منـك ، وقد قال زُفَر بن الحارث لبعض مَن لم ير حقّ الصفح بجعل العفو سببا الى سوء القول :

فإنْ عُدْت واللهِ الذى فوقَ عرشه * مَنَحْتُك مَسْنُونَ الغرارَين أزرقا
فإنّ دواء الجهل أن تُضْرَبَ الطُّلَى[١] * وأن يُغْمَسَ العِرِّيضُ[٢] حتى يُغرّقا

وقال الأول :

وما نفى عنك قوما أنت خائفهم * كمثل وقمك جُهّالا بجهّالِ
فاقعس إذا حدِبوا واحْدَبْ إذا قعِسوا * ووازِنِ الشرّ مثقالًا بمثقال

وقال الآخر :

وضغائنٍ داويتها بضغائنٍ * حتّى يَمُتْنَ وبالحقود حُقُودا

وإنى وإن لم يكن عندى سنان زُفَر بن الحارث، ولا مُعارضةُ هؤلاء : الشرّ بالشرّ، والجهلَ بالجهل، والحقْدَ بالحقد، فإن عندى ما قال المسعودىّ :

فمنّا ترابَ الأرض منها خُلقتُما * وفيها المعادُ والمَصير الى الحشْرِ
ولا تَعْجَبَا أنْ ترْجعا فتُسَلّما * فما حُشِى الأقوامُ شرًّا من الكِبْرِ
فلو شئْتُ أَدْلى فيكما غيرُ واحدٍ * علانية أو قال عندىَ فى سِتْرِ
فإنْ أنا لمْ آمر ولم أنْهَ عنكُمَا * ضحِكْتُ[٣] له حتّى يَلَجّ ويَسْتَشْرِى

وقال النَّمِرُ بن تَوْلَبْ :

جزَى اللهُ عنِّى حَمْزَةَ بنْةَ نَوْفلٍ * جزاءَ مُغِلّ بالأمانة كاذبِ
بما خبّرت عنِّى الوُشاةَ ليكذبوا * علىّ وقد أوليتُها فى النوائبِ

يقول : أخرجت خبرى الى من يشتهى أن أُعاب عندها .

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أقبح أثرا، وأبقَى وسْما، وأصدق قيلا، وأعدل شاهدا، وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح، كما أنّه ليس كل مَن عارض فقد انتصر،

---

(١) الطلى : الأعناق .

(٢) العريض : الذى يتعرّض للناس بالشر .

(٣) كذا فى الأصل، وفى اللسان فى مادة لجج : تضاحكت حتى يلج ويستشرى .

وقد قال الشاعر قولا إنْ فهِمتَه كَفَيْتنا مَؤُونة المعارضــة ، وكفيت نفســك لُزوم العار ، وهو قوله :

إنْ كُنتَ لا تَرْهَبُ ذمّى لِما * تَعْرِف من صفْحِى عن الجاهلِ
فاخْشَ سكوتى آذِنًا مُنْصِتًا * فيــك لِمَسْمُوعِ خَنا القائلِ
فالسامــعُ الذمَّ شَريك له * ومُطعِم المأكولَ كالآكلِ
مَقــالةُ السوء الى أهلهـا * أسرعُ من مُنْحدِرٍ سائلِ
ومَن دعَى النــاس الى ذَمّه * ذمّــوه بالحــقّ وبالباطـــلِ
فــلا تَهِجْ إنْ كنتَ ذا إرْبةٍ * حَرْبَ أخى التَّجْــرِبة العاقلِ
فإنّ ذا العقـــل إذا هِجْتَــه * هِجْتَ به ذا خَبَــلٍ خابــلِ
تُبْصِـــر فى عاجلِ شَــدّاتِه * عليـــك غِبَّ الضررِ الآجلِ

وقد يقال : إنّ العفوَ يُفسدُ من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم ؛ وقد قال الشاعر :

والعفوُ عند لَبيب القــومِ مَوْعِظةٌ * وبعضُه لِسَفيه القومِ تَدْريبُ

فإن كنّا قد أسأنا فى هذا التقريع والتوقيف ، فالذى لم يأْخذ فينا بحُكْم القرآن ، ولا بأدب الرسول عليــه الصلاة والسلام ، ولم يفزع الى ما فى الفِطَن الصحيحة ، أو الى ما توجبُــه المقاييسُ المُطَّردة ، والأمثال المضروبةُ ، والأشعارُ السائرة ، أوْلَى بالإساءة ، وأحقّ باللائمة ، قال الله جَلّ ثناؤه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ وقد قال النبيّ عليه الصلاة والسلام : "لا تَجْنِ يَمِينُك على شِمَالك" وهذا حُكْم الله جَلّ وعزّ ، وآدابُ رسوله ، والذى أُنْزِل به الكتاب ، ودُلّ عليه فى حُجَج العقول .

أَخْذ البرىء بذنب المذنب

ثم قال فى أخذ البَرِىء بذَنْب المذنب : فأمّا ما قالوا فى المثل المضروب ، "رَمَتْنِى بدائِها وانْسَلّت" . وأمّا قولُ الشعراء وذمُّ الخطباء لمن أخذ إنسانا بذَنْب غيره ، وما ضربوا فى ذلك مِن الأمثال ، كقول النابغة حيث يقول فى شعره :

وكَلَّفتنِى ذنبَ امرئٍ وتركتَه * كَذِى العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتع

وكانوا إذا أصاب إبلَهم العُرّ كووْا السليم ليذهب العُرُّ عن السقيم فأسقموا الصحيحَ من غير أن يُبْرِئوا السقيم، وكانوا إذا كثُرتْ إبلُ أحدهم فبلغت الألفَ فقئوا عينَ الفحل، فإن زادت الإبلُ على الألف فقئوا عينه الأخرى، فذلك المُفقّأُ والمُعمّى اللذان سمعت بهما قال الفرزدق :

غلبتُــك بالمفقّأ والمعمّى (١) * وبيتِ المجتبي (٢) والخافقاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقّأَ يَطْرُد عنها العينَ والسُّواف (٣) والغارة فقال الأوّل :

فَقَأْتُ لها عَينَ الفَحِيل تَعيُّفاً * وفيهنّ رَعْلاءُ المسامِع والحَامِ

الرّعْلاءُ : التى تُشَقّ أُذنها وتترك مُدَلّاةً لكَرمِها .

وكانوا يقولون فى موضع الكفّارة والأُمنيّة، كقول الرجل إذا بلغتْ إبلى كذا وكذا، وكذلك غَنمى ذبحتُ عند الأوثان كذا وكذا عَتيرةً، والعَتيرةُ: من نُسك الرَّجَبِيَّة، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبلُ أحدهم أو غنمُه ذلك العددَ استعمل التأويلَ وقال : إنما قلتُ : إنّى أذبح كذا وكذا شاةً، والظباء: شاء، كما أنّ الغنمَ شاءٌ، فجعل ذلك القُرْبان كلّه مما يَصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حِلِّزةَ اليَشكُرىّ :

عَنَتًا باطلا شَدُوخًا (٤) كما تُعْـ * ـتَرُ عن حُجرة الرَّبِيضِ الظباءُ

بعد أن قال :

أم علينا جُناحُ كِندةَ أن يَغْـ * ـنم غازيهـم ومنّا الجـزاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقرَ فلم تشرب، إمّا لكَدَرِ الماء وإما لقلّة العطش، ضربوا الثّوْرَ ليقتحم الماءَ لأنّ البقَر تتبعه كما تتبع الشّوْلُ الفحلَ، وكما تتبع أُتُنُ الوحش الحِمارَ، فقال فى ذلك عوف بن الخرِع :

تمنّتْ طيّءٌ جهلا وجُبنا * وقد خاليتُهم فأبوْا خلائى

هَجَوْنى أن هجوتُ جبالَ سَلْمَى * كضربِ الثّوْرِ للبقرِ الظِّماءِ

---

(١) فى اللسان مادة « فقأ » « المعنى » . (٢) كذا فى الأصل وفى اللسان « المجتبى » بالحاء المهملة . (٣) السواف : مرض الابل . (٤) كذا فى الأصل وفى اللسان مادة « عنن » « ونلها » .

وقال فى ذلك أنس بن مُدْرِكَة فى قتله سُليكَ بن السُّلَكَة :

إنّى وقتلى سُليكا ثمّ أعقله * كالثوْر يُضرَبُ لما عافتِ البقرُ
أنِفتُ للمرءِ إذ تُغشَى حليلتُهُ(١) * وإذ يُشَدُّ(٢) على وجْعائها الثَّفَرُ(٣)

وقال الهيَّبان الفهميّ :

كما ضُرِبَ اليعسوبُ أنْ عاف باقرٌ * وما ذنبه أن عافت الماءَ باقرُ

ولما كانَ الثوْر أمير البقر، وهى تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه بآسم أمير النحـل .

وكانوا يزعمون أن الجنّ هى التى تصدّ الثيرانَ عن الماء حتى تُمْسِك البقرُ عن الشرب حتّى تَهْلك؛ وقال فى ذلك الأعشى :

وإنّى وإن كلفتمونى وربِّكم * لأعلمُ مَن أمسَى أحقَّ وأحوَبا
لكالثّور والجنىُّ يضرِبُ ظهرَه * وما ذنبهأنْ عافت الماء مَشْربا
وما ذنبُه أن عافت الماءَ باقرٌ * وما إن تعافُ الماء إلّا لِتُضرَبا

كأنه قال : إذ كان يُضرَبُ أبدا لأنها عافت الماء، فكأنها إنّما عافت الماءَ ليضربَ؛ وقال يحيى بن منصور الذّهْليّ فى ذلك :

لكالثور والجنىُّ يضرب وجههُ * وما ذنبُه إن كانت الجنُّ ظالمهْ

وقال نهشل بن حَرِّيّ :

أتُتْرَكُ عارضٌ وبنو عدىٍّ * وتَغْرَمُ دارمٌ وهُمُ بُراءُ
كدأب الثور يُضرَبُ بالهَرَاوى * اذا ما عافت البقرُ الظِّماءُ
وكيف تكلَّفُ الشِّعرَى سُهَيْلا * وبينهما الكواكبُ والسماءُ

(١) فى اللسان : « عصبت » . (٢) فى الأصل "وإن" والتصويب عن اللسان .
(٣) الثفر : السير الذى فى مؤخر السرج .

وقال أبو نُوَيْرة بن حُصَيْن حين أخذه الحَكَمُ بنُ أيّوبَ بذنب العَطَرّق :

أبا يوسف لو كنتَ تعلم طاعتى * ونُصحِى إذا مابعتَنى بالمُحَلَّق
ولا ساق سرّاق العُرافة صالحٌ * بَنِيَّ ولا كُلِّفتُ ذنبَ العَطَرّقِ

وقال خَداش بن زُهَير حين أُخذ بدماء بنى محارِب :

أُكَلَّفُ قَتْلَى معشرٍ لستُ منهمُ * ولا دارهم دارى ولانصرهمْ نَصْرى
أكَلَّفُ قتْلَى العِيص عِيص شُواحِط * وذلك أمرٌ لم تُثَقَّف له قِدْرى

وقال الاخر :

اذا عَرَكتْ عجلٌ بنا ذنبَ طَيِّئٍ * عركْنا بتَيْم اللّاتِ ذنبَ بنى عِجْلِ

ولما وجد اليهودىُّ أخا حِنْبِص الضِّبابِىّ فى منزله فخصاه فمات، وأخذ حِنْبِص بنى عبس بجناية اليهودىّ قال قيس بن زهير : أتأخذُنا بذنْب غيرنا، وتسألنا العَقْل، والقاتلُ يهودىّ من أهل تَيْماءَ؟ قال : والله لو قتَلهُ هَيْفُ الريح لودَيْتُموه، فقال قيس لبنى عبس : الموتُ فى بنى ذُبيان خيرٌ لكم من الحياة فى بنى عامر، ثم أنشأ يقول :

أكلَّفُ ذا الخُصْيَيْن إنْ كان ظالمًا * وإن كنتُ مظلوما وإن كنتُ شاطِنَا
خَصَاه آمرُؤ من أهل تَيْماء طابِن * ولا يَعْدَم الإنسىُّ والجنُّ طابنا
فهلّا بنى ذُبيان أُمُّك هابلٌ * رَهَنْتَ بِهَيْف الريح إنْ كنتَ راهنا
اذا قلتُ قد أفلتُّ من شرّ حِنْبِص * أتانى بأخرى شرُّه مُتَباطِنا
فقد جَعَلتْ أكبادُنا تَجْتَوِيكم * كما تَجْتَوِى سُوقُ العضاه الكَرازنا

ولمّا قَتَل لقمان بن عاد ابنته وهى صُحْرُ بنت لقمان قال حين قتلها : ألستِ آمرأة ؟ وذلك أنّه تزوّج عدّة نساء وكلّهنّ خُنَّهُ فى أنفسهنّ، فلمّا قتَل أُخراهنّ ونزل من الجبل كان أوّل من تلقّاه صُحْر ابنتُه، فوثب عليها فقتلها، وقال وأنتِ أيضا آمرأة، وكان قد ابتُلى أيضا بأنّ أخته كانت مُحْمِقة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان : هذه ليلة طُهْرى

وهى ليلتك، فدعيني أنم فى مضجعك، فإن لقمانَ رجلٌ مُنْجِبٌ، فعسى أن يقع علىّ فأُنْجِبَ، فوقع على أخته فحملت بلُقَيم وفى ذلك قول النَّمِر بن تَوْلَب :

لقيمُ بنُ لقمانَ مِن أختــهِ * فكان ٱبنَ أختٍ له وابنَما
ليالىَ حُمِّقَ فاستحصَنتْ * عليــه فغُـــرَّبها مُظْلِما
فأحبلهــا رجلٌ محــكَمٌ[1] * فجاءت به رجلا مُحْــكما

فضربت العربُ فى ذلك المثلَ بقتل لقمانَ بنتَه صُحْرا فقال خُفَاف بن نَدْبة فى ذلك :

وعبّاسٌ يُدِبّ لى المنــايا * وما أذنبتُ إلا ذنبَ صُحْرِ

وقال فى ذلك ٱبن أُذَيْنَةَ :

أتجمَــعُ تَهْيــاما بليــلَى اذا نأتْ * وهِجْرانها ظُلْمًا كما ظُلِمَتْ صُحْرُ

وقال الحارث بن عُبَاد :

قَـرِّبا مَرْبَطَ النعــامةِ منِّى * لقِحتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ
لم أكن من جُنَاتِها علم اللـ * ـه وإنى بحَرِّها اليـــومَ صالى

وقال الشاعر وأظنّه ٱبن المقفّع :

فلا تلِمِ المــرءَ فى شأنهِ * فربّ ملومٍ ولم يُذْنِبِ

وقال آخر :

لعلّ له عذرا وأنتَ تلومُ * وكم لائمٍ قد لام وهو مُلِيمُ

وقال بعض العرب فى قتل بعض الملوك سِنمّار الرومىّ: فإنّه لما علا الخورنَق، و رأى بُنْيانا لم ير مثلَه، و رأى ذلك المستشرَف، وخاف إنْ هو ٱستبقاه أن يموت فيبنىَ مثل ذلك البُنْيانِ لمَلِك آخر، فأمر به فرُمِىَ من فوق القصر، فقال فى ذلك الكلبى فى شئ كان بينه و بين بعض الملوك :

(١) ورروى : مائه .

جزاني جزاه اللهُ شـرَّ جزائهِ * جزاءَ سِنِمَّارٍ وما كان ذا ذنب
سوى رَصِّه البُنيانَ سبعينَ حِجّةً * يُعَلّي عليه بالقراميد والسَّكْب
فلما رأى البُنيانَ تمَّ سُحوقُه * وآضَ كمثلِ الطودِ ذي الباذخِ الصعْب
فظنَّ سِنِمّارٌ به كُلَّ حَبْوةٍ * وفازَ لديه بالمودّةِ والقُرب
فقال اقذفوا بالعِلْج من رأس شاهقٍ * فذاك لعَمْرُ اللهِ من أعظم الخَطْب

وجاء المسلمون يَرْوِي خَلَفٌ عن سلَف، وتابعٌ عن سابق، وآخِرٌ عن أوّل، أنّهم لم يختلفوا فى عيب قول الحجّاج: لآخُذَنّ السميَّ بالسميّ والوليّ بالولى، والجارَ بالجار، ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول:

اذا أُخذَ البرىء بغير جُرْمٍ * تجنَّب ما يُحاذِره السقيمُ

قال: وقيل لعمرو بن عُبَيد إنّ فلانا لما قدّم رجُلا ليضرب عُنُقَه فقيل له: إنّه مجنون، قال: لولا أنّ المجنون يلد عاقلا لخلّيتُ سبيله، قال فقال عمرو: وما خلق الله النار إلّا بالحقّ.

ولما قالت التَّغْلِبيّة للجحّاف بن حكيم فى وقعة البِشْر: فَضَّ الله عِمادكَ، وأطال سُهادكَ، وأقلَّ رمادَك، فوالله إن قتلت إلّا نساء أسافلهن دُمًى، وأعاليهن ندًى، فقال لمن حوله: لولا أن تلد هذه مثلَها لخلّيت سبيلَها، فبلَغ ذلك الحسنَ فقال: إنّ الجحّاف جُذْوة من نار جهنم.

قال وذَم رجلٌ عند الأحْنَف بن قيس الكَمْأةَ بالسِّمَن، فقال عند ذلك الأحنف: رُبَّ مَلومٍ لا ذنب له؛ فبهذه السيرة سرتَ فينا؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن ابن حسّان:

وإنّ امرأً يمسى ويصبح سالما * من الناس إلّا ما جَنَى لَسَعيدُ

وقلتَ: وما بالُ أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعِبَر، وأرباب النِّحَل، والعلماء بمخارج المِلَل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظُّرفاء والمُلَحاء، وكُتُبَ الفُرّاغ والخُلعاء، وكُتُبَ الملاهى والفُكاهات، وكُتُبَ أصحاب الخصومات والمِراء، وكُتُب

أصحاب العصبيّة، وحَمِيّة الجاهليّة، حتّى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يُوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفُّحَ العلماء، ولا لائمة الأدباء وشَنَفَ الأكفاء، ومَسَاءَة الجُلَساء، فهلّا أمسكتَ رحمك الله عن عيبنا، والطعن علينا، وعن المَشُورة والمَوْعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكْفاء.

أقسام البيان

وبعد أن تكلم فى تقسيم العالَم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال فى أقسام البَيان:

ووجَدْنا الحكمة على ضربين: شيءٌ جُعِلَ حِكمةً وهو لا يعقل الحِكْمةَ ولا عاقبة الحِكمة، وشيءٌ جُعِلَ حِكمةً وهو يعقِل الحكمةَ وعاقبةَ الحكمة، فاستوَى بَدَن الشيء العاقل وغير العاقل فى جهة الدِّلالة على أنّه حِكمة، واختلفا من جهة أنّ أحدَهما دليلٌ لا يَسْتدِلُّ، والآخَر دليلٌ يَسْتدِلّ، فكلُّ مُسْتدِلٍّ دليلٌ، وليس كلُّ دليل مستَدِلّا، فشارك كلّ الحيوان سوَى الإنسان جميعَ الجماد فى الدِّلالة وفى عدم الاستدلال، واجتمع للانسان بأن كان دليلا مُستَدِلّا، ثم جُعِلَ للمستَدِلّ سبَبٌ يَدُلّ به على وجوه استدلاله، ووجوهِ ما نتج له الاستدلالُ، وسَمّوْا ذلك بيانا، وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام: لفظٍ وخطّ وعقْد وإشارة، وجُعل بيان الدليل الذى لايَستدِلّ تمكينَه المُستدِلّ من نفسه واقتياده كلّ مَن فكّر فيه الى معرفة ما استُخْزِن من البرهان، وحُشِي من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة، فالأجسامُ الخُرُس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومُعْرِبةٌ من جهة صحة الشهادة، على أنّ الذى فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استخبرهما، وينطقان لمن استنطقهما كما يخبر الهُزال وكمود اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السِّمَنُ والنّضْرةَ عن حسن الحال، وقد قال الشاعر:

فعاجوا فأثنوْا بالذى أنت أهلُه ⁂ ولوسكتوا أثنت عليك الحقائبُ

وقال آخر:

متى تكُ فى عدوٍّ أو صديقٍ ⁂ تخبِّرْك العيونُ عن القلوب

وقد قال العُكلىّ فى صدق شمه الذئب، وفى شدة حسه وٱستروحه :

يستخبر الريحُ اذا لَمْ يَسْمع * بمثل مِقراع الصفا الموَقّع

وقال عنترة وهو يصف نعيبَ غرابَ :

حَرِق الجَناح كأن لَحْيَىْ رأسِه * جَلَمان بالأخبـار هَشٌّ مُولَعُ

وقال الفضل بن عيسى بن أبان فى قَصصه : سل الأرض فقلْ : مَن شقّ أنهارَكِ، وغَرَس أشجارَكِ، وجَنَى ثِمـارك؛ فإن لم تجبْك حِوارا، أجابتْك اعتبارا، فموضوع الجسم ونِصْبتُه دليلٌ على ما فيه، وداعيةٌ اليـه ومَنْبَهة عليه، فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه قد شارك فى البيان الإنسانَ الحىَّ الناطقَ؛ فمن جعل أقسامَ البيان خمسةً فقد ذهب أيضا مذهبا له جوازٌ فى اللغـة، وشاهدٌ فى العقـل، فهذا أحدُ قِسمَى الحكمـة، وأحدُ معنَيَىْ ما ٱستخزنها الله تعالى من الوديعة .

القسمة الأخرى ما أُودع صدورَ صُنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف، وفطَرها على غريب الهِـدايات، وسخّر حناجرَها له بضرب النغم الموزونة، والأصوات الملحّنة، والمخارج الشجيّة، والأغانى المُطْرِبة، فقد يقال : إن جميعَ أصواتهـا معدّلة، وموزونة موقّعة، ثم الذى سهّل لها من الرفق العجيب فى الصنعة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأَكُفّها، وكيف فتح لهـا من باب المعرفة على قدر ما هيّأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيرا منها من الحِسّ اللطيفَ، والصنعة البديعة عن غير تأديب وتثقيف، وعن غير تقويم وتلقين، وعن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها ومقدارِ قُوَى فِطْرتها من البديه والٱرتجال، ومن الٱبتـداء والٱقتضاب، ما لا يقدر عليه حُذّاقُ رجال الرأى، وفلاسـفةُ علماء البشر بيـدٍ ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملُهـم خِصالا، وأتمُّهم خِلالا، من جهة الارتجال والاقتضاب ولا من جهة التعسف والٱقتـدار، ولا من جهة التقديم فيه، والتأتى له، والترتيب لمُقَـدّماته، وتمكين الأسباب المُعِينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحِسّ، الجامع القُوَى، المُتصرّف فى الوجوه المتقدم فى الأمور يعجِز عن عفو كثير منها، وينظر اذ نظر

الى ضروب ما يجيء منهـا كما أعطيت العنكبوت ، وكما أعطيت السُّرْفَةُ ، وكما عُلِّمَ النحلُ ، بل عرّف التَّنَوُّطُ من بديع المعرفة ، ومن غريب الصنعة فى غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجدهم العجزَ فى أنفسهم فى أكثر ذلك إلا عما قوى عليـه الهَمَجَ والخَشَاش وصغارَ الحشرات ، ثُمَّ جعل الإنسانَ ذا العقلِ والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، وذا التكلف والتجربة ، وذا التأتى والمُنافسة ، وصاحبَ الادخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كلُّ شيء دونه فى الغموض عليه أسهلَ ، وجَعَل سائر الحيوان و إن كان يُحسِن أحدُها ما لا يُحسن أحذقُ الناس متى أحسن شيئا عجيبا لم يمكنه أن يُحسن ماهو أقربُ منـه فى الظنّ ، وأسهلُ منه فى الرأى ، بل لايحسن ما هو أقرب منه فى الحقيقة ؛ فلا الإنسان جَعَلَ نفسَه كذلك ، ولا شىءٌ من الحيوان اختار ذلك ، فأحْسَنَت هذه الأجناس بلا تعلُّم ما يمتنع على الإنسان ، و إن تعلم فصار لا يحاوله اذ كان لا يطمَع فيه ، ولا يحسُدها اذ كان لا يَأملُ اللَّحاق بها ، ثم جعل تعالى وعزّ هاتين الحِكْمَتين إزاءَ عيون الناظرين ، وتُجاه أسماع المعتبرين ، ثم حثّ على التفكير والاعتبار ، وعلى الاتعاظ والازدجار ، وعلى التعرّف والتبيّن ، وعلى التوقّف والتذكّر ، فجعلها مُذكّرةً منبّهةً ، وجعلَ الفطر تنشىء الخواطر ، وتجول بأهلها فى المذاهب ، ذلك ربّ العالمين ، سبحان الله ربّ العالمين .

وهـذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقُّهٍ وتنبيه ، وأراك قد عِبْتَـه قبل أن تقِف على حدوده ، وتتفكَّرَ فى فصوله ، وتتذكّر آخرَه بأوّله ، ومصادرَه بموارده ، وقـد غلّطك فيـه بعضُ ما رأيتَ فى أثنائه من مزحٍ لم تعرف معانيـه ، ومن بَطالةٍ لم تدرك غَوْرها ، ولم تدر لمَ اجتُلِبتْ ولأىّ علة تكلِّفتْ ، وأىّ معنًى أريغ بهـا ، ولأى جِدٍّ احتُمِلَ ذلك الهزْلُ ، ولأيّة رياضة تُجشِّمَتْ تلك البَطَالة ، ولم تدر أن المُزاح جِد اذا اجتُلبَ لأن يكون علّةً للجِدّ ، وأن البَطالةَ وقارٌ وزمانةٌ اذا تُكلِّفَتْ لتلك العاقبة ، ولمـّا قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحدٌ من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلّم ما لا يحتاج اليـه ؛ قال أبو شِمْر : اذا كان لايصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يَحتاج اليه ؛ وذلك

مثل كتابنا هذا، لأنّا إن حملنا جميع مَن يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مُرِّ الحقّ، وصُعوبةِ الجِد، وثِقْل المؤونة وحقيقة الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلّا من قد تجرّد للعلم وفهِمَ معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر من عزّه، ونال من سروره على حسَب مايورِث الطول من الكدّ، والكثرة من السآمة، وما أكثر مَن يُقاد الى حظّه بالسواجير، وبالسَّوْق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حِساناً فى مدح الكتب فقال:

ثم لم أَرك رضيتَ بالطعن على كلّ كتاب لى بعينه، حتى تجاوزت ذلك، الى أن عِبْت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال، وكيف تصرّفت بها الوجوه؛ وقد كنت أعجب من عيبك البعضَ بلا عِلم، حتّى عِبت الكلّ بلا علم؛ ثمّ جاوزتَ ذلك الى التشنيع، ثم تجاوزت التشنيع الى نُصْب الحروب، فعبت الكتاب ونعم الذخرُ والعُدة، ونعم الجليس والعُمدة، ونعم النَّشْوة والنزهة، ونعم المشتغَل والحِرْفة، ونعم الأنيسُ ساعة الوَحْدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغُرْبة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيلُ؛ والكتاب وِعاءٌ مُلِئَ علما، وظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفا، وإناءٌ شُحِنَ مُزاحا وجِدّا؛ إن شئتَ كان أبينَ من سَحبانِ وائلٍ، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحِكتَ من بوادره، وإن شئت عجِبتَ من غرائب فوائده، وإن شئت ألهتك نوادره، وإن شئت شجتك مواعظه، ومَن لك بواعظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغْرٍ، وبناسكٍ فاتِك، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدٍ حارّ؛ وفى البارد الحارّ يقول الحسن بن هانئ:

قُلْ لزهيرٍ اذا انتحى وشَدا ... أقلِل أو اكثِرْ فأنتَ مِهْذارْ
سَخُنْتَ من شدّة البرُودةِ حتّى صرتَ عندى كأنّك النارْ
لا يعجب السامعونَ من صفتى ... كذلك الثلجُ باردٌ حارّْ

ومَن لك بطبيب أعرابىٍّ [(١)] ، وبرومىٍّ هندىٍّ ، وبفارسىٍّ يونانىٍّ ، وبقـديم مولَّد ، وبميّت مُمْتِع ، ومن لك بشىء يجمع لك الأوّلَ والآخِر ، والناقصَ والوافر ، والخفىَّ والظاهر ، والشاهدَ والغائب ، والرفيعَ والوضيعَ ، والغثَّ والسمينَ ، والشكلَ وخلافه ، والجنسَ وضِدَّه .

وبعد ، فمتى رأيت بستانا يُحمَلُ فى رُدْن ، أو روضةً تتقلَّبُ فى حِجْر ، وناطقا ينطق عن الموتى ، ويُترجم كلام الأحياء ، ومَن لك بمؤنسٍ لاينام إلاّ بنَوْمك ، ولا ينطِق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض ، وأكتم للسرِّ من صاحب السرِّ ، وأضبط للوَديعـة من أرباب الوَديعة ، واحفظَ لما آستُحْفظ من الأُمّيّين ، ومن الأعراب المعْرَبين ، بل من الصِّبيان قبل اعتراض الأشغال ، ومن العُميان قبل التمتّع بتمييز الأشخاص ، حين العنايةُ تامّة لم تنقُص ، والاذهانُ فارغة لم تُقْتَسم ، والإرادةُ وافرة لم تستعِب ، والطينةُ ليّنة فهى أقبل ماتكون للطابع ، والقضيب رطبٌ فهو أقرب ما يكون من العلوق ، حين هـذه الخصالُ لم يَبْـلَ جديدُها ، ولم يُفَلّ غَرْبُها ، ولم تتفرّق قُواها ، وكانت كما قال الشاعر :

أتانى هواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوَى * فصادف قلبا فارغا فتمكَّنا

وقال عَبْدَةُ [(٢)] بن الطبيب :

لا تأمَنُوا قوما يشِبّ صبيُّهم * بين القوابل بالعَدَاوةِ يُنْشَعُ

هذا مع قولهم : التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، وقال جِران العَوْد :

تُرِكن بِرحْـلَةِ الرَوْحاء حتّى * تنكّرَتْ الديارُ علَى البصـير

كوحيٍ فى الحجارة أو وُشُومٍ * بأيدى الروم باقيةِ النُؤُورِ

النُّؤور : شىء كان يُعمل فى الجاهلية مثل الخضرة اليوم .

وقال آخر وهو صالح بن عبد القدوس :

وإنّ مَن أدّبته فى الصبا * كالعُود يُسقَى الماءَ فى غَرسه

حتى تراه مُـورِقا أخضـرا * بعد الذى أبصرتَ من يُبسه

(١) كذا فى الاصل ، ولعلها : « بنبطى » .

(٢) فى الأصل : « تميرة » وهو خطأ صوابه ما أثبتناه عن الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وقال آخر :

يقوّم من مَيل الغلام المؤدبُ ٭ ولا ينفع التأديبُ والرأس أشيبُ

وقال آخر :

أدّبتُ عِرسى بعد ما هرِمتْ ٭ ومن العناء رِياضةُ الهرِم

وقد قال ذو الرمّة لعيسى بن عمر : اكْتُبْ شِعرى فالكتّابُ أعجب الىّ من الحفظ ، إن الأعرابىَّ ينسى الكلمةَ قد سهرت فى طلبها ليلة ، فيضع فى موضعها كلمةً فى وزنها ثم يُنشدها الناسَ ، والكتّابُ لا يَنسَى ، ولا يُبْدِل كلاما بكلام ؛

وعبت الكتّابَ ولا أعلم جارا أبرّ ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلّما أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفايةً ، ولا أقلّ جناية ، ولا أقل إملالا وإبراما ، ولا أقلّ خلافا وإجراما ، ولا أقلّ غيبةً ، ولا أبعدَ من عَضيهةٍ ، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرّفا ، ولا أقلّ صلّفا وتكلّفا ، ولا أبعدَ من مِراء ، ولا أتركَ شَغَبٍ ، ولا أزهدَ فى جدالٍ ، ولا أكفّ عن قتالٍ ، من كتّاب ؛ ولا أعلم قرينا أحسنَ مواتاة ، ولا أعجلَ مكافأة ، ولا أحضرَ مَعُونة ، ولا أخفَّ مَؤُونة ، ولا شجرة أطولَ عُمْرا ، ولا أجمعَ أمرا ، ولا أطيبَ ثمرة ، ولا أقربَ مُجْتَنًى ، ولا أسرعَ إدراكا ، ولا أوجدَ فى كلِّ إبّانٍ من كتّاب ؛ ولا أعلم نتاجا فى حَدَاثة سنّه ، وقُرب مِيلاده ، ورخصِ ثمنه ، وإمكانِ مَوْجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحِكَم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتراخية ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتّاب .

وقد قال الله عزّ وجل لنبيّه عليه الصلاة والسلام : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ وصف نفسَه تبارك وتعالى جده بأن علّم بالقلم ، كما وصفَ نفسَه بالكَرَم ، واعتدّ ذلك فى نِعَمه العِظَام ، وفى أياديه الجِسام ، وقد قالت : القلم أحدُ اللسانين ، وقالوا : كل مَنْ عرَف فَضْل النعمة فى بيان اللسان كان بفضل النعمة فى بيان القلم

أعرف ؛ ثم جَعَـل هذا الأمر قرآنا ، ثمّ جعـله فى أوّل التنزيل ، ومُسْتفتِح الكتاب ،

ثم اعلم ـــ يرحمك الله تعالى ـــ انّ حاجة بعض النـاس الى بعض صـفةٌ لازمة لطَبائعهم ، وخلقةٌ قائمة فى جواهرهم ، وثابتـة لا تزايلُهم ، ومحيطة بجماعتهـم ، مشتملة على أدانيهم وأقاصيهم ، وحاجتهم الى ما غاب عنهم ، مما يُعيشهم ويُحْييهم ، ويأخذ بأَرْماقهم ، ويُصْلح بالهم ، ويجمع شملهـم ، والى التعاون على دَرَك ذلك ، والتوازر عليـه كحاجتهم الى التعاون على معـرفة ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق فى أمورهم التى لم تغب عنهم ، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنَى الى معرفة الأقصَى ، واَخْتِلال الأدنَى الى معونة الأقصى ؛ معانٍ متضمّنة ، وأسبابٌ متّصلة ، وحبالٌ مُتقيدة ، وجعـل حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلَنا كحاجة من كان قبلنا الى أخبار مَن كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعـدنا الى أخبارنا ، ولذلك تقـدّمت فى الكتب البشارات بالرسل ، ولم يُسخّر لهم جميع خلقـه إلّا وهم يحتاجون الى الارتفاق بجميع خلقـه ، وجعل الحاجة حاجتَـيْن : إحداهمـا قِوَام وقوت ، والاخرى لذّة وإمتاع ، وازدياد فى الآلة ، وفى كل ما أجذَلَ النفوسَ ، وجمع لهم العتَاد ، وذلك المقدار من جميع الصنْفَيْن وَفْق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع مَعْرفتهـم ، وبعدِ غَوْرِهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشريّة ، وفِطْـرة الإنسانية ، ثم لم يَقْطع الزيادةَ عنهم الّا لعجز خَلْقهم عن احتمالهـا ، ولم يَجُز أن يفرّق بينهم وبين العجز إلّا بعـدم الأعيان ، اذا كان العجز صفةً من صفات الخلق ، ونَعْتا من نُعوت العبيد ، ولم يَخْلقِ الله تعـالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض مَن سُخّر له ، فأدناهم مُسخّر لأقصاهم ، وأجلّهـم مُيسّر لأدقّهم ، وعلى ذلك أحوَجَ الملوك الى السوقة فى باب ، وأحوج السوقة الى الملوك فى باب ، وكذلك الغنىّ والفقيرُ والعبد وسيِّده .

ثمّ جعل الله تعالى كلّ شىء للانسان خَوَلا وفى يده مُذالّا مُيسّرا ، إما بالاحتيال له ، والتلطف فى إراغته واستمالته ، إمّا بالصولة عليه والفَتْك به ، وامّا أن يأتيه سَهْوا ورهْوا ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته اليها لمـا احتال لها ، ولمّـا صال عليها ، إلّا أنّ الحاجة تَفْترق

فى الجنس والجهة، وفى الحظّ والتقدير، ثم تعبّد الإنسانَ بالفكر فيها، والنظر فى أمورها، وبالاعتبار بما يَرَى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحِكَم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتنقير، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم اليها، وتشاعرهم بمواضع الحِكَم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذى جعله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومُعبّرا عن حقائق حاجاتهم، ومُعرّفا لمواضع سدّ الخلّة، ودفع الشبهة، ومُداواة الحَيْرة؛ ولأنّ أكثر الناس عن الناس أفهمُ منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التى لا يُتعرّف ما فيها من دفائن الحكم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، الا بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفِكْر، والاحتراس من وجوه الخُدَع، والتحفظ من دواعى الهوينى، ولأنّ الشكل أفهم عن شكله وأسكن اليه وأصب به، وذلك موجود فى أجناس البهائم وضروب السِّباع، والصبىّ عن الصبىّ أفهم وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالِم والعالِم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأنّ الإنسان عن الإنسان أفهمُ، وطباعَه بطباعه آنسُ، وعلى قدر ذلك يكون مَوْقع ما يسمع منه؛ ثم لم يرض من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرّق، وكثّر ولم يُقلّل، وأظهر ولم يُخْفِ، فجعل أصناف البيان التى بها يتعارفون معانيَهم، والتَّرْجُمانَ الذى اليه يرجعون عند اختلافهم فى أربعة أشياء وفى خَصْلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة فى جهاتها، فقد تكمل بجنسه الذى وضع له، وصرف اليه.

وهذه الخِصال الأربع: هى اللفظ والخط والإشارة والعَقْد، والخَصْلة الخامسة: ما أوجد من صِحّة الدّلالة، وصدق الشّهادة، ووضوح البرهان فى الأجرام الجامدة الصامتة، والساكنة الثّابتة، التى لا تتبين ولا تفهم، ولا تُحِس، وتتحرك الّا بداخل دخل عليها، أو عناء ممسك خلّى عنها بعد تقييده كان لها؛ ثم قسم الأقسام، ورتّب المحسوسات، وحصّل

الموجودات ، بجعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، فى معرفة العَقْد إلاّ بمـا فضّل الله به نصيب الناظر فى ذلك على نصيب اللامس ، وجعـل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه ، وسببا مَوْصولا بينه وبين أعوانه ، وجعله خازنا لمـا لا يأمن نسيانه ممّا قد أحصاه وحفِظه ، وأتقنه وجمعه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق فى ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثيرُ البسيط ، ولبَطَلت معرفة التضاعيف ، ولَعدِموا الإحاطة بالباورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لمـا أدركوه إلّا بعـد أن تغلُظ المَؤونة ، وتنتقص المُنّة ، ولصاروا الى حال مَعْجَـزة وحُسور ، والى حال مضيعة وكلال حدّ ، مع التشاغل بأمور لولا فَقْد هـذه الآلة لكان أربحَ لهم ، وأردّ عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل فى أبواب منافع الدِّين والدنيا ؛ ونفع الحساب معلوم ، والخَلّة فى موضع فَقْده معروفة ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ وبالبيان عرَف النـاس القرآن ، قال الله تبارك وتعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فأجرَى الحساب مَجرى البيانِ وألحق البيان بالقرآن ، وبحُسْبان منازل القمر عرَفنا حالاتِ المَدّ والجَزْر ، وكيف تكون الزيادة فى الأهلّة وأنصافِ الشهور ، وكيف يكون النُّقصان فى خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُب المدوّنة ، والاخبار المُخلّدة ، والحِكَم المخطوطة التى تَحْصُر الحسابَ وغير الحساب ، لبَطَل أكثر العِـلْم ، ولغلب سلطانُ النِّسيان سلطانُ الذكر ، ولمـا كان للناس مَفْزَع الى موضع آسـتذكار ، ولو تم ذلك لحُرِمْنا أكثر النفع ، اذ كنا قد علمنا ان مقدار حِفْظ الناس لعواجل حاجاتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا ، ولا يغنى فيه غَناء محمودا ، ولو كُلِّف عامّة مَن يطلب العِـلْم ، ويَصْطَنِـع الكتب ، ألّا يزالَ حافِظا لفِهْرِس كُتُبه لأعجزه ذلك ، ولَكُلِّف شَـطَطا ، ولَشَغَله ذلك عن كثير ممـا هو أوْلَى به ؛ ففهمك

لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فَهْم عَيْن الصوْت مُجرّدا ، وأبعدُ فهمك لصوت صاحبك ومُعاملك ، والمُعاوِن لك ما كان صياحا صِرْفا ، وصوْتا مُصْمَتًا ، ونداء خالصا ، ولا يكون مع ذلك ألا وهو بعيد من المُفاهمة ، وعُطْل من الدلالة ، بجعل الله جل وعزّ اللفظ لأقرب الحاجات ، والصوْت لِأنفَس من ذلك قليلا ، والكتاب للنازح من الحاجات .

فأمّا الإشارة فأقرب المفهوم منها رفعُ الحواجب ، وكسرُ الأجفان ، ولَيُّ الشفاه ، وتحريك الأعناق ، وقبض جِلْدة الوجه ، وأبعدها أن تُلْوِى بثوب على مَقْطع جبل تُجاهَ عين الناظر ، ثم ينقطِع عملُها ، ويَدْرُس أثرُها ، ويموت ذِكرُها ، وتصير بعد كلّ شيء فَضَلَ عن انتهاء مَدة الصوت ، ومُنْتهَى الطرْف فى الحاجة ، الى التفاهمُ بالخطوط والكُتُب ؛ فأىُّ نفْعٍ أعظمُ ، وأىّ مَرْفِق أعوَنُ من الخط ، والحالُ فيه كما ذكرنا !

وليس للعَقْد حظّ الإشارة فى بعد الغاية ، ولا للاشارة حظّ الخط فى بعد الغاية ، فلذلك وضع الله عزّ وجلّ القلمَ فى المكان الرفيع ، ونوّه بذكره فى المَنْصب الشريف حين قال : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم بما يُخَطّ بالقلم إذ كان اللسان لا يتعاطَى شأوَه ، ولا يَشُقّ غُبارَه ، ولا يجرِى فى حَلْبَته ، ولا يتكلّف بعد غايته ، ولكن لمّا كانت حاجات الناس بالحَضْرة أكثرَ من حاجاتهم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاجة الى بيان اللسان حاجةً دائمةً راكدةً ، وراهنة ثابتةً ؛ وكانت الحاجة الى بيان القلم أمرًا يكون فى الغَيْبة وعند النائبة ، الّا ما خُصّصت به الدواوين ، فإنّ لسان القلم هنالك أبسطُ ، وأثره أعمّ ، فلذلك قدّموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن انّما هو فى منافع البد والمرافق التى فيها ، والحاجات التى تبلغُها ، فمن ذلك حظُّها وقِسْطها من منافع الإشارة ، ثم نَصيبها فى تقويم القلم ، ثم حظّها فى التصوير ، ثم حظّها فى الصناعات ، ثمّ حظها فى العَقْد ، ثم حظّها فى الدفع عن النفس ، ثم حظّها فى إيصال الطّعام والشراب الى الفَم ، ثم التوضّؤ والامتساح ، ثم انتقاد الدنانير والدراهم ، ثمّ لُبْس الثياب ، وفى الدفع عن النفس أصنافَ الرمْى ، وأصنافَ الضرب ، وأصنافَ الطعن ، ثم الضربَ التقّنُ بالعود وتحريكَ الوتر ، ولولا ذلك لبطَل الطرب كلّه أو عامته ، وكيف

لا تكون كذلك ولهـا ضرب الطـبل والدّفّ وتحريك الصفاقتين، وتحريكُ مخارق خروق المزامير، وما فى ذلك من الإطلاق والحبس؛ ولو لم يكن فى اليد الّا إمساك العِنان والزمام والخطام، لكان ذلك من أعظم الحظوظ .

وقد آضطربوا فى الحكم بين العَقْـد والإشارة، ولولا انّ مَغزانا فى هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أُحبّ أن يَعرِفه إخواننا وخلطاؤنا، ولا ينبغى لنا أيضا أن نأخذ فى هـذا الباب من الكلام الّا بعـد الفراغ ممـا هو أوْلَى بنا منـه، إذ كنتَ لم تنازعني، ولم تعب كُتُبي من طريق فضل ما بين العَقْد والإشارة، ولا فى تمييز ما بين اللفظ وبينهما؛ وانّمـا قَصَدْنا بكلامنا الى الإخبار عن فضل الكتب .

والكتّاب هو الذى قيّد على الناس كُتُبَ عِلْمِ الدين، وحسابَ الدواوين، مع خِفّـة ثقله، وصِغر حجْمه، صامت ما أسْكَتّه، وبليغٌ إذا آستنطقته، ومَن لك بمُسامر لا يبتدئك فى حال شُغْلك، ويدعوك فى أوقات نشاطك، ولا يحوجُك الى التجمل له، والتذمم منه؛ ومَن لك بزائر انْ شئتَ جعل زيارته غِبًّا، ووُروده خمْسا، وانْ شِئت لزمك لزوم ظِلّك، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مُكْتَفٍ بنفسه ولا يحتاج الى ما عند غيره، ولا بد لبيان اللسان من أمور، منها: إشارة اليد، ولولا الاشارة لمـا فهموا عنك خاصّ الخاصّ، اذا كان أخصّ الخاصّ قـد يدخل فى باب العامّ، إلّا أنّه أدنَى طبقاته، وليس يكتفِى خاصّ الخاصّ باللفظ عمّا أدّاه، كاكتفاء عامّ العامّ، والطبَقاتِ التى بينه وبين أخصّ الخاصّ .

والكتّاب هو الجليس الذى لا يُطْرِيك، والصـديقُ الذى لا يُغْريك، والرفيقُ الذى لا يُملّك، والمَسْتميح الذى لا يَسْـتَزِيدك، والجار الذى لا يَسْتبطئك، والصاحب الذى لا يريد آستخراج ما عندك بالمَلَق، ولا يعاملك بالمكْر، ولا يخدعُك بالنِّفاق، ولا يحتال لك بالكذب .

والكِتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طِباعك، وبسَط لسانك، وجَوّد بيانك، ونفخم ألفاظك، وبجّح نفسك، وعمّر صدرك، ومنحَك تعظيم العوام، وصداقة الملوك، وعرَفتَ به فى شهر ما لا تَعرِفه من أفواه الرجال فى دَهْر، مع السلامة من الغُرْم، ومن كَدّ الطلب، ومن الوقوف بباب المُتكَسّب بالتعليم، وبالجلوس بين يدى مَن أنت أفضلُ منه خُلُقا، وأكرمُ عِرْقا، ومع السلامة من مجالسة البُغضاء، ومُقارنة الأغبياء.

والكِتاب هو الذى يُطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويُطيعك فى السفر كطاعته فى الحضَر، ولا يَعتلّ بنوم، ولا يَعْتريه كَلال السهر، وهو المُعَلّم الذى إن ٱفتقرت لم يحْقِرك، وان قطعت عنه المادّة لم يقطع عنك الفائدة، وان عُزِلت لم يدَع طاعتك، وان هَبّت ريح أعاديك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلّقا بسبب، أو مُعْتصِما بأدنَى حبْل، لم تضطرك معه وَحْشة الوَحْدة الى جليس السَّوْء، ولو لم يكن مِن فضله عليك، وإحسانه اليك، إلّا مَنْعُه لك من الجلوس علَى بابك، والنظرِ الى المارّة بك، مع ما فى ذلك من التعرّض للحقوق التى تَلْزم، ومن فُضول النظر، ومِن عادة الخوض فيما لا يَعْنيك، ومِن مُلابسة صِغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقِهم الرديّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكان فى ذلك السلامة ثم الغَنيمة، وإحرازُ الأصل مع ٱستفادة الفرْع، ولو لم يكن فى ذلك إلّا أن يَشْغلك عن سُخْف المُنَى، وعن ٱعتياد الراحة، وعن اللَّعِب، وكلّ ما أشبه اللعب، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغُ النعمة، وأعظمُ المِنّة؛ وقد عِلمنا أنّ أمْثل ما يَقْطَع به الفُرّاغ نهارَهم، وأصحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلهم، هو الشيء الذى لا تَرى له فيهم مع النَّيْل أثرًا فى ٱزديادٍ فى تجربة ولا فى عقْل، ولا فى مروءة ولا فى صَوْن عِرْض، ولا فى إصلاح دِين، ولا فى تَثْمِير مالٍ، ولا فى تربية صنيعة، ولا فى ٱبتداءٍ بإنعام.

قال أبو عُبَيْدة قال المُهلَّب لبنيه فى وَصيّته : يا بَنِيّ لا تَقِفوا فى الأسواق إلّا على زرّادٍ أو ورّاق.

وحدّثنى صديق لى قال : قرأت على شيخ شامىّ كتابا فيه مآثرُ غطفان، فقــال لى : ذهبت المكارم إلا من الكتب ؛ وسمعت الحسن اللؤلؤى يقــول : غَبرت أربعين عاما ما قِلْت ولا بِت التكأت إلّا والكتاب موضوع على صدرى؛ وقال ابن الجَهْم : اذا غَشِيَنى النعاس فى غير وقت نوم وبئس الشئ النوْم الفاضل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحِكَم فأجد اهتزازى للفوائد ، والأَرْيَحِيــة التى تعتريني عنــد الظفَر ببعض الحــاجة ، والذى يَغْشَى قلبي من سرور الاستبانة ، وعِزّ التبيّن، أشــدَّ إيقاظا من نَهيق الحمير، وهَدّة الهَــدْم .

وقال ابن الجَهْم : اذا استحسنتُ الكتاب واستجدْته ، ورجَوْت منه الفائدة ، ورأيت ذلك فيه ، فلو تَرَوْننى وأنا ساعةً بعْد ساعةٍ أبصُرُكمْ بَقِى مِن ورقه مخافةَ استنفاده ، وانقطاع المادّة من قِبله ، وإن كان المُصْحف فى عظيم الحَجْم ، وكان الورق كثير العدد ، لرأيتم كيف تمّ عَيْشى ، وكَمُل سُرورى .

وذكر القَيْنِيّ كتابا لبعض القــدماء فقال : لولا طوله ، وكثرة ورقه ، لنسختُه ؛ قال ابن الجَهْم : لكنّنِي ما رغّبنى فيه إلّا الشيء الذى زهّدك فيــه ، وما قرأت كتابا قطّ كبيرا فأخلانى من فائدة ، وما أُحْصِى كم قرأتُ من صِغار الكُتُب فخرجت منها كما دخلت .

وقال القَيْنِيّ ذاتَ يوم لابن الجَهْــم : ألَا تتعجّب مِن فُلانٍ ! نظر فى كتاب الإقْليدِس مع جاريةِ سَلْمُويَهْ فى يوم واحدٍ وساعةٍ واحدة ، فقــد فرغَت الجارية من الكتاب وهو بعدُ لم يُحكِم مَقالةً واحدة ، على أنه حرّ مُخَــيّر وتلك أمَة مَقْصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتُب مِن سَلْمُويَهْ على تعليم جاريته ؛ قال ابن الجَهْم : قد كنتُ أظنّ أنه لا يفهم منه شكلًا واحدا ، وأراك تزعُم أنه قد فرغ من مَقالة ؛ قال القَيْنِيّ : وكيف ظننت به هذا الظن كُلّه وهو رجل ذو لسان وأدب؟ قال : لأنّى سمعتُه يقول لابنه : كم أنفقت على كتاب كذا وكذا ؟ قال : أنفقت كذا وكذا ؛ قال : انمّــا رغّبنى فى العلم أنّى ظننت أنّى أُنْفِق قليــلا وأكتسب كثيرا ، فأما اذ صِرْتُ أنْفِق الكثير وليس فى يدى منه إلّا المواعيدُ فانّى لا أريد

العلم بشيء . والإنسان لا يعلم حتى يكثُر سماعُه ، ولا بُدّ من أن تصير كتبُه أكثرَ من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه ؛ ومَن لم تكن نفقته التي تخرج في الكُتُب ألذّ عنده من عشاق القِيان ، والمستهترين بالبُنْيان ، لم يبلغ في العلم مَبلغا رَضيّا . وليس ينتفع بإنفاقه حتّى يؤثر لذّة اتّخاذ الكتب إيثار الأعرابيّ فرَسه باللّبن على عِياله ، وحتّى يؤمِّل في العلم مالا يؤمّل الأعرابيّ في فرسه .

وقال إبراهيم بن السِّنْديّ مرّةً : وددْت أنّ الزنادقة لم يكونوا حُرَصاء على المغالاة بالورق النقيّ الأبيض ، ولا على تخيّر الحبر الأسود البرّاق ، ولا على استجادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ ، فإني لم أرَ كورق كتبهم ورَقا ، ولا كالخطوط التي فيها خطّا . وإنّي غرِمت مالا عظيما مع حبّي للمال وبغضي للغرم ، لأنّ سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليلٌ على شرَف النفس وعلى السلامة من سُكْر الآفات . وقلت لإبراهيم : إنّ إنفاق الزنادقة على الكتب كانفاق النصارَى على البِيَع ، ولو كانت كتب الزنادقة كُتُبَ حِكْمة ، وكتبَ فلسفة ، وكانت مقاييسَ تبيينَ ، أو لو كانت كتبهم كتبا تعرّف الناس أبواب الصناعات ، أو سبُلَ التكسب والتجارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطَن والأدب ، أو كان ذلك لا يُقرّب من غنًى ، ولا يباعد من مأثم ، لكانوا ممّن قد يجوز أن يُظَنّ بهم تعظيم البيان والرغْبة في التبيين ، ولكنّهم ذهبوا فيها مذهبَ الديانة على طريق تعظيم الملّة ، فإنّما إنفاقهم في ذلك كانفاق المجوس على بيت النار ، وكانفاق النصارَى على صُلْبان الذهب ، أو كانفاق الهند على سَدَنة البُدّ ، ولو كانوا العلمَ أرادوا لكان العلمُ لهم معرضا ، وكتبُ الحكمة لهم مَبْذولة ، والطرُق اليها سهلة معروفة ، فما بالهُم لا يصنعون ذلك إلّا بكتب دياناتهم كما يُزخرِف النصارَى بيوت عباداتهم ؛ ولو كان هذا المعنى مُستحسنا عند المسلمين ، وكانوا يرَوْن أنّ ذلك داعيةً الى العبادة وباعثةٌ على الخشوع ، لبَلغوا في ذلك بعفْوِهم ما لا يبلغه النصارى بغاية الجُهْد .

وقد رأيتم مَسْجد دِمشق حين استجاز هذه السبيلَ ملِكٌ من ملوكنا ، ومن رآه فقد علِم أنّ أحدا لا يرومه ، وأنّ الروم لا تسخو أنفسُهم به ؛ فلما قام عمر بنُ عبـد العزيز جلّله بالجـلال ، وغطّاه بالكرابيس (١) ، وطَبَخ سلاســل القناديل حتّى ذهَب عنها ذلك التلألؤ والبَريق ، وذهب الى أنّ ذلك الصنيعَ مجانِب لسُنّة الاســلام ، وأنّ ذلك الحُسْن الرائع والمحاسن الدِّقاق مَذْهَلة للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأنّ البال لا يكون مُجْتمعا وهناك شيء يُفرّقه ويَعترض عليه .

والذى يدلّنا على ما قلنا أنّه ليس فى كتبهم مثلٌ سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صــنعةُ أدب ، ولا حِكْمة غريزية ولا فلســفية ، ولا مسئلة كلاميــة ، ولا تَعْريفُ صِــناعة ، ولا استخراجُ آلة ، ولا تعليم فِلاحة ، ولا تدبير حَرْب ، ولا مُقارَعة عن دِين ، ولا مُناضلة عن نِحْلَة ؛ وجُلّه ذكر النور والظُّلْمَة ، وتناكُح الشياطين ، وتسافُد العفاريت ، وذكرُ الصِّنْديد والتهويلُ بعمود السنخ ، والاخبار عن شقلون وعن الهــامَة والهامة ، وهَذَرٌ وعِيٌّ ودعوى وخُرافة وسخف وتكذُّبٌ ، لا ترى فيه موعظة حَسَنة ، ولا حديثا مُونِقا ، ولا تدبيرَ معاشٍ ولا سياســةَ عامّة ، ولا ترتيب خاصّة ؛ فأىّ كتاب أَجهَــلُ ، وأى تدبير أفسد من كتابٍ يُوجب على النــاس الطاعة والبُخُوع بالديانة على جهــة الاستبصار والمحبّــة ، وليس فيــه صلاح معاشٍ ، ولا تصحيح دِين ، والناس لا يحبّون إلّا دينا أو دُنيا .

فأمّا الدنيــا فاقامة سُــوقها وإحضارُ نفعها . وأما الدِّين فأقلّ ما يُطمع فى استجابة العامة واستمالة الخاصّــة ، أن يصوّر فى صورة مُغلّطة ، ويُموّه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذى يَغلَط فيــه الكثير ويعرف حقيقته القليــل . فليس انفاقُهم عليها من حيث ظننت . وكل دِين يكون أظهر اختــلافا وأكثر فسادا يحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

---

(١) الكرابيس جمع كرباس : ثوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب الخشن ، فارسى معرّب .

وقد علمت أن النصرانية أشدُّ انتشارا من اليهودية تَعبُّدا ، فعلَى حسبِ ذلك يكون تزيُّدهم فى توكيده، واحتفالهم فى إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنتُ عند بعض العلماء فكنتُ أكتبُ عنه بعضًا وأدع بعضًا، فقال لى : اكتبْ كلّ ما تسمع ، فانّ أخس ما تسمع خير من مكانه أبيض . وقال الخليل بنُ أحمد : تكثّر من العلم لِتعرِف، وتَقلّل منه لتحفَظ . وقال أبو إسحاق : القليلُ والكثير للكُتُبِ، والقليلُ وحْدَه للصدر، وأنشد قول ابن يَسِير :

أَمَا لو أَعِى كلّ ما أَسمَعُ * وأَحْفَظ مِن ذاكَ ما أَجْمَعُ
ولم أَستَفِد غيْر ما قدْ جمعْتُ لقِيلَ هو العالِمُ المُقْنِعُ
ولكنّ نَفْسِى الى كُلِّ نو * عٍ من العِلْم تَسْمَعُه تَنْزِع
أشاهَدُ بالعىّ فى مَجْلِسى * وعِلْمى فى البيت مُسْتَوْدَع
فلا أَنَا أَحْفَظُ ما قد جمعْتُ ولا أنا مِنْ جَمْعِه أشبَع
ومَنْ يَكُ فى عِلْمِه هكذا * يكُنْ دهرَه القَهْقَرى يرجِعُ
اذا لَمْ تكُنْ حافظا واعيًا * بجَمْعُك لِلعلْمِ لا يَنْفَع

قال أبو اسحاق : كلف ابن يَسير الكتبَ ما ليس عليها، إنّ الكتب لا تُحيى الموتى، ولا تُحوّل الأحمق عاقلا ، ولا البليدَ ذكيا، وذلك أنّ الطبيعة اذا كان فيها أدنَى قبول فالكتبُ تَشْحَذ وتَفْتُق وتُرْهِف وتَشْفِى، ومن أراد أن يعلم كلّ شيء فينْبَغِى لأهله أن يداووه، فان ذلك انّما تصوّر له لشيء اعتراه . فمَن كان عاقلا ذكيًّا حافظًا فليَقْصِد الى شيئين أو ثلاثة أشياء : فلا يَنْزِع عن الدرس والمطارحة، ولا يَدَع أن يمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالما بخواصّ ويكون غيرَ غُفْل من سائر ما يجرى فيه الناس ويَخوضون فيه ؛ ومَن كان مع الدرس لا يحفَظ شيئا إلّا نسِى أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أَبعدُ .

وحدثنى موسى بنُ يحيى قال : ما كان فى خزانة كتب يحيى وفى بيت مدرسه كتاب، إلّا وله فيه ثلاثُ نُسَخ .

وقال أبو عمرو بنُ العــلاء : ما دخلت على رجل قطُّ ولا مررت ببابه فرأيتــه ينظر فى دفتر وجليسُه فارغ اليد إلّا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبوعمرو وقيل لنا يومًا : إنّ فى دار فلانٍ ناسا قد اشْتَملوا على سوءة، وهم جلوسٌ على خُمَيْرة لهم وعندهم طُنْبور، قال: فَتَذَمَّرْنا عليهم فى جماعة من رجال الحىّ، فاذا فتًى جالسٌ فى وَسط الدار وإذا أصحابه حوْلَه، وإذا هم بيضُ اللِّحَى، واذا هو يقرأ عليهم كتاب شــعر، فقال الذى كان سعى بهم : السَّوْءة فى ذلك البيت، وإن دخلتموه عَثَرْتم بها؛ قال قلتُ : والله لا أكشف فتًى أصحابُه شيوخ وفى يده دفتر عِلْم ولو كان فى ثوبه دَمُ يحيَى بنِ زكرياء .

قال وأنشد رجل يونُس النَّحوىّ قوله :

أُسْتودِعَ العِــلْمُ قِرْطاسا فَضَيّعه ٭ فبِئْس مُسْتَوْدَعُ العِلْمِ القَراطيسُ

قال فقــال يونس : قاتله الله، ما أشــدّ صبابته بالعلم وأحسنَ صِيانَته له ! إنّ عِلْمك من رُوحِك، ومالك مِن بدنك، فضعْه منك بمكانِ الرُّوحِ، وضَعْ مالك بمكان البدن .

وقيــل لابن دَاحَة وأخرج كتاب أبي الشَّــمَقْمَق واذا هو فى جُلود كوفيّة ودفّتيْن طائفيتين وبخطّ عجيب، فقيل له : لقد ضيّع درهمه (١) مَن تجوّد لشعر أبى الشمقمق؛ قال : لا جَرَمَ والله إنّ العــلم ليُعْطِيكم على حساب ما تُعْطُونَه، ولو استطعتُ أنْ أودِعَه سُــوَيداء قلبى وأجعله مخطوطا على ناظرىّ لفعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بنِ سليمان فى إمْرته، فرأيت السماطين بين يديه والرجال مُثُولًا كأنّ على رءوسهم الطير، ورأيت فِرْشَته (٢) وبِزّته، ثم دخلت عليــه وهو معزول، واذا هو فى بيت كتبه وحوالَيْه الأسْــفاط والرفوف والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فــا رأيتــه قطُّ أفخمَ ولا أنبَــل ولا أهْيَب ولا أجزل منــه فى ذلك اليوم، إلا أنّه جمــع مع المَهابة المحبة، ومع الفَخامة الحلاوَة، ومع السُّودَد الحِكْمة .

---

(١) كذا فى الأصل، ولعلها زائدة . (٢) الفرشة : الهيئة .

وقال ابن داحة : كان عبد الله بنُ عبد العزيز بنِ عبد الله بنِ عمر بن الخطاب لا يُجالس الناس ، ونزل مقبرة من المقابر ، وكان لا يكاد يُرَى إلّا وفى يده كتاب يقرؤه ، فسُئل عن ذلك وعن نزوله المَقْبُرَة ، فقال : لم أرَ أوعظَ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسْلَم من الوَحْدة ، فقيل له : فقد جاء فى الوَحْدة ما قد جاء ، قال : ما أفسدَها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وضروب من الخُطوط بعد ذلك تَدُلّ على قدر مَنْفَعة الخطّ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقال الله عز وجل : ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقال : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ وقال : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ .

الترغيب فى اصطناع الكتب

(وبعد أنْ تكلّم عن الخطّ فى الأرض عند التفكّر وما قيل فى ذلك من الأشعار ، وذكَر الخطّ ومِقْدار الحاجة اليه ، وتاريخَ الشعر قبل الإسلام ، وبيان أنّ فضيلته مقصورة على العرب ، استطرد القول بالترغيب فى اصطناع الكُتُب) فقال :

« إنّ على مَن شكر المعرفة بمَغاوِى الناس ومَراشِدهم ومَضارّهم ومَنافعهم ، أنْ يَحتَمِل ثِقَل مَؤونتهم فى معرفتهم ، وأنْ يتوخّى إرشادهم وانْ جهلوا فضل ما يُسْدَى اليهم . ولن يُصان العِلْم بمثل بذله ، ولن تُسْتَبقَى النعمة فيه بمثل نشره . على أنّ قراءة الكتب أبلغُ فى إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقى يشتدّ التصنع ، ويكْثر التظالُم ، وتُفرِط العَصَبيّة ، وتقوى الحَمِيّة ؛ وعند المُواجهة والمُقابلة يشتدّ حبّ الغَلَبة ، وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخُضوع ، وعن جميع ذلك تحدُث الضغائن ويظهر التباين ؛ فاذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة ، امتنعت من التعرف ، وعَمِيت عن موضع الدَّلالة ؛ وليست للكتب عِلّة تمنع من دَرْك البُغْيَة ، واصابة الحُجّة ، لأن المُتوحّد بدرسها والمُنفرِد

بفَهْم معانيها ، لا يُباهِي نفســه ، ولا يُغالبُ عقــلَه ، وقد عدم من له يباهي ، ومن أجله يغالب ؛ والكتاب قد يفضــل صاحبَه و يتقدّم مؤلِّفَه ، و يرجح قلمُه على لسانه بأمور :

منها ، أنّ الكتاب يُقرأ بكلّ مكان ، و يَظْهر ما فيه على كلّ لسانٍ ، و يوجد مع كلّ زمان على تفاوت ما بين الأعصار ، وتَباعُد ما بين الأمصار ؛ وذلك أمر يستحيل فى واضع الكتاب ، والمنازِع بالمسألة والجواب ؛ ومُناقلة اللسان وهدايتُــه لا تجوزان مَجْلِسَ صاحبــه ، ومَبلغَ صــوته ؛ وقد يذهب الحكيم وتبقَى كُتبُه ، و يفنَى العقلُ ويبقَى أثرُه . ولولا ما تَسَمّت لنــا الأوائلُ فى كتبها ، وخلّدت من عجيب حِكْمتها ، ودوّنت من أنواع سِــيرَها ، حتّى شاهَدْنا بها ما غاب عنّا ، وفتحنا بها كلّ مُسْتغلَقٍ كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرَهم ، وأدركنا مالم نكن نُدْرِكُه إلّا بهــم ، لقد خسّ حظّنا من الحكمة ، وضعف سببُنا الى المعرفة ؛ ولو أُلْجِئْنا الى قــدر قوّتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجْرِبتنا لمــا تُدْرِكه حواسُّــنا وتشاهده نفوسُنا ، لقد قلّت المعرفة ، وقَصُرت الهِمّة ، وانتَقَضَت المُنّة ، وعاد الرأى عقيما ، والخاطر فاسدا ، ولَكَلَّ الحدُّ ، وتبلّد العقلُ . وأ كثرُ من كتبهم نفعًا ، وأشرفُ منها خَطَرا ، وأحسنُ مَوْقِعا ، كُتُب الله تعالى التى فيها الهُدَى والرحمة ، والإخبار عن كل عِبرة ، وتعريفُ كلّ سيّئة وحَسنةٍ . وما زالت كتب الله تعــالى فى الألواح والصحف والمَهارِق (١) والمصاحف ، فقــد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيــهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ و يقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . و ينبغى أن يكون سبيلُنا لمن بعدَنا كسبيل مَن كان قَبلَنا فينا ، على أنّا قد وجدْنا من العِبْرة أ كثرَ مما وجدوا ، كما أنّ مَن بعدَنا يجد من العِــبْرة أ كثرَ ممــا وجدْنا ، فما ينتظر العالِم بإظهار ما عِنده ، وما يمنع الناصرَ للحق مِن القيام بمــا يَلزمُه ، وقد أمكن القوْلُ ، وصلُح الدهر ، وهَوَى نجمُ التقيّــة ، وهبت رِيحُ العلماء ، وكسَد العِيّ والجهــل ، وقامت سوق البيان والعِلْم . والإنسان ليس يجد فى كلّ حالٍ إنسانا

---

(١) المهارق جمع مهراق ، وهو ثوب حرير أبيض يسقى بالصمغ و يصقل ثم يكتب فيه ، فارسىّ معرّب .

يُدرِّسه ومُقوّما يُثقّفه، والصبر على إفهام الرَّيِّض شديدٌ، وصرف النفس عن مُغالبة العالِم أشدُّ منه هما .

والمتعلم يجد فى كلّ مكان الكتّاب عتيدًا، وبما يحتاج اليه قائما . وما أكثر من فرّط فى التعلّم أيّامَ خمول ذكره وأيّام حداثة سِنّه . ولولا جياد الكتب وحَسَنُها، ومُبيِّنها ومُختصرُها، ثم تحرّكت هِمَم هؤلاء لطلب العلم،ونازعت الى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل وأنْ تكون فى غمار الحَشْو لَدَخل على هؤلاء من الضرر والمَضرّة والجهل وسوء الحال ما عسى ألّا يمكن الإخبار عن مقداره إلّا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : تَفقّهوا قَبْل أنْ تُسَوَّدوا . وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين سَنَة ، ولا يعدّ فقيها ولا يجعل قاضيا، وما هو إلّا أن يَنْظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة،ويحفَظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتّى تمرّ ببابه فَتظُنّ أنّه باب بعض العمال ؛ وبالحَرى ألّا يمرّ عليه من الأيّام إلّا اليسيرُ حتّى يصيرَ حاكما على مصرٍ من الأمصار، أو بَلْدةٍ من البُلْدان .

وينبغى لمن كتب كتابا ألّا يكتبه إلّا على أنّ الناس كلّهم له أعداء ، وكلّهم عالِم بالأمور ، وكلّهم مُتفرِّغ له؛ ثمّ لا يرضَى بذلك حتّى يدَعَ كتابه يغبّ ويَخْتَمِر، ولا يَثِق بالرأى الفطير؛ فإن لابتداء الكتاب فِتْنةً وعُجْبا ، فإذا سكَنت الطبيعة وهدأَت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرةً ، أعاد النظر فيه وتوقّف عند فُصوله توقُّف مَن يكون وَزْنُ طمعه فى السلامة أنقصَ مِن وزن خَوْفه من العيب ، ويتفهّم معنى قول الشاعر :

إنّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خَلْوتُه ، حتّى يَكونَ لهم عِيٌّ وإِتْثار

ويقف عند قولهم فى المثل : "كلُّ مُجْرٍ فى الخَلاء يُسَرّ" ، فيخاف أن يعتريَه ما يعترى من أجرَى فرسَه وحْدَه، أو خلا بقلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته . وليَعلم أنّ صاحبَ القلم يعْتريه ما يعترى المُؤدِّب عند ضربه وعقابه ؛ فما أكْثرَ من يعزم على

عشرة أسواط فيَضْرِبُ مائة، لأنه ابتـدأ الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكونُ أنّ الصواب فى الإقلال ، فلمّا ضرب تحرّك دمُه فأشاع فيـه الحرارةَ وزاد فى غضبه ، فأراه الغضب أنّ الرأى فى الإكثار، وكذلك صاحب القلم ، فمـا أكثرَ مَن يبتدئ الكتّاب وهو يُريد مِقْـدار سَطريْن فيكتب عشرة . والحفظ مع الإقلال أمكنُ ، وهو مع الإكثار ابعـد .

واعلم أنّ العاقل إنْ لم يكن بالمشبع فكثيرًا ما يُغَرّ من ولده ويَحْسُن فى عينه منـه القبيح فى عين غيره ، فليعلم أنّ لفظه أقرب اليه نسبا من ابنه ، وحَركَته أمسُّ به رَحِما من ولده، لأنّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته ، ومن عين جوهره فصلت ، ومن نفسه كانت ، وانمّـا الولد كالمخْطَة يَتَمخطها ، وكالنُّخامة يقذفها ، ولا سواءٌ إخراجك من نفسك شيئا لم يكن منـك ، واظهارُك حركةً لم تكن حتى كانت منك ؛ ولذلك نجِـد فِتْنَة الرجل بشِعره وفِتْنَته بكلامه وكتبه ، فوق فِتْنته بجميع نِعْمَته .

وليس الكتّاب الى شيء أحْوَجَ منـه الى إفهام معانيه حتّى لا يحتاجَ السامع بمـا فيه الى الروية فيه . ويحتاجُ من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السَّفِلة والحَشْو، ويَحُطّه عن غريب الأعراب ، وَوَحْشِيّ الكلام . وليس له أن يُهـذِّبه جدّا ويُنقّحه ويصفّيه ويُرَوّقه حتّى لا ينطقَ إلّا باللبّ وبالسِّرّ، وباللفظ الذى قد حذف فُضُوله وتعرّقَ زوائده، حتّى عاد خالصا لا شَوْب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك لم يُفْهَم عنه إلّا بأن يُجَدّد لهم إفهاما وتكْرارا، لأنّ الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارتْ أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلّا بأنْ تُعْطَس عليها وتُؤْخَذ بهـا ؛ ألَا تَرَى أنّ كتّاب المَنْطق الذى قد وُسِم بهذا الأسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأَعْراب لمـا فهموا أكثره ؛ وفى كتّاب إقْليدس، كلام يدور وهو عربى وقد صُفِّيَ، ولو سمعه بعض الخطباء لمَـا فهمه، إلا بأن يُفَهِّمه مَن يريد تعليمه ؛ لأنه يحتاج الى أن يكون قد عَرَف جِهَة الأمر، وتعوّد اللفـظ المَنْطِق الذى استُخْرج من جميع الكلام .

وقد قال معاوية بن أبي سُفيان رضى الله تعالى عنهما لصُحَارٍ العَبْدِى : ما الإيجاز؟ قال أنْ تجيب فلا تُبْطِئ ، وتقولَ فلا تُخْطِئ؛ قال معاوية : أو كذاك تقول . قال صُحَارٌ : أقلني يا أمير المؤمنين، لا تُخْطِئ ولا تُبْطِئ . فلو أنّ سائلا سألك عن الإيجاز فقلتَ: لا تُخْطِئ ولا تُبْطِئ وبحضرتك خالد ابنُ صفوان لمَا عرَف بالبديهة وعند أوّل وَهْلة أنّ قولك لا تُخْطِئ مُضمّن بالقول، وقولَك لا تُبْطِئ مضمّن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضوْه وروَوْه ؛ ولو أنّ قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننت أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز ، ليس يعني به قلّة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ بطن طُومار(١) فقد أوجز، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغي أن يحذف بقدر مالا يكون سببا لإغلاقه ولا يُردّد وهو يُكْتفَى فى الإفهام بشطره، فما فَضَل عن المِقدار فهو الخطَل .

وقلت لأبي الحسن الأَخْفَش : أنت أعلم الناس بالنحو، فلِمَ لا تجعل كتبَك مَفْهومةً كلّها؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تُقدّم بعض العويص وتُؤخّر بعض المفهوم؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدِّين، ولو وضعتُها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلّت حاجاتُهم إليّ فيه ، وانّما غايتى المَنالة ، فإذاً أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعُوَهُم حلاوةُ ما فهِموا الى التماس فهم ما لم يَفْهموا ، وأنا قد كَسَبتُ فى هذا التدبير اذ كنتُ الى التكسُّب ذَهبتُ ، ولكن ما بالُ ابراهيم النظّام وفلان وفلانٍ يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثمّ يأخذُها مِثلى فى موافقته وحسن نظره وشدّة عِنايته ، فلا يفهم أكثرَها ؟

وأقول لو أنّ يوسف السَّمْتيّ كتب هذه الشروطَ أيّام جَلَس سَلْمان بن ربيعة شهرَيْن للقضاء فلم يتقدّم اليه رجُلان والقلوبُ سليمةٌ والحقوق على أهلها مُوَفّرة ، لكان ذلك خَطَلا ولَغْوا ، ولو كتب فى دهرنا شروطَ دهر سَلْمان لكان ذلك غَرارَة ونَقْصا ،

(١) الطومار : الصحيفة .

وجهلا بالسياسة وما يصلح لكل دهر، ووجدنا النـاس اذا خطبوا فى صلح بين العشائر أطالوا ، واذا أنشدوا الشـعر بين السماطين فى مدح الملوك أطالوا ، فللإطالة موضع وليس ذلك بخطل ، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز .

ولو لا أنى أتكل على أنك لا تمل باب القول فى البعير حتى تخرج الى الفيل ، وفى الذرة حتى تخرج الى البعوضة ، وفى العقرب حتى تخرج الى الحيـة ، وفى الرجل حتى تخرج الى المرأة ، وفى الذبان والنحل حتى تخرج الى الغربان والعقبان ، وفى الكلب حتى تخرج الى الديك ، وفى الذئب حتى تخرج الى الضبع ، وفى الظلف حتى تخرج الى الحافر ، وفى الحافر حتى تخـرج الى الخف ، وفى الخف حتى تخرج الى البرثن ، وفى البرثن حتى تخرج الى المخلب ، وكذلك القول فى الطـير وعامة الأصـناف ، لرأيت أن ذلك يوجب الملال ، ويعقب الفترة المـانعة من البلوغ فى الفهم ، وتعرف ما يحتاج منه الى التعرف ، فرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه ، أن ذلك ليس ممـا تمل من كثرة قراءته أبدا وتعتد على فيـه بالإطالة ، لأنه وإن كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة ، وكل مصحف منهـا أم على حدة . فان أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثـانى ، ولا الثانى حتى يهجم على الثالث ، فهو أبدا مستفيد ومستطرف ، وبعضه يكون جماما لبعض ، ولا يزال نشاطه زائدا ، ومتى خرج من آى القـرآن صار الى أثر ، ومتى خرج من أثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى شـعر ، ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس سداد ، ثم لا يترك هذا الباب فلعله أن يكون أثقل ، والملال اليه أسرع ، حتى يفضى به الى مزح وفكاهـة والى سخف وخرافة . ولست أراه سخفا إذ كنت إنمـا استعملت سـيرة الحكماء ومأدبة العلمـاء ، ورأينا الله تبارك وتعـالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحـذف ، واذا خاطب بنى إسرائيـل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام . فأصوب العمل اتباع آثار العلماء والاحتذاء

على مِثال القدماء ، والأخذُ بما عليه الجماعة . وقال ٱبن يَسِير فى صفة الكُتُب فى كلمة له :

أَقبلْتُ أهرُب لا آلُو مُباعَدَةً * فى الأرض منهم فلم يُحْصِنّيَ الهَرَبُ
بِقَصْر أَوْسٍ فما والَتْ خَنادِقُهُ * الى النّواوِيس فالماخُورُ فالخَرِبُ
فأيّما مَوْئِلٍ منها ٱعتصمتُ به * فمِنْ ورائِي حَثِيثًا منهُمُ الطَّلَبُ
لمّا رأيتُ بأنّى غيرُ مُعجِزِهِمْ * فَوْتًا ولا هَرَبًا قرّبت أحْتَجِبُ
وصِرْتُ فى البيت مَسْرورًا به جَذِلًا * جارًا لِبَوْءة لا شَكْوَى ولا شَغَبُ
فَرْدًا تُحَدّثني المَوْتَى وتَنْطِق لِي * عن علم ما غاب عنّى مِنْهُمُ الكُتُبُ
هُمْ مُؤْنِسُونَ وأُلّافٌ غَنِيتُ بِهِمْ * فليس لى فى أنيسٍ غيرِهم أَرَبُ
لِلّه مِن جُلَساءٍ لا جَليسهُمُو * ولا عشيرُهُمُو للسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لا بادِراتِ الأذَى يَخْشَى رفيقُهُمُ * ولا يُلاقيهِ منهُمْ مَنْطِقٌ ذَرِبُ
أبقَوْا لنا حِكَمًا تَبْقَى منافِعُها * أُخرَى اللّيالي على الأيّام وٱنْشَعَبوا
فأيُّما أدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدتُ يَدِى * يَوْمًا إليه فَدانٍ مِنْ يدى كَثَبُ
إنْ شِئْتُ مِن مُحْكَمِ الآثارِ يَرْفَعُها * الى النبيّ ثِقاتٌ بَرَرَةٌ نُجُبُ
أو شِئْتُ مِن عَرَبٍ عِلْمًا بأوّلها * فى الجاهليّة أنْبَتْنِي به العَرَبُ
أو شِئْتُ مِن سِيَرِ الأمْلاكِ مِنْ عَجَمٍ * تُنْبي وتُخْبِر كيفَ الرَّأْيُ والأَدَبُ
حتّى كأنّى قد شاهَدْتُ عَصْرَهُمُو * وقد مضَتْ دونَهُ مِن دَهْرِهم حِقَبُ
يا قائلًا قَصُرَتْ فى العِلْمِ نُهْيَتُهُ * أمْسَى الى الجَهْلِ فيما قال يَنْتَسِبُ
إنّ الأوائلَ قد بانوا بعِلْمِهِمُ * خلافَ قولِكَ قد ماتوا وقد ذهبوا
ما مات مِنّا امْرُؤٌ أبقَى لنا أدَبًا * يكونُ منه اذا ما مات يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجْزة وهو يصف صحيفة كُتبَ له فيها بستّين وَسْقا :

راحتْ بستّين وَسْـقا فى حَقيبتِها * ما حُمّلتْ حِمْلَها الأدنى ولا السَّدَدَا
ولا رأيتُ قَلوصًـا قبْلَها حَمَلَتْ * سِـتّين وَسْـقًا ولا جابتْ بها بَلَدَا

وقال الراجز :

تَعَلّمَنْ أنّ الدواةَ والقَلَمْ * تَبْقَى ويُفْنِي حادثُ الدَّهْرِ الغَنَمْ

يقول كتابُك الذى تَكْتُبُه علىّ يبقى فتأخُذُنى به وتذهب غَنَمِى فيما يذْهَب . وممـا يَدُلّ على نفع الكتاب أنّه لولا الكتاب لم يَجُزْ أنْ يعلَم أهل الرَّقّةِ والمَوْصِلِ وبَغْدادَ وواسطَ ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة فى بياض يوم، فتكون الحادثة بالكوفة غُدْوةً فيعلمُها أهل البصرة قبل المَساء .

وذلك مشهور فى الحَمَـام الهُدَّى : اذا جُعِلت بُرُدًا قال الله جلّ وعزّ ، وذكر سُلَيمانَ ومُلْكَه الذى لم يُؤتِ أحدًا مثلَه ، فقال : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُـدْهُدَ﴾ إلى قوله : ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ . فلم يلبث أن قال الهُدْهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَـا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ . قال سليمان : ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ وقد كان عنده من يُبَلِّغ الرسالة على تمامها من عِفْريت ومن بعض مَن عنـده عِلْم من الكتاب فرأى أنّ الكتاب أبهى وأنبَلُ وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان وإنْ أحاط بجميع ما فى الكتاب . وقالت ملكة سبأ : ﴿يَاأَيُّهَـا الْمَـلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ فهذا ممّـا يدُل على قدر اختيار الكُتُب وقد يريد بعض الجِلّة الكبار وبعضُ الأدباء والحكماء أن يدعو بعضَ مَن يجرى مجراه فى سلطان أو أدب الى مأْدبة أو ندام أو خروج الى مُتَنَزّه أو بعض ما يُشبه ذلك، فلو شاء أن يُبَلِّغه الرسول إرادته ومعنـاه لأصاب مَن يحسن الأداء ويَصْدُق فى الإبلاغ فيرَى أنّ الكتاب فى ذلك أسرَى وأنبه وأبلغ ولو شاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ألّا يكتب الكُتُب الى كِسرَى وقَيْصر والنجاشيّ

والمُقَوْقِس و إلى بنى الجَلَنْدَى و إلى العَباهِلَة من حِمْيَر و إلى هَوْذَة بن على و إلى الملوك العظماء والسادة النُّجباء لفعل ولوجَد المُبَلِّغ المعصومَ من الخطإ والتبديل، ولكنّه عليه السلام علم أنّ الكتاب أشبه بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلَغ فى تعظيم ما حواه الكتاب، ولو شاء الله أن يجعل البِشارات على الألسنة بالمرسلين ولم يودعْها الكتب لفعل ولكنّه تعالى وعزّ علِم أنّ ذلك أتمّ وأكمل، وأجمع وأنبل؛ وقد يكتُب بعض من له مرتبة فى سلطان أو دِيانة الى بعض مَن يشاكله أو يَجْرِى مجراه فلا يرضَى بالكتاب حتّى يَخْزِمه ويَخْتِمه، وربّما لم يرضَ بذلك حتّى يُعَنونه و يُعظِّمه.

قال الله جل وعز: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ فذكر صُحُف موسى الموجودة وصُحُف إبراهيم البائدة المعدومة ليُعرِّف الناس مقدار النفع والمصلحة فى الكتب. قالوا: وكانت فلاسفة اليونانيّة تُوَرِّث البناتِ العينَ وتورّث البنين الدَّيْن؛ وكانت تصِل العجز بالكفاية والمَؤُونة بالكُلفة وكانت تقول: لا تورّثوا الابن من المال إلّا مايكون عَوْنا له على طلب المال، واغذوه بحلاوة العِلْم واطبعوه على تعظيم الحِكْمة ليصير جمعُ العِلْم أغلبَ عليه من جمع المال، وليَرَى أنّه العدّة والعَتادُ، وأنّه أكرم مُسْتفاد، وكانوا يقولون: لا تُوَرِّثوا الابن من المال إلّا ما يَسُد الخَلّة، ويكون له عونا على درَك الفضول إنْ كان لا بدّ من الفضول، فإنّه إنْ كان فاسدا زادت تلك الفضولُ فى فساده، وإنْ كان صالحا كان فيما أورثتموه من العِلْم، و بقّيتم له من الكفاية ما يَكْسِبه الحال، فإنّ الحال أفضل من المال، ولأنّ المال لم يزل تابعا للحال، وقد لا يَتْبَع الحالُ المالَ، وصاحب الفضول بعَرَض فسادٍ وعلى شَفا إضاعة مع تمام الحُنْكة واجتماع القوّة؛ فما ظنّكم بها مع غَرارة الحداثة وسوء الاعتبار وقِلّة التّجربة! وكانوا يقولون: خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المَنْفعة وعجّل لك حلاوة المحبّة، وبقّ لك الأُحدوثة الحسَنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره و باطنه؛ وليس يجمع ذلك إلّا كرام الكتب النفيسة المُشْتملة على ينابيع العِلْم، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرْفاق؛

وحجج الدّين الذى بصحّته وعنـد وضوح برهانه تسكن النفوس وتثلج الصـدور ، ويعود القلب معمـورا ، والعزّ راسخا ، والأصـل فسيحا ؛ وهذه الكتب هى التى تزيد فى العقل وتشحذه ، وتداويه وتصلحه ، وتهذّبه وتنفى الخبث عنـه ، وتفيدك العلم وتصادق بينـك وبين الحجّة ، وتعوّدك الأخذ بالثقة وتجلب الحال وتكسب المـال . ووراثة الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة منبهة للمورّث وكنز عند الوارث ، إلّا أنّه كنز لا تجب فيه الزكاة ولا حقّ السلطان ، وإذا كانت الكنوز جامدة ينقصها ما أُخذ منهـا كان ذلك الكنز مائعا يزيده ما أخذ منـه ، ولا يزال بها المُورّث مذكورا فى الحكماء ومُنوّها باسمه فى الأسمـاء ، وإماما متبوعا ، وعلَما منصوبا ، ولا يزال الوارث محفوظا ، ومن أجله محبوبا ممنوعا ، ولا تزال تلك المحبّة نامية ما كانت تلك الفوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة ، ولن يزال من تعظيمها فى القلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر .

وقالوا : متى ورّثته كتابا وأودعته علما فقد ورّثته ما يُغلّ ولا يستغلّ ، وقد ورّثته الضيعة التى لا تحتاج الى إثارة ، ولا الى سقى ، ولا الى إسجال بإيغار ، ولا الى شرط ولا تحتاج الى أكار ولا الى أن يثار ، وليس عليهـا عُشر ولا للسلطان عليها خَرْج ، وسواء أفدته علمـا أو ورّثته آلة علم ، وسواء دفعْتُك اليه الكفاية أو ما يجلب الكفاية ، وإنّمـا تجرى الأمور وتتصرّف الأفعال على قدر الإمكان ، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار المُسبّب ، فكتب الآباء تحبيب للأحياء ، ومحيا لذكر الموتى .

وقالوا : ومتى كان الأب جامعا بارعا وكانت مواريثه كتبا بارعة ، وآدابا جامعة ، كان الولد أجدر أن يرى التعلّم حظّا وأجدر أن يُسرع التعليم إليه ويرى تركه خطأ ، وأجدر أن يجرى من الأدب على طريق قد أُنهج له ، ومنهاج قد وُطّئ له ، وأجدر أن يسرى اليه عِرْق من نجله وسَقْى من غرسه ، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكتب النظر فى الكتب ، فلا يأتى عليـه من الأيام مقدار الشغل بجمع الكتب ، والاختلاف فى سماع العـلم ، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وإنّمـا تُفسد الكفاية من تمت آدابه ، وتوافت اليه أسبـابه ، فأمّا

الحَدَث الغَرير، والمَنْقوص الفقير. فخير مواريثه الكفاية الى أنْ يبلَغ التمام، ويكمل للطّلب. فخير ميراث وُرِّث كتبٌ وعلم، وخيرالمُوَرِّثين من أوْرث ما يجمَع ولا يُفرِّق، ويُبَصِّر ولا يُعْمِى، ويُعطِى ولا يأخذ، ويجود بالكلّ دون البعض، ويدَع لك الكنز الذى ليس للسلطان فيه حقّ، والرِّكاز الذى ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعْمة التى ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخَصْم عليك فيه حُجّة، ولا على الجار فيه مَؤُونة .

وأمّا ديمقراط فإنّه قال: ينبغِى أن يَعرِف أنّه لا بدّ من أنْ يكون لكلّ كتاب علم وضعه أحدٌ من الحكماء ثمانيةُ أوجه، منها الهِمّة والمَنْفعة، والنِّسبة والصحَّة، والصِّنْف والتأليف، والإسناد والتدبير، فأوّلها أن تكون لصاحبه هِمّة، وأن يكون فيما وضع مَنْفعةٌ، وأن يكون له نِسبة ينسب اليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صِنْف من أصناف الكتب معروفا به، وأن يكون مُؤتلفا من أجزاء خَمْسة، وأن يكون مُسندا الى وجه من وجوه الحِكْمة، وأن يكون له تدبير موصوف . فذكر أن أبقْراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه فى هـذا الكتاب وهو كتابه الذى يُسمّى «أفُورِيسْمُوا» تفسيره: كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم أصله، وخُبْث طبعه، وسُقوط قدره، ومَهانة نفسه، ومع قِلّة خيره وكثرة شرّه، وآجتماع الأمم كلّها على آستسقاطه وآستسفاله، ومع ضربهم المَثَل فى ذلك كلّه به، ومع حاله التى يُعرَف بها من العَجْز عن صَوْلة السباع، وآقتدارها، ومن تمنّعها وتشرّفها وتوحّشها، وقِلّة إسماحها، وعن مسالمة البهائم ومُوادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها، والانتفاع بها، إذ لم يكن فى طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الآحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المَخُوفة . ولأنّ الكلب ليس بسَبُع تامّ ولا بهيمة تامّة حتى كأنه من الخَلْق المُركَّب، والطبائع المُلفّقة، والأخلاط المُجْتَلبة، كالبغل المتلون فى أخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مِزاجه، وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتُضادّة والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعبيّ من الحَمَام الذى ذهبت عنه هِداية الحَمَام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطَل عنه عُمْر الوَرَشان، وقوّة جناحه، وشدّة عصبه، وحسن

صوته، وشجا حلقه، وشكل لحونه وشدّة إطرابه، واحتماله لوقع البنادق، وجرح المخالب. وفى الراعبىّ أنّه مُسَرْوَل مُثقّل، وحدث له عِظَم بدن وثِقَل وزن لم يكن لأبيـه ولا لأمّه.

وكذلك البغل خرج من بين حيوانَيْن يلِدان حيوانا مثلهما ويعيش نتاجُهما ويبقى بقاءَهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر؛ فلو كان البغل عقيما والبغلة عاقرا لكان ذلك أزيدَ فى قوّتهما وأتمّ لشدّتهما، فمع البغل من الشبق والنعْظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من الشوس وطلب السِّفاد ما ليس مع أمّها؛ وذلك كله قدح فى القوّة ونقص فى البِنْية، وخرج غُرْمولُه أعظمَ من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما ونزع الى شيء ليس له فى الأرض أصـل، وخرج أطولَ عُمْرا من أبويه وأصبرَ على الأثقال من أبويه؛ أو كابن المذكّرة من النساء، والمؤنّث من الرجال، فإنّه يكون أخبث نتاجا من البغل وأفسدَ أعراقا من السِّمْع(١)، وأكثر عيوبا من العِسْبار(٢)، ومن كلّ خَلْق خُلِق اذا تركب من ضد، ومن كلّ شجرة مُطْعمة بخلاف؛ وليس يعترِى مثل ذلك الخلاسىّ(٣) من الدَّجاج، ولا الوَرْدانىّ(٤) من الحَمَام؛ وكلّ ضَعْف دخل على الخِلْقة، وكلّ رِقة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه وعلى وزن مقداره وتمكّنه يظهر العَجْز والعيب . وزعم الأصمعىّ أنه لم يسـبق الحَلْبة فرس أهضم قطّ . وقال محمد بن سلّام لم يسبق الحَلْبة أبلقُ قطّ ولا بلقاء .

والهداية فى الحَمَـام والقوّة على بعد الغاية إنّمـا هى للمُصْمَتة من الخُضْر . وزعمـوا أنّ الشِّيات كلّها ضعْف ونقْص، والشِّية : كلّ لون دخل على لون . وقال الله جلّ وعزّ: ﴿قَالَ إِنَّه يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَاشِيَةَ فِيهَا﴾ . وزعم عثمان ابن الحكم أنّ ابن المذكّرة من المؤنّث يأخذ أسوأ خِصال أبيـه وأردأ خِصال أمّه فتجتمع

(١) السمع بكسر السين و إسكان الميم و بالعين المهملة : ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدّة الضبع وقوّتها وجراءة الذئب وخفته (راجع حياة الحيوان للدّميرى ج ٢ ص ٣٢) . (٢) العسبار بكسر العين و بالسين الساكنة والأنثى عسبارة : ولد الضبع من الذئب وجمعه عسابر (راجع حياة الحيوان للدّميرى ج ٢ ص ١٣٩) .
(٣) الخلاسى : الولد بين أبوين أبيض وأسود، والديك بين دجاجتين هندية وفارسية . (٤) الوردانى بالراء المهملة طائر متولد بين الورشان والحمام وله غرابة لون وظرافة قدّ .

فيـه عِظام الدواهى وأعيان المساوى، وأنّه اذا خرج كذلك لم يُنجِع فيه أدب ولا يَطمَع فى علاجه طبيب، وأنّه رأى فى دور ثقيف فتًى اجتمعت فيه هـذه الخصال، فما كان فى الأرض يوم إلّا وهم يتحدّثون عنه بشىء يَصغُر فى جنْبه أكبرُ ذنب كان ينسب اليه .

وزعمت أنّ الكلب فى ذلك كالخُنْثى الذى هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخَصِىّ الذى لمّا قُطِع منه ما صار به الذكر فحلًا خرج من حدّ كمال الذكر بفقْدان الذكر، ولم يكمُلْ لأن يصير أنثى للغَريزة الأصليّة وبقيّة الجَوْهريّة؛ وزعمتَ أنّه يصير كالنبيذ الذى يُفْسِده إفراط الحرّ، فيُخرِجه من حدّ الخل، ولا يُدخِله فى حدّ النبيذ . وقال مِرْداس بن خِذام :

سَقَيْنا عِقالًا بالثَّوِيّة شَـرْبةً * فمالتْ بلُبّ الكاهِلِىّ عِقالِ
فقلتُ اصْطَبِحْها يا عِقالُ فإنّما * هى الخمـرُ خَيَّلْنا لها بخَيالِ
رَمَيْتُ بأمّ الخَلّ حبّةَ قلبِه * فلم يَنتعِش منها ثلاثَ ليالِ

فجعل الخمر أمّ الخلّ قد يتولّد عنها، وقد يتولّد عن الخلّ اذا كان خمرًا مرّةً الخمرُ .

وقال سَعيد بن وَهْب

هلّا وأنتَ بماء وجهك تُشتهَى * رُودُ الشباب قليلُ شَعْر العارِض
فالآن حين بدَتْ بخدّك لِحيةٌ * ذهبَت بمِلْحك ملءَ كفّ القابِض
مثلَ السُّلافة عاد خمْرُ عصيرها * بعدَ اللّذاذة خَلَّ خمْـر حامِض

ويصير أيضا كالشِّعر الوسَط والغناء الوسط، والنادرة الفاترة التى لم تخرج من الحرّ الى البَرْد فتُضحِكَ السنّ ولم تخرج من البَرْد الى الحرّ فتُضْحِك السنَّ .

باب الرسائل

١ — الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة فى كل فن[1]

كتب رجل الى صديق له :

إن آباءك شادوا أكارمَهم بالفضائل التى كانت فيهم ، وإنك قد كنت أخذت فى مَدْرجتهم فأوفيتَ على غايتهم، ثم آختلجك الهوى ببعض جَديلتك[2] وجودك، من لباس فضلك الذى كنتَ تطُول به على أكفائك، وتملك به أعنّة كافّة جندك، وألقيت مالك على شرّ عواقبه عليك لا لك إن زالت مكاره بوادره عنك .

فصل — قيل : إن مروءة الرجل فى نفسه نَسَبٌ لقوم آخرين، فإنه اذا فعل الخير عُرِف له ، وبَقِى فى الأعقاب والأصحاب، ولقِيَه يوم الحساب .

فصل — إن حقّ الله على المسلمين أن ينظروا فى دينهم بالنصيحة لأئمتهم ، فإن الأئمة اذا صلَحوا بُدّل الهوى بالتقوى فى قلوبهم ، وماتت سَوْرة الغضب فيهم لأحلامهم، وسكنت العامّة الى عدلهم وذلّت لإنصافهم . واذا كان للمحسن من الحق ما يُقنعه، وللظالم من النّكير ما يَقْمَعه ، بذَل المحسنُ الحقّ عليه رغبةً، وذَلّ المسىء بالحق عليه رهبةً . فأوّل ما آمرك به رَجاء الله وتقواه . فأما رجاؤه فأن تُحْسِن به فى الصُّنع اذا آطلعتَه، ويكون لك وِقاية اذا آثرته مطمئنا . وأما تقواه فأن تكون له فيما أَمَرك به ونَهاك عنه مُراقِبا؛ فإن تَقِيّة المؤمن تزيد فى آنشراح صدره، وإن شدّة خوفه تَرُدّ هواه على عقله .

---

(١) نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور .

(٢) الجديلة : الناصية والحالة والطريقة .

فصـــل — تنبّه اذا نُبّهت ، وآذكر اذا ذُكّرت ، وآنتفع فقد وُعِظْت ، وآسمع فقد نُودِيت ، نبّهك الوعيــدُ ، وحذّرك الزاجر ، وأمَرك ونهـاك الكتاب ، ونَعَتْك آثارُ الموت ، ودعاك الى الجنة مَلِيء جواد ، فالجدّ الجدّ ، فقبل المهجرة يُريح المُدْلِج .

فصـــل — ما نظرتُ فى معروفى عنـد أحَدٍ ، فوجدتُه قصُر عن أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه ، إلا عددتُه سيئةً لى عنده ، لأنى ذوّقته ما أحَبَّ ، ثم منعتُـه إياه ، وكأنى قصدتُ لإشخاص قلبه . ولا نظرت فى معروفى عند أحد فوجدته قد تَناهى عند تناهى أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه ، إلا رأيتُنى فى ذلك واترًا لنفسى ، لأنه كفى عَيبا لهـا وإزْراء بها ، أن أقنع ... (١) فضل نتخذه بمثل ما أقنع رجلا من فضل يتخذه عليـــه .

فصـــل — ما أنتَ ممّن يعلّم مِن جهْل به ، ولا تُحَسّ منه بادرة زَلّة ، ولا يقابل بين أمرين إلا عـرَف خيرَهما فآثره ، وشرهما فاجتنبه . وقد رأيتَ ما ساقت اليــك الطاعةُ من حظّ العاجلة ، فلا تتعرّض لزوال ما أنت فيه ، فتخسر الحظّين ، وتندم فى الدارين ؛ فقــد رأيت من عانَد الحقّ كيف صَرعه الله وبســط يدَ وَليّــه على سـفك دمه ، وإحلال النّقمة به ، فصار بعد أن كان فى الأُمنيّة مثلا ، ولجميع الخلق غاية وأملا ، فكرةً فى الاعتبار ، وعِظــةً للأبصار . فلا يُبعـد الله إلا من ظَلَم وخَتَر ، وذهب عن الحقّ وأدْبَر . وأنت اليوم مُحَكّم فى أمرك ، مخـيّر فى رأيك ، تُدْعى الى حظّك بالحظ الجزيل بتدلّل . فاهْتبِل ما قـد هَدَف لك وهو مُمْكن ليـدك ، فإنك إن أهمَلت وتراخيت ، لم يكن بالحقّ ووليّـه وحشة اليك ، ومضتْ أحكام الله فى نصرها وتأييدها على أذْلالها (٢) ، وصَفِرت يُدك بمـا لا يُشْرف لك بمثله ، وأخطرتَ بدمك وأسَــلْتَه أخبث مَســيل وأضَلّ سبيل ، حيث لا تبكى عليك السماءُ والأرض .

---

(١) بياض فى الأصل . ولعله : أن أقنع نفسى بفضل أتخذه بمثل ماأقنع رجلا الخ .

(٢) على أذلالها : على وجوهها وطرقها .

فصـــل — الناس رجلان : عالمٌ لا غِنًى به عن الازدياد، وجاهلٌ به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس فى كل حال يكون العالم لما يَبْدَهُه من الأمور مُعِدّا ، ولا المتعلِّم على ما يستفيد منه قادِرا وفِيّا .

فصـــل — إن أنت عَطَّلتنا من أمورك ، وأعفَيْت ظهورنا من أثقالك ومؤونتك ، وتركتنا أَغْفَالا فى وِلايتك من تنبيهك وتحريكك ، فقد أنزلتنا منزلةَ من لا خير عنده، وجعلت نفسك أُسْوةَ من لا مُعين له ، وكفى بذلك ظلما .

فصـــل — إن إعلامى إياك ... (1) غير محـدِّد شيئا ، ولكنه أقـرب من الجميـل فى معرفة عذر المعتذر، وأحمل للّائمة على المسيىء المقصّر .

فصـــل — الذى آعتمدنا عليه من رأيك، ونثِق به من جميل نظرك، قد خلَطَنى بأهل صنائعك، والخاصّة من ثِقاتِك، وبَسَط أملى فيك الى غاية خير يُرتجى، أو جزيل حظّ يؤمّـل .

فصـــل — ليس يَسُوغ لأحد فى الأمير أمَل، ولا يتوجّه اليه منه رغبة، ولا يلزمه فى قضاء حقه، ودنانة (2) مؤونته إلّا وفضلُه مستغرِق لها .

فصـــل — من أحمـد الأمور وأجمل المذاهب، ما كان آخرُه موصولا بأوّله ، ومؤدِّيًا بَدْؤه الى حَمْد عاقبته ؛ فحافِظ على الأمور التى حَسُن فيها عنـد أمير المؤمنين أثَرُك ، مستقِلًّا فيها لكثير ما يكون منك ، مُعْتَدّا بها فى النعم عندك، والإحسان الواصل اليـك ، فيما يوفقك الله له منها ويخصّك به من الفضل فى آختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك، ويستمتعه فى النعمة فيك .

فصـــل — قد كان يجب أنْ تجعلنا بمتابَعة النّعم علينا فى خاصّـة الشاكرين لفضلك، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات الينا فى عامّة الشاكين لك .

(1) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «بحاجتى» . والظاهر أن كلمة «محدّد» محرّفة عن كلمة «مجد» .
(2) كذا بالأصل .

فصـــل — علمى بمـا بنى الله عليه أخلاقَ الأمير أكرمه الله، وجعل عليـه رأيه فى بسط العدل على رَعيّته، وبَثّ الفضل على مُلْتَمِسِى فضله، يبعثنى على الكتّاب فى مثل ما كتبتُ اليــه فيه، من ظُلامة مظلوم يستعيذ فيها بعدله، وحاجةِ ملهوف يرجع فيها الى فضـله؛ فأجمعُ الى ما ألتمس من الثواب فى ذلك مُوافقةَ رأى الأمير، وإذكارَه ما يجب أن يذكّر به؛ فزاد الله الأمير من نِعمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يُوجب له تتابُعَها عنده، وترادفَها له .

فصـــل — أنت والحمد لله ممن آحتمل الصنيعة، وقبِل الأدب، وصدَق المَخيلَة وَخلَص علَى المِحْنة وحسّن الظن؛ فاستقامت طريقتُه وقدّمه جميلُ مذهبه وآثارِه، وجَرَتْ على قصد السبيل طاعتُه، وآشتدّت على السريرة والعلانية مُناصحتُه؛ فأصبح أمير المؤمنين لا يتناهَى فى بِرّك وتَكْرِمتك، إلّا رآك مُستحقّا لهـا ولِمَـا فَوْقها، ولا يرفَعك الى درجة إلّا رآك أهلا لأشرفَ منها، صُنْعا من الله لكَ بما وفّقك له من طاعته، ووهب لك من جميل مَراتبه، والمكانِ منه والأُثْرة عنده .

فصـــل — فضـلُ مشاركتنا إيّاك فى محبوب الأمور ومكروهها يحملنا فى السرور بالنّعمة عندك — جَدّدها اللهُ لك — ويوجب الشكر بمـا يكون لحقّها قاضيا، وللمَزيد فيها موجبـا .

سَعيد بن حُمَيد — شُغْلك يقطعنا عن مطالبتك بالحقّ فى جوابات كُتُبنا اليك، وصدقُ مودّتنا لك يمنعنا من التقصّى فى الحُجّة عليك، ومن يَكلُك الى رأيك فإنّه لايفى بك إلّا لك، صلةَ إخوانك والتعاهد لهم من بِرّك، بما يُشبه فضلك والنعمةَ عليهم فيك .

وفلان بينى وبينــه مَودّة أقدّمه بها على الأُخوة؛ لأنك تعــلَم قربَ ما بين المودّة والقرابة، وقد بَلَوْته علَى الحالات كلّها، فلم يزدنى آختبارُه إلّا آختيارا له؛ ولا أعلم بالعسكر جليلا إلا وهو لى صديق، يَشْكُر بشكره ويُوجب على نفسه المِنّة فيما آتى اليه؛ فأمّا من بين إخوانه فلست أعدِل عن قضاء حقّه، ولا أتأخّر عن معروف أُسْــدى اليه؛ فإن رأيت أن

تُحِلّه بالمحل الذى يستحقه بنفسه وسَلَفه، فوالله ما رأيتُ سُوق الاحرار أنْفَق منها عندكم أهلَ البيت، أبقى الله تبارك وتعالى باقيكم ورحم ماضيكم .

فصــــل — إنّ أحدا ليس بمستخلِص شيئا من غَضَارة عيش إلّا من بين خِلال مَكارِه، فمن آنتظر بعاجل الدَّرك آجِلَ الأستقصاء سَلَبته الأيام فُرْصته، لأن مِن صِناعتها السَّلْبَ، ومن شَرْط الزمان الإفاتة .

فصــــل — إنّ الأمير قد جَلّ فضلُه عن أن يُحيط به وصف، أو يأتىَ على تَعْداده اجتهاد، فلو كان شىء أكثر من الشكر لكان الأميرُ يستحقّه علينا، ويَستوجبه منّا .

فصــــل — قد أصبح المختلفون مجتمعين على تقريظه ومدْحه، حتى إنّ العدوّ يقول آضطرارا ما يقوله الوَلىّ آختيارا، والبعيد يثِق من إنعامه علينا بما يثِق به القريبُ خاصّا .

فصــــل — المائلون اليه بين نِعَم مُكْتنِفة من تَالِدٍ به يَستديمونه، وطارِفٍ منه يَستعيدونه، ومواهبَ متجدِّدة، وفوائد مُتُرادِفة، هى مبسوطة به الى بركة أيّامه، وعُلوّ حظّ(١) مَن آتصل به، فزاده اللهُ من فضله، وزاد أولياءَه به وببركة دولته .

فصــــل — آعتمدتُ أخًا لايُذَمّ إخاؤه، ولاتُنكر أحواله، على بعد الدار وقُربها، وآتصال المكاتبة وآنقطاعها، تجده مُتَصرّفا معك فى الخطوب التى يَطْرُق بها الزمانُ، ويَدًا لك فى الأمور التى يُمْتَحن فيها الإخوان .

فصــــل — أسأل الله أن يجعل ما تَطّول به فيه من الجلالة فى القلوب والعيون عند الوَلىّ والعدو موصولا بالإنساء فى مُدّته، والإدامة لعزّه وسلامته، والأعلاء ليده وكلمته .

أحمد بن يوسف — عندى فلان وفلان، فإن كنّا من شأنك فقد آذنّاك .

فى صفة حَرْب — كانت لكم الكَرّة، وعليهم الدَّبْرَة، فحملوا حمْلةً كاذبة، أتبعناها بأخرى صادقة .

(١) فى الأصل : «حظه» والسياق يقتضى ما أثبتناه .

فصل في هَدِيّة — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعيونِ مَقالي، دفترا ظريف المعاني، شريفَ المباني، صحيحَ الألفاظ، يَلَذُّ بأفواه الناطقين، ويَلِين على أسماع الصّامتين.

فصل في شَفَاعة — لفلان قِبَلك حاجة، ليس يحتاج فيها الى مَعْدلَتك ونَصفَتك المبسوطتين لمن لا يتوسّل بخُلْطتك ومعرفتك، ولكنّه يريد ما في ذلك العدل والإنصاف من الرفق والإحسان المَذْخورَيْن للخاصّة والإخوان.

فصل لرجل تميميّ — ضَعْفُ حالي يدعوني الى كثرة الطلب، ومَعْرفتي بجميل رأيك تحجِزُني عن الإلحاح عليك، خوفًا أن أكون جاهلا بعنايتك، وحسن نظرك، والكرم يستحيي بعضُه لبعض، ويبعَثُ بعضُه بعضًا، ودين حياته الغير على العقود، فبعثه كرمه للنهوض، أو دعاه هواه الى المنع، فجاءه عقله على البذل، وحالي جائحة لدَى فضلك ونعمة الله عليك من سدّ خَلّتها، ومداواةِ عِلّتها بجاهك الواسع، ورِفْدك النافع.

أحمد بن يوسف — قد بَذَلتَ لنا من نفسك أعزّ مَبْذول وأنفسَه، والمودّة التي كلما يُحْمد من صاحبها، فهو لها نافع. وثقتُنا بك واستنامتُنا الى ناحيتك، على أحسن ما أكّد الله بيننا وبينك. وإن كان مدى اللقاء بيننا لم يَطُل فأقَلّ منه ما يرعاه أهلُ الوفاء والمُخالصة، ويقصِّر في المحافظة عليه وعلى أكثرَ منه، من دُخِلَتْ نيّته، وضَعُفت خُلّتُه.

فصل — قد أصبحتَ للخاصّة عُدّة، وللعامّة عِصْمة، وللأنام ثقة في مناصحتك.

فصل في الصفح لأبي علي — إنّ الذي فَرَط منك، وإن تجاوزَ مني ما أرضاه لك، لم يبلُغْ ما يُغضبني عليك، وحيث انتهى ما يخالفني من قولك وفعلك، فإنّ وراءه تغمُّدًا مني لإساءتك وصَفْحًا عن زَلّتك، فإن تأمَنّا لا نخُنْك، وإن يسؤْ ظنُّك فإنما نحتاج الى إصلاحه منك.

أحمد بن يوسف — الى ابراهيم بن المهديّ في هديّة استقلّها:

بلغني استقلالُك لما ألطفتُك، والذي نحن عليه من الأنس سهّل علينا قلّةَ الحشد لك في البر، فأهدينا هَديّةَ مَنْ لا يَحْتَشِم الى مَنْ لا يَغْتنِم.

كتب عَقَّال بن شَبَّة — الى خالد بن عبد الله فى شفاعة :

إنّ الله انتجبك من جوهرة كرم ومَنْبِت شرف، وقَسَم لك خَطَرًا شَهَرتْه العرب وتحدّثت به الحاضرةُ والبادية، وأعان خَطَرك بقُـدرة مبسوطة، ومَنْزلة ملحوظة؛ بجميع أكفائك من جماهير العرب، يعرِف فضلك، ويسرّه ما خارَ الله لك، وليس كلّهم أداله الزمان ولا ساعده الحظّ؛ وأنت أحقّ من تَعَطّف على أهل البيوتات، وعادَ لهم بما يُبقى له ذِكْرَه ويُحسن به نشرَه، مثلُك . وقد وَجَّهتُ اليك فلانا، وهو من دِنية قرابتى، وذوى الهيئة من أسرتى، وعرف معروفك؛ وأحببتُ أن تُلبسه نِعمتك وتصرفَه الىّ وقد أودعتنى وإيّاه ما تجده باقياً على النّشر، جميلا فى الغِبّ .

فصـــل فى التـــوديع

أستودعُ اللهَ الأميرَ بأحسنِ وَدَاعه، وأسأله أن يجعلَه فى كَنَفه وحِرْزه، فقد أكرم المثوَى، وأحسن الابتغاء، فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النّعماء .

فى الصـــفح

بلغنى كتابك، تذكر كتابى اليك بوضعى عنك مَوْجِدتى، وردّى لك الى أحسن ما عَهِدتَ من منزلتك عندى؛ وقد حَلَلتَ منّا المَحَلّ الذى خلطناك فيه بأنفسنا، وأدخلناك منه مداخلَ أهل ثِقتنا؛ ولستَ تؤتى من جهالة بما أنت فيه، ولبعض ما أنت عليه من التجارِب تُسْتفاد بمثلها العِبَر، ويُنْتفع بها فى عطف الأمور .

جواب فى فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قَتَل زيد بن علىّ رحمة الله عليه :

قد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك بما أبلَى الله فى مِدْره السـوء، وأنّه لما عضّتهم الحـرب، وآلمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكذَب الله ظنونهم، وخَذَل مَخْرجهم، وقتل إمام ضلالتهم؛ وحفِظ لأمير المؤمنين ما ضيّعوا من حقّه، وحاط له ما أباحوا من الغـدر فيه؛ وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نِعَمه، الصفح عنهم، وتغمّد حَرَمهم

وأن يعمّهم من عدله، بما يردّ به الجاهلَ عن جهله، والغويّ عن غَوايته؛ ويعلَمون مكانه من الله، واستجابتَه لعزّه ونَصْره؛ وأنه الخليفة المُتّقى، والإمامُ المُتألف؛ وأنه يُقـدّم العفو فى الطاعة، على الحُجّة فى العُقوبة، والحِسْبَة فى الاستصلاح، على القوّة فى التأييد؛ فأمسك عنهم بيدك؛ فإنّ أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّه لله، ورجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابــه .

فى الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى الغدر، قلّدناه عِنان الهجر، لم يكن أقرب منا الى الذنْب، ونحن نردّ عليك من نفسك، ونأخذ لنفسك منك، حتى يكون تركنا إياك، وعذرُنا فيه وافرا .

فصـــل — الحمد لله على البليّة التى طال أمدها، وبعُد ما بين طَرَفَيها .

آخـــر — آقتفرتَ فى التثبّت أناة ذوى الحِجَى، وقدّمتَ المقـدّم من الأناة على العجلة، وأطعتَ فى أمرك النظرةَ، وانتهيتَ الى العُـذْرة والمعرفة، فملكتَ ما ملّكك، وحكمت على الذى حكم عليك، فأخذتَ مثل الذى أعطيت .

فصـــل — بدءُ أسـباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها، والخيرة بعـد الله عزّ وجـــلّ .

فصـــل آعتـــذار

لو كان الناس يَقضون الحقوق التى تجِب عليهم، ويحافظون على الأمور التى تَلزمهم، لقلّت اللائمـة، وخلصت المودّة، وارتفعت أسباب العتاب؛ ولكنّهم عجزة منْقوصون، يضعُفون عن العلم، بأكثرَ ما تدركه عقولهم، وتعوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر، ولا تستحقّ الإيثار؛ ولم أزل عاتبـا على نفسى فيما ضيّعت من مكاتبتك، مع معرفتى بفضلك، وموقع ذلك عنـدك، وما اعتذارى اليك، سوءُ ظنّ بك، ولا مخافةٌ للائمتك؛ ولئن فعلتُ ما ظَلمتُ؛ غير أنّى أحببتُ أن أكفيَك المؤونة، فيما عسيْتَ أن تنقبض عنـه من مقايستى ومعاتبتى؛ وأنا أحب أن تقبل العذر، وتعينَ على مستقبل البرّ .

فصـــل — أنت فى زمان إن لم تغالط أهله، وتختلْهم على ما فى أيديهم، وتصبرْ على مكاره الأمور بعد المطالبة، لم تصل الى شىء، ولم تجد أحدا ما على فضل منك و إن عرّفه فيك، ولم يفتـه من محاسنك شىء، إلّا رأى فى مساوئ غيرك عوَضا منـه؛ فكان بذلك أثلج، واليه أسكن؛ فعليك بالصبر، فإنّ غايتـه الى خير، وأقل ما فيه أنّ صاحبه لا يلوم نفسه، ولا يلومه أحد، ولعاّ يظفَر أو يدلّل .

الى المأمون من عامل .

قلّ مَن يسارع إلى بذل الحق من نفسه، إذا كان الحق مُضرّا به، وقلّ من يدع الاستعانة بالباطل، إذا كان فيه صلاح معاشه، وسببُ مكتسبه؛ واذا تفرّق الحقُّ فى أيدى جماعة فطولبتْ به، تشابهت فى الكُرْه لبذله، وتعاونتْ على دفعه ومنعه، بالحيـل و بالشُّبَه قولا وفعـلا؛ واحتاج المُبْتلَى باستخراج ذلك الحق من أيديها، الى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة فى مدافعتها .

ابن الكلبىّ

كان خبر ما أبلاك الله فى فلان بعـد أمانه ما عزمتَ عليـه من الأمان، خَبَرا عظم مكانُه من أمير المؤمنين، وحسُن موقعُه من الدِّين؛ ثم ردَف خبرَك بإذعانه عنـد ما عضّه من بأسك، ومسّه من مُؤْلِم إيقاعك للاستسلام، وطلب عقـد الأمان؛ وإنّك بذلتَ له ما طلب لا لرهبـة بقِيَت فى ناحيتك، إلّا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه؛ فكان إباؤه ما عرضتَ عليـه فى أوّل أمره ذخيرة حظّ فيما كشفتَ عنه البلوى من محمود أثرك، واجتمع لك فى ذلك حظان: الظفَر آخرا، والدرْك لمـا حاولتَه أوّلا، فلا زلت على نصيبك من الحظ، مؤيّدا بالنصر والمَعُونة، والحمد لله على ما حقّق من الظن ...(١) من هذه النعمة على يديك و بسعيك .

(١) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «وآتى» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الىّ كتابك بخطّ يدك المباركة، فلم أر قليلا أجمع، ولا إيجازا أكفأ من إطناب، ولا اختصارا أبلغ فى معرفة وفهم منه؛ وما رأيت كتابا على وَجازته، أحاط بما أحاط، وضربتُ ظنّى فى فلان فعظّم ذلك سرورى، وقد يُستعطَف الظالم، ويُستعتب المُتَجَنّى؛ وفى رفقك وعِلْمك بالأمور ما يُصْلح الفاسد، ويُذلّل الصعب، ويُقْبِل المدبِرَ؛ ولا يمنعنّك جور من جار عليك، من الاعتقاد فى الحُجّة عليه، والأخذ بالثقة فى أمره، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل عليك فى ذلك مَنْقَصة ولا غَضاضة، بل فيه الإعذار والإنذارُ والاستبصار، وقضاءُ حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمنِ من الندامة .

فصـــل — أنا فى حال عافية، تتجاوز الى حال نِعْمة، والحمدلله حتّى يرضى، فقد أرضى؛ فامّا ما أشرتَ به، وخبّرتَ من إمضاء رأيكَ فيه، والإمساك عنه، فمثلك جعل لمن نصحه شَركاء فى كلّ أمره، ولم يجعل رأيَه فَرْضا لبعضه أن يتعدى،(١) وذكرت أدب فلانةٍ، وعندنا لفلانة الطمع المستقبَل معَ الإنعام المتقدّم، مع أنّه لا شىء لها عندنا قلّ ولا جلّ، ولو كان ما استحللنا حبسه صَفْقةَ كفّ، ولا تغميضَ طرْف؛ وذكرتَ أنّه لا يستغنِى مثلنا عن مثلِها، وأبدال الله كثيرة عتيدة، وما بان علينا فَقْد أحد ممّن كان قبلها فى دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا اختللنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله جزاءك، وحاط لى فيك ما أُحبّ منك، وكفاك المُهِمّ وكفانيه بك؛ فما تقوم نفس لو كانتْ لى أخرى مقامَك فى نصيحتى وبرّى، والاهتمام لى؛ بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعْدمنيك الله ولا النصيحةَ منك .

فصـــل — قال أبو جعفر الكَرْمانى للحسن بن سَهْل ووعده شيئا فأبطأ عليه :

أنا أعرف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك؛ وأعلم أنّ فعلك يُرْبِى على قولك، وأنّ إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدّم لى من كرمك، ما أثمره إلى أن(١) يلحقه المتأخّر

(١) بياض فى الأصل . وما وضعناه يناسب المقام .

عنه، وإلّا فَدُلّنى على ما أقول اذا سألنى مَن بعثته على شكرك، عما بلغه من الحظ على نيتك.
فقال الحسن : تقول ما يَنْبغى، فقال : فافعل ما ينْبغى أقلّه .

عمـــرو بن مَسْعَدة

وصل الى كتابك ، على ظمإ منّى اليه، وتطلّع شديد ، وبُعْدَ عهد بعيد ، ولوم منّى على ما مسستنى به، من جفائك، على كثرة ما تابعتُ من الكتب، وعدمتُ من الجواب ، فكان أوّل ما سبق الىّ من كتابك السرور بالنظر اليه أُنْسا بما تجدّد لى من رأيك، فى المُواصلة بالمكاتبة، ثمّ تضاعُف المَسرّة، بخبر السلامة، وعلم الحال فى الهيئة؛ ورأيتك بما تظاهرتَ من الاحتجاج، فى ترك الكتّاب، سالكا سبيل التخلُّص مما أنا مُخَلِّصك منه، بالإغضاء عن إلزامك الحجـة، فى ترك الابتـداء والإجابة؛ وذكرتَ شغلك بوجوه من الأشـغال كثيرة متظاهرة ممكنة، لا أُجشِّمك متابعة الكتب، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب؛ ويُقْنعنى منـك فى كل شهر كتّاب ، ولن [تُلْزِم](١) من نفسك فى البرّ قليلا، إلّا ألزمتُ نفسى عنـه كثيرا، وإن كنتُ لا أستكثر شيئا منـك ؛ أدام الله مَوَدّتك وثبّت إخاءك، وٱستماح لى منك؛ فرأيك فى مُتابعة الكتب ومحادثتى فيها بخبرك مُوَفّقا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكّد الله من حُرْمتى بك، ووصل من الشُّعَب بينى وبينك ماجعله ذخيرة ليوم الحاجة، وعُدّةً عند ملِمّ النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن مَن صحب الدنيا لم يخلُ مِن تصرّف أحوالها ، وكثرة مَعاريض فجائعها، فى اخترام الأنفس فى خواصّها، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يَهُدّها، ويفر من الأشياء عليها؛ وكان ذلك لا سبيل الى دفعه، ولا حيلَة يُسْتعان بها عند نزوله، إلّا الرضا عن الله عزّ وجلّ فيما قضى، والتسليم لأمره فى كلّ ما أَتى، والسكون الى الأُسْـوة التى نَهَج الله سبلَها، وخفّف

(١) السياق يقتضى وضع هذه الكلمة، وهى متروكة فى الاصل .

بها مواقعَ المصيبات على أهلها؛ ثم الرجاء بعد ذلك لحُسْن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزِم أمره وأَجشَمَ نفسَه مكروهها فى مواطن الصبر على المصيبة، والشكر فى حال العافية .

وله فى المطـــر

قد كنتُ كتبتُ الى أمير المؤمنين أعلمُه المَطْرَةَ التى أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادتْ لنا بعدها من الله عائدةُ رحمةٍ، بوَلِىّ مَطَرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وابلا جَوْدا، لا يفتر غزيره ولا يَرْعوِى جَوْدُه، إلّا الى دِيمة عن دِيمة، يتراخى اليها يسيرا ريثما تعود، فأقامت علينا سماؤه مُستهلة بذلك وكذلك الى غروب الشمس؛ ثم آنقطع مطرها بسكون من الريح، وفُتور من القُرّ، وفضل من الله عظيم، يَنشُر به رحمته، ويَبسُط به رزقه، فأسبغ النعمة، وأوسع البركة، وأوبَق بحمد الله معارف الخِصْب والحمى. والله محمود على آلائه ومشكورٌ على بَلائه، وما أنزل الله من سُقياه ورحمته، بعد الذى أقبلتْ به السنة البرية والقحطِ وعدم الإمطار، وشدّة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد، فإنّ أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران: منهما الإخاء فى الدين، فهو سبب وصيّة الله بين عباده بالأُلْفة والمحبّة التى آنقطعت بها قرائنُ القلوب من بعضهم الى بعض، فاتّصلت بحبائلهم مَرائرُ حبلها، وتقطّعت فيما بينهم عاطفاتُ وصلها؛ ومنهما مجاملة جميل الأعداء، وحفظُ ما يحِقّ لأهل حسن البلاء؛ ثم الصَّنائع بعد ذلك فى مواقعها فضائل بقدر ما جرتْ به أسبابُها ولطُفت مداخلها .

فصـــل — الصناعة ليست يزيدها الأخلاقُ الجميلة، ويزيد فى أسبابها أواصر المودّة؛ وقد جعلك الله فى صناعتك مُقدَّما، وفى مودّتك مُتفضِّلا؛ فلا زالت عنك نعم الله، ولا برِحتَ سكنًا لإخوانك، وأُنْسا وموضعا لما يَسْتمِيحون من معروفك، ويَسْتَمِيرون من يد بِـرِّك .

فصـــل — إنّ لك من قلبي لموضعا معمورا بالمودّة والثّقـة ، والاسترسال والأُنَسة ، فلا تُخرج فلانا من سعة جميل برّك ، الى عُقْبي استحقاقه .

آخـــر

قد طالتِ الصبابة اليك ، وللدهر عُقَبٌ عائدة بالنفع والصنع ، ولا سيّما لمن كان على مثـل شاكلتك في أدبك وفضـلك و إنصافِك إخوانَك وبِرِّك بهم ، وما توجبه على نفسك لهم ممـا يُقصِّرون عن شَأْوِك فيه .

الكلبيّ

كان أسلافنا تقارضوا دُيونا من الصفاء يَستأْدِيها كلّ عَقِب من صاحبه ، وقد أورثونا مودّة لا نَعجِزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أَعْيَن كاتب الخَيْزُران

ليس يكون منك شيء و إن حسُن ، إلا وحُسْن ظني بك يَبلغُه ، فاستتمّ أحسنَ ما كان منكَ ، يتمّ لك أحسَنُ ماتُحِب منّي . ولا يَمنعنك الاكتفاءُ بحالك اليومَ من طلب الزيادة في غد ، فأنّه لقلّ شيءٌ لا يزيد إلّا نقَص ، والزمان يمحق الكثير ، كما يربو على الزيادة القليلُ .

ابن الكلبيّ

أنت مَن أُطول بمكانه وأثِق بجميل رأيه ، وأعتمد على رِفده ، وأرجو دَرْك كلّ فضيلة به ، وممّـا أُحب علمه مَقَرّ نعم الله عز وجل لديك .

عليّ بن عبيدة الى ابن الكلبيّ

وصل الله أيّام عُمْري باتباع موافقتك ، ولولا موعد أخذ عليّ ، لأطعتُك فيما أمرتَ به ، مُتّبعا مع إجابتك سرورَ نفسي برؤيتك في السلامة .

أما بعـد ، فإني أصبحتُ وقد استفرغ الأميرُ منّي كلّ مودّة ونصيحةٍ ، ومبلغ جهـد وطاقةٍ فيما عرفتُ له فيه موافقةً .

فصـــل — فإنّ الذى شعّب الله بيننا من التواصل والتكاتب، يدعونى الى متابعة الكتب اليـك فى تعهّد حقك، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قلّما يُغْنى، فإنّ له من الأُنْس والموقع فى الكتب ما ليس لمُسْتَعرضات الأخبار .

فصـــل — قد كنتُ أعلمت الأمير انقطاع بنى فلان الى فلان، بأهوائهم وبصائرهم وشراء ما قِبَـله بغيره، (١) وما كان وصل الينا فى ذلك من الأمور التى حملوا إصْرها، وبَقِى لنا أجرُها وذكرها ونافلتها وسابقتُها؛ فنحن عدد الأمير وخَباياه وذخائرُه، ومَن يأمل يومَه وغده، ولا مُتَخطًّى له عنه ولا مقتصر دونه .

عُمـارة

بلغنى كتابُك يصف كذا . فإن رأيتَ ألّا تعتمـد على ما لصقت [به] من عذرك، وأطعتَ فيه الهوى من قبولِ عفوك، وتجعلنى أحدَ مَن يُسرّ بسرورك، وتُشركه فى مُهمّات أمورك، فإنى أحدُهم وأوسطهم عِناية بمـا عَناك وتوسّطا لمـا عراك، فعلتَ .

فصـــل — والدنوّ من دارك إذ الدار جامعةٌ والحبل مُتّصِلٌ، إذ نحن فى الاستيفاء بالخبر والعـلم بِدخْلَة الحال، بمنزلة من كأنّه يُعانى مَن يشتاق اليـه ويَصْبو به فى كل يوم، حتى نأتْ النوى، وأنتَ فى اللقاء والإنظار فى كلّ أمر وعلى كلّ حال مَن لا يُشَكّ فى صفاء غيبه، وصدق إخائه .

فصـــل — مُشاركتنا إيّاك فى محبوب الأمور ومكروهها يحلّنـا محلّكَ فى السرور بالنعمة يجـدّدها الله لك، ويُوجب من الشكر علينا (٢) مثل الذى يوجب عليك . فوَصَلَ اللهُ كل نعمة يَهبُها لك من الشكر بما يكون لحقّها قاضيا، وللمزيد فيها موجباً .

سعيد بن عبد الملك

كتبت على شُغل فى قِطَع من القِرطاس، ولم يقطع بى حسنُ الظنّ بك فى قبولك العذر، وتحسينك ما أنت أهلٌ لتحسينه؛ فإنك تقبل دون حقك، وتَهَب الذنب فيه، فيكون شكرُك

(١) فى الأصل : « ... وسراه ماقبله ... » : (٢) فى الاصل « عليها ... » وهو لا تؤدّى الغرض المراد .

جاريا على سبيلين، كلاهما يُبين لكَ عن فضلك، ويوجب لك مالا يَقْصُر معه إلّا مغبونُ الحظ خسيسُ النصيب .

فصـــل — وقد ظهر من أمير المؤمنين فى فلان بعد وفاته، ماهو أعدلُ شاهدٍ على حسن مُنْقَلَبِه ، وردّ اليك من رأيه وتفقّده ما أرجو أن يكون فيه أعظمُ العِوَض . والله أسأل أن يتولّى لك أمورك فى السرّاء والضرّاء، والشدّة والرخاء، والشكر وحسن العزاء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تمّم الله علينا وعليك النعم ، وأجزل(١) لنا ولك محاسن صالح القِسَم . إن الله تبارك وتعالى أجرى بيننا و بينك لطيف مَوَدّة، وخاصّ أخوّة ، غيرَ أنّ المعرفة قد تُحمد بعد الخبرة ، والثقةَ إنما تعرف بعد التجرِبة، وقد أحببتُ أن يعلم مَن قِبَلك(٢) الذى أحدث الله لك من حال دولتك ، وأنْ يُعْلَم هلْ أبقتْ لنا منك النعمةُ سَعةً، أم تركتْ لنا منك صَفْحةً نعرِف بها عهدك ونأمُل بها وصلك؟ فإنّ أصحاب السلطان ، بحال بَلْوَى فى التغيّر والانتقال ، إلا من نالته من الله تبارك وتعالى عصمة . فإنْ كنتَ على ما رجَوْنا من الوفاء، وحسنِ الحفظ للودّة والإخاء ، فمثلُك لم يرض لنفسه إلّا بأجمل الأخلاق وأوفقِها للسداد . وإن حجزك عن ذلك ما تأتى به الأقدارُ فى مُتَصَرَّف الليل والنهار ، نَعذرْك بما نَعذر به أهلَ السلطان، اذا غيّرتهم الحالُ، وتنكرت شمائلُهم بين الإخوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

اِعلم أنى اليك مشوق، وأنّ صِلةَ الإخوان كرَمٌ ، وخيرَ الصِّلات ما لم يكن لها وجه إلّا الرجاءُ والحفظُ وتجديدُ المودة وتصحيحُ الإخاء ؛ فإنّ الذى يكاتب إخوانه على حال الرغبة يكفى القائلَ كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به الى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة، والرغبة أملكهما(٣) به . والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة، فقد يستقطع الصِّلَة

(١) فى الأصل : «وأحزلنا ... » . (٢) فى الأصل : «ما قبلك» .

(٣) فى الاصل : « وأملكها ... » .

عنـد الحَدَث مخافةَ الملامة[(١)] من الناس على القطيعة الشّنعاء المشهورة لإخوانه ؛ فإنّ الذى لا مَودّة له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكِتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إلّا صِحّةَ الإخاء والشوْقَ الى المحـادثة بالكِتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البـلاء تلك اللائمةَ على التقصـير ، ولا يُوضع منك الرغبــة فى الإطماع . إيّاك أن تعتلّ بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصِلةَ الإخوان أعظم الخاصّة بك خاصة . وانما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى يَســتغنِي مِن خاصّتك تلك التى لنا ، فإن لنا ما لك ، وهذه التى لنا لك ؛ أليس ماسرّنا سَرّك وما سلبناه حظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى . والله يوفّقنا وإيّاك . وأنت أبا يوسف . هكذا حال ما بيننا وبينـك ما وصفتُ لأبى سـعيد ، غير أنّه سألنـا أمرا لم يسألناه قطُّ ، فله فضــل السبق علينا فى المسألة ، ولنا فضــلُ المنزلة عليك فى اللائمة . ولن أَدَعَك والفعلَ ، دون أن تَشْفَعه بالعمل الذى هو صلة القول . وسلام عليك ورحمة الله ، وقَضَى الله عز وجل بالحُسنَى لنا ولك .

فصـــــل — أتانى كتابُك ، فأنعمتُ أن يَسرّنى بسلامتك ، وما حاق فيه كرمُ بِرّك ، ولطيفُ عِنايتك ، مالم أفقِد فى حالة مِن حالاتك ، فكان الكِتاب مُصدّقا لما سلف ، مُبشّرا بما يستأنف ، مُذكّرا منك عهدا موصو[(٢)] مثاله طرفى وقلبى ، مُلْصَقا ذكرُه بلسانى وقلبى . فلا عدِمتُك ، بل أمتعنى الله بك فأطال ، وكثرنى ببقائك .

فصـــــل — أتانى كتابك فطامن قلبى وطرفى ، بعد ما كان شاخصا اليه ، مُتشوّقا الى رؤيته ، ثم ملأنى سرورا ما رأيتُ فيــه من آثار بِرّك وكريم تفقّدك . وأفضل ما عندى منك قِبَله ، مما إنْ ذكرتُه ، فللاستراحة[(٣)] الى الذكر ، وإن أمسكتُ ، فللعجز عن الشكر . فأمّا الضمير فمبنىّ على الإقرار بفضلك ، والنيّةُ خالصة بشكرك . وقليــل ذلك لك ، فأعطاك الله فأطاب ، ووهب فأَجزل .

---

(١) فى الاصل : «مخافة السلامة من الناس...» . (٢) فى الاصل بياض . (٣) فى الأصل : "فالاستراحة" ...

فصـــل — وصل الىّ كتابُك فخُيِّل لى حين نظرت الى أثر يدك تجْرى قلمك فى بطن صحيفتك، أنّك ماثل بين عينىّ: أنظُر الى شخصك وأسمع من لفظك، فابتعث ذلك منى طربا شائقا، وصبابةً هيّجت الأحزان وذكّرت الإخوان . وكنتَ من إخوانى الذين أفخرَ بسلامتهم للوُدّ الذى أجرَى الله بيننا وبينك، فتواصلنا بحرمته، وتعاطفنا بوصله .

فصـــل — إنّ الله جعل عاقبة كلّ نعمة وإن عظُمت، تبعا لأوّلها، وجعل الشكر عليها سببا لتمـامها ومُوجبا لأحسن الزيادة منها .

فصل فى شكر — فإنّ الله جعلك للخير مَعْدِنا، وللفضل موضِعا، فيما حمّلته نفسك من ثقل أعباء المُرُوءة، وحَمّلتها عليه من عِظام المكارم، حتى صِرْت بما أنعم الله به عليك، مُنتهَى كلّ أمل وغايةَ كلّ رغبـة . ثم ألْبَسْتَ النعمةَ لباسَ التواضع، وناسبت فى الأخلاق مَنْ سبقت به عليك الأمور، حتى كأنّهم فى النعمة لك شركاءُ . وتحنّنت على الأقربين والمُتقرّبين من الاخوان والأكفاء، حتى كأنهم لك ولدٌ، وأجبرت نفسـك حين ساعدك الدهر، على طبيعة التقرّب الى العامة، فكلّهم يُدلِى اليك بدَلْو رغبته، ويمتاح منك مَتَّاحة فضـل؛ فلا عَدِمتُ ألّا تزالَ تُنْعِش سَقْطة، وتُقيل عَثْرة، وتَسُدّ خللا، وتُنيل أملا؛ ولا عدِم مَن شهِد ذلك منك، أن يَسْتَتِمّ هذه النعمةَ عليك وعلى نفسه؛ فإنّ من سعادة العامة أن يجعل سارَها عنـد خِيارها . ومن البلاء العظيم عليها المُوجِـع لهـا، أنْ يخُصّ شرارُها بموضع رغباتها .

فاسـلَم كلأك اللهُ بهذه النعمة، غيرَ مُنَقّص بهـا، ولا مُكدّر عليـك(١) صفوُها، حتّى تُسلّمك النعمةُ العاجلةُ الى النعمة الباقية؛ فإنّا وإن علمنا أنّ من شأن الدهر الغَدَران فى العواقب فقد علمنا أنّك فيما أهدى الله اليـك من النعمة، قد أدّيتَ حق الله عز وجل ثمّ حقّ إخوانك فيهـا، فكنتُ أحرَمَن نال فضلك، كرما فى السناء، ورِضا فى الأَثَرة، غيرَ مُتَطاوِل لِمـا نامل، ولا مُتَضعضِع لمـا تحْذر؛ فإنّا نجْزى شكرَ المـاضى منك، ورجاءَ الباقى،

(١) فى الأصل: "ولا مكدر عليها صفوها ..." .

فنرى تضييعا منا فى عَقْد الرأى، وإزرَاء بنا فى وثائق الأمور، ألّا نَمنحك من أنفسنا مَودّة الولد ورقّة الوالد . وإذا أعطاك آمرؤ ثمرة فؤاده، فقد فرّغ اليك من جميع حقّك، لأن ذات يد امرئ فى البذل أهون عليه من ذات نفسه فى الشكر . وكفى لامرئ من آمرئ أن يستولِى عليه حتى لا يَدَعَ لغيره فيه فضلا . وكفى بك لنا من غيرك . وكثير منّا أن نقوى على أداء أدنَى صنوف حقّك، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألّا نسأمَ النظر الى فِنائك بهَجين بك إن بَرزتَ، وعاذرين لك إن شُغلت .

فصـــل — إنّ الهدى والضلالة يقتسمان دُول الأزمنة، لغير كرامة للباطل، ولا هوان للحق . وأهل الحقّ كيف تصرّفت أحوالهم فى كرامة من الله عز وجل، ونعمة بين دولة تكون لهم، يَقومون لله فيها بحقّه ويُظْهِرون هداه ودينه، ودولة تكون للباطل، يكونون فيها كُهوفا للخيرات، ومَعْدِنا للحسنات، يستكنّ الحق فى صدورهم، ويأوِى البرّ والصدق اليهم؛ فهم بين يومَىْ صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه فى الفضل .

وأهل الباطل كيف تصرّفت أمورهم بين سُخْط الله وعقوبته، لأنّ الله تعالى لم يجعل فى الباطل فَرجا لأهله، وإن كانت لهم دولة كانتْ إملاءً واستدراجا، وكانوا فيها على مَدْرَجَة هَلَكة وسبيل نِقمة؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق، كانوا فيها بين ذل وضيم، وخوف وجزع، وقد سدّت عليهم المطالع، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت . ففى أىّ يومَيْهم مستراحهم : أيوم دولتهم، وهم لايشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النقمة؟ أم يوم علوّ الحق عليهم، وهم لا يَصبرون على المِحنة ولا يُبْصرون من العمى ؟ وأهل الحق بين حالَىْ غِبْطة وحسبة، وأهل الباطل بين حالَى إمْلاء ونِقمة .

فصل فى صفة الجند — إنّ الغالب على أهواء جماعة من فِئام أولياء الأمير وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله، والتقرّب الى الله بمَحبّته ومُناصحته وطاعته، ومُعاداة عدوّه؛ وتلك نعمة يَعْتَدّونها و يتقرّبون الى الله بها، و يتوسّلون الى الأمير بخِزْى قوم خالفوا .

فصـــل — حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم ، فإنّ ذلك أرضى لربك ، وأجمع للأُلْفة ، وأقومُ لعمود الخلافة الذى سدّد الله دعائم الإسلام وأسّ الدين به . وآعلم أنّ مَن حاط الله دينَه ، ورمتْ عن فُوقه الجماعة ، وعادى أهلَ النقض لها ، ابتعثه الله آمنـا من هول الحساب وضيق المَحْشر ، والله بنصره أحقُّ وأولى . وكن لله بحيث افترض عليك ، فإنّه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ .

كتب جعفر بن محمد بن الأشْعَث الى رجل لم يكاتبه

لست بما صرَفتَ الىّ من معروفك بأسرّ منى ، بما أهديتَ الىّ من قضاء الحق عنك ، وقلّة ذوى الحُرْمة بك ، لأنك قد تصل مَنْ لا يثِق ولا يأنس الّا بمن يَعْتمِد عليه .

كتب الفضل بن يحيي الى رجل يُشاوره فى أمر حَدَث

ليس كلّ امرئ وإن كان ذا عَزِيمةٍ فى رأيه ، وأَصالةٍ فى عقله ، بمستغنٍ عن مُكاشَفة أهل الرأى ؛ لتوزيع الله عزّ وجلّ ، أقسامَ الفضل فى خلقه ، وإشراكه إياهم ، فى عطاياه ؛ فرأيَك فى كذا .

ركب ابراهيم بن المهدىّ الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد الى إسحاق بن ابراهيم الموصلىّ

عندى مَن أنا عبدُه ، وحُجّتنا عليك ، إعلامُنا إيّاك .

توسّـــل

توسّل رجل الى رجل بمحمّد بن عبد الملك وادّعى قرابتَه منه ، وبلغ ذلك محمّدا فكتب الى المُتوَسل اليه :

بلغنى أنّ رجلا ادّعى قرابتى ، وأورد عليك كتابا ذكر أنّه منّى ؛ وما أُنْكر أن ينتفِع بى مَن توَسّل بنسبى ، إلّا أنّه مَن ادّعى قرابةً ، ولا قرابةَ له ، كان استعمال الشفاعة فى أمره أَوْلَى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سَهل

أسعدك الله بمحاربتك، التى بذَلتَ فيها مُهجتَك، ومُهجَ مَن هو موصولٌ بك منّا .

محمد بن الجَهْم

وليس فى جميع الناس أعدى لك : مِن صديق مؤمِّل، أو حميم راجٍ، إن منعتَهما شمتاك وبَهتاك، وإنْ أعنتَهما الناهه (١) اغتالاك .

محمد بن مُسْعَر

قال : كنتُ أنا ويحيي بنُ أكْثم عند سُفْيان، فبكى سُفيان، فقال له يحيي : ما يُبكيك يا أبا محمّد؟ قال :

بعد مُجالستى مَن جالس أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ٱبتُليتُ بمجالستكم ؛

فقال له يحيي : فمُصيبةُ مَن جالستَ منهم بمجالستهم إيّاك بعــدَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من مُصيبتك بنا ؛ فقال : ياغلامُ، أظنّ السلطانَ سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مِهْران على بعض خلفاء بنى أميّه — وأَحسَبه عمرَ بنَ عبد العزيز — فقال له وقد قعد فى أُخريات مجلسه : عِظنى، فقال له : إنّك لمَنْ خير أهلك إنْ وقيْتَ ثلاثا، قال : ماهنّ؟ قال : السلطانُ وقدرته، والشباب وغِرّته، والمـال وفِتنته، فقال : أنت أولى بمكانى منّى فارتفع اليّ؛ فأجلسه معه على سريره .

ابن وَهْب فى الاعتذار

لو لم نَعذرك لم نعذر أنفسنا بقطيعتك، فكن لنا فى لائمة نفسك، كما كنّا لك فى عذرك .

وفى مثله

ليس فى الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفى عائدتك فضل عن إساءتنا، فمن أين يسقط بين فضلك والاعتذار !

(١) هكذا وردت فى الأصل .

آخـــر

فلان من حملة المعروف، يكثر عنـدهم قليله فى شكرهم، ويقــلّ لهم كثيره فى عظيم حقوقهم .

فصـــل — لئن عميتُ عن الرأى فيك، لقد أبصرته بك .

فصـــل — تغيب فأشتاق، ونلتقى فلا أَشتفى .

٢ — فصول من رَسائل مختارةٍ فى كل فنّ

وهى مُثُل ممـا كتب به الكتّاب فى أبواب لا نظير لها

فمن ذلك ما كُتِب به فى التحميــد لله عزّ وجلّ فى أوائل الفتــوح وأواخرها وأوائل الكُتُب التى فيها تحميد الله عزّ وجلّ .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحِّد بالسلطان والربوبيّة، والمتفرّد بالبقاء والقدرة، والمتجبِّر بالكبرياء والعظمة، ذى الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمَثَــل الأعلى، الأول بلا غاية، والآخر بلا نهـاية، الذى لا يحيــط به وصف الواصفيــن، ولا تبلغ مَدَى عظمته أوهامُ المتوهِّمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لا يؤودُه حفظ كبير، ولا يَعزُب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور، وما تَسْقُط من ورقة إلّا يعلمها، ولا حبّةٍ فى ظُلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلّا فى كتاب مُبين .

التحميد الثانى

الحمد لله الذى خلَق الأشياء على غير مِثال ولا رُسوم، وأنشأها على غير حُدود، ودبّر الأمور بلا مُشير، وقضى فى الدهور بلا ظَهير، وسمك السماء بقدرته، وبناها على إرادته، وأسكنها ملائكتَه الذين اصطفاهم لمجاورته، وجبلَهم على طاعته، ونزّههم عن مَعْصيته،

وجعلهم حملة عرشه، وسُكّان سماواته، ورسلَه الى أنبيائه، يُسَبِّحون الليل والنهارَ لا يَفْتُرون؛ ودحا الأرض وبسطها لكافّة خلقه، وقسّم بينهم الأرزاق، وقدر لهم الأقوات، فهم فى قبضته يَتقلّبون وعلى أقضيته يَجْرون، حتّى يرثَ اللهُ الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وصدر تحميد مفرد

الحمد لله العلىّ مكانُه، المنير برهانُه، التامّة كلماتُه، الشافية آياتُه؛ والحمد لله ولىّ أوليائه وعدوّ أعدائه.

وصدر تحميد

الحمد لله الغالب الذى لا يُغْلَب، والمُقْتدر الذى لا يُعان، والمُنْجز وعدَه، والمؤيِّد أولياءَه، والخاتم بالفَلَج(١) والظهور لهم، والمُدِيل من أعدائه، ومُحِيط دائرة السَّوْء بهم.

ولكاتب خُزَيْمة بن خازم فى فتح الصَّنّارِيَّة تحميد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذى المَلَكُوت والقُدْرة، والجَبَرُوت والعِزَّة، والسلطان والقوة؛ أهلِ المحامد كلِّها، ومدبِّر الأمور ووَلِيِّها، وخالق الخلائق وبارئها، ومميتها ومحييها، وباعثها ووارثها؛ الذى أوْجَب على نفسه بما نفَذ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت فى اللّوح المحفوظ عنده إعزاز دينه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجّته، وإزهاق باطل أعدائه؛ الصارفين عن طاعته، والجاحدين لربوبيّته، المكذِّبين بكتبه ورُسُله؛ بلَغ بذلك أمرُه، ونطق به كتابُه؛ فإنّه يقول تبارك اسمه فى المُنْزَل من فرقانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

وتحميد لأحمد بن يوسف الى الوُلاة عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذى المِنَن الظاهرة، والحُجج القاهرة؛ الذى قطَع بينه وبين عباده المَعْذِرة، ورادف عليهم البيّنة، ومُهْلةَ النَّظِرَة؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم

(١) الفلج: الغلب والظفر، يقال فلج فلان على خصمه، أى غلب وظفر.

المكتوب، وما ذَخَر لهم من ثواب الآخرة بالنُّجْح المطلوب؛ فهم فى العاجلة شركاءُ فى النعمة، وفى الآجلة شتّى فى الرحمة؛ يختص بها أهلها المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحالِ بعد الحال؛ المبادِرين بأعمالهم الى انقضاء مَدَدِ آجالهم، قبل حلول ما يُتوقّع، وفوت ما لا يُرْتجع .

وتحميد لابراهيم بن العباس فى فتح اسحاق بن اسماعيل

الحمد لله مُعزّ الحقّ ومُديله، وقامِع الباطل ومُزيله، الطالبِ فلا يفوته مَن طلب، والغالب فلا يُعْجزه مَن غلب؛ مُؤيّد خليفته وعبده، وناصرِ أوليائه وحزبه؛ الذين أقام بهم دعوتَه، وأعلى بهم كلمتَه، وأظهر بهم دِينه، وأدال بهم حقَّه، وجاهد بهم أعداءَه، وأنار بهم سبيلَه؛ حمدًا يتقبّله ويرضاه، ويُوجِب أفضلَ عواقب نصره، وسوابغَ نَعْمائه .

التحميد الثـانى

الحمد لله الغالبِ ذى القُدْرة، والقاهرِ ذى العِزّة؛ الذى لم يقابل بالحقّ باطلا فى مَوْطِنٍ من مَواطن التحاكم بين عباده، إلّا جعل أولياءَ الحق منهم حِزْبه وجُندَه، وجعل الباطل بهم فلًّا منكوبا، ودَحيضا زَهُوقا؛ إن نهَض به أولياؤه كانتْ مراصدُ عواقبه مُفرَّقةً ما جُمِع، ومُبْترةً ما أُعِدّ، وقائدة باشياعه الى مَصْرع الظالمين، حتّى يكون الحقُّ الطالبَ الأعزّ، والباطلُ المطلوبَ الأذلّ؛ وأولياءُ الحقّ الأعْلَيْن يدا وأيدا، وأشياعُ الضلال الأَخْسرين أعمالا وكيدا؛ قضاءُ الله وسُنّته، وعادة الله وإرادتُه، فى الفِئَة المنصورة أن تعزّ فلا تُرام، وأن يُمَكِّن لهـا فى الأرض كما مكّن للذين من قبلها؛ وفى الفِئَة الناكِبين عنه، أن تَزِلّ فتكونَ كلمتُها السُّفلى، وكلمة الله هى العليا، والله عزيز حكيمٌ .

وتحميد له مبتدأ مقام بين يَدَى خليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أَبَدٍ يُحْصَى، والآخر بلا أَمَدٍ يَفْنَى؛ الظاهرِ لخلقة بعزّته، العزيزِ فى سلطانه بعظمته، الفَرْد فى وَحدانيّته بقدرته، المدبّر فى ملكه بجبَروته؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها مَحْويّا، واتصل بها فلم يكُ من علمها خَليّا، وهو فيها غيرُ مُسْتكنّ،

ومعها غيرُ مُماسّ فى لجج البحار، ومفاوز القِفار، وشَوامخ الجبال، وكُثبان الرمال؛ مع كلّ خَلْق، وفى كلّ أُفُق، وعلى كلّ شَرَف ومكان، وفى كلّ وقت وأوان؛ موجود إذا طُلِب، وقريبٌ حيث نُدِب؛ عالمُ خَفيّات الغيوب، وخَطَرات القلوب، وما فى السموات وما فى الأرض، ما يكون من نَجْوى ثلاثةٍ الاهو رابعُهم، ولا خمسةٍ الاهو سادسُهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ الّا هو معهم؛ وما تسقط من ورقة الّا يعلمها ولا حبّة فى ظُلُمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس الّا فى كتاب مبين .

وتحميد ثان يتلو الأوّل

الحمد لله المُتَعالى عن تشبيه الجاهلين، وتحديد الواصفين، وتكييف الناعتين؛ يُوصفُ لا بالعَرْض والطول، ويُنْعَت بغير الشبح المَثْول، ويُحدّ لا بالخَلْق المعدود، والجسم الموجود؛ بل يُتناهَى من وصفه، الى ما دلّ عليه من صُنعه، ويُوقَفُ عليه من نعته، على ما أَخْبَر به عن نفسه؛ وكيف يُوصف مَن لم يَرَه أحد، ويُحدّ من لم يحدّه بلد؛ أو يُشْبه غيرَ ذى أعضاء، أو يُكيَّف غيرُ ذى أجزاء؛ لَوْ رُئِى لَوُصِف، ولو وُصِف لَمُثِّل، ولو مُثِّـل لكان له نظيرٌ؛ سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوّا كبيرا، لا تُجِنّه الأقطار، ولا يحويه قَرار؛ ولا تُدرِكُه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يوصف أولاه، ولا يُدْرك أُخْراه، ولا يُعرَف مُنتهاه؛ عَظُم أن يَحْصِره وَهْم، وجلّ أن يُدرِكَه فَهْم، وامتنع من أن يخاله عِلم، ولا يُغيّره ليل ولا يومٌ؛ ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يُحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء، وسِع كرسيّه السموات والأرضَ ولا يؤوده حفظُهما، وهُوَ العلىّ العظيم .

وتحميد ثالث

الحمد لله الذى ألهمَنا من الإقرار برُبوبيّته، والإيمان بوَحْدانيّته، وأنّه غيرُ ذى صاحبة يسكُنُ اليها من وَحْشَـة، ولا ولدٍ يتكثّر به من ضعف قِلّة، ولا شريكٍ يعـاونه من عجز قُدْرة، ولا ظهير يكانفه لملال فَتْرَة؛ ما جعل لنا به أوثَق الأسباب لَدَيْه، وأرجى الوسائل

اليــه ؛ إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصـير بجَحْد ما أخذنا الاعترافُ فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التى استحكمت السُّخطة على أهلها ، وحَلّت النِّقْمة بمن فارقها ؛ ثمّ جعلنـا تبعَ إشراف كثير على أنفسنا فى مشيئة منه ، بَسطَ اليها آمالنا وأحسَن عليها أطَاعنا بكرم عفوه ، وعظيم حِلْمه ، وسعة رحمته ، التى وعد أهل الإيمـان بها ؛ إذ صار مَن فارقهم فى ذلك بمـا استهوت عليهم ، بتزيينـه لهم شياطينُهم ، ورانت على أفئدتهم ... (١) وما ظَلَمَتْـه قُرباؤهم الى النـاس من كل طمع يُجْدى وخبر يُنْجى ؛ جَزاءً بمـا أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا ، إنّ الله لا يَغفِر أن يشرك به ، ويَغفِر ما دونَ ذلك لمن يشاء ، ومَنْ يُشرك بالله فقد حبِط عملُه ، وهُوَ فى الآخرة من الخاسرين .

وتحميـد يتلو الثالث فى هـذا المقام

الحمد لله الذى ابتدع لا من شىءٍ ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ ؛ فجعل كثيرا من لطائف تقـديره ، وصُنوف تدبيره ، وتصاريف أُمُوره ، حُججا واضحة ، وآياتٍ بيّنـة ، وعبرًا شافيـة ؛ تَشهَد له بعزّة القـدرة ، ونفاذ الحول والقُوّة ؛ فخلق مدبّرا بلا مَشُورَة أحد ، سـبعًا دحَاهنّ على المـاء على غير سَـنَد ، مبسوطات فى تكاثف أجزائهنّ ، على مَعِـين ماء مسَخر من تحتهن ، يفجّر خلالهنّ أنهـارا ، وقدّر فيهنّ من المعاش أقواتا ، وجعـل لهنّ من الجبـال أوتادا ، ثم آستوَى الى السماء وهى دُخَانٌ ، فقال لها وللأرض آئتيا طوعا أو كَرْها قالتا آتينا طائعين . ففَطَر من الدُّخَان فى خِفته على الهواء سَبعا ، جعل بينهنّ من الجو مُتّسعا ، سـبعَ سموات طِباقا مُرْتَفعات ، بلا دعائمَ قِبَلها ولا عِلاقات ، يُمْسكهنّ بقدرة أن يَرْتفعنَ فوق ما حبسهنّ عليـه ، وأن يَهْوِين الى قرار دون ما رفعهنّ اليـه ؛ فأتقن صنعَها ، وأوحى فى كلّ سماء أمرَها ، وزيّن السماء الدنيا بالمصابيح النيّرة ، والشُّهُب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ؛ وسخّر الشمس والقمر عَلمـا للهتدين ، وسراجا للبصِرين ، ورُجوما للشياطيـن ، وأوقاتا لاختلاف السنين ، ومعـرفة لكل حين ؛ لا الشمسُ يَنبغِى لهـا أن تدرك القمر ولا الليل

(١) فى الاصل بياض . وفى العبارة اضطراب ظاهر .

سابق النهـار وكلٌّ فى فَلَك يَسبحون ؛ فقضاهنّ سـبع سموات فى يومَيْن ، ولو شاء خلقها فى أسرعَ من طَرْف العين ؛ إنّمـا أمرُه إذا أراد شيئا أن يقولَ له كُنْ فيكون ؛ بلا مُعاناة لقول ، ولا ضَعْف من حَوْل ؛ ثم أسكنهنّ من خلقه ملائكةً اصطفاهم لعبادته ، واجتباهم لتبليغ رسالتـه ، مَعصومين من أن يُشْرِكوا بالله ، ما لم يُنزّل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفْكا وبُهْتانا ؛ يُسَبّحونه بالليل والنهار لا يفتُرون ولا يَسأمون من عبادته ، ولا يَستحسرون عن طاعته ؛ يَخافون ربّهم من فوقهم ويَفعلون ما يُؤْمرون .

وتحميـــد فى فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذى حمد نفسَه ، وفرَض حمدَه على خلقه ، وأعزّ دينَـه وأكرم بطاعته أولياءه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، فجعل جندَه منهم المنصورين ، وحزبه منهم الغالبين ؛ نهجَ بهم سبيله ، واقام بهم حُجّته ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهرَ بهم حقّه ، وقمع بهمُ الباطل وأهلَه ؛ وأعلَى كلمتهم ، وأيّد نصرَهم ، وألّف لهم وبهم ، ومكّن لهم فى الأرض ، فجعلهم أئِمة وجعلهم الوارثين .

والحمـد لله المُعزّ لدينه ، المُظهِر لحقه ، الناصر لخلفائه ، المُمكّن لحزبه ، المُنتقم بهم ممّن صدف عنه ، مؤيّدا دينَه بالنصر ، ليُظهِرَه على الأديان ، وحَقّه بالعزّ ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفـه ؛ وجنودَه بالفَلَجَ فهم الأعلون إن استَنْصر بهـم ، والأعزّون إن كادبهـم ؛ والأقربون منه إخلاصا وعملا ؛ حمـدا يُؤازى نعمه ، ويَمْترى بمثله فواضـله ومزيده .

وله فى فتح ابن البَعيث لمّـا ظفِر به

أما بعد ، فالحمدُ لله ناصرِ أنبيائه وخلفائه ، وهادى أوليائه ، أولياءِ الحق وحزبِ الهُدى ؛ الذين أقام بهم سُـبلَ الرشاد ، ونصَب بهـم مناهجَ الدين ، فأظهره على الدين كُلّه ولو كره المُشركون .

وله صدر كتاب الخميس فى تحميد الله وتمجيده

أما بعــد ، فالحمــدُ لله الذى جلّت نِعمه ، وتظاهرتْ مِننُه ، وتتابعتْ أياديه ، وعمّ إحسانُه ، إلهِ كلّ شيء وخالقِه ، وبارئه ومصوّره ، والكائنِ قَبْــلَه ، والباقى بعدَه ، كما قال فى كتابه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . العالى فى مشيئته والقاهر فَوْق عباده ، المُتعالِى عن شَبَه خلقِه ، ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصيرُ ، خالق العباد بقُدرته ، وهداهم برحمته ، وأوْضحَ لهم السبيلَ الى معرفته بمـا نصَب لهم من دلائله ، وأراهم من عِبره ، وصرّفهم فيه مِن صُنْعه ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك كلّه مِن خَلْقــه إيّاهم بتمثيله ما مَثّــل لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلامِ التى جعلها إزاء قلوبهــم ، وأسماعِهــم وأبصارهم ، ويَسّر لهم خواطرهم وفِكَرهم ، والهيئةِ التى هيأهم لها ليقع الأمرُ والنهى عليهم ؛ فلا يُكلّفهم فوق طاقتهم ، ولا يُجشّمهم ما يَقْصُر عنه وُسْعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمةً بهم ؛ ليؤمنوا به ويعبــدوه ، فيَستحِقّوا به رحمتــه ورِضوانه ، والخلودَ فى النعيم المُقيم ، والظلّ المَديد ، والعيش الدائم ؛ كما قال تعـالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من نظره ورأفتــه بهم أن بَعث فيهم أنبياءه ورُسُلَه ، يدعُونهم الى طاعته ، ويبيّنون لهم هُداه ، ويُوضّحون لهم سَبيله ؛ ويَهْدُونهــم الى رحمتــه ، ويَعِدُونهم ثوابَه ، ويُنذرونهم عِقابه ، ويَبْسطُون لهم توبته ، ويُحذّرونهــم سُخْطه ، ويبيّنون لهم سنّته وشرائعَــه ، ويكشفون لهم مَواعظه ، ويعلّمونهم كتابَه وحِكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وكان من رأفته بهم ، ونظره لهم ، أن بعَثهم اليهم بالحُجَج الظاهرة ، والأعلامِ البيّنة ، والشواهد الناطقــة ، التى أظهَر بهـا صدْقَهم ، وأقام بها برهانَهم ، وأوضح

بها دليلَهم ، وأثابهم عَمَل سواهم ، ليكون أدعَى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأوْكَدَ للحجّة على مَن أبَى ذلك منهم .

وتحميد أحمد بن يوسف فى صدر رسالة الخميس التى كانت تقرا بخُراسان

أما بعــد ، فالحمد لله القادرِ القاهرِ ، الباعث الوارث ، ذى العــز والسلطان ، والنورِ والبُرهان ، فاطر السماءِ والأرض وما بينهما ، والمتقدِّم بالمَنّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمَثُوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته ، الذى جعــل ما أوْدَع عباده من نِعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ، التى يَفْهمون بها فصل الخطاب ، حتّى آقتنوا علم مواردِ الاختبار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطَن بمــا ظهرَ ، وعلى ما غاب بمــا حضر ، واستدلوا بمــا أراهم من بالغ حكمته ، ومُتْقَن صنعته ، وحاجة مُتَزايِل خلقه ومُتَواصله ، الى القِوام بمــا يَلُمُّه ويُصْلِحه ، على أنّ له بارئا هو أنشأه وابتدأه ، ويَسّر بعضه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ، فى تَصرّف أحوالهم ، وفنونِ انتقالها ، وما يُظْهِرون عليــه من العجز عن التأتّى لِمــا تكاملت به قُواهم ، وتمّت به أدواتُهم ، مع أَثَرِ التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلقــة المُحْكَمَة ، والصورة المُعْجبة ، ليس لهم فى شيء منها تلطُّفٌ يَتيمّمونه ، ولا مَقْصِدٌ يَعْتَمِدونه من أنفسهم ، فإنّه قال تعالى ذكرُه : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ . وما يتفكّرون فيه من خَلْق السماء ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر ، والنجومِ مُسَــخّراتٍ على مَسيرٍ لا يثبت العالَم إلّا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسْل ، وإحياءِ الأرض ، ولِقاح النبات والأشجار ، وتعاوُرِ الليل والنهار ، ومَمَرِّ الشهور والأيام ، والسنين التى تُحصى بهــا الأوقات ، ثم ما يوجد من دليــل التركيب ، فى طبقات السقْف المرفوع ، والمِهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والتئامها ، وتَخرُّق الانهار ، وإرساء الجبال ، ومن التئام الشاهــد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلْق وحدوثِه بعد أن لم يكن ، مُترقيّا فى النَّمــاء ، وثباته الى أجله فى البقاء ، ثم مَحاره مُنْقضيا الى آخر الفناء ، ولم يكن له

مُفْتَتَحُ عدد ، ولا مُنْقَطعُ أمد ، وما ازداد بنشوء ، ولا تَحَيَّفه نُقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ؛ لأنّ مالا حد له ولا نهاية ، غير ممكن الاحتمال للنقص والزيادة ؛ ثمّ أجرى فيما ذكر من خلق الله وخلق الإنسان الى ذكر ماتفضّل الله به على عباده الأنبياء ، وما اختصهم به من مَبْعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، الى ذكر الخُلَفاء أوّلا ، ثم الى ذكر المأمون ودولته .

وتحميد للعبّاس فى مقام له بين يَدَىْ المأمون

الحمد لله على نعمه علينا ، وإحسانه إلينا ، بالأرض المبْسوطة ، والسماء المرْفوعة ، والرِّياح المُسخّرة ، والأمطار النازلة ، والأوقات القائمة ، والمَنافع الدائمة ، والدين المبين ، والأدب القويم ؛ حمدًا يكون اليه صاعدا ، ولَدَيه ناميا ، ولمَلَكوته مالئا ؛ والحمد لله حمدا يُثْبِت رضوانَه ، ويورث إحسانَه ، ويُوجِب مزيدَه ؛ فهو المنعم المحمود ، والمُتَطوِّل المشكور ؛ لا إله إلّا هو لا شريك له ، كما شهد الله وملائكتُه قائما بالقِسْط لا إله إلّا هو العزيزُ الحكيمُ .

وتحميد لعبد الحميد فى أبي العلاء الحَرُورىّ

الحمد لله الناصر لدينه ، وأوليائه وخُلفائه ، المُظْهِر للحق وأهله ، والمُذِلّ لأعدائه وأهل البِدْعة والضلالة ؛ الذى لم يجمع بين حقّ وباطل ، وأهلِ طاعةٍ ومَعْصيةٍ ، إلّا جعل النُّصْرة والفَلَج والعاقبةَ لأهل حقّه وطاعته ، وجعل الخزْىَ والذِّلّة والصَّغار ، على أهل الباطل والخلاف والمَعْصية ؛ حمدا يتقبّله ويرضاه ، ويوجب به لأمير المؤمنين وأهلِ طاعته الزيادةَ التى وعد مَن شكرَه ؛ والحمد لله على ما يتَـوَلّى من إعزاز أمير المؤمنين ونَصْره وإفلاجه وإظهارِ حقّه ، على ما وقع بأعدائه وأهلِ مَعْصيَته والخلاف عليه من سَطَواته ونَقِماته وبأسه ، فيما وَلِيَ أميرُ المؤمنين مِن مُوالاة مَن والاه ، وعداوة مَن بَغَى عليه وعاداه ؛ لا يَكِلُه فى شيء من الأمور الى نفسه ، ولا الى حوْله وقوّته ومكيدته ، فإنّه لا حولَ ولا قوّةَ لأمير المؤمنين إلا به .

وتحميد فى آخر فتح

الحمد لله المُعزّ لدينه ، المُظْهر لحقّه ، الناصرِ لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهلِ الكفر ، المُنْزِل بهم من بأسه ، ونَقْمته وجَوائحه ، الذى لم يجمع بين أهل حقّه ، و باطل عدوه ، فى مَوْطِنٍ من مواطنِ التحاكم ، إلّا جعل فيه لأوليائه الظفَر ، وأفرَغ عليهم الصبر ، ومنحهم النصر ، وجعــل الدائرة وسوء العاقبةَ على عدوه ، وأهل الكفر ، حمــدا كثيرا يرضاه من الشكر ، ويَحْسُن به المزيدُ .

وتحميد فى فتح الى أمير لقمامة

الحمد لله الفتّاح العليم ، الذى خَصّ الأمير بأفضل الكرامة وأتمِّ النعمة ، وأَحْسَنِ الولاية ، وأعظم الكفاية ، وحفظ ما استرعاه ، وأعزّ أولياءَه ، وقمعَ بالمَذَلّة أعداءه ، وجعل حسن العــاقبة له ولأهل طاعتــه ، ودائرة السوء على أهل معاندته ، حمــدا يحسُن به القضاءُ ، وتزيد به النَّعماءُ .

وصدر تحميد لغسان بن عبد الحميد فى خطبة موجزة

الحمد لله الذى لا يُدْرَك خيرٌ إلّا برحمته ، ولا يُنــال الفضلُ إلّا بنعمته ، ولِىِّ التسديد للحسناتِ ، والعصمة مِن السيئات .

تحميد لعبد الحميـــد فى فتـــح

الحمد لله العلىّ مكانُه ، المنيرِ برهانُه ، العزيزِ سلطانُه ، الثابتةِ كلماتُه ، الشافيةِ آياتُه ، النافذِ قضاؤُه ، الصادقِ وعدُه ، الذى قدر على خلقه بمُلْكه ، وعزّ فى سماواته بعظمته ، ودبّر الأمور بعلمه ، وقدّرها بحلمه ، على ما يشاء مِن عَزْمه ، مُبتدعا لها بإنشائه إيّاها ، وقدرته عليهــا ، واستصغاره عظيمَها ، نافذة إرادتُه فيها ، لا تَجْرِى إلّا على تقديره ، ولا تنتهى إلّا الى تأجيله ، ولا تقع إلّا على سبق مِن حَتْمه ، على كلّ ذلك بلطفه وقُدْرته ، وتصريف وَحْيه ، لا مَعْدل لهــا عنــه ، ولا سبيل لها غيره ، ولا علمِ أحدٌ بخفاياها ومعادِها إلّا هو ، فإنّه يقول فى كتابه الصادق : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ... ...﴾ الى آخر الآية .

وتحميـــد ثان

الحمد لله الذى علا بالحُجُب التى آستتر بها عن جميع خَلْقه، وآستغنى بها عنهم لمـا توحّد به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة، رءوفا عليهم بمَنّه ومُتطَوّلا وهو فيما يُمْضى من أقداره، مفضلا لهم بابتدائه خَلْقهم فى أحسن تقويم، وإعطائه إيّاهم عاجل كل خير مقسوم، وتسخيره لهم جميـع ما فى السموات والأرض، وبَسْـطه لهم فى معايشهم أوسعَ الرزق، وإسباغه عليهم فيها أفضلَ النعم التى لطُفت فبطنت، وعظُمت فظهرت، ولبِستَ فعمّت، وانتشرت فجَلّت، وكثُرت فلا يحصيها عاد، وجزُلت فلايؤدّى حق ما آفترض منها شاكر، فإنّه يقول: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

والحمد لله الذى لم يَقْتَصر بهم فى إكرامه وتفضيله إيّاهم على عاجل، فإنّه مُضْمَحِلّ زائل مما أعطاهم إيّاه ولم يَكِلْهم فى معرفة خالقِهم تبارك وتعالى، ومُتَوَلّى النعم عليهم، والاحسان اليهم، والارتياش لهم، ولا فى مُبْتَغَى سبيلِ طاعته، وأداءِ حقه، وشكرِ نِعمته، واستيجاب غِبْطة المعاد اليه الى أن يَعُوا ذلك بعقولهم، والنظر فيه بألبابهم، والتصريف له على أهوائهم، فإنّه لو ألجأ ذلك اليهم، وأفردهم فيه الى أنفسهم، ووكلهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم، لحارت عنه منهم الأبصار، ولتاهت فيه منهم العقول، ولأضلّهم عن قصده العمَى، ولمـال بهم الى غيره الهوى، ولاستحكم عليهم شركُ الردى، ولكنّه بعث فيها أنبياءه الهـادين، يدعونهـم الى الصراط المستقيم، بنوره المُضِىء، ودينه القويم، وآياته البيّنة، وكُتُبه الفارقة التى بيّن فيها مَحابّه ومَكْروهه، وطاعته ومعصيَته، وثوابَ الفريقيْن فى ذلك من عباده ليحذروا ما حذّرهم فيه من سُخْطه، ونزل بهم فيه من نِقمته، وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة، وأحسنِ العاقبة فى الدنيا والآخرة، وكَشَف لهم الجَهَالةَ، وهدَى من الضـلالة، وبصّرهم سبيلَ الحق، وبيّن لهم معالمَ الإسـلام، ليرجِعَ جائرٌ، ويَقْصِـدَ زائغٌ، ويعرِفَ جاهل، وليعبدَ الربَّ بما وحّد به نفسَه، وليستبين العلمَ، ويستضىءَ الحق، وليبتغىَ من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع، وأداءِ فرائضه التى فَرَض، وإيثار طاعته التى أوجب، وليكون لله

الحجة البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسفهوا بعد استبانته لهم، واستفاضته فيهم وإعذاره اليهم، فانه يقول: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ويقول ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

لأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذى بالقلوب معرفتُه، وبالعقول حُجّتُه، الذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أمينا فوفى له، ومُبلِّغا فأدّى عنه فجّ به المُنْكَر، وتألّف به المُدْبِر، وثبّت به المستبصر، الى أن توفّاه على منهاج طاعته، وشريعة دينه، ثم أورثكم عهده وخصّكم بكلمة التقوى، وجعلكم الأمةَ الوُسْطى.

ولعبد الحميد فى فتح

يُعَظِّم فيه أمرَ الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فالحمد لله الذى آصطفى الإسلام دِينًا رَضِى شرائعه، وبيّن أحكامه ونوّر هُداه، ثم كَنَفَه بالعزّ المؤيّد، وأيّده بالظفر القاهر، وآزره بالسعادة المُنْتَجِبة، وجعل مَن قام به داعيا اليه من جُنْده الغالبين، وأنصاره المسلّطين، كلّما قهر بهم مناوئا اوراغبا عن طاعتهم المأمولة، وأموالهم المُثْرِية، ودارَهم الفسيحة، ودولتَهم المطولة، امرا حتمه على نفسه، ثم جعل مَن عاندهم وآبتغى غيرَ سبيلهم مُسلما قد آستهوته ذِلَّةُ الكُفْر بظُلَمِها، وحَيْرة الجَهالة بجوارها، وتيه الشقاء بمغاويه، وكلّما ازدادوا لدعوة الحق إباءً، ازداد الحقّ اليهم آزدلافا، وعليهم عُكُوفًا، وفيهم إقامة، الى أن يَحِلّ بهم عِزُّ الغلبة، ونَجاةُ المتجاوز، راغبين فيما شوّقهم اليه، مُحافظين على ما ندبهم له، قد بذلوا فى طاعة الله دماءهم، وقبلوا المَعرِض عليهم فى مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجنّة. محمودٌ صبرُهم، مسهّل بهم عزمُهم، الى خير الدنيا والآخرة.

والحمد لله الذى أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حفظ له من أمور أُمّته، أن اختار لمواريث نبوّته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نُهوض به وشُحّ عليه ومُنافسةٍ فيه، أن فعل وفعل. والحمد لله الذى تمّم وعده لرسوله وخليفته فى أمة نبيه مسددا

له فيما آعتزم عليه . والحمد لله المعزّ لدينه ، المتولّى نصرَ أمته بنبيّه المتخلّى ممن عاداهم وناوأهم ، حمدا يَزيد به من رضى شُكْرِه ، وحمدا يعلُو حمدَ الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نِعَمُه فلا توصف ، وجلّت أياديه فلا تُحْصَى ، الذى حَمّلنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه ، وبالله يستعينُ أمير المؤمنين على ذلك ، واليه يرغب ، إنه على كل شيء قدير .

ولعبـــد الحميـــد أيضـا

أما بعد ، فالحمد لله الذى آصطفى الإسلام لنفسه ، وآرتضاه دِينًا لملائكته ، وأهلِ طاعته من عباده ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هدَى به مِن خلقه ، وأكرمهم وفضّلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءَه المقرّبين ، وحزبَه الغالبين ، وجندَه المنصورين ، وتوكّل لهم بالظهور والفَلَج ، وقضى لهم بالعلو والتمكين ، وجعــل مَن خالفه وعزَب عنــه وابتغى سبيلَ غيره أعداءَه الأقلّين ، وأولياءَ الشــيطان الأخسرين ، وأهل الضّلالة الأسفلين ، مع ما عليهم فى دنياهم من الذّل والصَّغار ، وما عَجّل لهم فيها من الخِذلان والانتقام ، إلى ما أعَدّ لهم فى آخرتهم من الخزْى والهوانِ المُقيم ، والعذابِ الأليم ، إنه عزيزٌ ذُو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضّلهم الله تعـالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظّم الإسلام تعظيما ، وفضّله تفضيلا ، فلم يَبقَ مَلك مقرّب ، ولا نبيٌّ مُرسل ، ولا إمامٌ لأهل حقّ مهتدٍ إلا دَانَ به ، واتّصل الى ولاية الله بما هداه له منــه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرته من أهلِ الإسلام الذين اصطفى ، تغاشُمٌ ولا تَظَالُمٌ ، ولا تحاســدٌ ، ولا تقاطعٌ ولا تدابُرٌ ، ولكنهم كما وصفهــم اللهُ عزّ وجلّ بالتبارّ والتراحم ، والتوادّ والتناصُف ، قلوبهم متفقةٌ ، وأهواؤُهم مؤتلفة ، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطةٌ ، أعوانا على الحق ، وإخوانا فى الدّين ، ألّف الله بينهم ، وجعل الإسلام نسبَهم ، فقال فى كتابه : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ ...﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهلَ دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أســلافُ الحقّ قبلَهم ، فى توادّ وتبــارّهم ، وتواصُلهم وتعاوُنهم ، و بذلك دَانَ أهلُ السماء ، فلم يختلفوا فيه ، ولم يرغَبُوا عنه ، ولم يحتذوا مثالا غيرَه ، و به يَدِينُ

لله الباقون من خلقه، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة، سنةٌ مسنونةٌ، وشريعةٌ متبوعةٌ، لا يبتغون بها بدلا، ولا يريدون عنها حولا، فأهل طاعة الله أهل سلامة فى دنياهم، وإخوان كما قال الله عز وجل فى آخرتهم، لم تنقطع الولايةُ فيما بينهم، لانقطاع الدنيا عنهم، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم، بجمعهم فى داره وجواره، كما ألف فى الدنيا بين قلوبهم، وعصم بالإسلام ألفتهم .

تحميد

الحمد لله المثيب على حمده وهو ابتداؤه، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤه .

وأقامه

الحمد لله الذى أكرم الإسلام وفضله، وشرفه وعظمه، وأعلى منزلته، وجعل أهله القائمين به، والحامدين عليه، أولياءه وحزبه الذين قضى لهم بالتمكين، والظهور على الدين كله ولو كره المشركون .

ولزيد بن على رحمة الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل النعم بالشكر، والشكر بالمزيد، حمد من يعلم أن الحمد فريضةٌ واجبةٌ، وأن تركه خطيئةٌ مهلكةٌ، وأومن بالله إيمانا نفى إخلاصه الشرك، ويقينه الشك، وأتوكل عليه توكل الواثق به ثقة أهل الرجاء، ومفزع أهل التوكل .

تحميد فى الإسلام

الحمد لله الذى اختار الاسلام دينا لنفسه، وأنبيائه ورسله، وشرفه وعظمه، وأناره، وأظهره، ونزهه وأعزه ومنعه، ولم يقبل غيره، ولم يجعل حسن الجزاء إلا لأهله، الذين كتب لمن أسعده بالولاية فيه منهم الرضوان والمغفرة والرأفة، وعلى من خالفه وابتغى غير سبيله الحسرة والندامة، والذلة والصغار فى الآخرة والأولى، والممات والمحيا، إذ يقول الله عز وجل: «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين»

والحمد لله الذى اجتبى محمدا صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوّته، واختاره له من رسالته، وحَبَاه بفضيلته، واجتباه من أفضـل عمائر العرب، وأشرفها مَنْصبًا، وأعرقها حَسَبًا، وأكرمها نَسَبًا، وأوراها زِنادًا، وأرفعها عِمَادًا، فبعثه بالنور ساطعا، وبالحق صادعا، وبالهدى آمرا، وعن الكفر زاجرا، وعلى النبيين مُهيمنا، وإلى سبيل ربّه داعيا، وبالكتاب عاملا، فبلّغ عن الله الرسالة، وهَدى من الضَّـلالة، وانتاش من الهَلَكة، وأنهج معالمَ الدِّين وأدّى فرائضَه، وبيّن شرائعَه، وأوضح سُنَنَه، ونَصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله حقّ جهاده حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وسلم.

تحميد لأبى عُبَيْد الله

الحمد لله الذى شرع لاظهار حقّه وإنفاذِ سابِق قضائه فيمن ذَرَأ وبَرَأ من عباده، بإدخال من أراد أن يُدخلَ فى رحمته، وانجازِ ما حقّ له من العبـادة على خَلْقه، بابتـدائه خلقَهم، ومظاهرته الآلاءَ عليهم، وإحسانه البلاءَ عندهم، وإبلاغه فى الحجج إلى عامتهم، دينـا رَضيه لنفســه وملائكته الذين أسكنَ سماواتِه ورُسلِه، فأتمن على وجه من لم يَرْضَ إلا به، ولم يقبل إلّا إياه، ثم كان ما أعزّ به نفسَه، وأظهر به نورَه، وأراد أن يبـلو به عبادَه، تحقيقا لمـا سَبق به علمُه، وإنفاذًا لمـا جَرت به مقاديرُه، أن بعثَ لِمَـا شرَعَ من دينـه، واصطفى لتسبيحه وتقديســه من ملائكته المقرَّبين، مَنْ ارتضَى واختار من أنبيائه ورُسله المُجتَبين، لتبليغ رسالته وإظهارِ حقّه، واستِشلاءِ(١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التى أطلعتْ عليهم وعمَّتْهم، ليعبَدَ مُخلصا له، محمودا بما استحمد به إلى خَلْقه، مشهودا له بما أشهد به من كلمة الحقّ، فكان منهم التبليغُ لِمـا أُرْسِلوا به، والنصيحة لمن أُرْسِلوا إليه، غيرَ مختلفين فيما بُعثوا له، ولا متفرِّقين فيما استعملوا فيـه، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أوّل، فيصدِّق بذلك بعضهـم بعضا، ويَهدُون إلى الحق وإلى طريق مسـتقيم، فمضت رسل الله وأنبياؤه على ذلك سالكين منهاجَ الحق وسبيله، والدُّعاءَ إلى الله عز وجل وإلى

(١) الاستشلاء : الانقاذ .

طاعته، هادين مَهْدِيين غيرَ مبخوسين شيئا مما كانوا أهلَه في المنزلة عند الله، والقُرْبة منه، والوسيلة إليه، هم ومَن آمن بهم وعزّزهم، واتّبع النورَ الذي أُنزل معهـم، حتى تقضت بهم الأعمارُ، وتقطعتْ بهم الآثارُ، وتخرمتهم الاجال .

وكذا لأبي عُبَيد الله

الحمد لله الذي جعل الإسـلام رحمةً قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم، واستيجابهم إياها منه، فاصطفاه لنفسه وشرَعه لهم دينا يَدينون به، ثم جعل تحديدَ وحيه ومتابعةَ رُسله رحمةً تلافاهم بها بعدَ تقديمها، ومِنّةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها، تطوُّلا على العباد بالنّعماء، وإعذارا اليهم بالحجج، وتَقْدِمَةً بالوعد، وإنذارًا إليهم عواقبَ سخطه في المَعاد .

والحمد لله الذي ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقّه على فَتْرةٍ من الرسل، وطُموس من معالم الحق، ودروسٍ من سبل الهُدَى، عند الوقت الذي بلغ في سابق علمه ومقاديره، أن يجتبيَ لدينـه الأصفياءَ، ويختارَ له الأولياءَ الظاهرين بحقه، القاهرين لمن ابتغى سبيلا غير سـبيله، فعظّم حرمته، ووسّع حَوْزتَه، وصدَع بأمره، وجاهدَ عن حقه في حَوْمات الضّلالة وظُلُمات الكفر، بالحق المبين، والسراج المُنير، ثم جعلَه مصدِّقا لمن سبَقه من الرّسـل ومُجدِّدا لمـا بُعثوا له وهدًى ورحمةً، ثم جعل لدينه وظائف وظفها على أهله، وشرائعَ شَرَعها لهم لا يَكْمُلُ دينُهم إلا بها، وجعل أداءها إليه، واعتصامهم بها إماما لدينه، ونظاما لنوره، وقِوَاما لحقه، واستيجابا لمـا وَعَد عليه من ثوابه، وأمْنا لمـا أوعدَ مَن خالفه من عقابه، فليس يسع أهلَ الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضلَه وأجرَه، وجعـل لهم عِزّه وعُلُوّه، واختار لهم الغلبة والعاقبة على من فارقهم فيه إلا معرفتُها، وأداؤها بما يُستكمل به حدودُها، ومما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدى — صدر رسالة له في الخميس

الحمد لله الذي اختار الإسلام دينا لنفسه، ورَضِى أن يَعبُدَه مَن في سمواته من الملائكة المقرّبين، ومَنْ في أرضه من النبيّين والمُرْسَلين، ومَن آمن بالنور الذي هداهم له من الثَّقَلَيْن،

واختار لرسالته فى سابق علمـه ، والذكر الحكيم عنده ، محمـدًا صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيّه صلى الله عليه وسـلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تحميـــد

الحمد لله المتكبر فى جبروته المتعزّز بسلطانه ، المتعالى فى سمواته ، المحتجب عن خَلْقه ، فلا تُدْركه فى الدنيا أبصارُ الناظريـن ، ولا تُحيط به أوهامُ المتوهّمين ، ولا تبلُغه صفاتُ الواصفين ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب ، ولا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

تحميـــد آخر

الحمد لله الحكيم العدلِ ، الذى فَصَلَ بين الحقّ والباطل ، فنفذ قضاؤُه فى خَلْقه ، وحكم فيهم بجَرى حكمُه على إرادته ، يَقْضى بالنصر والتأييـد ، والعزّ والفَلَج ، والتمكين للحق وأهله ، وبالذل والوَقْم والخزْى والصَّغار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحُكْمه عادةً جاريةً باقيةً ، وسُنّةً ماضيةً ، لا رادَّ فيما قضى منه لقضائه .

والحمد لله الذى اختص محمدا صلى الله عليه بكراماته ، واصطنعه لرسالاته ، وأنزَل عليه كتابه العـزيز الَّذِى لَا يَأْتِيـه الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ ، بما أحلّ وحرّم ، ورَضِى وسخط ، وأمَرَ به ونَهَى عنه ، وجعله خاتَمَ النبيين والمُهَيْمِنَ عليهم ، وكتابه الذى أنزل ، آخرَ الكُتب المصدّق بها النبى صلى الله عليه وسلم .

تحميد فى الإسلام وما امتن به على أهله من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ لِدين الله الذى ارتضاه لنفسه ، ولِمَن اصطفاه من خَلْقه ، واجتباه مِن عباده وجعلَه مَعْلَما بين الهُدَى والضلالة ، وفُرْقانا بين الحقّ والباطل ، وحاجزا بين الكُفْر والإيمان ، وظائفَ وَظَفَها على أهلها ، وشرائع شَرَعها لهم ، فجعل أداءها إليه ومَعْرفتها له ، ومحافظتَهم عليها ،

واعتصامهم بها قِواما لدينه، ونظاما لنوره وثَباتا لحقّه، واسْتيجابا لما وعَد من ثوابه، وأَمْنا لما أَوْعَد من عقابه؛ فليس يَسَعُ أهل الإيمانِ بالله والإقامةِ على حقّه من المسلمين الذين سمّاهم المسلمين بالإسلام، وأحرز لهم فضلَه وعزّه، وأصار لهم الغَلَبة علَى مَن خالفهم وفارقهم بما رَكَنوا إليه من الصدود عن سبيله، والتكذيب بكتبه ورسله، ودلّتهم فيه قُرَباؤهم، وقادتْهم إليه أهواؤهم، مِن المِلَل الضالة، والأديان المجموعة، التى لم يَنْزِل بها مِن الله سُلطانٌ، ولا كتابٌ ولا برهان، إلّا معرفتُها وأداؤُها بما يُسْتكمَل مِن حُدودها ومَعالمها .

تحميد فى الجهاد وما بعث به النبى صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فإنّ الله خلق الخلائقَ بقدرته، وقدّر الأمورَ بعلمه، وأنفذ على ما مضَى من مشيئته، مِن غير أنْ يكون له ظهيرٌ فى ملكه، أو مُعينٌ على ما يُرَى من عجائب خلقه، واحتذاء منه على سابقٍ مِن صنعة غيره، فوحّد نفسه بما تفرّد به دون غيره من خَلْقه، ليُعْبَد مُخْلِصا مُبرّأ من الأنداد، إتماما لنوره، وتعزيزا لتوحيده، وتأييدا لدينه، وإعلاءً لمن اعتصم به، وإقلالا لمن خالفه وعَنَد عنه وعبَد غيرَه، وإحقاقا لكلمته، فإنه يقول : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ الآية؛ بذلك أنزل كُتُبه، وأرسل رُسُلَه، واحتجّ بهم وبما أنزل إليهم على مَن مضى من القرون السالفة، والأمم الخالية، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أوّلُهم، من عبادته وتوحيده، لا يستوحشون مِن قِلّة، ولا يؤتون من كثرة؛ يُعزّهم الله بقوّته، ويُؤيّدهم بجنده، ويَنصُرهم وينْصُر بهم إلى أن بَعث الله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم بما خصّهم به، وجعله مُصدِّقا لهم، ومُهيمنا عليهم، وخاتمَ النبيين بعدهم؛ يمضى لأمر الله، ويجاهد مَن لم يُجبه إلى الدخول فى دين الله، فأظهره الله وأنار حقّه، وأزهق عدوّه، وأنجز له ما وعده وأتمّ بذلك النّعمة عليه وعلى من اتّبعه، فإنّه يقول : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ .

تحميد فى فتح

الحمد لله الفتاح العليم، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذى أعزّ الإسلام بقُدْرته، وأيّده بنصره؛ فلم يُلْحِد فيه ملْحِدٌ، ويَسعَ فى تشتيت الكلمة وشقّ العصا ساعٍ، ويُوضِعْ

فى الكفر والمعصية مُوضِعٌ ، و يمتنعْ من قضائه وإرادته مُمْتنعٌ إلّا أذلّه الله وقصَمه ، وأضرَع خَدّه ، وأتعس جَدّه ، وضلّل سعيَه ، وعجّل بَوارَه واستئصالَه ؛ حمدا دائمـا لا انقطاع له ، ولا نفاد لمدّته .

تحميــــد ثانٍ

والحمد لله الذى اختار الإسلام وشرّفه ، وكرّمه وطهّره ، وأظهَره وأعزّه ، وفطَر عليــه ملائكتَه ، وبَعث به أنبياءه ورُسُـلَه ، واختار له خِيرتَه من خلقه محمّدا صلّى الله عليه ، فبَعثه برسالته ، وأكرَمه بوَحْيه ، واصطفاه على خَلْقه ؛ يُبشّر بالجنّة مَن أطاعه ، ويُنْذِر بالنـار مَن عصاه ؛ وجعله دِينه القيّم الذى لا يَقْبل دينا غيرَه ولا يُثيب أحدا إلّا عليه .

تحميــــد فى فتح

الحمد لله العزيز فى مَلَكوته القاهرِ فوق بَرِيّته ، الذى خلَق الخَلق بقُدْرته ، وأنفَذ فيهم إرادته ومَشيئته ، وقــدّر كلّ شىء وأتقنه وأحكمه ، وأحاط عِلْما به ؛ فلا يعزب عنه مثقال ذَرّة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبينٍ .

صــدر تحميــــد فى فتح

الحمد لله الذى ابتدع الخــلق لا من شىء ، وجعل الليل والنهار كَهْفا ومُسْتَجَنّا لكل حىّ ؛ بقُدْرته تَجّرت البِحار ، وجرتْ لمواقيتها الأنهارُ ؛ فدار وتطارد الليـلُ والنهار ، لا إله إلّا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمــد لله الذى فات بعظمته أبصارَ المرتئين ، وعلا بمجـده عن خَطَرات الحاسبين ، واحتجب بأســتار جَبَروته عن مواقع فكر المحصلين المُتعمّقين ؛ فـلم تَحْوه الكَمّيّة ، ولم يقع عليـه أدوات التحصيل والكَيْفيّة ، ولا أدركه هاجِس تبعيض ولا كُلّية ، ولم يُنْسَب إلى زيادة فى حين ، ولا إلى تقصير فى شهور ولا سنين ، فكلّ أمره — عزّ جلاله — تمـامٌ ودوام ، وكلّ صفات صنعه اعتدال وكمالٌ ؛ وكلّ ما دونه يحتكم فيه الفَناء والزوالُ ، ليس كمثله شىءٌ وهو السميعُ البصير .

والحمد لله الذى عرّفنا ربوبيّته إلهاما ، ونهج لنا سُبُلَ طاعته منّا وإكراما ، وتعبّدنا بفرضه تقويما وتعليما وآمتنانا ؛ فقامت علينا وعلى الخلق حُجّته ، بالصادع بأمره ، والمبلّغ لرسالته ، والمجاهد فيه حقّ جهاده ، محمد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذى أعزّ دينه ، وأظهر تمكينه ، ونصر وليّه ، وخذل عدوّه ، وأوقع بأسه ونقمته بمحلّ الفرية ، وجرثومة الضلالة ، ومناخ الشرك ، ومركز الكفر ، بعد طول الإملاء ، والاعتداء فى سفك الدماء ، والمثلة بالأسرى ، وقلّة المراقبة والارعواء .

تحميـــــد

الحمد لله حمدا يكون رضاه منتهاه ، والمزيدُ من فضله جزاءه . والحمد لله حمدا اليه يتناهى حمد الحامدين ، وشكرُ الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُحصَى نعماؤُه ، ولا تُجزَى آلاؤه ، ولا يُكافأ بلاؤه ، ولا يُبلَغ شكرُه إلّا بمنّه وتوفيقه ؛ حمدا يرضاه ويتقبّله ، ويزكو لديه ، ويوجب ما تأذّن للشاكرين من يده .

تحميد على فتح

أمّا بعد ، فالحمد لله الواحد القهّار ، العزيز الجبّار ، ذى المنّ والإنعام ، والجلال والاكرام ؛ الذى آصطفى الإسلام دينا ، وآصطفى له من عباده أهلا هداهم له ، وأكرمهم به وبيّن لهم ما يأتون ، ولم يتركهم فى ريب من أمرهم ، ولا شبهة من دينهم ؛ فله الحجّة البالغة ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة ، وإنّ الله لسميع عليم .

والحمد لله الذى ختم بمحمّد صلى الله عليه وسلم النبوّة ، وآنتجبه لتبليغ الرسالة ، وبعثه إلى خلقه كافة ، فبلّغ رسالته ، وصدع بأمره ، وقام فيما بعثه له بحقّه ، ثم أنجز له وعده ، وأتمّ له كلمته ، وأظهر دين الإسلام به على الدّين كلّه ولو كره المشركون .

تحميد فى فتح

أمّا بعد ، فالحمد لله الأوّل الآخر ، الظاهر الباطن ، الولى الحميد ، القوىّ العزيز ؛ الذى لا يقدر العباد قدره ، ولا يحصون نعمه ، ولا يبلغون شكره ، المحيط بكلّ شىء علما ،

والمُحْصى كلّ شيء عــددا ؛ فلا يُعْجزه كبير، ولا يعزب عنه صغير، والأرضُ جميعا قَبْضَتُه يوم القيامة، والسموات مطويّات بيمينه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون .

تحميـــد

الحمد لله المتوحِّد بالخلق والأمر، قادرا قاهرا أحاط بكلّ شيء علما، وأحصى كلّ شيء عددا، وملأه عَظمةً، ووَسعه عَدْلا، وأتقنه صُنْعا . والحمد لله الذى أعزّ بالحق مَن أطاعه، وأذلّ بالباطل مَن عصاه، وجعل الطاعة والجماعة حِرْزا حَرِيزا، وموئلا مُنيفا؛ فلم يجمع بين أهل كفرٍ وإيمانٍ، وطاعةٍ وعِصْيان، إلّا توحّد بالصنع لأهل طاعته، وأنجح سَعْيهم، وأعلَى كَلمتهم، وأفلَج حُجّتهم، وأنزل بأهل الكفر المُعاندين عنه، الرادّين لأمره الذِّلّة والصَّغار فى عاجلهم وآجلهم؛ حمدا يكون لِمزيده موجبا، ولحقّه مؤدّيا .

تحميد فى فتح لسعيد بن حُميد عن وصيف

أمّا بعد، فالحمــد لله الحميد المَجيــد، الفعّال لما يريد، الذى خلق الخــلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته، ودبّره بعلْمه، وأظهر فيه آثار حكمته التى تدعو العقولَ إلى معرفته، وتشهَد لذوى الألباب بربوبيّته، وتدُلّ على وحدانيته؛ لم يكن له شريكٌ فى ملكه فينازعَه، ولا معينٌ على ماخلق فتلزمَه الحاجة إليه ؛ فليس يتَصرّف عباده فى حال إلّا كانت دليــلا عليه، ولا تقَع الأبصار على شيء إلّا كان شاهدا له، بما رسم فيه من آثار صُنْعه، وأبان فيه من دلائل تدبيره، إعذارا بحجته، وتطوّلا بنعمته، وهداية إلى حقّه، وإرشادا إلى سبيل طاعته، وهو الذى يَبْدأ الخلق ثم يُعيده، وهو أهون عليه؛ وله المَثلُ الأعلى فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم .

والحمــد لله العزيز القهّار، الملك الجبّار، الذى آصطفى الإســلام وآختاره، وآرتضاه وطهّره، وأعلاه وأظهره؛ بجعله حُجّة أهله على مَن شاقّهم، ووسيلتهم إلى النصر على [مَن] عَنَد فى حقهم، وآبتغى غير سبيلهم؛ وبعث به رُسُلَه يدعون إلى حقّه، ويهدون إلى سبيله،

بالآيات التى يبيّنون بها عن المخلوقين، ويوجبون بها الحجّة على المخالفين؛ حتى آنتهتْ كرامة الله إلى خاتم أنبيائه، وحامل كتابه، ومفتاح رحمته صلى الله عليه وسلم؛ على حين فَتْرة من الرسل، وآختلاف من المِلَل، ودُثور من اعلام الحقّ، وآستعلاء من الباطل؛ والناس عاندون عن سبيل ربّهم، يَتسافكون دماءَهم، ويُحلّون ماحرّم الله عليهم، ويعبدون من دون الله مالا يَضرّهم ولا ينفعهم؛ وأيّده بالبرهان الواضح، والحُجَج القواطع، والايات الشواهد؛ وأنزل عليه كتابَه العزيزَ الذى لا يأتيه الباطل من بين يَدَيْه ولا مِن خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد؛ وجعل فيه أوضح الدليل على رِسالته، وأعدلَ الشواهد على نُبوّته؛ إذ عجز المخلوقون عن أنْ يأتوا بمثله على مَرّ الأيام، وكثرة الأعداء والمنازعين؛ يتحدّاهم به فى المواسم، ويقصِدُهم بحُجّته فى المحافل؛ ولا يزدادون عنه إلّا حُسورا وعجزا، ولا تزداد حُجّة الله عليهم إلّا تظاهرا وعلوّا؛ ثمّ أيّده بالنصر بأنصارٍ ألّف بينهم بطاعته، وجمعهم على حَقّه، ولَمّ شَعَثهم بنُصْرة دينه، بعد الشِّقاق المُتَّصل بينهم، والحربِ المُفَرِّقة لجماعتهم؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ . وقدّم اليه وعْدَه بالنُّصرة والتمكين، بجعله بُشْرى للمؤمنين، وحُجّة على الكافرين، ودليلا على ما بعثه به من الدِّين؛ فهزم بالقليل مِن عددهم الكثير من عدد أعدائهم، وغلب بضُعَفائهم أهلَ القوّة ممّن ناوأهم؛ ففَلّ به حدّهم، وفضّ جموعهم، وآفتتح حصونَهم، وحَريزَ معاقِلهم؛ وأظهر بحجّته ونَصْره عليهم، وأنجز سابق وعده لهم وفيهم؛ والله لا يُخْلِف الميعاد .

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذى العَظَمة القاهرة، والآلاءِ الظاهرة؛ الذى لا يُعْجِزُه شىء، ولا يمْتنع منه، ولا يُدْفع قضاؤه ولا أمرُه؛ ﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ . والحمد لله الذى خلق الخلق بعلْمه، ودبّر الأمور بحُكْمه، وأنفذ فيما آختار وآصطفَى منها عزمَه؛ بقدرة منه عليها، ومَلَكةٍ منه لها، لا مُعَقِّب لحُكْمه، ولا شريك له فى شىء من الأمور، يخلق ما يشاء ويَختار، ما كان للناس الخِيَرة فى شىء من أمورهم، سبحان الله وتعالى عمّا يشركون .

والحمد لله الذى جعل صَفْوَة ما آختار من الأمور دينَه الذى آرتضىَ لنفسه ولمن أراد كرامتــه من عباده، فقام به ملائكتُه المقربون، يُعظّمون جلاله، ويُقدّسون أسمــاءه، ويذكرون آلاءه، لا يَستحسرون عن عبادته ولا يســتكبرون، يُسبّحون الليــلَ والنهارَ لا يَفْترون، وقام به مَن آختار من أنبيائه وخُلَفائه وأوليائه فى أرضه، يُطيعون أمرَه، ويَذُبُّون عن محارمه، ويُصدِّقون بوَعْده، ويُوفون بعهده، ويأخذون بحقّه، ويُجاهدون عدوَّه، وكان لهم عند ما وعدَهم من تصديقه قولَهم وإفلاجه حجّتهم، وإعزازه دينَهم، وإظهاره حقَّهم، وتمكينه لهم، وكان لعدوّه وعدوّهم عنــد ما أوْعدهم من خِزْيه، وإحلاله بأسَهم، وآنتقامه منهــم، وغضبه عليهم، مضَى على ذلك أمرُه، ونفذ فيــه قضاؤه فيما مضَى، وهو ممضيه ومنفّذُه على ذلك فيما بَقِى، ليتم نورَه ولو كَرِه الكافرون، وليُحِقّ الحق ويُبْطِلَ الباطل ولو كَرِه المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضِى فى الأمور ولا يُدَبِّرها غيرُه، ابتدأها بعلمه، وأمضاها بقُدْرته، وهو وليّها ومنتهاها، وولىّ الخِيرَة فيها، والإمضاء لمــا أحبّ أن يُمْضِىَ منها، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخِيرَة سبحان الله وتعالى عمّا يُشْركون .

والحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم، ذى المَنّ والطوْل، والقدرة والحَوْل، الذى لا مُمْسِك لمــا فتح لأوليائه من رحمته، ولا دافع لمــا أنزل بأعدائه من نَقْمته، ولا رادّ لأمره فى ذلك وقضائه يفعلُ ما يشاء، ويَحْكم ما يُرِيد .

والحمــد لله المُثيب بحمده ومنه ابتــداؤه، والمُنْعِم بشكره وعليه جزاؤه، والمُثْنى بالإيمــان وهو عطاؤه .

لآخــــر

الحمد لله الذى يَتَطوّل بالنعم مُبْتدئا، ويُعْطى الخير مَنْ يشاء ويُثيبُ عليه .

تحميد لغسّان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان فى المطر :

الحمد لله الذى نشَر رحمته فى بلاده، وبسَط سعته على عباده، الذى لا يَزال العبادُ منه فى رزق يَقْتسمونه، وفضلٍ ينْتظرونه، لا ينْقُضُه ما قبْله، ولا ينْقضى ما بعده .

لأحمد بن يوسف فى فتح السّند

الحمدلله وَلِىّ الحمد، وأهلِ الثناء والمجد، خالقِ الخلْق، ومُدَبِّرِ الأمر، المسبغ على عباده والمُوجِبِ عليهم حُجّته، فليسوا يرجون إلّا سعَة فَضْله، ولا يَحْذرون إلّا ما آجترحوا من مَعْصيته، لما سبق من جَزيل إحسانه، وتظاهر من آمتنانه، وتقدّم به الإعذارُ والإنذارُ اللذان لا يَستخِفّ بما عظُم منهما إلّا مَن آستحوذ عليه الشيطان، وآستولَى عليه الخذْلان، وقاده الحَيْن الى موارد الهَلَكة .

التحميد الثانى

الحمد لله الذى آصطفى الإسلام دينا فطَهّره وأَسْناه، وأظهره وأعلاه، وزيّنه بكلّ حَسَنة، ونَفى عنه كلّ سيئة، وجعله الى مَذْخور كرامته سببا واصلا، وسبيلا نَهْجًا، وبعث به محمدا صلى الله عليه وسلم لِيَهْدىَ مَن كان حيّا، ويَحِقّ القولُ على الكافرين .

تقريظه فى الخليفة

الحمد لله الذى آصطفَى أمير المؤمنين لخلافته، وتلافَى الأمة بسُلْطانه، فجعله القائم فيهم بقسطه، والمُسْتفرِغَ فى آلتماس مصلحتهم همَّه .

لأحمد بن يوسف

عن ذى الرياستين الى ابراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد، فالحمد لله الذى حفظ من دينه ما ضَيّع الملحدون، ورأَب منه ما [فرقته](١) الصدْعة، وأعاد من حبله ماحاولوا نقضَه، حتّى أعاد لعباده أحسن أُلْفتهم، وردّ اليهم أجمل

(١) بياض فى الأصل . وما أثبتناه يناسب المقام .

عوّدهم ، من الاستشلاء بعد التردّى فى قُحَم المعاطب ، والاستنقاذ بعد التوريط فى المهالك ؛ وبلّغ خليفته القائم بحقّه ، المؤتمّ بكتابه ، الذائد عن حريم الدّين ، وميراث النبيين ، أجزلَ ما بلّغ الخلفاء الراشدين المهديّين ، من إعلاء الكلمة ، وغلبة الأعداء ، والفوز بالعاقبة التى وعدها المتقين ؛ وفرغه لما أشعر قلبه ، وشرح له صدره ، من إمضاء حُكْم الفرائض الموجبة ، واقتفاء السنن الهادية ، حيث سلك به من المناهج ؛ حمدا يوازى نعمه ، ويبلغ أداء شكره ، ويوجب مزيده .

والحمد لله على ما خصّنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناء الرتبة ، فى مشايعة أمير المؤمنين — أيّده الله — والمجاهدة عن حقّه ، والوفاء لله بما عقده له ؛ لانريد بما كان منّا إلّا وجهه ، ولا نسعى فيه إلّا لرضاه ؛ حمدا لايُحصى عدده ، ولا ينْقطع أمدُه .

تحميد لأبى عبيد الله

أمّا بعد ، فالحمد لله ذى الآلاء والقُدْرة ، والطوْل والعزّة ؛ الذى اصطفى الإسلام دينا لنفسه ، وملائكته وأنبيائه ومن كَرُم عليه من خلقه ؛ فبعث به محمدا صلّى الله عليه وسلم اختصاصا له فى ذلك بكراماته ، واصطفاءً له به على عباده ؛ فأعزّه ومنعه ، وكنفه وحاطه ، وتوكّل لأهله بالعلم والتمكين ، والظهور والتأييد ؛ فلم يُلْحد فيه ملحد ، ولم يَزِغ عن قبول حقّه زائغ ، بعد إعذار الله إليه ، وإعادة الحُجّة لله عليه ، إلّا أنْزل به من الذلّ والصّغار والاجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قمعا ؛ حمدا كثيرا دائما مُرْضيا له ، مؤمّنا من غيره ، موجبا لأفضل مزيد ثوابه .

تحميد لسعيد بن حُمَيد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله المُنْعم فلا يبلغ أحد شُكْرَ نعمته ، والقادرِ فلا يُعارَض فى قدرته ، والعزيزِ فلا يُغالَب فى أمره ، والحكم العدْل فلا يُردّ حكمُه ، والناصر فلا يكون نصره إلا للحقّ وأهله ، والمالكِ لكل شىء فلا يَخرج أحد عن سلطانه ، والهادى إلى سبيل رحمته فلا يَضلّ من انقاد لطاعته ، والمُقدِّم إعذارَه ليُظاهِر به حُجّته ؛ الذى جعل دينه لعباده رحمة ، وخلافته عصمة ، وطاعةَ خُلفائه فرضا واجبا على كافّة الأمم ؛ فهم المُستحفَظون فى أرضه

على مابعث به رُسله ، وأُمناؤه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على مناهج حقّه ، لئلا تُشْعّب بهم الطرق المخالفةُ لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الجادّة التى ندَب إليها عباده ؛ بهم حُمِى الدين من البُغاة الطاغين ، وحُفظت معالم الحق من الغواة المخالفين ، مُحتجّين على الأمم بكتاب الله عزّ وجل الذى استعملهم به ، ورُعاةً للأمر بحق الله الذى آختارهم له ؛ إنْ جادلوا كانت حُجّة الله معهم ، وإنْ حاربوا فالنصر لهم ، وإنْ جاهدوا كان فى طاعة الله نصرُهم ، وإنْ بغاهم عدُو كانت نِكاية الله حائلةً دونهم ، ومَعْقلا لهم ، وإن كادهم كائد فالله فى عونهم ؛ نصبهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإنّما عادَى الذين عزّبهم وحُرس بهم حقّه ، ومَن ناوأهم فإنّما طعن على الحقّ الذى تكلؤه حراسُتهم ، جيوشُهم بالرعْب منصورة ، وكتائبُهم بسلطان الله من عدوّهم محوطة ، وأيديهم بذبّها عن دين الله عالية ، وأشياعُهم بتَناصرهم غالبةٌ ، وأحزابُ أعدائهم ببغيهم مَقْموعةٌ ، وحُجّتهم عند الله وخَلْقه داحضةٌ ، ووسائلهم إلى النصر مردودةٌ ، وأحكامُ الله بخذلانهم واقعةٌ ، وأقدارُه بإسلامهم إلى أوليائه جارية ، وعادتُه فيهم وفى الأمم السالفة والقُرون الخالية ماضيةٌ ، ليكون أهل الحق على ثقَة من إنجاز سابق الوعد ، وأعداؤه محجوجين بما قَدّم إليهم من الإنذار ، مُعجّلة لهم نِقْمة الله بأيدى أوليائه ، مُعدّا لهم العذاب عند ردّهم إليه خِزْيا موصولا بنواصيهم فى دُنْياهم ، وعذابُ الآخرة من ورائهم وما الله بظلام للعبيد . وصلّى الله على محمّد أمينه المصطفَى ، ورسوله المرتضَى ، والمنقذ من الضلالة والعمى ، صلاةً نامية بركاتُها ، دائما آتصالُها ، وسلّم تسليما .

والحمد لله تواضعًا لعظمته ، والحمد لله إقرارًا بربوبيته ، والحمد لله اعترافًا بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته .

فيما يُقرّظ به الخليفة

والحمد لله الذى حاز لأمير المؤمنين وِراثته ، وساق إليه خلافته ، بالحاجة منها إليه ، والرغبة منه عنها ، وآستخلص من خَلْقه مَن جعله ظَهِيرا للحوادث ، وعُدّة للنوازل ؛ فلما

أفضتْ الخلافة إليه حسر أمامه أحاجلته[١] ، وكشف قناعه لمحاربته ؛ فالحمد لله الذى اختص أمير المؤمنين بخلافته ، وآرتضاه لولاية أمرِ أمّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والقيامِ بحقّه ، والذبّ عن حُرُماته ؛ وحاط له ما آسترعاه من ذلك ، وقلّده بحسن الولاية والكفاية ، وتوكّل له بالحفظ والتأييد ، والنصر والغلبة والظهور على مَن عَنَد عن طاعته ، وصدَف عن حقّه ، وآبتغى غيرَ سبيله ؛ كرامة من الله تطوّل بها عليه ، ومِنّة منه توحّد بها له .

والحمـد لله الذى جعل نيّة أمير المؤمنين عَزيمته ، وفِكْره ورَوِيّته ، منـذ أفضى الله بالخلافة إليه ، وجعله القائم بإرث نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وآستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عِز الدين ، ونِظام أمر المسلمين وترهينُ الشـكر ، وإذلالُ الأعداء ، وإشجاؤهم ووقْمُهم ، وتحصين البَيْضة ، وإشحانُ الثغور ، ولمُّ المُنْتَشر ، وضمّ الأطراف ؛ لا يَفْتأه عن ذلك فاتئ ، ولا يَذْهَـله عن تفقّد كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهلٌ ؛ يستقِل كثيرَ ما يُنْفِق من الأموال فى سَدّ الثغور ، وتحصينها وحراستها ، لمـا يرجو فيه من جسيم الحظّ ، وجَزيل الذُّخْر ، وكثير الأجر ؛ تقرّبا الى الله وآحتسابا له فى جنْب ثوابه ، وكريم مآبه ؛ حتى رأب به الصدْع ، ورَتَق به الفتْق ، وأمّن به السبُل ، وأقام به العِوَج ، وأفلج به الحُجَج ، وأعلى به الدرَج ، وأزهق به الباطل ، وأحيا به الحق ، وأشام به سيوف أهـل الضلالة والفتْنة ؛ لا تأخذه فى القيام بحقّ الله والانتصار لدينـه ، والانتِصاح لأمة نبيّـه محمد صلى الله عليـه وسـلم ، والذّبّ عن حوزتهم ، والرمى من ورائهم ، ودفع بَائقة أهـل الشّقاق والنفاق والخلاف والمَعْصية عنهم فَترةٌ ولا سآمةٌ ؛ توفيقا من الله ، وتسديدا لحُرْمته ، وتأييدا لعزْمه ، إذ كان لله شاكرا ، ولدينه ناصرا ، وبحقّه قائمـا ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلّا بالله وحدَه ، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذى لم يزل منذ أفضى الى أمير المؤمنين بخلافته ، وحيّاه بكرامته ، يَختصّه بالخيرَة فى كل ما أمضى من أمره ، ويتولّاه بالتوفيق فى كلّ ما أبرَم من تدبيره ، ويحمِل عنه

(١) هكذا وردت فى الأصل . ولم نوفق الى تحقيقها .

أعباء ما حمّله، ويُعينه بتأييده على ما قلّده، ويحوطه بجميل الصنع فيما ولاه وآستحفظه، ويُلْهمه جهاد عدوه، ويحبوه بنصره، حمدا قاضيا لحقّ نعمته، مُوجبا أفضل مزيده.

والحمد لله الذى أورث أمير المؤمنين مواريث نُبوّته، وصيّر اليه مقاليد خلافته، وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله صلى الله عليه وسلم، والوِراثة لوراثته من عُصْبته وأَوْلى الناس به، ثم أعزّ نصره، وأعلى كَلمته، وأفلج حُجّته، وأظهر على المشركين والمنافقين، ومن حادّه وعانده من الناكثين والمارقين، والباغين والملحدين، فأتعس جدودهم وفعل وفعل.

والحمد لله الذى عَرّف أميرَ المؤمنين منذ استخلفه فى أرضه، وآئتمنه على خَلْقه، من عظيم نِعمه، ولطيف صُنْعه، وجميل بلائه، واعزاز نصره، واعلاء يده وكلمته، وإفلاج حُجّته على مَن ضاده وحادّه، إنّ الله بعظيم طَوْله ومَنّه آرتضى أميرَ المؤمنين لدينه، وآصطنعه لخلافته، فبَلاه سِرْبالها، وردّاه بهاءَها وجمالها، فاستعمله بالكتاب والسنة والحقّ والعدل فيها، فأيّده بقوّته، وأعزّه بنَصْره، وحاطه بكفايته، وتولّى الصُّنع له فى جميع أموره، فلم يَكِده كائد، ويُعانده مُعاند، ويَمْرُق عن طاعته الواجبة مارق، ويُلْحِد فى إمامته مُلحد، ممّن يُعالِن بمعصيةٍ وشِقاق، أو ينْطوى على غِلّ ونِفاق، إلّا أوهَن الله كيده، وأتعس جَدّه، وعاجل المُبادِئَ بعداوته، الشاهرَ على الدِّين والمسلمين سيفه، باصطلام وبوَار، وأمكن منه بِذِلّة وصَغار، وقتل المسرّ غيره، المُنْطوِى على غِلّه بغَيْظه وغَمّه، وأماته بدائه وحَسْرته، إنجازا منه جلّ ثناؤه لوعده، وإتماما لكَلمته فيما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من آستخلافهم فى أرضه، والتّمْكين فى دِينه، وله الحمد دائما، والشكْر خالصا، كما هو أهلُه وكما ينبغى أن يُحْمد ويُشْكر، لا إله إلّا هو الواحد القهار.

والحمد لله الذى لم يُبْق لأمير المؤمنين عدوّا من الناكثين والجاحدين، والمشركين والمنافقين، حاوَل نقضا لإمامته التى صيّرها الله اليه، وقلّده إيّاها، أو صاول جيشا من جيوشه التى أعدّها لمُحاماة عن دين الله ومَحارمه، وإقامة سُنَنه ومعالمه، إلّا أحلّ به النّقمة، وأصاره الى الصَّغار والذِّلة، والبوار والهَلَكة، وعجّله الى ناره وعذابه.

والحمـد لله الذى لم يزل يتولّى أمير المؤمنين بحياطتـه ، و يتوحّد له من إعزاز نصره و إعلاء كلمته ، و إفلاج حُجّته ، وتأييد أوليائه وأنصار حقّه ، وأنزل البأس والنِّقمة والمُثُلات والسطوة بمن عانده ، والذَّبّ عن حريم المسلمين وأهله ، بما يُبيّن به عن مكانه منه ، ومنزلته عنـده ، حميدا ربّنا بذلك كما هو أهلُه ومستحقُّه ، مشكورا بعظيم منّه فيه وطَوْله ، مسؤلا لتمـام أحسن عائدته وماضِى سـنّته ، فإنّ الله المحمودَ على نعمه ، المشكورَ بآلائه ، لم يزل ما يتوحّد به لأمير المؤمنين بسلطانه من التعزيز ، وفى أوليائه من التأييد بنصره ، عادة يَتَبيّن بها برهانه ، و يُفْلج بها حُجّته ، ويَدُلّ بها على كرامته عليه ، و يُخبر بها عن منزلته عنده ، و يجعل ما نزل بأعدائه المتولّين عنـه ، الراغبين إلى غيره ، المُلْحدين فى حقّه ، عِظَة لمن قسا قلبُـه ، و ران عليه سوءُ عمله ، ليكون ما يُعطيه من البسط فى مُلْكه ، والتمهيد فيما خوّلَه له ، و يُوفّقه من السطوة بعدوّه ، والتنكيل بمن خالفه (١) ، حُجّتين متظاهرتين ، وعبرتين تعمان ، فيعتصم مُعْتصم ، و ينجو ناجٍ ، وليشْجُبَ [شاجب] (٢) ويَهْلك هالك ، وقد مضتْ من الله المشيئة ، ووضح منه الإعذارُ ، وكان الله بعباده عليما ، و بأعمالهم خبيرا .

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بخلافته : وجعله وارث وَحْيه ، وقيّمه بكتابه فى عباده ، وأكرم هذه الأمة التى جعلها خير أمة أُخْرجت للنـاس به ، فهو الميمون فى تدبيره المنجح حَويلُه ، الميمونُ النقيبة ، المُوَفّق الرأى والسياسة ، فإنّ الله عز وجل خلق الخـلائق بقدرته ، واختارهم بعلمه ، فاختار أمير المؤمنين لخلافته ، واصطنعه للقيام فى العباد والبلاد بأمره وقِسْطه ، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعملَ بحقّه وعدله ، وأبلَى أهل الشرك به ، وأخّرها الى أيام دولته ، وحظَرها عمّن كان قَبْله ، حتّى حاز له أجرها ، وأبقَى له سَناءها وذِكرها ، ونشر عنه أُحدوثتها وسماعها ، وفتح عليه البُلدان القاصية ، والمدائن المُتنائية ، التى لم تكن تُرام من أهلها ، ولا يُطمَع فى زوالها ، وذلّت له الملوك القديم عتوُّها وعنادُها ، والأمم المُسْتصعبُ مراسها وجهادها ، الحاميةُ فى آباد الدهور حِماها ، فأنفذ فيهم مَكيدتَه ، وأنجح

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها بالغتين . (٢) كذا فى الأصل ، ولعلها وليشجب .

سَعيَه، ورماهم بالتخويف، وملأ قلوبهم رُعْبا منه؛ فأذعن مُذْعِنوهم بطاعته، وآنقادوا لأمره، وصاروا يدا وأعوانا لأوليائه على أعدائه.

أما بعد، فإنّ أعظم النعم قَدْرا، وأجلّها أمرا، وأسرّها مَوْقِعا، وأوجبها شُكْرا، ما عمّ الإسلامَ والمسلمين نَفْعُها، وعادتْ عليهم عائدتُها، وجعل الله فيه عزّ الدين، وذُلّ المشركين؛ وقد جعل الله ذلك فى خِلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بيمنه وبركاته، وما أخلص الله من نيّته وطاعته، وتأدية حقّه فيما استحفظه من أمر دينه وعباده، وفرّغ له نفسَه، وأنصب فيه بدنَه، وأسهر فيه ليلَه، من حياطة حريم الإسلام، والزيادة فى حدودها مُتّصلا مُتَتابعا، والنعم متظاهرة ومُتوافرة، فسهّل الصعب، وذلّل له العزيز، وقصَم عُتاة الأعداء ومتكبريهم، والمستعصين والمستصعبين منهم، فى آباد الدهور على من رامهم، وفتح عليهم حصون مدائنهم، وممتنع قلاعهم، وأنفذ مكيدته فيهم؛ فبيْن مقتول ومأسور، وشريد طريد عن مَحَلّته، وموضع عزّه ومَنْعته، مُستسلِم مُعْطٍ قِيادَه باخع بطاعته؛ وكذا فإنّ الله بمنّه وطَوْله قد أوصل لأمير المؤمنين من صُنْعه له فيما قلّده من خلافته، وحِياطته إياها فيما يَحوطه من دِينه، وعرّفه من كِفايته فيما قام به من حقّه، وأيّده من نَصْره فيما جاهد عنه فى سبيله، ما قد جعل النّعمة به عامة، والشكرَ به لازما، والمِنّة به واجبة، والصُّنعَ عظيما؛ فالحمد لله على نِعمه فى ذلك كثيرا.

والحمد لله الذى جعل آجتهاد أمير المؤمنين ومُقامَ أمره وتدبيره، فى آناء الليل ونهاره، فيما فيه صلاحُ عباده، وإعزازُ دينه وإقامةُ حقّه.

تحميد

الحمد لله الذى لمّا آفترض من الطاعة لِوُلاة الأمر من خُلفائه جعل أوائلها ناطقةً عن فضل أواخرها، وبوادئها مُخْبِرةً عن حميد عواقبها، ومواردَها مُبَشِّرةً بالعلو فى مصادرها، بما يَعْقُبه أهلَها من السعادة فى الماضين من أوليائها القائمين بحقّها؛ وعاد من الشّقوة على مُقارفى المَعْصية المُلْحدين إليها، حين أقبلت بهم هوادِى الفتن، وكشفت لهم تواليها عن البَوار

والمَلَكة ؛ مُعْتذرين حين لا عذر ولا حُجّة، طالبين للمَهارب بعد أن كانت منازلُ السلامة بهم مُطمَئِنّة، وخائفين وقد كانت سُبُل الأمن لهم واضحةً ؛ قد جعلتهم النِّقمة الواقعةُ بهم أمثالا سائرةً، وفرّقت بينهم و بين النِّعم الشاملة، وحصّلت السعادة لمن آتعظ بهم باقيةً، سنّة من الله فيهم ماضيةٌ، وعادة جاريةٌ، ولن تجد لسنّة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

والحمــد لله الذى آختار أمير المؤمنين لخلافته لحرس به دينه من البُغاة الناكلين عنه ، وآختصّه بأعلاء رُتب كرامتــه ، وآفترض طاعتَه على عباده، وجعلها بمواقعها فى دينه نظاما لسائر فرائضه، فتاركها مُفارق لعصْمة حقّه، خارجٌ من جملة الأمّة التى سبقت لها رحمتُه؛ يستنصر أشياعَ الباطل والله خاذلُه، و يُغالب الحقّ والله غالبُه، ويَطلب مالا سبيل له اليه والله طالبُه ؛ حتّى يَخلِجه أجلُه عن أمله ، وأقدارُ الله فيه عن تقديره، ونفوذُ قضاء الله فيه عن نفوذ حِيَله ؛ فضلًا من الله على أوليائه وقضاءً منه عدْلا فى أعدائه، والله ذو الفضل العظيم .

والحمــد لله الذى آختار أمير المؤمنين لرِعاية عباده، وحِفْظ بلاده، وتنفيذ أحكامه ، وإقامةِ حدوده ؛ فجمع به الأُلْفة، وكفّ به بَوائق الفتْنة، وأصلح به أمور الأمّة، وسكّن به الدهماء، ودفع به عظيم البلاء ، وأنقذ به من الجُهْد واللأْواء ؛ وجدّد لرَعِيّتــه العبرَ الشافية، والعِظَة الناهية، وجعل همّه السعىَ لربّه، وطلبَ الحق الذى أوجبه له من خلافته، ليؤدّىَ فرضه فى الأمانة التى حمّلها ؛ فيُوجب له بذلك مالا يَزول ولا ينْقطع من ثوابه، فأَعمَل رأيه فى الرأفة بمن ولّاه أمره، والحِياطة له، والعِناية بصلاحهم ؛ فأعطاه لِين الموعظة فى وقت التأنى ، والنفوذَ لإقامة الحُجّة والبيّنة، وشِدّةَ السطْوة على مَن غَمَط النعمة وعَنَد به الإصرار عن النُّزوع والفَيْئة ؛ منّا من الله وتفضلا، و إحسانًا وتَطَوُّلا، والله ذو فضل عظيم .

و يسأل اللهَ أميرُ المؤمنين مُبتدئا ومُعقّبا، وأوّلا وآخرا، وقبــل كلّ مسئلة، وأمام كلّ رغبة، ومُقدّمةَ كلّ طَلِبة ؛ أن يُصلّى على صفوته من عباده، وخيرته وخاتم أنبيائه ورُسله ، محمّدٍ عبــده ورسوله، أفضلَ صلواته، ويُبارِكَ أكثرَ بركاته، وأنْ يُديم له كرامته، ويُجرىَ عنده أجمل عاداته، ويُتمّم له ما آختصه به من إحسانه ؛ حتّى يملأ الأرض عَدْلا وقسطًا،

والإسلامَ تأييدا وعِزّا، والشِّرْك ذُلّا وقَمْعا؛ إنّه ولىّ كلّ نعمة، ومنتهَى كلّ رَغبة، وغايةُ كلّ حاجة .

ولم يزل أمير المؤمنين منذ الوقت الذى أفضَى الله اليه بخلافته ، وأكرمَه بردّ حقّه من إرث نُبُوّته ، يتلقّ عظيم النعمة فى ذلك بالإخلاص للنيّة والطّوِيّة فى الصفح عن كلّ زَلّة ، والإقالة لكلّ عَثْرة ، والتعمد للهَفْوة وقبول الفَيْئة ، والإنابة ممن عظُم جرمُه ، وجلّ ذنبُه ، وظنّ أن لا توبةَ له ؛ وكلما جدّد الله له نعمة ، جدّد له فى ذلك نيّة حَسَنة ، شكرا لله عزّ وجل على ما ابتدأه به ، وارتهانا لنعَمه عنده ، واستزادةً من جميل مَواهبه ، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رَعيّته ، واستقامةُ أمورها ، وحِياطتُها والذَّبُّ عنها ، وكَفُّ الأذى والمكروه عن الدانى والقاصِى منها ؛ ويتخلّص إلى ذلك بكلّ ما يَجِد اليه السبيلَ ويجتهدُ فيه ، ويعمَلُ لكثرة أوقات دهره فى كلّ مابلّغه محبّته نظرا لها ، وحَدَبا على كافّتها ، وإشفاقا من سوء حالها ؛ إذ كان لها والدا بَرّا ، وراعيا كالئا ، وناظرا لطيفا ؛ ويستعمل كلّ ما يرجو ائتلافَها ، والإبقاءَ على أحوالها ، والسلامةَ لها فى دِينها ودُنياها ؛ وينصَب لذلك ليله ونهارَه ، ويُذيبُ فيه نفسه ، ويجعله شُغلَه دون غيره .

والحمد لله الذى آصطفَى أمير المؤمنين بخلافته ، وأكرمه بإرث نُبُوّته ، وجعل خلافته خلافة يُمْن وبركة ، ولطف وسعادة ؛ انتاش بها أولياءه من موارد الهَلَكة فرفع منزلتهم ، وشرّف درجتهم ، وأعلى كلمتهم ، وأذلّ بها أعداءهم ، وجذّ دوابرهم ، وردّ دائرة السوء عليهم ؛ وحباه مَزِيّة نَصْره وتمكينه ، وإعزازه وتأييده ، وإظهاره على من ناوأه وعَنَد عن حقّه ، وصدَف عن طاعته ؛ فإنّ الله لمّا اختار أمير المؤمنين لخلافته فأيّده بها ، جعل الحقّ نيّته ، وإعزازَ الدّين بُغْيته ، ومجاهدَة أعداء الله شرقا وغربا وبرا وبحرا نَهْمَته وإرادته ؛ ثم يسره فى ذلك لما أحسن به عونه ، على من آستحفظه وقلده ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذى كان لسابق علمه وسالف قضائه، الذى لا يستطيع الناسُ ردّه، ولا مَنْعه ولا صَرْفه، مَا وَلّى أميرَ المؤمنين من خلافته، وما ٱبتعثه له من النصر لدينه، والطلب لحقّه، والجهاد لأعدائه؛ وأحسن فى ذلك عَوْنَه فيه وبلاءَه، وأيّده فى نفسه، لم يَنْقُصه خِذْلان خاذل، ولا مخالفة مَن خالف، ولم يزد أمرُه فى شىء من ذلك إلّا تماما وإحكاما؛ حتّى أظهر حقّه، وأفلج حُجّتــه، ومحق باطل أعدائه، وأدحض حججهم؛ وجعــل أهل طاعته حزبه الغالبين، وجُنْده المنصورين؛ وجعل عدوّه وعدوّكم حزب الشيطان الخاسرين، وأولياءَه الأذلّين؛ بغير حــول من أمير المؤمنين فى شىء ممــا ولّاه وأبلاه، ولا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم.

لأبى عبيـــد الله

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بما أصار اليــه من الخلافة وإرث النُّبُوّة، وجعله القائم بأمر عباده وبلاده، والمُحْيِىَ لسننه، والذّابَّ عن دينه وحقّه، والمُناصبَ لأهل الشرك والجُحود به؛ ثم نصره وأظهر فضــل أيامه ودَوْلَته، ومكّن له فى بلاد عدوّه، وجعل كلمته العُليا وأنصارَه الغالبين، ومَن ناوأه من أهل الخلاف الأذلّين المقهورين؛ وعرّفه من نعمته فى ذلك ومنّته وجميلِ صُنْعه وعاداته، أحسنَ ما عوّد أحدا من أوليائه الذابّين عن الإسلام وأهله؛ حمدا مُتَتابعا لا ٱنقطاع له ولا ٱنصرام، دون بلوغ حقّه؛ وقد كان كذا وكذا.

ما يكتب به فى المخالفين فى وقت الهزيمة

نكصوا على أدبارهم مَنكوبين مَهزومين، قد ضرب الله وجوهَهم، وفَتّ فى أعضادهم، ومنح الأولياء أكتافَهم؛ فقتلوهم فى كلّ فجّ، وعلى رأس كلّ تَلْعة ومَهْرب ومَسْلك؛ أباد الله خَضْراءَهم وغَضْراءَهم، وحصَــد شوكتهم، وفلّ حدّهم، وأباخ(١) نيران ضلالتهــم وكفرهم، وشفَى منهم الصدور، وأدرك منهم الإحَن؛ ونفّل المسلمين أموالَهم وذراريهم، وجعلهم لهم خَوَلا وعبيدا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

(١) أباخ النار: أطفأها.

والظهور والغَلَبة جزاءً من الله لمن أخلد إلى المعصية وآبتغى غيرَ سبيله المسلوكة . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عزّ وجلّ من صار إلى الأمصار منهم هَرَبا، وآعتصم بالحصون، وتعوّذ بالجبال، ولاذ بالقِلاع، ولجأ إلى الأودية، من صَياصيهم، وأمكن من نواصيهم، وآستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوّذهم، وأُخذ أسيرا ذليلا منكوبا خائفا قد نخب الوجلُ قلبه وملأ الرُعب صدره، متوقّعا أن يُنزل الله به من النّقمات والمُثُلات مالا مردّ له عن مثله من القوم الظالمين، وفشَتْ فى الكَفَرة الجِراحات، وعضّتهم السيوف، وشُرعت فيهم القَنا، وهرّتهم نار الحرب، وغالهم النِّزال، ومارسهم الأبطال، وآستحرّ فيهم القتل، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر، فلم يُطيقوا بالموت مَراما ولا على الحرب مُقاما .

فى صفة الخالعين

الناصبين لدين الله، المكذّبين بآياته، الجاحدين رسلَه، الجاعلين معه إلها، لا إله إلا هو، لطول مدّتهم، وشدة شوكتهم، وصعوبة مرامهم، وقطعهم السُّبُل وآنتهاكهم المحارم وسفكهم الدماء التى أوجب الله على مَنْ سفكها بغير حِلّها وآقترف وآحتمل وِزْرها، أليمَ العذاب وشديد العقاب، فأبَوْا إلا تماديًا فى ضَلالتهم، وعُتُوّا فى طُغيانهم، وثبوتًا على عصيانهم، ومُقاما على كفرهم، لأحداثه السالفة، وغوائله المتقدمة، وبوائقه المُشْجية، فوقف مميلا بين ثكل التقدّم وحقيقة الآصطلام فى التأخر، دعاهم إلى الفَيْئة والمراجعة والإنابة وقبول الأمان والدخول فى الطاعة، آستظهارا بالحجة عليهم، ورجاءَ لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزولى فيمن معى، جمع أصحابه، وضمّ جنده، وتحرز فى معسكره، وخندق على منزله، وآحترس بجُهده، فأقمت مُعَسْكَرى، وأنا مع ذلك فى كل يوم أوجّه رُسُلى وأدعوه إلى حظّه، من طاعة أمير المؤمنين والدخول فى أمانه، وأعلمه أن له نظراءَ ممن غمط الطاعة، وسفه الجماعة، وقد ركضوا فى الفتنة عمرَهم وسَعَوْا فيه دهرَهم، فانتشر خبرهم، وكثر تبعهم، وكَبُرَ وِزْرهم، وثقل وِقْرهم، ثم أذعنوا لطاعتهم، وآستقالوا

ناهضين من عثرتهم ، ومنتعشين من زلتهم ، فغفرت ذنوبهم ، وقبلت توبتهـم ، وفسح لهم في أمانهم ، وشرفت منزلتهـم ، واستبدلوا بالخوف أمنا وبالذل عزا ؛ فأبى به ميل الهوى ، وغلبة الشقوة ، ومستعلى الغواية ، والقدر المحارب ، والقضاء المحتوم . وتقدمت في موافقتهم وترغيبهم ، والأخذ بالمخنق منهم ، من غير قتال ، ولا تناول سلاح ، ولا تناوش صيال (١) ، وعرضت عليهم التوبة ، ودعوتهم إلى الإنابة ، وأعطيتهم الأمان ، وأعلمتهم أنهم إن قبلوا حمدتهـم وأخمدت نار الحـرب بيني وبينهم ، وإن أبوا إلا تماديا في غيهـم ونكوصا على شقائهم ، وليت مناجزتهم وعرفت من الله الخيرة في محاربتهم ، واستعنته عليهم واستكفيته أمرهم ، ورجوت حسن عادته عند أمير المؤمنين في أمثالهم . ثم وجهت الأولياء فنفذوا نحو عسكرهم ليلا وهم متفرقون في رحالهم ، مغترون في أوطانهم ، قد أمنوا خدع الحـروب ومكرها ومكيدتها ، ووقعـة البيات وهولهـا ، إلا طائفة منهـم أهل عدد وعدة ، وبأس في أنفسهم وقوة ، اتخذوا الليـل جملا ، وسروا نحونا يرجون غرتنا ويأملون غفلتنا ، فوقف جندنا بمكانهم آخذين أهبتهم ، متمسكين بالطاعة فيما به أمرتهم فأسرعت إليهم من أعدائهم طائفة فدفعوهم عن أنفسهم ، ونالوهم بجراحات مع قتلى منهم عند تناوشهم ، ثم نكصوا على أدبارهم ، ورجعوا القهقرى على أعقابهـم إلى الباقين من سريتهم ، فاستجاشوهم فجاءهم بالمكانفة والمؤازرة ، وأقبـلوا بجميتهم وحنقهم حتى حملوا حملة رجل واحد ، وضاق الفضاء وطارت أفئدة جندنا رعبا من حملتهم ، وبلغت القلوب الحناجر منهم ، إلا طائفة قليلة من لوائح الحـرب ومواضي رواسخها وأشبال لبدتهـا ، تزينوا بالطاعة فأملوا حسن العاقبـة ، ونصروا الدين ، فوثقوا بالتمكين ، انتدبوا إليهم ، ووقفوا لهم ، وازدادوا بصيرة في أمرهم ، ونفاذا وجدا في اجتهادهم ومجاهدتهم ، فثبتوا قائمين بالقسط في أحوالهم ، قائلين بالعدل في أملائهم ، يسألونهم الكرة بعد الكرة ، ويعدونهم الغلبة ، ويمنونهم السلامة ، ويضمنون لهم الغنيمة ، ففاءوا إليهـم ، ورجعوا إلى الحق لله عز وجل عليهم ، فشانعوا ساعة بالقنى

(١) الصيال مصدر صال على قرنه : سطا عليه .

بعد تراميهم إرشاقا . بالسهام فلما رأى أعداء الله جدّهم، وعرفوا صدقهم، وخافوا حدّهم، نكصوا على أعقابهم، يريدون اللّحاق بمعسكرهم، وتحرّك أصحابنا فى طلبهم، و رجّوا سوء الصباح لهم، فأمعنوا فى أثرهم، فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة و ولّوا إلى ديارهم لا يلوى قريب على قريب، ولا ذو رحم على حبيب، ونالتهم القُنِيّ فدسرتهم، وعضّت هامَهم السيوف فكلّمتْهم، وحِيلَ بينهم و بين الدخول من باب عسكرهم، فأخذوا فى غير طريقه منهزمين، قد فل الله حدّهم، وقلّل كثرتهم، وقتل عاتهم، ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم بعد التشريد والتفريق بجماعتهم، فأحاطوا بهم فى آخر ليلتهم، فلما رأوا غفلتهم، وأمنوا غِرّتهم، وانتهزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون، قارّون غافلون، متفرقون، فوضعوا السلاح فيهم، ضربا بالسيوف، وطعنا بالرماح، وضربا بالأعمدة، وذبحا بالشّفار، لا يشوون من جرحوا، ولا يبقون من كانوا، غير مدفوعين ولا ممنوعين، حتى انثلمت السيوف، وتحطمت القُنِيّ وآندقّت الأعمدة، وكلّت الشّفار، و بقيت منهم عدّة يسيرة وشرذمة قليلة ممن لم ينله القتل، فأخذوا أسرى، وأوثقوا حديدا، وكُبّلوا قيودا، وكان أوّل رأس أتانى بخبره[1] بشيرهم وأسرع به إلىّ ذو المعرفة منهم رأس[2] عدوّ الله المارق الباغى، الشاقّ لعصا المسلمين، ملأنى رئاس ضلالتهم، وقائد جهالتهم، ومستغوى جماعتهم، فعرفته بحليته ونعته وصفته فى عدد كثير من رءوس قوّاده وأهل الفتنة وأئمة البِدْعة، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدّعوا فى كل جبل وتفرّقوا منهزمين هاربين، لا يستطيعون لما أتاهم من عذاب الله دفعا ولا منعا بأيد ولا قوة، ولا يلجئون إلى ركن وعصمة، قد تشتّت بهم نظامهم، وفارقهم وجوههم وأعلامهم، فأخذهم أسرا قسرا [illegible] النصب، وملأ قلوبهم الرعب وتخرّمتهم الوقائع، وتخبّطتهم الهزائم، وشيّبتهم القتال، وغلب الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين على حصنه الذى كان [illegible] عزه [illegible] فى [illegible] وشتّت عدّته، ومادّة قوّته، فقوّضوا عساكرهم، وأفنيوا من [illegible] أيديهم [illegible]

(١) فى الأصل: «بخبرهم». (٢) فى الأصل «برأس عدوّ الله».

أذلة خاسرين، فتفرّقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلمـا آستحرّ القتل فيهم، وفَشَت الجِرَاحات فى عامتهـم، وطحنتهم الحرب بكَلْكلها، وألموا وقع حديد أنيابها ومساعرها، قذف الله الرّعب فى قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم، فولّوا منهزمين مغلولين، ورَكِب المسلمون أكتافهم، يقتلونهم فى رءوس جبالهم، وخلال غِياضهم، وبطون أوديتهم، ومقاصى تِلاعهم، وفى كل ناحية من نواحيهم، حتى عجز الليل دونهم، وأعجزوهم هربا فى معاقلهم .

وفى العصـاة

حتى إذا ظن أن قد عزّ بضلاله، وتحصن بمعاقله، وآستكمل قُواه، وكَثُفَ تدبيره، ولجأ إلى مانع منـه ودافِع عنه، عطفت عليـه عواطفُ الحق بأولياء الحق وأنصـاره، ناقضين ما أبرم، ومتداولين ما سدّ، ومتوغّلين إلى غيّه ببصائرهم، وإلى باطله بحقهم، فاسْتُنزِلَ عن موضع عزّه قسرا، وأمكن الله أولياءه أسرا، سنة الله فيمن عَنَـدَ عن سبيله، وألحد فى دينه، ومَرَق عن الطاعة وثائقها، وآستبدل بالحق ومنهاجه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، ولن تجد من دونه مُلْتَحَدا ولا نصيرا ؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه، وأرهق الله باطلهم بحقه، وجعل الفَلَج والظفَرَ لأَوْلى الحزبين به، بذلك جرت سنة الله فى الماضين من خلقه، وذلك ما وَعَد من تمسّك بأمره وطاعته .

وفى مدح قوّاد الجيوش وصفة الأولياء فى أحوالهم

لمـا بَلا من طاعتـه، وآختبر من نصيحته، ويُمْن نقيبته، وشـدّة شكيمته، وصحـة عزيمته، وصدق نيته، وثِقْل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين، وعلمه بمراوضة الحرب وممارستها، ومكايدة الأعداء ومواقفتهم فيها، فشمّر تشمير أهل الحِسْبة وحسن الظن بالله من غير وَنِيَـة ولا فترة ولا بقاء جدّ ولا آجتهاد، راجيا أن يُنْجِح الله سـعيه، ويفْلِج حجته، ويظهره على عدوّه من الآستقلال الذى حمله، والاضطلاع بما أسند إليه، والآمتثال لسيرته، والآنتهاء إلى أمره، والقبول لأدبه، والخفوف بما يستنهضه له من حروبه وأموره مثل الذى جعل عند فلان : يفضُلهم بطوله، ويطولُهم بمحاسنه، ويتقدّمهم بحسن بلائه وغَنائه،

ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين فى جميع خصاله إلا وجده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمناهجه، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدَّما فى القَدْر والرتبة، مخصوصا بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلا فى كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرا. فأقدَموا متوكّلين على الله مسلّمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللأواء والجَهْد والتعب وكَلَب الشتاء وحمَارَّة القيظ، وصعوبة المَرام من أعداء الله الكَفَرة، يرجون نصر الله وتَنَجُّز ماوعد الصابرين والمجاهدين فى سبيله من الظَّفَر والنصر والغلبة على عدوّهم، توحّد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفّل لأوليائه بالنصر والعزّ والحَيطة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكَبَت من حادّهم وأخلد الى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظَة ونَكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هى العليا وكلمةُ الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم؛ أعظمهم غَنَاءً، وأحسنهم بلاء، وأشدّهم صولة، وأقساهم نِكاية، وآمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جأشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدّهم تحدّبا على السلطان، فآزره بهم، وحصّن أطراف خلافته بأيديهم، فكَفَوْه المهم وقاموا دونه بالمُلِمّ، غير مستطيلين بغَناء، ولا متعرّضين لطلب جزاء، قد تعبّدهم الوفاء، وغَنُوا بقربة الولاء، فإن الله جعل آباءه أعلاما فى الطاعة يهدون اليها وأَوَّليَّه قادة الى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقيا على كرّ الأيام ذكر مساعيهم، وزائدة على تصرّف الأيام حقوقهم، وباديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وَصلوه بحادث، ولا يتقادم لهم من بلائهم أول إلا أتبعه آخر. ففلان يجرى فى أمره على منهاج قد أوضحوه له، ويسلك فى الطاعة طريقا قد سهّلوا له مذاهبه، ويتمسك بعُرًا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدّمه، والله محمود. ولم يزل الله يعرّف أمير المؤمنين فى كل ما أسنده الى فلان من أعماله وقلّده من أموره، المبالغة فى قضاء الحق عليه ويُمْن النقيبة فيما يتولّاه، والاجتهاد فى كل ما قرّبه من الله وخليفته. وأمير المؤمنين يحمد الله على ما يخصّه

به من نعمتـه، وإياه يستعين على قضاء حقه، إنه سميع قريب . فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلّع اليه منك ويؤمّله عندك، ويرجو أن يوفّقك الله فيه لرشدك، ويُؤْثرك منـه بحظّك ، للذى كان يبلغـه وينتهى اليـه من خبرك، فى أحوالك وتصرّفك فى خصال الخير، وتنقُّلك فى درجتها ، مساميا لاهـل الفضل فى مراتبهم، مترّينا بصالح أفعال الملوك فى قصد سيرتهم ، وحسـن طريقتهم، ولين أكنافهم . فحقّق الله ظنه بك ، وأجاب دعاءه لك ، وبلّغ بك أمنيته، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هُديتَ له بانقيادك إليه راغبا، ودخولك فيه محتسبا، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة، وأفضلها ذخيرة، وأعلاها درجة، وخيرها عاقبـة، وأعمّها سلامة ، وأمنعها كهفا، وأبقاها شرفا، وأعدلهـا حكما ، وأطولها سلما، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة المُلك فيها، وبهاء الثروة، وٱنبساط القدرة ، وٱتساع المملكة، وظهور الغَلَبـة وعزّ التمكين، والنُصْرة فى الدار التى حُبيت فيها بقليل ما ترجو أن تصير اليـه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازاته بالنعيم المقيم فى دار الأَمَد، ومحلّ الأبد، بمـا لا يَبلغه إحصاء ، ولا يكون له ٱنتهـاء ، وملاءه فرحا وٱبتهاجا، وسرورا وجذلا ، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقـه أن يفلجَ لك على حظّك، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبتك ، والى ذلك سموّك وهمّتك . وليس ينفكّ أمير المؤمنين مقتفرا فيك أثرا يَحمَده ، ومتصفّحا بخبر يبهِجه ، ومستحدثا نعمةً من الله عز وجل يرجو ٱتصالها وٱتساقها لديه بك، حتى يتناهى الى الدرجة العليا، والغاية القصوى، فيما [يبتغيه] (١) من ٱجتثاث أرومة الفَسَقة وقطع دابرهم . وبالله الثقة والحول والقوة، متعرّفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوّه أتمّ مصادق وعد القائمين بحقه، الصابرين فى جنبه، وأحسن ما أبلى، ذائدا عن حريم، ومحصّنا لبيضـة، ومدافعا عن ملة ، فشـمر شاريا لله نفسه، طارحا عنه لباس الغفلة ، متجافيا عن مِهاد الوِطْأة ، وليس تدخله الخلّة والوحشة على من كنت قريبا منه، ولا يمتنع لأمير المؤمنين طَرَف أنت فيـه ، ولا أمر يُعين عليـه ويمسك بسبب من اسبابه .

(١) بياض فى الأصل والسياق يقتضى ما أثبتناه .

وصف الأولياء فى الكتب

وصار أهل السُّمُوّ الى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوُثْقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مُنْشرحةً صـدورُهم بمكانفته، مُنْبسطةً أيديهم بمعاونته، وقسم لأمير المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره، قَوَّمَ آزرهم بالنصر، وكَنَفَهم باليقين، وألّف بصائرهم على الحق، وأيّدهم بمُؤَيِّدات التقوى، فلمّا أمرَهم أطاعوا أمرَه، ولمّا فرَضوا فى ذات الله طاعتَه، فرض الله نصرهم وتمكينَهم، فجاهد مُجاهدُهم مُسْتَبْصِرًا مُحْتَسِبا، وقام قائمُهم بالحق عليه مُخْلِصا مُجْتَهِدا، وقادتْهم طلائعُ الدين ودواعيه أرسالا قُدُما، فاتَّبَعوا سبيله لا ناكلين عن إقدام، ولا مُتَوَقِّفين عن ارتياب، ولا مُتَهَيِّبين، مع دخائلهم و بصائرهم، عدوا ولا عنادا، طالبين بثأر الدين بُغاتَه، و بطوائل الإسـلام عداتَه: من صـنوف أمم الكفر ومَرَدة النفاق وأئمة المُلْحدين، متقلّدين للحق ونُصرته، ولئن تَمَّم الحقّ بهم ومضى، ولين مع الحق مَن نَكَث عنه بألسنتهم وأيديهم، حتّى فتح الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين معاقلَ الشِّرْك وأَمَمَه، وأناخ الباطل وأركانَه، وأعلامَ البِـدَع وأتباعها، فَضْلًا من الله ونِعْمةً، والله عليمٌ حكيم، إن هزَزْتَهم قطعوا قَطع الحُسام، و إن أجريتهم فى عظيمة وقعوا وقعَ الجيـاد، و إن استغنيت ودام الغناء لك عن جميع العاملين، كانوا رصدًا لك فوق أعناق الحاسدين .

ما يُقرّظ به أميرُ المؤمنين فى أواخر الكتب

لِيعرِفوا موقعَ نعم الله عند أمير المؤمنين، يَحوطه به فى أوليـائه، من النصر والتمكين، وعلى أعدائه من الوَقْم (١) والتوْهين، و يشـكر الله على النعمة فى ذلك، إن الشكر مُحَصِّن للنعم، وأمان من الغِيَر، لتحلّو مواقعُ النعمة عليهم، فيما يجمع الله بأمير المؤمنين من كلمتهم، و يَحُوط من حَريمهم، و يُجِلّ من بأسـه ونقمته بمن صـدف عن سبيله وحاول تشتيت جماعتهـم وتوهين حقّهم، و يقابلون ذلك بما تُرْتَبط به نعمُه، و يُسْتَدرّ مَزيدُه .

(١) الوقم : القهر والذلة .

سعيد بن حُميد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المُرّاق الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للمزيد .

٣ — التحاميد فى أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر فى آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المُظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما آستحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس فى آخر كتاب فتح

فالحمد لله المُزيل لما يمهّد المبطلون، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكينا لعبده وخليفته، وذبّاً عن دينه وحقه، وإظهارا لأوليائه وحزبه، وإمضاءً لعزائمه وقدرته، منعما قادرا، ومُمليا ممهلا، عدلا اذا آستدرج، متفضّلا اذا أنعم، حمدا يُستنزَل به نصرُه، ويُبْلَغ به رضوانه، ويُمتَرَى بمثله فواضل مَزيده .

تحميد فى فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التى حُمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولى به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعزّ به وليّه، وقمع به من ألحدَ عن سبيله، حمدا يؤدّى حق نعمته، ويوجب به أفضل مزيده بمنه وطَوْله .

تحميد لأبى عبيد الله فى آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمير المؤمنين فى دولته وسلطانه، ولعامة المسلمين من صنعه وكراماته، فى جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تماما، وعلى ما يحل بعدوّه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه وآستئصاله، ما يكون لموعوده إنجازا، حمدا يبلغ رضاه ويستوجب مزيده .

تحميد آخر

الحمد لله الذى تمّم لأمير المؤمنين نعمته، وأكمل دعوته، وجعل العاقبة فيه لمن آختاره لخلافته، وردّ اليه من شذّ عنه من رعيته، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حدّ نيته وقدر أمنيته، ولم يُفِلْ رأيه ولم يُخلف ظنه، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيتقبله، ويرفع اليه فيبلغ رضاه، حمدا يكون لأسبغ نعمه جزاء، ولأفضل إحسانه كِفاء، وللمزيد من فضله وإحسانه موجبا، والى أعلى الدرجات عنده مؤدّيا، وللخلود فى جنته وسيلة وسببا .

آخر :

الحمد لله الذى جمع لأمير المؤمنين ما حَبَاه بمزية نصره وتمكينه وإعزازه وتأييده، وإظهاره على من ناوأه وصدّ عن حقه، وصدف عن طاعته، ووفّقه لآختصاص فلان بما وكّله اليه وعصبه به من أعباء أموره وجلائل أعماله، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جَدّه ويُمْن طائره، من تتابع الفتوح، وتواتر النصر، وإقبال الصنع، وإعلاء الحق وإنارته، وإزالة الباطل وإبادته، حمدا يؤدّى حقه، ويرى عزه(١)، ويمير من أحسن مزيده، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بالخلافة، وخصّه بالإمامة، وقلّده من أمور عباده وبلاده ما تولاه بكفايته وكلاءته وتأييده وحِياطته، حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذى أنجز وعده، ونصر عبده، وأيّد جنده، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين اقامة حق وإدالة باطل وإزالة عائد وإبادة عائد وإقالة مستقيل . ويسأل الله أمير المؤمنين، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة اليه متذللا له أن يصلّى أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت فى الأصل كلمات فاثبتنا ما يقوم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين فى الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يكنفه فيما حبّاه وآستحفظه عليــه بأفضــل تأييــده وأعزّ نصره، وأن يهب له مع كل نعمة يجدّدها له حارسا من شكرها، يتابع به أفضل مزيده، فإن النعمة منه، والشكر بتوفيقه، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنــين يسأل الله ربه وربكم وولىّ النعم عليه وعليكم، أن يُلهمه وإياكم أداء حقّه وشكر نعمته وحمده عليها، ويطوّقه وإياكم أفضــل الأعمال وأرضاها عنــده وأشدّها آستيجابا لمــا وعد الشاكرين من مزيده، إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى ولّاه خلافته وأعلاه بهــا، أن يطوّقه ما حمله، ويلهمه العــدل بين رعيته ، ويلهمهم نصيحته وطاعته ، ويُصلح أمرهم به فى ولايته وخلافته . ويرغب الى الله الذى أيّده بنصره ومكن له بغير حول منه ولا قوّة ، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته، ويشــمله وإياكم بطاعتــه ومَرْضاته ومحبته، وأن يعرّفه وإياكم الزيادة فى نعمه والنصر على عدوّه والتمكين فى بلاده؛ إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين فى إعانته على نيته وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تطوّلا وتكفّل بالإجابة حتما، فقال : ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أن يجمع على رضاه أُلفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم ، وأن يمتعكم بأحسن ما عوّدكم من منّه ، ويُوزِعكم عليها من شكره ما يواصــل لكم به مزيده ، وأنْ يكفيكم كيــد الكائدين، وحسد الباغين؛ ويحفَظ أمير المؤمنين فيكم، أفضلَ ما حفِظ به إمام هــدًى فى أوليائه وشيعته ، ويحمل عنــه ثِقلَ ما حَمله من أمركم؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوى من جزائكم بالحسنى، وحَمْلِكم على الطريقة المُثْلَى، وبه يرضى لكم ناصرا ووليّا، وكفَى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين، أن يُحْسِن على صلاح نيته عوْنه، وأنْ يتولّاه فيما آسترعاه، ولايةً جامعة، لصلاح ما قلّده، إنّه سميع قريب .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين الذى بيـده مفاتيح مقاديره وفواضـله ، أن يُصلّى أفضل صلواته على أفضل أنبيائه ، وأنْ يجعل ما ادّخر لأمير المؤمنين الى دولته وخلافته ، وحباه به من وسائل الخير عنده ، أن يجمع الى أحسن توفيقه لمـا يرضَى من شـكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه ، فإنّه شاكر يحبّ من شكره ويوجب لمن وُفّق لشكره مزيدا بمنه وطَوْله وفضله وإنعامه ، إنّه جواد كريم .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين مُبْتدئا ومُعَقّبا وأوّلا وآخرا ، وقبل كلّ مسألة ، وأمام كلّ رغبة ومُقدّمَةَ كلّ طِلْبة ، أن يصلّي على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله ، محمد عبده ورسوله ، أفضلَ صلواته ، ويباركَ عليه أكثرَ بركاته ؛ وأن يديم له كرامته ، ويَجْرىَ عنده على أجمل عاداته ، وأن يتمّ له ما آختصّـه به من إحسانه ، حتّى يملأ الأرض عَدْلا وقِسْطا ، والإسـلام تأييدا وعزّا ، والشرك ذُلّا وقَمْعا ، إنّه ولىّ نِعْمته ومُنْتهى كلّ رغبة ، وغايةُ كلّ حاجة ، وهو على كلّ شيء قدير .

وأمير المؤمنين يقول : الحمد لله طاعةً لأمره ، وآعتصاما من الفتنة بشكره ، وآستدامةً لنِعَمه المترايدة (١) عنده ، إنّه سميع قريب .

وأمير المؤمنين ، يسأل الله السامعَ كلام مَن جهرَ ، والعالم بغيب من أسرّ ، المطّلـع على ضمائر العباد ووسوستهم ، والمُسْتَنْقِذَ مَن يشاء برحمته ، والمُمْتنّ على من يشاء بقدرته ، أن يجمع على الحقّ أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويُصْلِحَ ذاتَ بينكم ولا يكلَكم فى مَوْطن من مواطن اللقاء ، والتحاكم والتناجز ، إلى أنفسكم ، ويكفيكم ويكفىَ بكم إنّه سميع قريب .

الدعاء لأمير المؤمنين فى أواخر الكتب

ونسأل الله أن يَهْنأ أميرَ المؤمنين ما صـنع له ، ويُعينَه على شـكر ما أولاه ، إنّه ولىّ ذلك وإنّا اليه فيه راغبون والسلام .

---

(١) فى الأصل المنازل ، وما أثبتناه تصحيح .

ولـــه :

ونسأل الله أن يهْنأ أمير المؤمنين الكراماتُ التى يُتابعها ، والنعمُ التى يظاهرها عليــه ، والفتوحَ التى جعلها فى خلافته ، وولايته ودولته ، ويهَب له من المعرفة بحقه فى ذلك والشكر له بحسن بلائه فيــه ، ما يبلغ أعظم رغبة وأقصى أمنية ، مــن ذخائر الخير وفضيلة الأجر وحسن الثواب فى الدنيا والآخرة .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى غابر أموره ، أحسنَ ما عوّده فى سالفها ، من السلامة التى حرسه بهــا من المكاره ، والعزّ الذى قهر له به الأعداء ، والنصر الذى مكّن له فى البــلاد ، والهــدى الذى وهب له به المحبّــة ، والرفقِ الذى أدرّ له به الحَلَب ، والاستصلاح الذى آتسقت له به الرغبة ، حتّى يكونَ بمــا أعطاه من ذلك ، وما هو مُستقبَل به ، أبعدَ خلفائه ذكرا ، وأبقاهم فى العدل أثرا ، وأطولَهم فى العمر مُدّة ، وأحسنَهم فى المَعاد مُنْقلَبا .

أسأل الله لأمير المؤمنين نِعْمة لا تزول ، وكرامةً لا تنفَد ، وعزّا لا يضام ، ونصرا لا يغلب ، وكفايةً ينتظم بها جميع الصلاح ، حتّى لا يكون بأوّلَ من ذلك أسعدَ منه بآخر ، ولا بماض أسرَّ منه بمستقبَل .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى عاقبة كلّ نِعمة أفضلَ ما وهب له فى عاجلها ، حتّى يجعل كلّ نعمة أنعم بها عليه ، وكرامةٍ حازها له ، موصولةً بالتمام ، محوطةً بالحفظ ، مكلوءةً من الغيرَ ، ممــدودةً الى طول غايات البقاء ، لا يشوب صفوَها كدر ، ولا سلامتَها غيرَ ، ولا سرورها تنغيص ، وهَنَأ الله أميرَ المؤمنيــن الظفَر ، وأدام له عادةَ النصر والتمكين الموضحَ ، وحُجّتــه المُدْحضَة لحجــة أعدائه ، والغَلَبة المُظْهِرة لحقّه ، المُجتاحةَ لمن خالفه ، ثم لا برِحت نعمة الله راهنة بمثله فى الأولياء نَصْرا ، وفى الأعداء إباحة ، وفى الناكثين تنكيلا .

سر الله أميرَ المؤمنين بمــا أهدَى له من كفايته ، وحاطه به من منَعته ، وأيده به من نصره ، وجعله وما استرعاه من دينه وسُلطانه ، فى كَنَفه الذى لا يُسْتباح وتحت يده المــانعة وجَناحه المحفوظ .

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يُقْذِى به عيون أعدائه فى تمكينه وتوهينهم، ونَصْره وخِذْلانهم، وإعزازه والمجاهدة لهم؛ ولا زالت نِعمَة الله تَزيده فى قوة الظفَر، وعزّة النصر، وتَفِد من آفاق الأرض بالبشارات والفتوح، حتّى تملأ له ما بين طرَفَىْ مُلْكه أمْنا وعزا، ويملأ به قلوب أعدائه خوْفا ورعبا، ويَعِدَهم على خلافه سطوة وتنكيلا .

أحمـــد بن يوسف

وهَنَأ الله أمير المؤمنين نِعَمه، ومَلأَه كرامته، وأوْلى له فُتوحه، وأدام إعزازه، وتولّى حِياطته وكِفايته، فيما دَنا منه وما غاب عنه، وأطال بقاءه والامتناع به .

مختار ما كتب من باب التهانى فى كلّ فن

تهنئة خليفة بظفَر

الحمد لله الذى جمع لأمير المؤمنين مع الغَلَبة الحُجّة، ومع الظفَر المعذرَة، وجمع لعدوّه مع الذل السطْوَة، ومع دُحوض الحُجّة النَّكال؛ فلم يجمعه والناكثين مَوْطِنٌ من مواطن الصبر، إلّا جعل الحُجّة عليهم فيه، ولسانَ العذر فيه معه، ويَدَ الظهور فيه له؛ ثم وهب له عند الظفَر من الشكر، وعند الفلَج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مُسْتَوْجِبا لما أَصْفاه به، مُعترِفا بأنّ العذر مُنْقطع ممن نكبه، وأنّ مُسْتَراد الحُجّة ومَطْلب السلامة، فى التمسك بطاعته ومناصحته، والمُجاهدة دُونه .

وفى مثله :

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يُقْذِى به عيون أعدائه .

وكتب ابراهيم بن المهدىّ الى المعتصم يهنّئه بخروجه عن أرض الروم بعد فتح عَمُّورِيّه

الحمد لله الذى تمّم لأمير المؤمنين غَزْوته، فأذلّ بها رقاب المشركين وشفَى بها صدور قوم مؤمنين؛ ثمّ سهّل الله له الأَوْبة سالما غانما، وكذا وكذا، وليَهْنِئه ما كتب الله له، مما

أحصاه فلا ينساه، ليقفه به موقفا يرضاه، فإنّه عز وجل يقول: ﴿إنّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البُعْـد برّا وبحرا، ووقاه وَصَب السفر سهلا ووعْرا، وحاطه بحراسته كالئا، ودافع عنه بحفْظه راعيا، حتّى يؤدّيه الى المحلّ من داره، والوطَن من قراره، وجزاه عن الإسلام خاصّة، وعن رعيّته كافّة، بتخيّره مُسْتخْلفا عليهم، وقائما مُقامه فيهم هرونُ ابنُ أمير المؤمنين، فقد استخلفه رفيقا شفيقا، حليما وَقورا، يقظانَ ساكنا، لم يُشَذَّب عليه أمر، ولم ينْتشر عليه طرْف، ولم يَضِع معه سبيل، ولم يُسْخط وليّا مُكانفا، ولاعدوّا مخالفا، بلا سيف أشرعه، ولاسور أقرع به، فمثّل جزاء أمير المؤمنين فى تخيُّره إيّاه، فجزاه الله على ما حفِظ من وَصاته، على محمود مُقامه، إنّه مجيب الداعى .

وكتب أحمـــد بن يوسف الى عبد الله بن طـاهر يهنّئـه بظفر

بلغنى — فتح الله عليك — خروجُ ابن السرىّ اليك، فالحمد لله الناصر لدينه المُعزّ لوَليّه وخليفته على عباده، المُذلّ لمن ضد عن حقّه ورَغِبَ عن طاعته، ونسأل اللهَ أن يُظاهر النِّعمَ ويفتحَ بُلدان الشِّرْك به، والحمـد لله على ما وَالاك منـذ ظعنتَ لوجهك، فإنّا نتذاكر سِيرتك فى حَرْبك وسِلْمك، ونُكثِرُ التعجُّبَ لما وُفِّقْتَ له، من وَضْع الشـدة واللّيان بموضعهما، ولا نعلم سائرَ جُنْد ولا رَعيّة عُدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمّن آسفه وأضغنه عفوك .

تهنئة خليفة بحجّ

أصـلح الله أميرَ المؤمنين وأراه من الزِّيادة فى نِعَمِه، ما يكون تماما لما ابتدأه به من فضله، والحمـد لله على ما خَصّ به أميرَ المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل فى نيّته، وجعله يستعين على دينه، بما بَسَط له فى دنيـاه، ويَحْمل على بدنه النَّصَبَ فيما يتقرّب به اليه، فيجْفُو عن دَعَتِه على لينها، ويشخَص عن طُمأنينته على فضلها، إيثارا لآخرته، وأداء لحقّ ربّه، بادر له بذلك ليُكرمه به، ثم يستعمل فيه نفسـه، تقرّبا اليه، فيسعْده بالإذن

فى ذلك حين كان منّ الله له ، و بالعمل فيـه حين كان لله منـه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليـلا على قبوله الخير عنه حين يعمَـل لربّه ؛ وكان من ذلك ما أذن الله لأمير المؤمنين فى زيارة نبيّه صـلى الله عليه وسلم العامَ ، وموافاةِ مَشاعره العظام، فى وقتها من الأيام، التى لا توافَى إلّا معها، ولا تكون مناسكة إلّا فيها؛ فكتب الله له فى ذلك الآثار الصالحة والأعمالَ المبرورة، فدخل فى الإحرام له بتعظيم حقّه، وخرج منه بقضاء نُسُكه، أجرا عَقَدَه الله عليه فى ٱبتدائه، ثم أتمّه له باستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئةٌ لحاجّ

بَلّغكَ الله الرِّضا فى أَمَلك من نُجْح كلّ حاجـة و إبلاغ كلّ أُمْنِيَة ، وتَقَبُّـل كلّ دعوة خَصَصْتَ بها نفسـك أو عَممت بها أحدا من أهلك ، فى مجامع وفوده، ومُعْتَرَل قراره، فكنت شافعَ مَنْ شاهدك، ووافِدَ مَنْ غاب عنك، يَسْتفتح بدعائك، و يُرَجّى بركةَ مَحْضَرك، والقُرْبة الى الله عزّ وجلّ بفضل جاهك .

تهنئـــة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية، لنا خاصا و إلينا واصلا .

آخـــر :

ولم تَتَخطّنى النعمةُ إذ أصابتك، ولم تَتَعدّنى إذ دَخَلَتْ بك، ولم أخلُ من لازم شُكْرها، وما يُنَفِّلُك الله منها، إذ قُلِّتها، اعتـدادا بكل ما طُوِّقتُ من المِنَن ، و إيجـابا على نفسى ما حملت من الشكر .

ولسعيد بن حُمَيد الى بعض إخوانه

سَرّك الله بتتابُع نِعَمه ، وترادُف إحسانه ، وزادَكَ من فواضل أقسامه . بلغنى ـــ أكرمك الله ـــ ما وهب الله لك من سُلطانك، فقوّاك الله على ما استرعاك . ورزقك الشكر على ما أولاك .

وفى مثل ذلك :

أكمل الله لك السعادة ، وزادك فى الكرامة ، وخصَّك بدوام النعمة . بلغنى ما وهب الله لك من سلطانك ، فسُررت به ، وسألتُ الله إتمام نِعَمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك للعدل فى سِيرتك ، وغَرْس المحبّة لك فى قلوب رعيّتك ، وأن يُعينك عليه ، ويرزقك السلامة فى الدين والدنيا .

وله فى مثله :

أنَا أُهَنِّئُ بك العمل الذى وُلِّيته ، ولا أهنئك به ، لأنّ الله أصاره الى مَن يُورده موارد الصواب ، ويصدره مصادر الحجة ، ويَصُونه من كل خَلَل وتقصير ، ويُمضيه بالرأى الأَصيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وَأَوْجب لك بطَوْله المَزِيدَ منها ، وأوزعك من المعرفة بها ما يَصُونها من الفِتَن ، ويَحُوطها من النقص .

آخــر :

قد وُلِّيتَ من العمل ما أسأل اللهَ عزّ وجل أن يرزقك بركةَ بدئه وعاقبته ، ويُعطيك الرضا ممن وَلِيت له وعليه .

آخــر :

هَنَأَكَ اللهُ هذه النعمةَ المقبلة ، الدالّ أوّلها على تمامها ، واوزعك شكرها .

آخــر :

أسعدكَ اللهُ بهذه الولاية وجعلها مباركة ، تنتقل بظلّ السلامة منها ، ونَيْل الكفاية فيها الى أَمَلك بنهايته ورجائك بغايته ، ورزقك السلامة ممن وَلِيتَ له وعليه .

آخــر :

سرَّك الله بما جدّد لك من هذه المنزلة ، ونَفَعك بهذه الولاية ، وأرضى عنك من وَليتَ له ومن وَليتَ عليه .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دِينَار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاضَ من جميل أثَرك فيما تَلِي من أعمالك، وزَمِّك إياها بحَزْمك وعَزْمك، وآنتياشك أهلَها[1] من جَوْر مَنْ وليهم قَبْلك، وسرورهم بتطاوُل أيّامك والكَوْن فى ظلّ يدك وجَناحك، فى إعانة مَنْ تَخُصّه وتعمه نعمتك، وتحول به الحِوَلُ حيث حالت بك ؛ فالحمد لله الذى جعل العاقبة لك، ولم يرُدد علينا آمالنا فيك منكوسة، كما ردّها على غيرنا فى غيرك . ولَوَدِدْتُ أنّ أباك كان عاين آثارك هذه ومناقبك، وإن كان الآفتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خَلَفُه، وألقى اليك بأمره ومعاقد ثقته، وجعلك مَوْضع آختصاصه وأَثَرته، وصَرَف ذلك عمّن كان لا يستحقّه، وذمّ سالف رأيه فيك وفيه وحَمِدَ آخره، ثم نعمة آتصلت لك بما قَبْلها، انتظمت بها أمورُك فاعتدلت، وتلاحمتْ عليها وآتّسقت، ما منحت فى كاتبك، ومُستقر ثقتك، وحامل أعبائك، من الكفاية والنصيحة، ووضعه عن قلبك مؤونة التهمة والقصّ لأَثَره، وإدخاله راحةَ الطّمأنينة اليه وروح الثقة به، لا كما ابتُلِيَ أخوك، فإنّه صحبه فخلط عليه أمرَه، وأفشَى أسراره الى صاحب بَرِيده، فأنفل ذلك بينهم، وقَطّع حِبالهم، حتى هَجَنت آثاره مع حُسْنها ووضوحها، وصَفِرتْ يده من حظّ عمله، ولَزِمه الذمّ من أهله ؛ فهذه كُتُبه إلىّ، فى آطّراح نصيحة له كانت فيه، ويسألنى أن أُشْخِص اليه كاتبا يَحْمِل ثِقَلَه، ويفتح له ما أرتجه من أمره . وهذا من سعادة جَدِّك، ويُمْن طائرك، وإقبال الأمور اليك، وسَعْيها على طريق مُوافقتك، وهنيئا هَنَأكَ الله نِعَمَه خاصّها وعامّها، وأوْزَعك شكرها، وأوجب لك بالشكر أحسنَ المَزِيد فيها .

تهنئة بعزل

كَتَب رجلٌ الى مالك بن طوق لمّا عُزِل عن عمله :

أصبحتَ والله فاضحا مُتْعِبا : أما فاضحا فلكلّ والٍ قَبْلَك بحسن سيرتك، وأما مُتعبا فلكلّ والٍ بعدَك أن يلحقك .

(١) انتياشك أهلها : استنقاذهم .

فصـــل

سواء علينا أُولِيت أم صُرفت، إنّا لنشهد بك الولاية، بمـا بَسَط الله من يدك ببذْل العُرْف، ونهنّئك بالعَرْف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميـل؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عمـلا وأنت محلٌّ له، ولا أن تَصْحبه وليس به فاقةٌ اليـك. فهَنّأك الله النعمة، وأعانك على الشكر، وأيّدك بالمزيد.

تهنئة بعـــزل عامل عن عمـله

بلغنى صَرْفُك، فخارَ الله لك، وهَنّاك لطيفَ نظره وجليـلَ إحسانه، فإنى أرى الرجلَ عند خروجه من العمل سالمـا نقيّا من مأثمه ودَنَسـه، أَوْلَى بالتهنئة منه عند دخوله فيه، وأرى الدعاء له عند بدء تَلَبُّسـه به بالخلاص منه مَعْصوما بَريئا من تَبِعَاته ورواجع آثامه، أولى بمن عُنِيَ به وأحبّ صلاحه، ولذلك قدّمتُ تهنئتك.

ولسَعِيد بن حُمَيد فى مثله الى بعض إخوانه:

حَفِظك الله بحفظه، وأسبغ عليك كرامته، وأدامَ اليك إحسانه. إنّ سرورى بصرفك، أكثرُ من سرور أهلِ عَمَلك بما خُصّوا به من ولايتـك. وقد كنتَ — أعزّك الله — فيما يُرْبأ بك عنه، بما أنت عليه فى قَدْرك وآستئهالك؛ ولكنّا رَجَوْنا أن يكون سببا لك الى ما تستحق، فطِبْنا نفسا بالذى رجونا. فالحمد لله الذى سلّمك منه، ونسأله تمامَ نِعَمه عليك وعلينا فيـك، بتبليغك أَمَلَك وآمالَنا فيـك، وشـفاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب، ثم خصّك الله بجميل الصنع، وبلّغك غاية المؤمِّلين. إنّ من سعادة الوالى — حفظك الله — وأعظم ما يُخَصّ به فى عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم، ونوائب الدنيا وشرها، والعاقبة ممـا يُخاف منهـا؛ وقد خصّـك الله منهـا بمنّه وطَوْله ما نرجو أن يكون سـببا لك الى نَيْل ما تستحِقّ من المراتب. والله نسأل إيزاعك شُكر ما منّ به عليك، وتبليغَك غايةَ أملك فى جميع أمورك، برحمته وفضله.

آخــر :

ما أحسنَ ما كَشَفَتْ عنك الولاية، وأجمَل ما أبرز منك العمل ، قد كسبك الله حَمْد ولايتك وعَزَل عنك لائمتها ، بما آنتشر عنك من عَدْلك ، وظَهَر من معروفك ، فاذا ساءك هذا فَلْيَسْرُرْك .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمــد لله رب العالمين حَمْدا يَحُوز حمدَ الحامدين ، الذى جعل قضاءه خِيْرة لك ؛ فإن زادك نعمة وفَّقك لشكرها ، وإن آمتحنك ببلْوَى من نَفْث حاســد أو كَيْــد كائد ، أنار برهانك وأفلج حُجَّتــك وجمع بيــن وليِّك وعدوّك فى الشهادة لك ؛ وإن نَقَل أمرا عن يدك ، فربَّما يَرْجعه اليك مختلّا لفقدك . هذا الى ما جعل عندك من خواصّ النعم التى إن ذكرناها فأطنبنــا أو تجوّزنا فقصّرنا ، كان غايتنا الى الحُسُور دون مَدَى غايتك . وقد زادك الله بهذا الحادث فضــلا عظيما : لمــا ظهر من وَلَه العامة اليــك وتطلُّعها الى ما كانت فيه : من لِين إنصافك وكريم أخلاقك ، ووَحْشــة الخاصّة لمَــا فَقَدَتْ من حُسن مُعاملتك وكثير تفضّــلك . وأيقنَ أهلُ الرأى والتأمّل لصفحات الأمور ، أنّ كلّ ما خَرَج عنــك فعــائد اليــك ومتصل به غيرُه ، حتى تستقرّ فى يدك عُرَا الأمور ومعاقدها ، وتُفتح برأيك وتدبيرك أبوابُها ومغالقُها ، فَلْيَهْنِكَ أنّ كلّ ما زاد غيرك نقصا زادك فضلا ، وكلّ ما نقص من الرجال وحطّها ألحق بك شرفا . فزادك الله وزادنا منــك ، وجعلنا ممن يَقْبَلُه رأيك ، ويقدّمه آختيارُك ، ويَقَعُ من الأمور بموافقتك ، ويجرى منها على سبيل طاعتك .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلنى الله من السوء والمكروه فداءك ، وأطال فى الخيــر والسرور بقاءك ، وأتم نِعَمه عليك ، وأحسنَ منها مَزيدَك ، وبلّغك أقصى أُمنيّتك ، وقدّمنى أمامك ، وقد بلغنى ما آختار الله لك ، فسُررتُ من حيث يغتمّ لك مَنْ لا يعرف قدرَ النعمة عليك ، ولا يراك بعين آستحقاقك .

ولئن ساءنى ما ساء إخوانَكَ من عَزْلك، لقد سرّنى ما يَسَّر الله لك. والحمد لله الذى جعل انصرافك محمودا، وقضى لك فى عاقبتك الحُسْنى، وأقول :

لِيَهْنِك أَنْ أَصْبحتَ مُجْتَمعَ الحمد * ورَاعِى المعالى والمُحَامى عن المجدِ
وأنّك صُنتَ الأمرَ فيما وَلِيتَـه * ففرّقتَ ما بين الغَوَاية والرُّشْـد
فلا يَحْسَبِ الباغونَ عَزْلك مَغْنما * فإنّ الى الإصـــدار عاقبةَ الوِرْد
وما كنتَ إلّا السيفَ جُرِّد للوَغَى * فأَحْمَدَ فيهـا ثم رُدّ الى الغِمْـد

وقد قال الأوّل :

فمن يكنْ بورود العَزْل مُكتئبا * فإننى بورود العَـــزْلِ مسرورُ
بعدَ الولاية عَزْلٌ يستبين به * طَوْلُ الوُلاة وبعدَ العَزْلِ تأمير

أما ما عنـدى مع تصوّر العاقبـة لك فى نفسى، فيَمَسّنى فى أمرك فى حال المحنـة ما يخصُّنى منه فى وقت تجدّد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندى ما أجده لك فى نفسى . فلا زلتَ فى نِعَمٍ متتابعة متجدّدة، ولا عَدِمتَ الثروة والزيادة، وبلّغك الله أقصى أملك، وأمل أخيـك لك، وكَبَتَ أعداءك، وجعلنى وِقاءك المقدّم عنـك . أحبّ أن تشرح لى صـورة الأمر إلامَ تأدّتْ، وكيف كان الآبتـداء، فإنى لا أشـكّ أنها حيلة ونيّة من عزّ الصاحب الجليل القدر، ولها عاقبةٌ منه إن شاء الله محمودة، وتُفضى من ذلك الى ما تسكن اليه نفسى، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليُمْن فليكنْ هذا البِناء، وبأسباب السعادة فليتصّل عِقدُ هذا الآجتماع، وبكلّ ذكاء الولد، وثَرْوة العدد، فلْتجْرِ لك الأقدار، وفى أطول غايات البقاء فلتدُمْ هذه الغِبْطة والسرور.

تهنئـــة بتزويج

بلغنى تزوُّجك من فلانة، فبالرفاء والبنين، تهنئةَ السَّلَف الصالحين، ومبلغ سُنّة المجتهدين المتبحرين، ونقُولُ على يُمْن الطائر، وسعادة الجَدّ، ونَمَـاء العَدَد، وآتفاق الهوى، وطِيب

المناسمة، واجتماع الشَّمْل، وثبات الرَّبع، وتَمَلِّى النِّعَم . أسأل الله الذى قضاها أن يجعلها لك سَكَنًا ويجعلك لها شَجَنًا، وأن يُؤَخِّر حِمامها الى انتهاء نَفْسك عنها، وجعلك جائزا تُرْبها، ووَلِيتَ المال وهناءة العيش وملاهاة الغوانى بعدها .

تهنئة لغسّان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى جَمْعُ الأمير أهلَه على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمدُ لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك مَيْمونا، والشَّمْلَ مجتمعا، والبركةَ عظيمة، والأُمورَ سليمة؛ وكذلك فقد عَظَّم الله القَسْم منه لزَوْجه، جَعَلَ الأمير سَكَنًا لها، وأجرى المودّة والرحمة بينهما، فإنه يقول عزّ وجلّ : ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ . فلما كان الأميرُ هو المنظور اليه، وهى المنظور اليها، آختارها الأمير لنفسه وآختار نفسه لها، وأراد الله عز وجل أن يزيدها مع فَضْلها فى نفسها فَضْلا باختيار الأمير إيّاها، و باختصاص الله لها بالأمير دون غيرها؛ فكان ذلك فضلا من الله زَيَّنه بفضل، وكرامةً من الله وَصَلَ بعْضَها ببعض. فنرغب الى الله عزّ وجل فى أن يزيد الأمير فى كلّ سَعَة مبسوطة، ونعمة مقسومة، و يعطيه فى ذلك شكرا يكون لرضاه مُوجبا، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا؛ ثم يُمَلِّى الأميرَ ذلك بأحسن ما مَلَّى أحدًا من خَلْقه كرامةً اصطنعها عنده .

تهنئـــة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي الى المأمون يهنئه بمولود له :

قد كان أجذلنى ما أحدث الله لأمير المؤمنين من المَوْهَبة التى ليس، وإن كان أولى بها من غيره، بأعظم فيها حظّا من رَعِيّته . فعمّر الله لك ياأمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يَشُدّ بهم عَضُدك، ويَشُدّ بهم ثُمْتَاك، ويُبَلِّغهم الغاية المأمول لهم بلوغُها بعدك، غير مُقْعَد بك مَهَل، ولا مُحَلّ بك أَجَل، ولا مُكَذّبك أَمَل، ولا مُنْقَطعة أيامك، حتى تُخْتَرم أنفسُنا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

بارك الله فى مولودك الذى أتاك ، وهَنَّأك نعمته بعطيتــه ، وملَّاك كرامتــه بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تقيًّا ، ميمونا مباركا زكيا ، ممدودا له فى البقاء ، مُبَلَّغا غاية الأمل ، مشدودا به عَضُدُك ، مُكَثَّرا به ولُدُك ، مُداما به سرورك ، مدفوعا به الآفات عنك ، مشفوعا بأكثر العدد ، من طَيِّب الولد .

وله فى مثل ذلك :

هَنَّأك الله هذه الفائدة التى أفادكها ، وبارك الله فى الهبة التى رزقكها ، وشفعها بإخوة متواترين ، يَسُرّونك فى حياتك ويَخْلُفونك فى عَقبك .

تهنئـــة بمولود

كتب رجل الى رجل يهنئه بمولود :

جُعِلْتُ فداءك ، للبقاء مولودك ، فى السناء نباته ، وفى اليُمْن شبابه ، وعلى البركة ميلاده .

تهنئـــة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله ، وفوائد قِسَمه — وإن خُصّ موقعها ووجب شكرها — نعمةٌ تعدل النعمة فى الولد ، لنمائها فى العدد ، وزيادتها فى قوة العضد ، وما يُتَعَجّل به من عظيم بهجتها ، ويُرجى من باقى ذكرها فى الخُلُوف والأعقاب ، ولاحق بركتها فى الدعاء والاستغفار . وإنّ الله قد أفادك وأنالك غلاما سَرِيًّا ، سَمَّيته فلانا ، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين . فرجوتَ أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرنا الله به على عدوّ الدين والمسلمين من دلائل بركته ويُمْنه ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمير المؤمنين فى طارف نعمه وتالدها ، وشَفَع له قديم مننه بحادثها ، ورزقه ذكورا طيِّبين مهذّبين ، يأنس بهم ربعُه ، ويتصل بهم نجاحه ، ويجعلهم ذرية زاكية ، وبقية صالحة .

آخـــر :

بلغنى الذى وهب الله لك، فجعله الله ذُخرا سنيّا، وعَقْبا كريما .

عَمْرو بن مَسْعَدَة الى الحسن بن سهل

أما بعد، فانّ هبةَ الله لك هبةٌ لأمير المؤمنين، وزيادته إياك فى عدده لمحلّك عنـده ومكانك فى دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سَرِيّا، فبارك الله لك فيه، وجعله بارّا تقيّا، مباركا سعيدا زكيّا .

تهنئـــة بمولود

الحمد لله الذى رضى منّا بيسير القول عنـد عظيم النعمة، حمدًا نستوجب به بقاء هذه المَوْهَبَــة للنَّماء والفائدة؛ فإنّ نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة، فقد كان ما يَقْبِض الأمل منا ذكر آنفراد الأمير بنفســه وقلّة نَسْله، وما لا يؤمن من آنقطاع الذكر بفوات الأجل، ومن دُثُور الأنام، بواقع الحِمَام، وقد أصبحنا من الله من يدين فى فُسْحَة المهــل، ومدّه مواقع الأجل، لمن أراد فيه مَوْضع أملنا فى حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئـــة بمولود

سرورُك سرورٌ يَخُصّنى منه ما يَخُصّك، وتَلْبَسنى فيه النعمة ما تَلْبَسك، والحمدُ لله على النعمة فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعــد، فقد بلغنى من متجدّد نعم الله عزّ وجلّ عليك، وإحسانه اليك فيما رَزَقَك من الهِبة ما آشتدّ جذلى به، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله، ولذلك أقول :

قد شُفِــع الواحد بالوافد ✻ وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسدِ
أبا حُسَـين قَرَّ عينًا بمـا ✻ أُعْطِيته من هِبَة المـاجد

قد قلتُ لمـّا بشّرونى به * بُورِكَ فى المـولود للوالدِ
إنّا لنرجـو وافدا مثـلَه * والطائرُ الميـمون للوافدِ

وله الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا، إلّا كنتُ به بَهِجًا، أعتدّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقّـك وعرّفنى من جميـل رأيك . فزادك الله خيرا، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغنى أنّ الله وَهَبَ لك غلاما سَرِيّا، أكمل لك صُورته، وأتمّ خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتدّ سرورى بذلك، وأكثرت حمد الله عليـه . فبارك الله فيه، وجعله بارًّا تقيًّا، يَشُدّ عَضُدَك، ويُكثر عَدَدَك، ويُقِرّ عينك .

وكتب إسحاق بن يحيي الى بعض إخوانه يهنئه بابنة له :

رُبّ مكروهٍ أعقب مَسَرّة، ومحبوب أعقب مَعَرّة . وخالقُ المنفعة والمضرّة، أعلمُ بمواضع الخِيَرَة .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك فى الأبنـة المستفادة، وجعلها لكم زينـا، واجرى لكم بها خيرا، فلا تكرهها؛ فإنهنّ الأمّهات والأخوات، والعمّات والخالات، ومنهنّ الباقيـات الصالحات؛ وربّ غلام ساء أهلَه بعد مَسَرّتهم، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيي الى أخ له فى مولود ولد له وهو أول مولود كان :

أمّا بعـد، فإن ممـا أعترف من مواهب الله، نعمةً خُصِصتُ بمزيّتهـا، وآصطفيتُ بخصّيصتها، كانت أسرّلى من هبة الله ولدا سميتُه فلانا، وأمّلتُ ببقائه بعدى حياةً وذكرى، وحُسن خلافتى فى حُرْمتى، وإشراكه إيّاى فى دعائه، شافعا الى ربه عند خلواته فى صلاته وحجّه، وكلّ مَوْطن من مواطن طاعته، فاذا نظرتُ الى شخصه تحرّك به وجدى وظهر به

سروري، وتعطّفت عليه منه أنه الولد، وتولّت عني به وَحْشة الوَحدة، فأنا به جَذِل في مَغِيبي ومشهدي، أُحاول مسّ جسده بيدي في الظُّلَم، وتارة أُعانقه وأَرشُفه، ليس يَعدِله عندي عظيمات الفوائد، ولا منفسات الرغائب . سرّني به واهبه لي على حين حاجتي، فشدّ به أَزْري، وحمّلني من شكره فيه ما قد آدني بثقل حمل النعم السالفة الىّ به، المقرونة سَرَّاؤها في العجب بقدر ما يدركني به من رقّة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووَجَلا من عواطف الأيام عليه . فأسأل الله الذى آمتنّ علينا بحسن صُنْعه في الأرحام، وتأديته بالزكاء، وحَرْسه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حمّلنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يَهَب لنا من سلامته والمُدّة في عمره موصولا بالزيادة، معروفا بالعافية، محوطا من المكروه، فإنّه المنّان بالمواهب والواهب بالمنى، لا شريك له . حمّلني على الكتّاب اليك لعلم ما سُررتُ به علمى بحالك فيه وشركك إياى في كل نعمة أسداها الىّ ولىّ النعم . وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جلّ ذكره . والسلام عليك .

تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تناهى الىّ نُقْلتك الى الدار التى أرجو أن يجعلها الله نُقْلة المكروه عنك، ونُقْلة السرور اليك، ودوامَ نعمة الله عليك . جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة، ووصل نعمه فينا عندك ونعمه عندنا فيك .

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

أنا أقول الحمد لله الذى وفّقك لشكره، وعرّفك هدايته، فطهّر من الآرتياب قلبك، ومن الآفتراء عليه لسانَك . وما زالت مخايلك مُمَثِّلة لنا جميل ما وَهَب الله لك، حتى كأنك لم تزل بالإسلام مَوْسوما، وإن كنت على غيره مقيما، وكنّا مؤمّلين لِمَا صِرتَ اليه، مشفقين لك مما كنتَ عليه، واذ كاد إشفاقنا يستعلى رجاءنا، أتت السعادة بما لم تزل الأنفس تعد منك . فأسأل الله الذى نوّر لك في رأيك وأضاء لك سبيل رُشْدك، أن يوفّقك لصالح العمل، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويَقيكَ عذاب النار .

باب المنظـــــوم

١ — أبو نواس (١)

كان أبو نُوَاس ينادم ولدَ المهدىّ ويلازمهم فلم يُلْفَ مع أحدٍ من النـاس غيرِهم ، ثم نادم القاسمَ بن الرشيد ولقى منه أشياء كَرِهها وكُرِهتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو على الحسن بن هانىء ، الشاعر المتفنن ، الجادّ الماجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدثين بعد بشار . وهو فارسى الأصـــل . ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ ﻫ ونشأ يتيما فقدمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب فى الأدب ، فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ، فمكث عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والاختـــلاف الى الأدباء والمجان ، الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب الشاعر المـاجن الكوفى فى إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبـــة معه الى الكوفة ، فبقى معه ومع ندمائه من خلعاء الكوفة وتخرج عليهم فى الشعر وفاقهم جميعا . وقدم بغداد وقد أربت ســنه على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغ خبره الرشيد فأذن له فى مدحه ، فمدحه بقصائد طنانة وحبسه مرة على هجوه مضر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ومنهم الخصيب عامل مصر ، ثم انقطع الى مدح محمـــد الأمين ، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد .

وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكه المحضر ، كثير الدعابة ، حاضر البديهة ، متينا فى اللغة والشعر والأدب ، متعصبا لليمانية على المضرية . وأجمع أكثر علماء الشعر ونقدته وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفننا وأرصنهـــم قولا وأبدعهم خيالا مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع برّز فى كل فن من فنون الشعر .

وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المجونيات ، وكان شعره لقاح الفساد والقدوة السيئة ، لنقله الغزل من أوصاف المؤنث الى المذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفا قبـــله وقبل شيطانه والبه . وزاد على ذلك انفراده بالإبداع فى وصف الخمر ، فكان نموذج سوء لمن تأخر ، فافتتن بشعره الشبان فى زمانه وبعـــده وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعـــد ظريفا إلا اذا مزج شعره بشىء من ذلك وإن لم يقع فى محظوراته .

ووصفه عبـــد الله الجماز فقال : كان أظرف الناس منطقا ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون ، جميـــل الوجه ، مليح النغمة والاشارة ، ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلَس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعرَ ذى الرُّمة، فأقبل الناشئ على أبيه هانئ وقال له : إن عاش ابنُك هذا وقال الشعرَ لَيقُولنَّه بلسانٍ شَتُوم .

ثم اتصل بوَالِبَةَ بن الحُبَاب الأسدىّ، لقيه بدار الَّجَاشىّ الأسدىّ والى الأهواز للمنصور، فقال له والبة: إنى أرى فيك مخايلَ فلاح، وأرى أنك لا تضيعها، وستقول الشعر وتعلو فيه، فاصحَبْنى حتى أُخَرِّجك، فقال : ومن أنت؟ قال : أبو أُسَامة، قال: والبة؟ قال: نعم، قال : أنا والله جُعِلتُ فِدَاكَ فى طلبك، وقد أردتُ الخروجَ الى الكوفة والى بغدادَ من أجلك، قال: ولمــاذا ؟ قال، شهوةً للقائك ولأبياتٍ سمعتُها لك، قال : وما هى؟ فأنشده :

ولها ولا ذنبٌ لها   حبٌّ كأطرافِ الرِّماح

جرحتْ فؤادى بالهوى   فالقلبُ مجروح النواحى

سلَّ الخليفــةُ صارمًا   هو للفساد وللصـــلاحِ

أجــداه كفُّ أبى الوليـــــد يدًا مُبَارِيَةَ الرياحِ

ألــقى بجانب خَصْره * أمضَى من الأجل المُتَاحِ

وكــأنما ذَرّ الهبا   ءِ عليه أنفاسُ الرياحِ

فمضى معه، ثم سأله أن يخرج الى البادية مع وفد بنى أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنةً، ثم قدم ففارق والبةَ ورجع الى بغداد .

وكان أبونواس متكلما جَدِلًا راوية فحلا، رقيق الطبع ثابت الفهم فى الكلام اللطيف . ويدل على معرفته بالكلام أشياءُ من شعره، منها قوله :

وذاتِ خــدٍّ مُــورَّدْ   قُوهِيَّــةِ المتجـــرَّدْ

تأمّل العينُ منهـا   محاسنًا ليس تنفَـــدْ

= راوية للأشعار، علامة بالأخبار، كأن كلامه شعر موزون . توفى سنة ١٩٩ هـ . وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره فى كتاب خاص باسم «أخبار أبى نواس» لابن منظور طبع بمصر سنة ١٩٢٤ والأغانى (ج ١٨ ص ٢) و(ج ٦ ص ١١٠، ١٧٠، ١٨٦) و(ج ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفهرست (ص ١٦٠) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٣٢٧) .

فبعضــــه قد تناهى * وبعضـــه يتـــولّد
والحسن فى كل شيء * منها مُعاد مردّد

ومنها قـــوله :

يا عاقدَ القلب عـــنّى * هـــلا تذكرتَ حلّا
تركتَ غِبّي قليـــلًا * من القليـــل أقلّا
يكاد لا يتجـــزّى * أقـلّ فى اللفظ مِنْ لا

ومنها قوله فى آمرأة آسمها حُسْن :

ان اسم حُسْن لوجهها صفـةٌ * ولا أرَى ذا فى غيرها جُمِعَا
فهى اذا سُمِّيت فقد وُصِفتْ * فيجمعُ الإسم معنيين معًا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قـــل لزُهَير اذا حدَا رشَـــدًا * أقلِلْ أوَ آكثِرْ فأنت مِهْـــذارُ
سخُنْتَ من شـــدّة البرودة حـــتّى * صرتَ عنـــدى كأنّك النارُ
لا يعجَبِ السامعون من صفتى * كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

هذا شيء أخذه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فانهم يقولون: إن الشيء اذا أفرط فى البرودة انقلب حارًّا، وقالوا : إن الصَّنْدل يحكّ منه اليسير فيبرد، فاذا أكثر منه سخن .

قالوا : كان أبو نواس دعيًّا يخالط فى دعوته . فمن ذلك قوله يهجو عربَ البَصْرة :

ألا كل بصرىّ يرى أنمـا العُلا * مُكَمَّهَة سُحْـــقٌ لهنّ جرينُ[(١)]
فان تغرِسُـــوا نخلًا فان غِرَاسَنا * ضِرابٌ وطعنٌ فى النحور سَخِينُ
فان ألك بصريًّا فإن مُهـاجَرى * دِمَشْقُ ولكنّ الحـــديثَ فنونُ
مجاورَ قوم ليس بيـــنى وبينهم * أواصرُ إلا دعـــوةٌ وظنـــونُ
اذا مادعا باسمِى العريف أجبتُه * الى دعـوة ممـا علىّ تهُونُ

(١) المكمهة : الغراس الكثيرة . والسحق : الطويلة، يريد النخل . والجرين هنا : موضع تجفيف التمر .

ثم هجا اليمن فى هذه القصيدة بقوله :

لأزد عُمَانٍ بالمهلّب نزوةٌ * اذا افتخر الأقوام ثم تلينُ
وبكر ترى أن النبوّةَ أُنزلَت * على مِسْمَعٍ فى الرِّحْم وهو جنينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحدا * كأحنفنا حتّى المماتِ يكونُ
فما لُمتُ قيسًا بعدها فى قُتيبة * ونخرٍ به إن الفخار فنونُ

وإنما نشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قبلٌ ولا بعدٌ .

ومما هجا به اليمنَ أيضا قوله لهاشم بن حُديج :

وردنا على هاشم مِصرَهُ * فبارت تجارتنا عندَه

يقول فيها :

رأيتك عند حضور الخوا * ن شديدا على العبد والعبده
وتحتدُّ حتى يخافَ الجليـ * ـس شَذاك عليه من الحدّه
وتختم ذاك بفخرٍ عليـه * بكِنْدةَ فاسلَحْ على كِنده
فإن حُديجا له هجرةٌ * ولكنّها زمنَ الردّه
وما كان إيمانكم بالرسول * سوى قتلكم صهره بعده
تعُدونها فى مساعيكُمُ * كعدّ الأهلّة معتدّه
وما كان قاتلُه فى الرجال * بجَزل لطهر ولا رشده
فلو شهدته قريشُ البِطا * ح لما مَحشت نارُكم جلده (١)

وقوله أيضا :

ما منك سلمى ولا أطلالها الدّرُسُ * ولا نواطقُ من طير ولا خُرُسُ
يا هاشمُ بنَ حديج لو عددتَ أبا * مثلَ القَلَمَّس لم يعلَق بك الدَّنَس
إذ أصبح الملكُ النعمانُ وافدَه * ومن قُضاعَة أسرى عنده حُبُسُ

(١) المحش : قشر الجلد عن اللحم .

فابتاعهم بإخاء الدهـــر ما عمِـــروا * فلم ينل مثلَها من مثلهـــم أَنَسُ
أو رحت مثـــلَ حُوَىٍّ فى مكارمه * هيهات منـــك حُوَىّ حين يُلتمس
أو كالسَّـــمَوءل اذ طاف الهمامُ به * فى جحفل لجِبِ الأصـوات يَرتجس
فاختار ثُكْلًا ولم يَغْـــدِرْ بذمتـــه * إذ قيل أَشْرِفْ تَرَ الأوداجَ تنبجسُ
ما زاد ذاك على تيـــهٍ خُصِصتَ به * وكيف يَعْـــدِل غيرَ السوءة الغَرَسُ

وقـــوله :

يا هاشمُ بنَ حُدَيج ليس فخـــرُكُمُ * بقتل صهرِ رسول الله بالسَّـــدَدِ
أدرجتمُ فى إهاب العَـــيْر جثتَـــه * فبئسَ ما قدّمتْ أيديكُمُ لغـــدِ
إن تقتلوا ابنَ أبى بكر فقـــد قتلَتْ * حُجْرًا بدارةِ مَلْحوبٍ بنو أســـدِ
وطـــرَّدُوكم الى الأجبال من أَجَأٍ * طردَ النَّعام اذا ما تاه فى البـــلدِ
وقد أصـــاب شَراحيلا أبو حَنَشٍ * يومَ الكُلاب فمـــا دافعـــتمُ بيدِ
ويوم قلـــتم لزيدٍ وهو يقتلكـــم * قتل الكلاب لقد أبرحتَ من ولدِ
وكلّ كِـــنْدِيّةٍ قالت لجـــارتهـــا * والدمعُ ينهلّ من مَثْنى ومنفـــردِ
أَلْهَى امرأَ القيس تشبيبٌ بغانية * عن ثأره وصـــفاتُ النَّوْءِ والوتدِ

وقد رثَى أبو نواس خَلَفًا الأحمرَ بعد موته بقصائدَ من شعره، منها قصيدتُه التى أوّلهـــا قـــوله :

لو كانَ حىٌّ وائـــلًا (١) من التَّلَفْ * لو ألتْ شَـــغْواءُ فى أعلى شَعَفْ
أمّ فُـــرَيخ أحرزتْه فى لَجَفْ (٢) * مُزَغَّبَ الألْغادِ لم يأكلْ بكَـــف
كأنه مستقعَدٌ مِن الخَـــزَفْ * هاتيـــك أو عَصْماء فى أعلى شرف
تَرُوغ فى الطُّبَّاقِ (٣) والتَّزْعِ الألُفْ * أَوْدَى جِمَاعُ العلم مُذْ أَودَى خَلَفْ

(١) وائلا : ناجيا . ووألت : لجأت . والشغواء : العقاب . والشعف : رءوس الجبال .

(٢) اللجف : الغار فى الجبل . ومزغب : صار ذا زغب ، والزغب صـــغار الريش . والألغاد جمع لغد بالضم وهو لحمة فى الحلق . (٣) الطباق والتزع : نوعان من الشجر .

مَن لا يَعُدّ العِلْمَ إلا ما عَرَفْ * قَلَيْذَمٌ (١) مِنَ العَيالِيمِ الخُسُفْ
كُنّا متى نشاءُ منه نغترِفْ * روايةً لا تُجتنَى من الصُّحُفْ

ومنها قوله يرثيه :

لا تَئِلُ العُصْمُ فى الهضابِ ولا * شَغْواءُ تَغْذُو فرخَيْنِ فى لَجَفِ
يُكِنُّها الجوُّ فى النهارِ ويُؤْ * ويها سوادُ الدُّجَى الى شَرَفِ
تحنو بجُؤْشُوشِها على ضَرِمٍ (٢) * كقِعْدةِ المنحنى من الخَرَفِ
ولا شَبُوبٌ (٣) باتتْ تؤرّقه النَّثْرةُ منها بوابلٍ قَصِفِ
دانٍ على الأرضِ والوَصيدِ وفى * نَهْوِ أمينِ الإيادِ ذى هَدَفِ (٤)
ديدنُه ذاكَ طولَ ليلتِه * حتى اذا انجابَ حاجبُ السَّدَفِ
غدا كوَقْفِ الهَلُوكِ ينهمتُ القِطْقِطُ (٥) من مَتْنِهِ والكَتِفِ
كأنَّ شَذْرًا وهتْ معاقدُه * بين صَلاه فمَلْعَبِ الشَّنَفِ
وأخدريٌّ صُلْبُ النَّواهقِ صَلْصالٌ أمينِ الفُصُوصِ والوُظُفِ
منفردٌ فى الفَلاةِ تُوسِعُه * ريًّا ومَا يَخْتليه من عَلَفِ
ما تركَ الموتُ من أولى شَبَحٍ * بادتْ بذلك الهلاكِ والشَّعَفِ
لما رأيتُ المنونَ آخذةً * كلَّ شديدٍ وكلَّ ذى ضَعَفِ
بتُّ أعزِّى الفؤادَ عن خَلَفٍ * وبات دمعى إلّا يفضْ يكِفِ
أنسى الرَّزايا مَيْتٌ فُجِعتُ به * أمسى رهينَ التُّرابِ فى جَدَفِ

(١) القليذم : البئر الغزيرة . والعيالم : جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسف جمع خسيف وهى البئر التى حفرت فى حجارة فنبع منها ماء كثير لا ينقطع . (٢) الجؤشوش : الصدر . والضرم : فرخ العقاب . (٣) الشبوب : الشاب من الثيران والغنم . والنثرة : منزلة من منازل القمر .

(٤) الوصيد : بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة للمال أى الغنم ونحوها فى الجبال . والإياد : التراب يجعل حول الحوض أو الخباء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من بناء أو كثيب رمل أو جبل .

(٥) ينهمت : يتساقط وينحدر . والقطقط : المطر الصغير أو المتتابع العظيم القطر ، وقيل هو دون الرذاذ ، وقيل البرد أو صغاره .

كان يُسَنِّى برفقه غُلُقاً (١) * فى غير عِيٍّ منه ولا عُنُف
يجوبُ عنك التى غُشِيتَ بها * من قبلُ حتى يَشفيك فى لَطَف
لايبهم الحاءَ فى القراءة بالخا * ء ولا لامَها مع الألف
ولا يُعَمِّى معنى الكلام ولا * يكون إنشادُه عن الصُّحُف
وكان ممن مضى لنا خَلَفاً * فليس منه إذ بان من خَلَف

واختلف أبو نواس الى أبى زيد فكتب الغريب من الألفاظ، ثم نَظَر فى نحو سيبويه، ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السَّمّان وغيرهم، فلم يتخلّف عن أحد منهم، وأدرك الناس فعلم، ثم قدم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يتنزّر ويدّعى للفرزدق . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قَنْبَر المازنىّ، فهجاه الحكم وذكر بَرْيَه العودَ وبَغى عليه ونكّبه . ولما قال أبو نواس قصيدته التى يهجو بها خِنْدِف، وهى :

ألم تَرْبَعْ على الطَّلَل الطِّلاس * عفاه كل أسحم ذى ارتجاس (٢)
وذارِى التُّرْب مُرْتكم حصاه * نسيج الميث مِعْنَقة الدَّهاس (٣)
سوى سُفْعٍ أعارتها الليالى * سوادَ الليل من بعد اغبساس (٤)
وأورق حالف المَثْواةَ هابٍ * كضاوِىّ الفراخ من الهُلاس (٥)
منازلُ من عُفَيْرَة أو سُلَيْمى * أو الدهماء أختِ بنى الحِمَاس
كأنّ معاقدَ الأوضاح منها * بجيد أغنّ نُوّم فى الكِناس
وتَبْسِمُ عن أغرّ كأنّ فيه * مُجاجَ سُلافة من بيت راس (٦)
فمَنْ ذا مبلغٌ عمراً رسولاً * فقد ذكّرتَ وُدّك غيرَ ناس

(١) سناه تسنية : سهله وفتحه . (٢) طلاس بالكسر : دارس . والأسحم : السحاب . والارتجاس : الرعد . (٣) المعنقة : حبل فى الرمل .
(٤) الاغبساس : بياض فيه كدرة . والسفع : يريد بها الأثافى . (٥) الهلاس : الضمور وهاب : لونه لون الهباء . (٦) بلدة بالشأم تنسب اليها الخمر .

فلم أهْجُرْك هجــرَ قِلًى ولكن * نوائبُ لا تزالُ لهـا نُقـاسى
نوائبُ تعجِــزُ الأدباءَ عنهـا * ويَعْيَا دونَهـا اللقِنُ النِّطاسى
وقد نافحتُ عن أحسابِ قومٍ * هُمُ وَرِثوا مكارمَ ذِى نُوَاس
فإن تَكُ أُوقِدتْ للحــرب نارٌ * فما غَطَّيتُ خوفَ الحرب راسى
سأبْلِى خــيرَ ما أبلَى مُحَـامٍ * اذا ما النَّبْــل أُلْجِمَ بالقِياس (١)
وسَمتُ الوائلِينَ بفاقِراتٍ * بهنّ وسَمْتُ رهطَ أبى فِرَاس
وقالت كاهــلٌ وبنــو قُعَيْنٍ * خنَـانَكَ إننـا لسنا بنـاس
فمـا بالُ النِّعاج ثَغَتْ بشَتْمِى * وفى زَمَعَاتِهن دمُ الفــراس
وما حامتْ عن الأحساب إلا * لــترفع ذكرَها بأبى نواس

عارضه الحكم وهجاه ، فانقلب على النزارية وادّعى أنه من [illegible] حاء وحكم ، فزجره يزيد بن منصور الحميرى خال المهدى وقال له : أنت خوزى ، ما لك ولحاء وحكم! فقال له : أنا مولى لهم ، فتركوه ، وقال بعضهم لبعض : إنه لطيف اللسان [illegible] فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصّب لنا ويكايد عنا ويهجو النزارية ، فكان كما قالوا [illegible] ، فانقلب الى اليمن وعَدَل عن كنيته بأبى فراس واكتنى بأبى نواس ، تشبّها بكنية ذى نواس كما كانت اليمن تكتنى ، وندم على هجاء اليمن ، ووجد لهم أعذاراً [illegible] أقبل ، فاعتذر الى هاشم بن حُديج الكندى من هجائه ، ومدح اليمن فقال :

أهاشمُ خذْ منّى رضاك وإن أتى * رضاك على نفسى فغــيرُ ملوم
فأُقسِمُ ما جاوزتُ بالشتم والدى * [illegible] وما مزّقتُ غيرَ أديمى
فعُــذتُ بقوميّ [illegible] * كريمٌ أراه فــوق كلّ كــريم
وإنّ امرأً أغضى على [illegible] * [illegible] فيــه لجَــدُّ حليم
تطاوَلَ فوقَ النـاس حتى كأنما * [illegible] به نجمًا أمام نجــوم

(١) جمع قوس .

اذا آمتازتِ الأحسابُ يوما بأهلها * أناخَ الى عاديّــةٍ وصَمــيم
الى كلّ مَعصُوبٍ به التّاجُ مِقوَلٍ * اليـــه أيادى عامرٍ وتَمــيم

وكان قبل أن ينتمى لليمن ويدعّى لنزار يتعاجم فى شعره، فمن ذلك قوله :

فاسقنيها وغنِّـــ صَوْ * تًا، لك الخـــيرُ، أعجما
ليس فى نعتِ دِمْنـــةٍ * لا ولا زَجْـــر أشأَما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبى نواس شعرا يفضُل هذه القصيدة وهى :

ودارِ نَدامَى عطّلوها وأدلجـــوا * بهـا أثرٌ منهــم جديدٌ ودارسُ
مَساحِبُ من جرّ الزِّقاق على الثّرى * وأضغاثُ ريحانٍ جنىٌّ ويابسُ
حبستُ بها صَحبى فجدّدتُ عهدَهم * وإنّى عـــلَى أمثال تلك لحابسُ
ولم أدرِ منهم غيرَ ما شهِـــدتْ به * بشَرقىّ ساباطَ الديارُ البسابسُ
أقمنـا بهـا يومًا ويوما وثالثـا * ويوما له يومُ الـــترحُّل خامسُ
تُـــدار علينـا الراحُ فى عَسجديّة * حَبَتْهـا بأنواع التّصـاوِير فارس
قرارتُهـا كِسرَى وفى جَنباتها * مَهًا تّدريها بالقِسىّ الفـــوارسُ
فللخمر ما زُرّت عليـــه جُيوبُها * وللمـاء ما دارتْ عليـــه القَلانسُ (١)

وقوله يصف كَرمة وعبّر عنها بالهَجْمة وهو يريد الدِّنان :

لنـا هَجمةٌ لا يُدرِك الذئبُ سَخلَها * ولا راعَها نَزْوُ الفِحالة والخطـــر
اذا امتُحِنت ألوانُها مالَ صفوُها * الى الكُمْت إلا أن أوبارَها خُضرُ
وإن قام فيها الحالبون آتّقتهُمُ * بنَجـلاء ثقب الجوف دِرّتُها الخمرُ
مَسارحها الغربىُّ من نهر صَرصَر * فقُطْـرَبُّلٌ فالصّالحيّـــةُ فالعَقْـرُ

---

(١) يعنى أن الخمر مصبوب فيها الى حلوق الصور صرفا . وقوله : وللماء، يعنى انهم صبوا الماء فى مزجها حتى علا رءوسها .

تُراثُ أبي ساسانَ كسرى ولم تكن * مواريثَ ما أبقت تميمٌ ولا بكر
قَصرتُ بها ليلي وليلَ ابنِ حُرّة * له حسبٌ زاكٍ وليس له وَفر

وفي تعاجُم أبي نواس في شعره يقول الرقاشيّ يهجوه :

نَبَطيّ فاذا قيل له * أنت مولى حَكَمٍ قال أجَلْ
هو مولى الله اذ كان به * لاحقًا فالله أعلى وأجلّ
واضعا نسبته حيثُ اشتهى * فاذا ما رابَه ريبٌ رَحَل

فقال أبو نواس يهجوه :

هجوتُ الفضلَ دهري وهو عندي * رَقاشيٌّ كما زعم المسولُ
فلما سُوئلتْ عنه رقاشٌ * لنعلم ما تقول وما يقول
ولمّا أن نصصناه اليها * لتعلم ما يُقال وما نقولُ
وجدنا الفضلَ أبعدَ من رقاش * من الأَتُن ادّعت فيها الفُيول
وجدنا الفضلَ أكرمَ من رقاش * لأنّ الفضلَ مولاه الرسولُ

يريد بذلك قولَه صلّى الله عليه وسلّم : «أنا مولى من لا مولى له» .

وقال أيضا يهجوه :

قل للرقاشيّ اذا جئته * لو متّ يا أحمقُ لم اهْجُكا
لأنني أكرِم عِرْضي ولا * أقرُنه يومًا الى عِرْضكا
إن تهجُني تَهْجُ فتى ماجدا * لا يرفع الطَّرْفَ الى مثلكا
دونَك عِرضي فاهْجُه راشدًا * لا تَدْنَسُ الأعراضُ من هجوكا
والله لو كنتُ جريرًا لما * كنتُ بأهجى لك من أصلكا

وقال أيضا يهجوه :

يا عربيًّا من صَنْعة السُّوق * وصنعةُ السُّوق ذاتُ تشقيق
ما رأيكم يانزارُ في رجل * يدخل فيكم من خَلْق مخلوق

ويحمـل الوَطْبَ والعـلاب ولا * يصـلُح إلّا لحمـلِ إبريق
لقد ضربنـا بالطبـل أنك فى الـ * ـقوم صحيـحٌ وصيحٌ فى البُـوق
قـد أخذ اللهُ من رقاش على * تركهمُ المجـدَ بالمواثيـق
فالناس يسـعَوْن للعلا قُـدُمًا * وهم وراءُ مكسّرو السُّـوق
هـذا كذا كم وفى الهيـاج اذا * هِيجَ فما شئتَ من بواشيق (١)

وقال أيضا يهجوه :

أصبح الفضـلُ ظاهرَ التِّيهِ * وذاك مذ صِرتُ أُهاجيـهِ
لله شـعرى، أىّ مفْـوَاهةٍ * لكلّ من دونى قوافيـهِ
كم بين فضلٍ منذ هاجيتُه * وبينـه قبـلَ أُهاجيـهِ
فالحمـد لله وإن كنتُ لم * أحفِـلْ بقومٍ نَصَحوا فيـه
رَضيتُ أن يشـتمنى ساقطٌ * شِسْعِى خيرٌ من مَواليـه

وكان أبو نواس فى دعاويه يتماجَنُ و يعبث ويُخفى نسبه واسمَ أمّه لئلا يُهْجَى، وذلك مشهور عنه . ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يَحْتشِم . والمذكور من أمره أنه كان مولى الحَكَميّين، يفتخر باليمن و يمدحهم لذلك، و يمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم، فلذلك قال فى العجم ما قال .

قال ابو الفرج الأصفهانى : كان أبو عُبَيدة يقول : ذهبتِ اليمنُ بجِدّ الشعر وهزله : امرؤ القيس بجِدّه، وأبو نواس بهزْله . وكان يقول : ذهبت اليمنُ بجيـد الشعر فى قديمه وحديثـه : امرؤ القيس فى الأوائل، وأبو نواس فى المحدثين . وكان يقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس وحسّان بن ثابت وأبو نُوَاس . وقال أيضـا : أبو نواس فى المحدثين مثل امرئ القيس فى المتقدمين، فتح لهم هـذه الفِطَنَ ودلّهم على المعـانى وأرشدهم الى طريق الأدب والتصرف فى فنونه . وكان يقول : يعجبنى من شعر أبى نواس قوله :

(١) جمع باشق وهو اسم طائر، أعجمى معرب .

بَنَينا على كسرى سماءَ مُدامةٍ * مكلَّلة حافاتُها بنجوم
فلو رُدّ فى كسرى بن ساسان روحُه * إذًا لاصطفانى دونَ كل نديم

وسئل يعقوب بن السِّكِّيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: اذا أردت من الجاهليين فلامرئ القيس والأعشى ، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق، ومن المحدَثين فلأبى نواس فحَسْبُ . وقيل : للعُتْبى من أَشْعرُ الناس؟ قال : عند الناس أم عندى؟ قيل عند الناس؟ قال : امرؤ القيس؛ قيل : فعندك؟ قال : أبو نواس .

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة : من طلب الأدب فلم يَرْوِ شعرَ أبى نواس فليس بتامّ الأدب . وسئل : من أشعرُ المحدَثين؟ فقال: الذى يقول :

كأنّ ثيابَه أطلعـ * ـن من أزراره قمَرا
يزيدك وجهُه حسنًا * اذا ما زدتَه نظرا
بعينٍ خالط التفتيـ * ـرُ من أجفانها الحَوَرا
ووجهٍ سابرىٍّ لو * تصوَّب ماؤه قطَرا
وقد خطَّت حواضنُه * له من عنبرٍ طُرَرَا

وقال ابراهيم بن العباس الطويل : اذا رأيت الرجلَ يحفظ شعر أبى نواس علمت أن ذلك عنوانُ أدبه ورائدُ ظَرْفه .

وكان أبو نواس يقول عن نفسه : سفَلْتُ عن طبقة من تقدّمنى من الشعراء وعلوت عن طبقة مَنْ معى ومن يجىء بعدى، فأنا نسيجُ وَحْدى .

وحدّث جماعة من الرواة ممن شاهد أبا نواس قالوا : كان أقلَّ ما فى أبى نواس قولَ الشعر، وكان فحلا راويةً عالما .

وقال أبو عبيدة : بلغنى أن أبا نواس يتعاطى قَرْض الشعر فتلقّانى وهو سكرانُ ماطَرّ شاربُه بعدُ، فقلت له : كيف فلان عندك؟ فقال : ثقيل الظل، جامد النسيم؛ فقلت : زِدْ ؛ فقال : مظلم الهواء، منتِنُ الفِناء، فقلت : زد ، فقال : غليظ الطبع، بارد الشكل،

قلت : زد ؛ فقال : وَخْم الطَّلْعة ؛ عَسِر القَلْعة ؛ قلت : زد ؛ قال : ناتئ الجَنَبات ، بارد الحركات ؛ قال : تخفَّفْتُ عنه ؛ فقال : زدنى سؤالا ، أزدْك جوابا ؛ فقلت : «كفى من القلادة ما أحاط بالعنق» .

وقال سليمان بن أبى سَهْل لأبى نواس : ما الذى استُجيد من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعارى فى الخمر لم يُقَل مثلُها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى إن لم يزاحم غزلى ما قلته فى الطَّرْد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيتُ لستين امرأة من العرب منهن الخَنْساء وليلى ، فما ظنك بالرجال ؟ وانى لأروى سبعمائة أُرْجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلَفًا فى نظم الشعر ، فقال : لا آذَنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظَ ألفَ مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومَقْطوعة ؛ فغاب عنه مدةً وحضر اليه فقال له : قد حفظتُها ؛ فقال : أنشِدْها ، فأنشده أكثَرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يأذن له فى نَظْم الشعر ؛ فقال له : لا آذنُ لك إلا أن تنسى هذه الألفَ أرجوزة كأنك لم تحفظْها ، فقال له : هذا أمر يصعُب علىّ فإنى قد أتقنت حفظَها ، فقال له : لا آذن لكَ إلا أن تنساها ، فذهب الى بعض الدِّيرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتُها حتى كأنْ لم أكن قد حفظتُها قطّ ؛ فقال له : الان فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعرًا جيِّدا حتى تكون نفسى طيبة ، وأكونَ فى بستان مونق ، وعلى حال أرتضيها من صلةٍ أُوصَل بها أو وعدٍ بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعارًا لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياما ، ثم يعرضها على نفسه فيُسْقِط كثيرًا منها و يترك صافيَها ، ولا يسرّه كلُّ ما يَقْذف به خاطرُه . وكان يهمّه الشعرُ فى الخمر فلا يعمله إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشعر بالبطىء ولا بالسريع بل كان فى منزلة وُسْطَى .

وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائلُه وهو :

ضعيفَةُ كَرِّ الطَّرْف تحسَب أنها * قريبـةُ عهدٍ بالإفاقة من سُقْمِ

وإنّي لآتي الأمرَ من حيث يُتَّقَى * ويعلَم سَهْمِي حينَ أَنْزِع مَنْ أَرْمِي

قال العَتَّابِيّ لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فُضِّل عليـه أحد .

وقال أبو عمرو الشَّيْباني : أشعرُ النـاس في وصف الخمر ثلاثة : الأَعْشى والأَخْطل وأبو نُوَاس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعرٌ في عصر أبي نواس إلا وهو يحسُده لميل الناس اليـه وشهوتهم لمعاشرته ، وبُعْد صِيتِه وظَرْف لسانه .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : اذا أردتُ أن أَجِدَّ ، قلتُ مثـل قصيدي « أيُّهـا المنتابُ عن عُفُرِهْ » ، واذا أردت العبثَ قلت مثل قصيدي : « طاب الهوى لعميده » ، فأما الذي أنا فيه وحدي وكلُّه جيدٌ فاذا وصفت الخمر .

وقال أبو ذَكْوانَ : كنا عنـد التَّوَّزيّ فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع منـه بعضُ الحاضرين ، فقال له التوزي : أتقول هذا لرجل يقول :

يخـافُه النـاسُ ويرجُونه ، كأنه الجنـةُ والنـارْ

ويقـول :

فمـا جازه جودٌ ولا حـلّ دونَه ، ولكن يصير الجـودُ حيث يصيرُ

ويقـول :

فتمَشّتْ في مَفَاصلهـمْ ، كتمشِّي البُرْءِ في السَّقَم

قال ابن الأعرابي يوما لجلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس في الخمر؟ فقال بعضهم :

اذا عَبَّ فيهـا شاربُ القوم خلتَه ، يُقبِّل في داجٍ من الليـل كوكبا

وقال آخر :

كأن كُبْرَى وصُغْرَى من فَقَاقعها * حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حيث ما كانتْ من البيت مَشْرِقاً * وما لم تكن فيـــه من البيت مَغرِبا

وقال آخر :

فكأنّ الكؤوسَ فينا نجومٌ * دائراتٌ بروجُها أيدينـا

وقال آخر :

صفراءُ لا تنزلُ الاحزانُ ساحتَهـا * لـــو مَسّها حَجَـــرٌ مسته سَرّاءُ

فقال ابن الأعرابى : إن هـذا كله لشاعر آنفرد بالإحسان فيه ، وتقدّم من سبقه ومن تأخر عنه، ولكنه أشعر من هذا كله فى قوله :

لا ينزِلُ الليـــلُ حيث حَلّتْ * فـــدهرُ شُـــرَّابِهـا نهـارُ

قال مسلم بن بهرام : لَقِيتُ أبا العَتَاهِيَة فقلت له : من أشعرُ النـاس ؟ قال : تريد جاهليّاً أو إسلاميّاً أو مولّدها ؟ قال : كُلّا أُريد، قال : الذى يقول فى المديح :

اذا نحن أثنينـا عليـك بصـالحٍ * فأنت كما نُثْنِى وفـــوق الذى نُثْنِى

وإن جَرَتِ الألفاظُ يوماً بمدحةٍ * لغـــيرك إنساناً فأنت الذى نَعنِي

والذى يقول فى الزهد :

ألا ربّ وجهٍ فى التُّراب عَتيــقِ * و ياربّ حُسْنٍ فى التراب رقيــقِ

و ياربّ حزمٍ فى التراب ونَجْـــدةٍ * و ياربّ رأيٍ فى التراب وَثيـــقِ

فقـــل لقريب الدار إنك راحلٌ * الى منزِلٍ نائى المَحَـــلِّ سَحيـــقِ

وما النـاسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ * وذُو نَسَبٍ فى الهـالكين عريقِ

اذا امتحن الدنيا لَبيبٌ تَكَشَّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثيـاب صـــديقِ

وكان يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة أبيات وَدِدتُ انى سبقته اليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبيرَ الذّنب عفوُ اللّـ * ـه من ذنبك أكبرْ

وقوله :

مَنْ لم يكن لله متّهما * لم يُمْسِ محتاجًا الى أحَدِ

وقوله :

اذا ٱمتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ

ثم قال : قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت وَدِدتُ أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النَّظّام يقول ، وقد أنشد شعراً لأبى نواس : كأن هذا الفتى جُمِع له الكلامُ فاختار أحسنَه . وقال بعضهم : كأن المعانى حُبِستْ عليه ، فأخذ حاجتَه وفرّق الباقى على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعانى مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدّث الحسين بن الخصيب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ أنا وعبدُ الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلقٍ على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر : يا أبا العباس ، مَنْ أشعرُ مَنْ قال الشعر فى خلافة بنى هاشم ؟ فقال : أميرُ المؤمنين أعرفُ بهذا وأعلى عينا ، فقال له المأمون : على ذلك فَقُلْ ، تكلم أنت يا أحمد بن يوسف ، فقال عبد الله بن طاهر : أشعرُهم الذى يقول :

ويا قبرَ معنٍ كنت أوّلَ حُفْرة * من الأرض خُطّت للسّماحة مَنزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقلت : بل أشعرُهم الذى يقول :

أشْبهتِ أعدائى فصرتُ أحبُّهمْ * إذ كان حَظّى منك حَظّى منهُمُ

فقال المأمون : يا أحمد أبيتَ إلا غَزَلا ! أين أنتم عن الذى يقول :

يا شقيقَ النَّفْس من حَكَمٍ * نِمْتَ عن لَيْلِى ولم أنَمِ

فقلنا : صدقتَ يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفتْ نفسَها كما وصفها أبو نواس فى قوله :

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكَشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثياب صـــديق

وَرَد على العتابى بحَلَب عِدّةٌ من الكِبَار من أهل قِنَّسْرين، فدخلوا وسَلّموا ، وكان فى يده رُقْعـة ينظر اليها ، فقال لهم : لقد سَلَكَ صاحبُ هـذه الرُّقعة وادياً ما سلكه أحدٌ قبله ، فنظروا فاذا هو شعر أبى نواس فى جِنان جارية آل عبد الوهّاب الثقفىّ ، وهو قوله :

رَبْعُ الكَرَى بين الجفـون مُحِيـلُ * عَفّى عليـه بُكًى عليـك طويلُ

يا ناظـرًا ما أقلعتْ لحظـاتُه * حـتى تشحّط بينهن قتيـلُ

أحللتُ قلبى من هـواكَ مَحِلَّةً * ما حلَّهـا المشروبُ والمأكولُ

بكمال صـورتك التى من دونهـا * يتحـيّر التشبيـهُ والتمثيـلُ

فـوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقَها * دون السَّمين ودونَها المهـزولُ

ومما أنشده العتابى لأبى نواس فقال أحسن وأجاد :

متتـايهٌ بجمـاله صَـلِفٌ * لا يسـتطاع كلامُـه تيهـا

للحسن فى وَجَنـاته بِدَعٌ * ما إن يَمَـلُّ الدرسَ قاريهـا

لو كانت الأشـياءُ تعقـله * أَجْللنَـه إجـلالَ باريهـا

لو تستطيع الأرض لانقبضت * حـتى يصـير جميعه فيهـا

وقـوله :

إن السحابَ لتستحيي اذا نظـرتْ * الى نـداك فقاسـتْه بمـا فيهـا

حـتى تَهُـمّ بإقـلاعٍ فيمنعُها * خوفٌ من السُّخْط من إجلال منشيها

قال محمد بن صالح بن بَيْهَس الكلابى : لما دخلتُ العراقَ صرتُ الى مدينة السلام فسألت عمّن بها من الشعراء المحسنين ، وذلك فى أيام خلافة الأمين أو عند موته قبل دخول المأمون بيسير، فقيل لى : قد غلب عليهم فتًى من أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هانئ ويعرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئا من شعره ، فأتاني فتى كان من أهل الأدب ، فقلت له : هل تروى لأبي نواسكم هذا شيئا ؟ قال : أروى له أبياتا فى الزهد وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ، فأنشدنى :

أخى ما بالُ قلبِك ليس ينْقَى ... كأنك لا تظُنّ الموتَ حَقّا
ألا يا بنَ الذين فَنُوا وبادوا ... أما والله ما ذهبُوا لتَبْقَى
وما للنفس عندكَ من مُقَام ... اذا ما آستكملتْ أجَلًا ورِزْقا
وما أحدٌ بزادك منك أحْظَى ... ولا أحدٌ بذنبك منك أشْقَى
ولا لكَ غيرَ تقوى الله زادٌ ... اذا جعلتْ الى اللَّهَوات ترْقَى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسنَ من هذا ؟ قلت بلى ، فأنشدنى فى رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمد ... وليس لما تَطْوى المنيةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عَبْرةٌ تستديمُها ... أحاديثُ نفسٍ مالها الدهرَ ذاكرُ
لئن عَمَرتْ دور بمن لا أودّه ... لقد عَمَرتْ ممن أحبُّ المقابِرُ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدَه ... فلم يَبْقَ لى شىءٌ عليه أحاذرُ

فقال : بحقّ ما غلب هذا على أهل الأدب وقدّموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأَصَمّ : كنا عند أبي نُعيم ، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حين ذكرتْ شعرَ لَبِيد يَرْثِي أخاه أربد :

ذَهَبَ الذين يُعاشُ فى أكنافهم ... وبَقِيتُ فى خَلْفٍ كجِلد الأجرب

ولقد أنشدنى أبو نعيم أبياتا ، قلنا : أنشدناها ، فقال :

ذهبَ الناسُ فاستقلُّوا وصِرْنا ... خَلَفًا فى أراذل النسناسِ
فى أُناسٍ نَعُدُّهم من عديد ... فاذا فَتَّشُوا فليسوا بناسِ

كلما جئتُ أبتغى الفضلَ منهم * بَدَرُونى قبـــل السؤال بيـاس
وبَكَوْا لى حتى تمنّيتُ أنّى * مُفْلَتٌ عنـــد ذاك رأسًا براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر؟ قلنا : لا، قال : للحسن بن هانىء .

قال أبو عبد الرحمن الضَّرير : رأيتُ مسلم بن الوليد بجُرْجان وهو يتولّاها، فسألنى عمن خَلّفتُ من الشعراء، فقلت له : أما من الكوفيّين فأبو نواس، وهو مقدَّم عندهم؛ فقال : ويحك ! كيف يتقدّم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يا إنسانُ لا أنت تَقْفِزُ أرأيتَ قوله : « تقفز » خرجتْ من بين فَكَّىْ شاعرٍ قط ! ثم قال : ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يُحيل ويتخطّى من صفة المخلوق الى صفة الخالق؟ فقلت : مثل ماذا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال فكقوله :

وأخفتَ أهـــلَ الشِّرْكِ حتى إنه * لَتَخافُك النُّطَفُ التى لم تُخْـــلَقِ

وهــذا من الإغراق المستحيل فى العقول ومما ليس على مذهب القوم ؛ وأما فى تخطّيه بصفة المخلوق الى صفة الخالق فكقوله :

يَجِـــلّ أن تلحَقَ الصفاتُ به * فكلّ خُلْقٍ لخُلْقــه مثـــلُ

وكقـــوله :

* برىءٌ من الأشباه ليس له مثل *

ومما قيل عن أبى نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحسنهما، وأجودُ شعره فى الخمر والطَّرْد ، وأحسنُ ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سَرَقه، وحُسْبُك من رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يُحسن أن يَبْنى عليه حتى يجىءَ به قبيحا، مثل قوله : « وداوِنى بالتى كانت هى الداءُ» أخذه من قول الأعشى : «وأخرى تداويتُ منها بها» والذى أخذه منه أحسن . ومنها أيضا قولُه : « إن الشَّبابَ مطيّةُ الجهلِ » أخذه من قول النابغة الجَعْدىّ : «فإنّ مطيّةَ الجهلِ الشّبابُ» . وقوله : « كطالعة الأشمط من إهابه »أخذه من قول أبى النجم : « كطلعة الأشمط من كسائه» . ولكن رُزِق أبو نواس فى شعره أن سار وحَمَله الناسُ وقدّمه أهلُ عصره، وإن له على ذلك لأشياءَ حِسانًا لا يدفعها ولا يطرَحها إلا جاهلٌ بالكلام أو حاســـد .

ومن أحسن مدائح أبى نواس قوله من أرجوزته التى يمدح بها الفضل بن الربيع وهى :

وبلدة فيها زَوَرْ * صَعْراءَ تخطَّى فى صَعَرْ
مَرْتٍ(١) اذا الذئبُ اقتفرْ * بها من القومِ الأثرْ
كان له من الجَزَرْ * كلُّ جنينٍ ما اشتكرْ(٢)
ولا تَعَلَّاه شَعَرْ * مَيْتُ النَّسَا حىُّ النَّغَرْ
عَسَفْتُها(٣) على خَطَرْ * وغَرَرٍ من الغَرَرْ
ببازلٍ حين فَطَرْ * يَهُزُّه جِنُّ الأَشَرْ
لا مُتَشَكٍّ من سَدَرْ(٤) * ولا قريبٍ من خَوَرْ
كأنّه بعدَ الضُّمُرْ * وبعدَ ما جال الضُّفُرْ(٥)
وانْمَحَّ فىّ خَسَرْ : * جأْبٌ(٦) رَبَاعُ المُثَّغَرْ
يَحْدُو بُحُقْبٍ كالأُكَرْ * ترى بأثباجِ القَصَرْ(٧)
منهنّ توشيمُ الجَدَرْ * رَعَيْنَ أبكارَ الخُضَرْ
شَهْرَىْ رَبيعٍ وصَفَرْ * حتى اذا الفحلُ جَفَرْ(٨)
وأشبه السَّفَى الإبَرْ * ونَشَّ أَذْخَارُ النُّقَرْ(٩)
قُلْنَ له : ما تأتمرْ ؟ * وهنَّ إذ قُلْنَ : أَشِرْ
غيرُ عَوَاصٍ ما أَمَرْ * كأنّها لمن نَظَرْ
رَكْبٌ يَشِيمُونَ مَطَرْ * حتى اذا الظِّلُّ قَصُرْ

(١) المرت : الأرض لا نبات فيها ، واقتفر الأثر : اقتفاه وتبعه . (٢) الجزر (بفتحتين) : ما يذبح من الشاء ذكرا كان أو أنثى . وواحدته : جزرة . وما اشتكر : لم ينبت له الشكير وهو الضعيف من الشعر الذى لا يكاد يظهر . (٣) عسفها : سلكها متخبطا ، والغرر : الخطر . (٤) السدر : التحير .
(٥) الضمر (بالضم وبضمتين) : الهزال . والضفر : جمع ضفار (بالفتح) وهو ما يشدّ به البعير من شعر مضفور .
(٦) الجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش . (٧) الأثباج جمع ثبج وهو وسط الشىء ، والقصر جمع قصرة وهى أصل العنق . (٨) جفر : امتنع عن الضراب .
(٩) السفى : كل شجر له شوك ، ونش : نضب ، والنقر : جمع نقرة وهى الوهدة المستديرة من الأرض .

يَمَّمْنَ من جَنْبَيْ هَجَرْ * أخضرَ طَامِ العَكَرْ
وبين أحقاف القَتَرْ * سَارٍ وليس للسَّمَرْ
ولا تِلَاوات السُّوَرْ * يمسح مِرْنَاناً (١) يسِرْ
زُمَّتْ بمشزورِ المِرَرْ * لأْمٍ كحُلْقومِ النُّغَرْ (٢)
حتى إذا اصْطَفَّ السَّطَرْ * أهدَى لها لو لم تُجِرْ
دَهْياءَ يَحْدُوها القَدَرْ * فتلكَ عَنْسٌ لم تُدَرْ
شَهْبَا إذا الآلُ ظَهَرْ * إليكَ كلَّفْنا النَّفَرْ
خُوصًا يُجاذِبْنَ النَّظَرْ * قد انطوتْ منها السِّرَرْ
طَيَّ القَرَارِيِّ (٣) الحِبَرْ * لم تتقعَّدْها الطِّيَرْ
ولا السَّنِيحُ المزدَجَرْ * يا فَضْلُ للقوم البَطَرْ
إذ ليس في الناس عَصَرْ * ولا من الخوف وَزَرْ
ونزلتْ إحدى الكُبَرْ * وقيلَ صمَّاءُ الغِيَرْ
فالناسُ أبناءُ الحَذَرْ : * فرَّجتَ هاتيكَ الغُمَرْ
عنَّا «وقد صابَتْ بقُرْ» (٤) * كالشمس في شخصِ بَشَرْ
أعيا مُجارِيكَ الخَطَرْ * أبوكَ جَلَّى عن مُضَرْ
يومَ الرِّواق المحتَضَرْ * والخوفُ يفْرِي ويَذَرْ
لما رأى الأمرَ اقمطرّْ (٥) * قام كريمًا فانتصَرْ
كهَزَّة العَضْبِ الذَّكَرْ * ما مسَّ من شيءٍ هَبَرْ (٦)

(١) المرنان : القوس . (٢) زمت : شدّت ، ومشزور مفتول ، والمرر : جمع مرة وهى قوّة الفتل ، واللأم : الشديد ، والنغر : كصرد البلبل . والعرب تشبه الدقيق بالأوتار وحلاقيم النغران . (٣) القرارى : الخياط
(٤) القر : القرار ، يقال اذا وقع الأمر موقعه : صابت بقر ووقعت بقر . قال طرفة بن العبد البكرى :

كنت منهم كالمغطى رأسه * فانجلى اليوم غطائى وخمر
سادرا أحسب غيي رشدا * فتناهيت وقد صابت بقر

(٥) اشتد . (٦) هبر : قطع .

وأنت تقتافُ الأثر * من ذى حُجُول وغُرَرْ
معيد وِرْدٍ وصَدَر * وإن علا الأمرَ اقتدر
فأين أصحابُ الغَمَر * اذ شَرِبوا كأس المَقِر (١)
وقَصَّروا فيمن قَصِر * هيهات لا يخفى القمر
أصحرتَ اذ دبّوا الخَمَر (٢) * شكرا، وحرٌّ مَنْ شكر
فالله يُعطيك الشَّبَر (٣) * وفى أعاديك الظَّفَرْ
والله مَنْ شاء نَصَر * وأنت إن خِفْنا الحَصَر (٤)
وهرّ دهرٌ وكشَرْ * عن ناجِذَيْه (٥) وبسر
أغنيتَ ما أغنى المَطَرْ * وفيك أخلاقُ اليَسَر
فإن أبوا إلا العَسَرْ * أمررتَ (٦) حبلا فاستمرّ
حتى ترى تلك الزُّمَر * تَهْوِى لأذقان الثُّغَر (٧)
من جذب ألْوَى (٨) لو نتر * اليه طَوْدًا لانأطَرْ (٩)
صعبٍ اذا لاقى أبَرْ * وإن هفا القومُ وَقَرْ
أو رَهِبُوا الأمرَ جَسَرْ * ثم تَسامى فَفَغَرْ
عن شِقْشِق ثم هَدَرْ * ثم تَناجى فخَطَرْ
بذى سَبِيبٍ (١٠) وعُذُرْ * يضمخ أطرافَ الوَبَرْ
هل لك والهَلّ (١١) خَيَرْ * فيمن اذا غبتَ حَضَرْ
أو نالكَ القومُ ثأرْ * وإن رأى خيراً شَكَرْ
* أو كان تقصيرٌ عَذَرْ *

---

(١) المقر: المر. (٢) أصحرت: برزت الى الصحراء. ودبوا الخمر: مشوا مختفين. والخمر: ما سترك من شجر أو بناء أو نحوه. (٣) الخير والقوة. (٤) الضيق. (٥) كشر أبدى عن ناجذيه، وبسر: عبس. (٦) أى أحكمت فتله. (٧) جمع ثغرة وهى نقرة النحر. (٨) الألوى: الشديد الخصومة. (٩) اعوج وانثنى. (١٠) السبيب: شعر الذنب والعرف والناصية، والعذر جمع عذار. (١١) قصد لفظ هل الاستفهامية وأدخل عليها الألف واللام.

ولمـا عمل أبو نواس القصـيدة التى أوّلهـا : * ومستعبدٍ إخوانَه بثرائه * بلغت الأمينَ، فبعث اليه، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاضَّ بَظْرِ أمّه العاهرة، ويامدّعىَ ولاءِ حاءَ وحَكَمٍ ! أتدرى يابنَ اللّخْناء من توليت والى من ادّعيت؟ الى ألأمِ قبيلتين فى اليمن، عُلُوجٍ باغين . أنت تكتسب بشعرك أوساخَ أيدى الناس اللئام، وتقول : * ولا صاحب التاج المحجَّب فى القَصْر * أما والله ما نلتَ منّى شيئًا بعد ذلك أبدا ! فقال له سليمان بن أبى جعفر : إى والله ! نعم هو مع هذا من كبار الثنوية (1) (وكان يرمى بذلك)؛ فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشىء من ذلك؟ فأتاه سليمان بعدّة نفرٍ، فشهدوا عليه أنه شرب فى يوم مَطِير فوضـع قدحَه تحت السماء فى المطر فوقع فيـه المطر؛ فقالوا له : ما تصنع بذلك وَيْحَك ؟ قال : أنتم تزعُمون أنه ينزل مع كل قطـرة مَلَكٌ، فكم ترانى أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما فى القـدح؛ فغضب محمد، وأمر به الى السجن . فذلك قول أبى نوّاس :

يا ربِّ إنّ القومَ قد ظلَمُونى * وبلا اقترافِ معطّلٍ حبَسُونى
وإلى الجحود بمـا عرفت خلافَه * ربِّى إليـك بكَذِبِهم نَسَبُونى
ما كان إلّا الجَرْىُ فى مَيْـدانهم * فى كلّ خزْى والمجَانَةُ دينِى
لا العذرُ يُقبَل لى ويَفْرَق شاهدى * منهم، ولا يرضَوْن حَلْفَ يمينِى
ما كان — لو يدرون — أولَ مَخْبأ * فى دار مَنْقَصة ومنزل هُونِ
أما الأمـينُ فلستُ أرجو دفعَـه * عنّى، فمن لى اليـوم بالمأمون

فبلغت أبيـاتُه المأمونَ، فقال : واللهِ لئن لحقتُه لأُغْنينّه غِنًى لا يؤمّله . فمات قبل دخول المأمون بغداد .

لمـا وصلت الخلافةُ الى محمـد الأمين وولّى الفضـلَ بن الربيع الوزارة، تفرّغ محمدٌ للّهو والصيد والنزهة، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لنزهة . فخرج ذات يوم وقد أمر الجندَ

(1) الثنوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فانهم قالوا بحدوث الظلام .

والقوادَ فركبوا، ولبس ثيابَه وتقلد سيفه ، وأُعِدّت الحَرّاقات(١) والزَّلّاجاتُ فى دِجْلة ؛ فقال له اسماعيلُ بن صُبَيْح — وكان كاتبَ سِرّه — : يا أميرالمؤمنين ان قوادَك وجندَك وعامّةَ رعيتك قد خُبُثَتْ نفوسُهم ، وساءت ظنونُهم ، وكبُر عندهم مايرَوْن من احتجابِك عنهم ، فلو جلستَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن فى ذلك تسكينا لهم ومراجعة لآمالهم ! فجلس فى مجلسه وأذن للناس عامةً فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا ، والشعراء فأنشدوا ، فلم يكن أحد منهم يتعدّى الى الاطناب والتطويل ، الا أُمِر بالسكوت ومُنِع من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل حَجَر ومَدَر ، وإبل ووصفٍ للبقر وبيوت الشَّعَر ، قد جَفَتْ ألفاظُهم ، وغَلُظتْ معانيهم ، ليس لهم بَصَر بمدح الخلفاء ونَشْر مكارمِهم ، فان رأى أميرُ المؤمنين أن يأذن لى فى إنشاده فليفعل ، فأذن له فأنشده :

أيا دارَها بالماء حتى تُلينَها * فلن تُكرِم الصَّهباءَ حتى تُهينَها
أُغالِي بها حتى اذا ما ملكتُها * أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونَها
وصفراءَ قبل المَزْج بيضاءَ بعده * كأنّ شعاع الشمس يلقاك دونَها
ترى العينَ تستعفيك من لَمَعانها * وتحسُرُ حتى ما تُقِلّ جفونَها
نَزُوعٌ بنفس المرء عما يَسُوءه * ويُحْذِلُه ألّا يزالَ قرينَها
كأنّ يواقيتا رواكدُ حولَها * وزُرْقَ سَنانيرٍ تدير عُيونَها
وشَمْطاءَ حلّ الدهرُ منها بنَجْوةٍ * دلفتُ اليها فاستللتُ جَنينَها
كأنا حُلُولٌ بين أكنافِ روضةٍ * إذا ما سلَبْناها مع الليل طِينَها

الى أن أكمل القصيدةَ . فقال له محمد : ألم أَنْهَكَ عن شرب الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتُها منذ نهيتَنى عنها ومنعتنى من شُرْبِها ، وأنا الذى أقول :

---

(١) الحراقات : ضرب من السفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو فى البحر .

أيُّها الرائحان باللوم لُوما * لا أذوق المدامَ الا شَميما
نالنى بالمَـلام فيهـا إمامٌ * لا أرَى لى خِلَافَه مستقيما
فاصرِفاها الى سِـواىَ فإنّى * لستُ الا على الحديث نديما
كبرُحظّى منها إذا هى دارتْ * أن أرَاها وأن أشمَّ النسيما
فكأنّى وما ازيّن منهـا * قَعَــدِىٌّ يُزَيّن التحكيما (١)
كلَّ عن حملِه السلاحَ الى الحر * ب فأوصَى المُطيقَ ألّا يقيما

فتبسّم محمد، وقال له : أحسنتَ ! وقام بعضُ الشعراء فأنشد :

ترقَّى فى فضـائله الامينُ * وزايلَه المُشَاكِلُ والقَـرِينُ
وأورق زَهْرةُ التقوى وعَزّتْ * خلافتُـه وصُـدِّقت الظُّنُونُ
تَمَسُّ منـابرَ الخلفاء منـه * يَدٌ بخلاف طاعتِها المَنُونُ
يخاف الخوفُ صولتَه و يرجو * نداه الجـودُ فهو له خَدِينُ

فقال عِدّة ممّن حضر : قد أوجَز وأجاد، أكرم الله أميرَ المؤمنين! فقال أبو نواس : أشعر منه يا أمير المؤمنين الذى يقول :

ألا يا خيرَ من رأتِ العيـونُ * نَظِـيرُك لا يُحَسُّ ولا يَكُونُ
وفضلُك لا يُحَـدّ ولا يُجَارَى * ولا تَحْوِى حيازتَه الظنونُ
فأنت نَسِيجُ وحْدِك لا شَـبِيهٌ * يُحَاشِيه عليـك ولا خَدِينُ
خُلِقتَ بـلا مشاكلة لشىء * فأنت الفَـوقُ والثقـلان دُونُ
كأن الملكَ لم يَكُ قبـلُ شيئًا * الى أن قام بالملكِ الامينُ

قال : ففضّله محمد وأحسن جائزتَه . و يقال : إنه قالها بديهًا .

---

(١) القعدى من الخوارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا، غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس .

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحَرّاقةَ الى الشَّمّاسيَّة، واصطفَّتْ له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحُملتْ معه المطابخُ والخزائن . وكان ركوبه حرّاقةً (١) على مثال الأسد . فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه، فقال :

سخَّر اللهُ للأمين مطايا * لم تسخَّر لصاحب المحراب (٢)

فاذا ما ركابُه سرْنَ بحرًا * سار فى الماء راكبًا ليثَ غاب

أسدًا باسطا ذراعيه يعدو * أهْرَتَ الشِّدْقِ كالحَ الأنياب (٣)

لا يعانيه باللِّجام ولا السَّو * طِ ولا غَمْزِ رجلِه فى الرِّكاب

عَجِب الناسُ إذ رأوْك على صو * رة ليثٍ تمُرُّ مَرَّ السحاب

سبَّحوا اذ رأوك سرتَ عليه * كيف لو أبصروك فوقَ العُقَاب

ذات زَوْر ومِنْسَرٍ وجناحـ * ـين تشُقُّ العُبَاب بعد العُبَاب

تسبِق الطيرَ فى السماء اذا ما اسـ * ـتعجلوها بجَيْئةٍ وذهاب

بارَك الله للأمين وأبقا * ه وأبقى له رداءَ الشباب

ملك تَقْصُر المدائحُ عنـه * هاشِمِىٌّ موفَّق للصواب

ويقال : ان هذا الشعر قاله أبو نواس فى محمد ، وقد ركب حراقتَه الدُّلْفِينَ ؛ فقال له شيخٌ الى جانبه : اِتّق الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ ، إن الله لم يسخِّر لصاحب المحراب الدُّلْفين، وقد سخر له ما هو خير من الدلفين، فأى شئ تنكر من هذا ؟

قال ابن حبيبَ : كنت مع مؤنس بن عِمْران، ونحن نريد الفضلَ بن الربيع ببغداد ، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبى نواس فى السجن فسلّمنا عليه ! ففعلنا ؛ فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان للامين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة، وهى الليث والعقاب والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس .

(٣) أهرت الشدق : واسعه . وكالح الأنياب : كاشرها .

لمؤنس: أين تريد ؟ فقال : أريد أبا العباس الفضلَ بن الربيع ، قال فبلّغه رقعةً أعطيكها ، قال : نعم ، فأعطاه رقعة فيها :

ما من يدٍ في الناس واحدةٍ * كيدٍ أبو العباس مَوْلاها
نام البُغَـاةُ على مضاجعهم * وسَرَى الى نفسى فأحياها
قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أمّنَنى * من أن أخافك خوفُك الله
فعفوتَ عنّى عفوَ مقتدر * وَجَبَتْ له نِقَـمٌ فألغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

انصرف أبو نواس من بعض المواخير سكرانَ ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة ، فدخل فقام فى الصف الأوّل ، فقرأ الأمام : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ فقال أبو نواس من خلفه : لبَّيكَ ، فلما قضيت الصلاة لبّبوه (١) وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بالكفر ودفعوه . فبلغ خبره الرشيد ، فدعا لَه حَمْدُويه صاحب الزندقة ، وأحضر أبا نواس فقال له حمدويه : يا أمير المؤمنين ، إن هـذا ماجن ، وليس هو بحيث يُظَنّ ، فقال له الرشيد : وَيْحَك ! إنه وقع فى نفسى منه شىء ، فامتحنْه . قال : فَخطَّ له صورة مانى (٢) ، وقال له : أَبصُق عليها ، فأهوى أبو نواس بفيه ليقىء عليها ، فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن . قال : ودعا برجل من الزنادقة مشهور ، وقال له : ابصق عليها ، فقال : وما معنى البُصَاق ! إنه من أخلاق الشِّرْك ولا أفعله ، وأبى أن يفعل . فقال الرشيد لبعض خدم القصر : امض بهذا (يعنى أبا نواس) الى السِّنْدى ، فقل له : أدِّبْه وأطلقه ،

(١) لببوه : أخذوا بلببه ، وهو موضع القلادة فى الصدر . (٢) هو مانى بن فاتك الحكيم ، الذى ظهر فى زمن سابور ذى الاكتاف بن أزدشير ، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور ، وذلك بعد عيسى عليه السلام . اتخذ له دينا بين المجوسية والنصرانية . وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق ، وكان فى الأصل مجوسيا عارفا بمذاهب القوم ، أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شىء الا من أصل قديم ، وأنهما لا يزالان قويين حساسين سميعين بصيرين ، وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان ، وفى الحيز متحاذيتان تحاذى الشخص والظل .

(انظر الملل والنحل للشهرستانى)

وبهذا (يعنى الزنديق) فقل له : احبسه قِبَلك الى أن تستتيبه، فان تاب وإلا قتلناه . قال : فمضى بهما الخادم ، فلما صار فى آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين تذهب بنا ؟ قال : الى السندى، قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قِبَلَه حتى تُستتاب أو تُقتل، ويؤدّب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يدَه ولطَمه، وقال له : يابن الزانية، من الساعة نسيتَ ! . وبَصُر بهم الرشيدُ، فقال : رُدّوهم ؛ فقال لأبى نواس : ما هذا الذى رأيتُ منك ؟ قال : أراد والله أن يُهْلِكَنى ويطرحنى بحيثُ أُنْسَى أبدا أو أبقى مخلَّدا ، سَلْه يا أمير المؤمنين عن الرسالة، فاذا هو قد غيّرها ؛ فضحك من أبى نواس وأطلقه .

قال رُزَين الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلىّ بن الخليل فى سوق الكَرْخ، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحدّث بها . فقال أبو نواس : أَدْبَرَ مَنْ كان فى نفسى وكان أسرعَ الخلق فى طاعتى، فما أدرى ما أحتال له ؟ فقال على بن الخليل يمازحه : يا أبا على، سَلْ شيخَك وأستاذَك يُعَطِّفْهُ عليك؛ فقال له أبو نواس : من تَعْنى ؟ قال : من أنت فى طاعته ليلَك ونهارَك (يعنى ابليس) فان لم يقضِ لك هذه الحاجة، فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ولا أن تُقرّ عينه بمعصية؛ فقال : هو أسَدُّ لرأيه من أن يُخِلّ بى أو يَخْذُلنى؛ وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعدَ أيام اجتمعْنا فى ذلك الموضع، وأخذنا فى أحاديثنا، فضحك أبو نواس؛ فقلنا له : ما أضحكك؟ فقال : ذكرتُ قول على بن الخليل يومئذ : سَلْ شيخَك يعطفه عليك . حينئذ قد سألتُه يا أبا الحسن فقضى الحاجة، وما مضت والله ثالثةٌ حتى أتانى من غير أن أبعث اليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبنى واسترضانى، وكان الغضب منه والتجنّى، وأحسب الشيخَ (يعنى ابليس) كان يتسمّع علينا فى وقت كلامنا، وقد قلت أبياتا فى ذلك؛ فقلنا : هاتها، فأنشد :

لما جفانى الحبيبُ وامتنعتْ ... عنّى الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدّ شوقى فكاد يقتلُنى ... ذكرُ حبيبى والهمّ والفِكَرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له * فى خَلْوة والدموع تنحـــدر:
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد * أقرح جَفْنى البكاءُ والســـهرُ؟
إن أنت لم تُلْقِ لى المودةَ فى * صـــدر حبيبى وأنت مقتدر
لا قلتُ شـعرا ولا سمعتُ غِنًا * ولا جرى فى مفاصِـلى السَّكَرُ
ولا آزالُ القرآنَ أدرُسُه * أروح فى درسِـه وأبتكـرُ
وألزم الصــومَ والصــلاةَ ولا * أزال دهرى بالخــير آتمــرُ
فما مضتْ بعــد ذاك ثالثةٌ * حتى أتانى الحبيبُ يعتـــذرُ
ويطلب الودَّ والوِصَالَ على * أفضلِ ما كانَ قبلَ يهتجرُ
فيالهـا مِنّةً لقـــد عظُمتْ * عنــدى لإبليس ما لهـا خَطَرُ

لما قَدِم أبو نواس على الخَصِيب[(١)] بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشده ، فقال له : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم منّى وأسنّ ، فأْذَنْ لهم فى الإنشاد ، فان كان شعرى نظيرَ أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكتُ ، فاستنشدهم الخصيبُ ، فأنشدوا مديحا فى الخصيب ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبى نوّاس ، فتبسّم أبو نواس ثم قال : أُنْشِدُك أيها الأمير قصيدةً هى بمنزلة عصا موسى تَتلقّفُ ما يأفِكُون؟ قال هات ، فأنشده قصيدته التى أوّلها :

أجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غَيُــورُ * ومَيسورُ ما يُرْجَى لديكِ عَسِيرُ

حتى أتى على آخرها ، فانفضّ الشعراءُ من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان خرج الى مصر فى زِىّ الشُّطَّار[(٢)] وتقطيعهم بطُرّة قد صَفَّفها وكُمَّين واسعين وذيل مجرور ونعـل مطبق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبى سهل ، فلما دخل على الخَصيب بهذه الصورة ازدراه واستخفّ به ، وكان تَرِد عليه كتبُ الجِلّة ممن

(١) هو الخصيب بن عبد الحميـد العجمى أمير مصر على الخراج . واليه تنسب منية الخصيب بالوجه القبلى وليس بابن صاحب نهر أبى الخصيب ، ذاك عبد للنصور يقال له مرزوق . وكان هـذا رئيسا فى أراضيه . فانتقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ، ثم انتقل الى الامارة .

(٢) الشطار : جمع شاطر وهو من أعيا أهله خبثا .

بباب السلطان، وورد كتب أبى نواس فيها فقرأها ولم يستنشده، فانصرف مهموما . وجاءه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب، فاستحضره فأنشده :

أجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غيورُ * وميسورُ ما يُرْجَى لديك عسيرُ
فان كنتِ لا خِلْما (١) ولا أنت زوجةً * فلا برِحَتْ دونى عليكِ ستورُ
وجاورتُ قوما لا تزاوُرَ بينهم * ولا وصلَ الّا أن يكون نُشُورُ
فما أنا بالمشغوفِ ضربةَ لازِبٍ * ولا كلُّ سلطانٍ علىّ قديرُ
وانّى لطَرْفِ العينِ بالعين زاجرٌ * فقد كدتُ لا يَخْفَى علىّ ضميرُ
كما نَظَرتْ والريحُ ساكنةٌ لها * عُقَابٌ بأرساغ اليدين نُدُورُ (٢)
طوتْ ليلتين القوتَ عن ذى ضرورةٍ * أُزَيْغِبَ (٣) لم ينبُتْ عليه شَكِيرُ
فأوفتْ على علياءَ حين بدا لها * من الشمس قَرْنٌ والضَّريبُ (٤) يمورُ
تقلِّبُ طرفًا فى حِجَاجَىْ (٥) مغارةٍ * من الرأس لم يدخُل عليه ذُرُورُ

ولما قال أبو نواس :

تقول التى من بيتِها خَفَّ مركبى : * عزيزٌ علينا أن نراك تسيرُ
أما دون مصرٍ للغنى متطَلَّبٌ ؟ * بَلَى إن أسباب الغنى لكثيرُ
فقلتُ لها واستعجلتها بوادرٌ * جرتْ فجرَى فى جَرْيِهِن عَبِيرُ
ذَرِينى أكثِّر حاسديك برِحْلةٍ * الى بلدٍ فيه الخَصيبُ أميرُ

قال له الخصيب : اذًا يكثُر حسادها وتبلغ أملَها، وأمر له بألف دينار .

---

(١) الخلم : الصديق . (٢) الندور : خروج العظم من موضعه أو زواله وفى البيت من سوء التركيب ما فيه، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأرساغ اليدين ندور والريح ساكنة . (٣) أزيغب تصغير أزغب وهو الفرخ ذو الزغب أى الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أوّل ما ينبت . (٤) الضريب : الثلج أو الجليد . ويمور : يتحرك أو يجيء ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الحجاجان مثنى حجاج وهو العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب . والذرور : ما يذر فى العين من الدواء .

وتمامها :

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب رِكابُنا * فأيَّ فتًى بعـــدَ الخصيب تزور !
فما جازه جـودٌ ولا حَلَّ دونَه * ولكن يصير الجودُ حيث يصير
فتًى يشتري حسنَ الثناء بمـاله * ويعــلم أن الدائراتِ تَدُورُ
ولم تَرَ عيني سُودَدًا مثـلَ سُودَدٍ * يحِـلُّ أبو نصـرٍ به ويسير
وأطـرق حَيَّات البلاد لحيَّـةٍ * خَصِيبيّةِ التصميم حين تَسُورُ (١)
سمَوْتَ لأهل الجور في حال أمنهم * فأضحَوْا وكلٌّ في الوَثاقِ أسـيرُ
إذا قام غنَّتْه على الساق حِليَـةٌ * لهـا خَطْوُه عنـد القيامِ قصيرُ
فمن يَكُ أمسى جاهلًا بمقَـالتي * فإن أمـيرَ المؤمنين خَبِـيرُ
فما زلتَ تُولِيه النصيحةَ يافعًا * الى أن بدا في العارضَيْن قَتِـيرُ (٢)
إذا غاله أمرٌ فإمّا كفَيْتَه * وإما عليـه بالكِفاءِ تُشـيرُ
إليك رمت بالقوم هُوجٌ كأنمـا * جماجمها تحت الرِّحال قبـور
رحلْنَ بنا من عَقْرَقُوفٍ (٣) وقد بدا * من الصبح مفتوقُ الأديم شَهِيرُ
فما نَجِدتْ (٤) بالمـاء حتى رأيتُها * مع الشمس في عينَيْ أَبَاغَ تَغُورُ
وغُمِّـرْنَ من ماء النقيب بشَرْبةٍ * وقد حان من ديك الصباح زَمِيرُ
ووافَيْنَ إشراقا كنائسَ تَدْمُرٍ * وهنّ الى رَعْنِ المدَخّن صُورُ (٥)
يؤُمّنَ أهلَ الغُوطتين كأنمـا * لهـا عنـد أهل الغُوطتَيْن ثُؤُورُ
وأصبحْنَ بالجولان يَرْضَخْنَ (٦) صخرَها * ولم يبق من أجراحهن شُـطُورُ
وقاسَيْنَ ليلا دون بَيْسانَ لم يكد * سَـنَا صبحِه للناظرين يُنيرُ
وأصبحن قد فوَّزْنَ من نهر فطرسٍ * وهنّ عن البيت المقـدّس زُورُ (٧)

(١) تسور : تثب . (٢) القتير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .
(٤) نجدت : عرقت .
(٥) صور : مائلات . (٦) يرضخن : يكسرن . (٧) زور : جمع زوراء بمعنى مائلة .

طوالب بالرُّكبان غرة هاشم * وفى القَرَما من حاجهن شُقور (١)
ولما أتت فسطاطَ مصر أجارها * على ركبها أن لا تزال مجير
من القوم بَسّامٌ كأن جبينَه * سَنَا الفجرِ يَسرى ضوءه وينير
زها بالخصيب السيفُ والرمح فى الوَغى * وفى السّلم يزهو منبرٌ وسرير
جوادٌ اذا الأيدى كففن عن الندى * ومن دون عورات النساء غَيور
له سَلَفٌ فى الأعجمين كأنهم * إذا استُؤذنوا يومَ السلام بدور
وإنّى جدير اذ بلغتك بالمنى * وأنت بما أمّلتُ منك جدير
فان تُولِنى منك الجميلَ فأهلُه * وإلا فإنّى عاذرٌ وشكور

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ * إن حُصِّلُوا إلا أغرُّ قريعُ
ساد الربيعُ وساد فضلٌ بعدَه * وعلَتْ بعبّاس الكريم فروعُ
عباسُ عباسٌ اذا احتدمَ الوغى * والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

وقال يعاتب عُمَر الورّاق :

يا من جفَانِى وملَّا * نسيتَ أهلًا وسَهْلَا
ومات مرحبُ لما * رأيتَ مالىَ قَلّا
انى أظنّك تحكِى * فيما فعلتَ القِرِلّى (٢)
تلقاه فى الشرّ يَنْأَى * وفى الرخا يتدلّى

وله فى عزة النفس :

ومستعبدٍ إخوانَه بثرائه * لبستُ له كِبْرًا أبرّ على الكِبْرِ
اذا ضمّنى يومًا وإياه محفلٌ * يرى جانبى وَعْرًا يزيد على الوَعْرِ

---

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرلى : كان لحبير وكان لا يسمع لأحد شيئا إلا جاء اليه وداخله ولا يتخلف عن طعام لأحد ، واذا سمع بخصومة لم يقرب ذلك ، فضرب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوفى عليه : القرلى .

أُخالفـــه في شكله وأجرّه * عليًا لمنطق المبرور والنظر الشزْرِ
وقـــد زادني تيهًا على الناس أنني * أراني أَغْناهم وإن كنتُ ذا فَقْرِ
فوالله لا يُبْـــدِي لساني لحَاجَةٍ * الى أحد حتى أُغَيَّب في قـــبري
فلا يطمعَنْ في ذاك منّي طامعٌ * ولا صاحبُ التاج المحجَّبُ في القصر
فلو لم أَرِثْ فخـــرًا لكانت صيانتي * عن الناس حَسْبِي من سؤالي من الفَخْرِ

دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عندهم شرابٌ ومُغَنٍّ، فعرضوا عليه الجلوسَ فأبى، وأخذ الدواةَ والقرطاس وكتب :

اذا لم تَنْـــهَ نفسَك عن هواها * وتُحْسِن صونَهـــا فاليـــكَ عنّي
فاني قـــد شبِعْتُ من المعاصي * ومن إدمانهـــا وشبِعْنَ مـــنّي
ومن أســـوا وأقبح من لبيبٍ * يرى متطربًا في مثـــلِ سنّي

ومن شعر أبي نواس :

عفَّى المصلَّى وأقوتِ الكُثُبُ * مِـــنّيَ فالمِرْبدانِ فاللَّهَبُ
منـــازلٌ قـــد عمَـــرتُها يفَعًـــا * حـــتى بدا في عِذارِيَ الشُّهُبُ
في فتيـــةٍ كالسيوف هزّهمُ * شَرْخُ شـــبابٍ وزانَهـــم أدب
ثم أرابَ الزمانُ فانقسموا * أيدي سَبَا في البـــلاد فانشعبُوا
لن يُخْلِفَ الدهرُ مثلَهـــم أبدا * عليَّ هيهـــاتَ شأنُهـــم عجبُ
لمـــا تيقّنْتُ أنَّ رَوْحتَهـــم * ليس لهـــا ما حييتُ منقـــلَبُ
أَبْليتُ صـــبرا لم يُبْـــلِه أحد * واقتســـمتْني مآربٌ شُـــعَبُ
لذاك أنّي اذا رُزِئتُ أخًا * فليس بيـــني وبينـــه نَسَبُ
قُطْرَبُّل مَرْبَعي ولي بقُـــرَى الـ * ـكرخِ مَصيفٌ وأُمِّيَ العِنَبُ
تُرْضِـــعُني دَرَّها وتُلْحِفُـــني * بظِلّهـــا والهَجـــيرُ يلتهبُ
اذا تَنَتْـــه الغُصونُ جلَّلَني * فَيْنـــانُ(١) ما في أَديمـــه جَوَبُ

(١) الفينان : الظل الكثيف، والجوب، أي لا خلل فيه .

تَبِيت فى مَأْتم حَمائمه * كما تَرَاءى الفَواقِدُ السُّلُبُ
يَهُبُّ شَوْقِى وشوقُهن معًا * كأنما يَسْتخِفُّنا الطَّرَبُ
فقمتُ أحْبُو الى الرِّضاع كما * تَحامَل الطفلُ مَسَّه السَّغَبُ
حتى تحيرتُ بنتَ دَسْكَرةٍ * قد عجمتْها السِّنون والحِقَبُ
هتكتُ عنها والليلُ معتكِرٌ * مهلهَلَ النَّسْج ماله هُدُبُ
من نَسْج خَرْقاء لا تُشَدّ لها * أَخيِّة فى الثَّرَى ولا طُنُبُ
ثم توجَّأْتُ خَصْرَها بشَبا الـ * إشْفى بجاءتْ كأنّها لَهَبُ
فاستوْسَق الشَّرْبُ للنِّدام وأجـ * راها علينا اللُّجَيْنُ والغَرَبُ(١)
أقول لما تحاكَيَا شبهًا * أيهما للتشابُهِ الذهَبُ
هما سواءٌ وفَرْقُ بينهما * أنهما جامدٌ ومنسكِبُ
مُلْسٌ وأمْثالهُا مُحَفَّرةٌ * صُوَرٌ فيها القُسوس والصُّلُبُ
يَتْلُون إنجيلَهم وفَوْقَهُمُ * سماءُ خمرٍ نجومُها حَبَبُ
كأنّها لؤلؤٌ تبدّده * أيدى عَذَارَى أَفْضَى بها اللَّعِبُ

ومن جيِّد شعرِه قولُه لما منعه الأمين من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباءَ بخراسانَ أن يَعيبُوا الأمينَ بشعر أبى نواس و يقولوا هو جليسُه ونَديمُه وينشدوا على المنابر شعرَه، فمنعه الأمينُ فقال :

غنِّنا بالطلولِ كيف بَلِينَا * واسْقِنا نُعْطِك الثناءَ الثمينَا
من سُلافٍ كأنه كلُّ طِيبٍ * يتمنَّى مخبّرٌ أن يكونا
أكل الدهرُ ما تجسّم منها * وتبقَّى لُبابُها المكنونَا
ثم شُجَّت فاستضحكتْ عن لآلٍ * لو تَجمَّعن فى يدٍ لاقْتُنِينا
واذا ما لَمَسْتَها فَهَباءٌ * تمنع الكفَّ ما تُبِيح العُيونَا

(١) الغرب : الذهب .

في كؤوسٍ كأنهنّ نجـــومٌ * جارياتٌ بروجُها أيدينـا
طالعـاتٌ من السُّقاةِ علينـا * فاذا ما غَرَبْنَ يَغْـرُبْنَ فينا
لو تَرى الشَّرْبَ حولَهَا من بعيدٍ * قلتَ قَـوْمٌ من قِرَّةٍ يَصْطَلُونا
وغزالٍ يُدِيرُها بِبَنَـانٍ * ناعمَـاتٍ يزيدُها الغَمْزُ لِينَـا
ذاكَ عيشٌ لو دام لي غيرَ أنّي * عِفْتُه مكرهًا وخِفْتُ الأمينَـا
أدِرِ الكأسَ حان أن تَسْـقِينا * وانقُـرِ العُـودَ إنه يُلْهِينَا
ودَعِ الذكرَ للطُّـلولِ اذا ما * دارتِ الكأسُ يَسْرةً ويَمينَـا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر :

غـرّد الديكُ الصَّـدُوح * فاسـقِني طاب الصَّبُوحُ
اسـقِني حـتى تَرَاني * حَسَنًا عنـدي القبيحُ
قهـوةً تذكر نـوحًا * حين شاد الفلكَ نوحُ
نحن نُخْفيهـا ويأبَى * طيبُ عَرْفٍ فيفُـوحُ
فكأن القـومَ نُهْـبَى * بينهـم مسكٌ ذَبيـحُ
أنا في دنيا من العبـ * ـاس أَغْـدو وأروحُ
هاشمـيٌّ عَبْـدُ لِي * عنـده يَغْـلو المديحُ
علَم الجـودِ كتابٌ * بين عينيـه يلوحُ
كلّ جـو يا أميرى * ما خلا جـودَك رِيحُ
إنمـا أنتَ عطـايَا * أبدا ما تسـتريحُ
بَحَّ صـوتُ المـالِ ممّـا * منـك يَشْكُو ويَصيحُ
ما لهـذا أحدٌ فـو * قَ يـديه أو نَصيحُ
جُدْتَ بالأموالِ حـتّى * قيـل ما هـذا صحيحُ
فهْـو بالمـال جـوادٌ * وهـو بالعِرْض شحيحُ
صُـوِّرَ الجـودُ مثـالًا * وله العبـاسُ روحُ

قال محمد بن عُيَينة : لقيت أبا نُوَاسٍ بعسكرِ مُكْرَم فقلت له : أحبّ أن تنشدنى من شعرك شيئًا تَضَنّ به على غيرى ، فأنشدنى :

يَكْفِي الكريمَ من الكلا * م لمن يحادثه أَقَلُّه
والشيءُ شيءٌ لم يَزَلْ * بأدقِّه يأتى أجَلُّه
إن لم يُصِبْكَ من الكريـ * ـم الحُرِّ وابلُه فطَلُّهْ
يُبْدِى مكارمَه كما * يُبْدِى فِرِنْدَ السيفِ سَلُّهْ
والنذلُ يُوقِع نفسَه * متعمِّدًا فيما يُذِلُّهْ
والحُرُّ يكرِم نفسَه * بالصفح عمّن لا يُجِلُّهْ

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صببتُ على الأمين ثيابَ مدحى * فكلُّ الناس حسَّن واستجادَا
ولولا فضلُه ما جاد شعرى * ولا أعطتْنِيَ الفِطَنُ القِيادَا
وقالوا قد أجدتَ فقلتُ إنّى * وجدتُ القولَ يمكنُنى فجادا

ومن خمرياته :

ذكر الصَّبُوحَ بسُحْرةٍ فارتاحا * وأمَلَّه ديكُ الصباح صِيَاحَا
أَوْفَى على شَرَفِ الجدار بسُدْفَةٍ * غَرِدًا يصفِّق بالجناح جَنَاحَا
فأدِرْ صباحَك بالصَّبُوح ولا تكن * كَمُسَوِّفِين غَدَوْا عليك شِحَاحَا
إن الصَّبُوحَ جِلَاءُ كلِّ مخمَّرٍ * بدرتْ يَدَاه بكأسه الإصْبَاحَا
وخَدِينِ لَذَّاتٍ مُعَلِّل صاحبٍ * تقتاتُ منه فكاهةً ومزاحَا
نبهتُه والليلُ ملتبسٌ به * وأزحتُ عنه نعاسَه فانزاحَا
قال ابْغِنِي المصباحَ ، قلت له اتَّئِدْ * حَسْبِي وحَسْبُك ضوؤُها مصباحَا
فسكبتُ منها فى الزجاجة شَرْبةً * كانت له حتى الصباح صَبَاحَا

مِن قهوةٍ جاءتك قبـــل مِزاجِها * عُطُـلًا فألبسها المـــزاج وِشَاحَا :

شَـــكَّ البِزَالُ فـؤادَها فكأنها * أهـــدتْ اليك بريحهـا تُفّاحَا

صفراء تفترسُ النفوسَ فلا ترى * منها بهنّ ســـوى السُّبات جِرَاحَا

ومنهـا :

لا تَبْـكِ لَيْـلَى ولا تطربْ الى هنـد * وآشربْ على الورد من حمراءَ كالوردِ

كأسًا اذا انحدرتْ فى حلقِ شاربهـا * أجدَتْه حمرتَهـا فى العينِ والخـدِّ

فالخمـــر ياقـــوتةٌ والكأس لؤلؤةٌ * من كف لؤلؤة ممشوقة القـــدِّ

تسقيك من طَرْفِها خمـرا ومن يدها * خمرا فما لك من سكرَيْنِ من بُدِّ

لى نشـــوتانِ وللنّـــدْمان واحدةٌ * شيءٌ خُصِصْتُ به من دونهم وَحْدِى

كان الأصمعى يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلَا * وطاب وقتُ الزمان واعتدلَا

وغَنَّتِ الطـــيرُ بعد عُجْمَتِهـا * واستوفتِ الخمرُ حَوْلَهـا كَمَلَا

واكتست الأرضُ من زخارفها * وَشْىَ ثيـابٍ تخـالُه حُلَلَا

فاشربْ على جِدّة الزمان فقد * أصبح وجهُ الزمان مقتبلا

من قهـوةٍ تُذْهِب الهمومَ فلا * أَرْهَبُ فيهـا المـلامَ والعَذَلَا

كَرْخِيّةٍ تترك الطويلَ من العيـ * ـش قصـــيرًا وتبسُط الأملا

تَلْمَعُ لمعَ السرابِ فى قَدَح الـ * ـقوم اذا ما حَبَابُهـا اتصـلا

يقول صِرْفٌ اذا مزجتُ له * من لم يكن للكثير محتمِلا

فســـقِّ هـــذا بقدر طاقته * وآحملْ على ذا بقدر ما آحتملا

عُجِنَا بشيئين من طبائعها * حسن وطيبٍ ترى به المَثَلَا

كان أبو نواس لا يُسْتنشَد شيئا من شعره إلا أنشد هذه القصيدة :

وخَيْمةِ نَاطُورٍ (١) برأس مُنِيفةٍ * تَهُمّ يدًا مَن رامها بزَلِيل (٢)
اذا عارضتْها الشمسُ فَاءَ ظلالُها * وإن واجهتْها آذنتْ بدُخُولِ
حَطَطْنا بها الأثقالَ فَلَّ (٣) هَجِيرةٍ * عَبُورِيةٍ تُذْكَى بغير فَتِيلِ
تأتَّتْ قليلًا ثم فاءتْ بَمذْقَةٍ (٤) * من الظلّ فى رَثّ الأَبَاءِ ضَئيلِ
كأنّا لديها بين عِطْفَيْ نعامةٍ * جَفَا زورُها عن مَبْرَكٍ ومَقِيلِ
حلبتُ لأصحابى بها دِرَّةَ الصِّبَا * بصَهْباءَ من ماء الكروم شَمُولِ
اذا ما أتتْ دون اللَّهاةِ من الفتى * دعا همَّه من صدره برَحِيلِ
فلما توفَّى الشمسَ جِنْحٌ من الدُّجَى * تصابيتُ وٱستجملتُ غيرَ جميلِ
وعاطيتُ من أَهْوَى الحديثَ كما بدا * وذلّلتُ صعبًا كان غيرَ ذَلِيلِ
فغنَّى وقد وسَّدْتُ يسْرَاىَ خدَّه * ألا ربما طالبتُ غيرَ مُنِيلِ
وأنزلتُ حاجاتى بحَقْوَيْ مساعدٍ * وإن كان أدنى صاحب وخليلِ
وأصبحتُ أَلْحَى السكرَ والسكرُ محسِنٌ * ألا رُبَّ إحسانٍ عليكَ ثقيلِ
كفى حَزَنًا أن الجوادَ مقتَّرٌ * عليه ولا معروفَ عند بَخِيلِ
سأبْغى الغنى إما جليسَ خليفةٍ * يقوم سواءً أو مُخِيفَ سبيلِ
بكلّ فتًى لا يُسْتطارُ جَنَانُه * اذا نوّه الزَّحْفانِ باسم قتيلِ
لنَخْمسَ مالَ الله من كلّ فاجرٍ * أخى بِطْنةٍ للطيّبات أَكُولِ
ألم تر أن المالَ عَوْنٌ على النَّدَى * وليس جوادٌ مقتَّرٌ كبخيلِ

(١) الناطور : حافظ النخل والكرم والزرع وفى البارع : الناطر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس بعربى محض . (٢) الزليل مصدر كالزلل . (٣) أى منهزمى هاجرة ، وعبورية نسبها الى الشعرى العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعنى الشمس ، أى توقفت فى الجو عند زوالها ، وفاءت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الخيمة الخلقة التى ثبتت على الأباء الضعيف من القصب الرث فلم تقو الشمس عليهم لم تمنعهم الخيمة بستر قوى فيصير ظلا ولكنه شمس وظل ، فشبهت بالمذوق من اللبن ، أى الممزوج .

فإن استُزِيد أنشدَ هذه القصيدةَ الأخرى :

كان الشبابُ مطيــةَ الجهــل * ومحسِّن الضحكاتِ والهَزْلِ
كان الجمــالَ اذا ٱرتديتُ به * ومشيتُ أَخْطِرُ صَيِّتَ النعــلِ
كان البليــغَ اذا نطقتُ به * وأصاختِ الآذانُ للمُمْـــلِي
كان المشــفِّعَ فى مآربه * عنــد الفتــاةِ ومدرِكَ التَّبْــلِ
والآمري حــتى اذا عزمتْ * نفْسِي أعان يدىَّ بالفِعْـــلِ
فالآنَ صرتُ الى مقــاربة * وحططتُ عن ظهر الصِّبَا رَحْلِي
والراح أَهْـــواها وإن رَزَأتْ * بُلَغَ المعــاش وقلَّلتْ فَضْـــلِي
صـــفراء مجَّــدها مَرَازِبُهــا * جَلَّتْ عن النُّظَــراءِ والمِثْــلِ
ذُخِرتْ لآدمَ قبــلَ خِلْقتِــه * فتقــدَّمتْه بخُطْــوة القَبْـــلِ
فأتاك شيءٌ لا تلامِسُـــه * إلا بحسن غَريزة العقـــلِ
فتَرُود منهــا العينُ فى بَشَرٍ * حُرِّ الصفيحة ناصِعٍ سَهْـــلِ
فاذا عـــلاها المــاءُ ألبسهــا * حَبَبًا شبيــهَ جَلاجلِ الحِجْلِ
حــتى اذا سكنتْ جَوَامحُها * خطَّت بمثــل أكارعِ النَّمْــلِ
خطَّيْنِ من شــتَّى ومجتمعٍ * غُفْــلٍ من الإعجــام والشَّكْلِ
فاعـــذِر أخاك فإنه رجـــلٌ * مَرَنتْ مسامعُـــه على العَذْلِ

ومن طيب شعره، والشطر الأول من القصيدة لفظ ابن الدُّمَينة :

أعاذلَ ما على وجهى قُتُـــومُ * ولا عِرْضِى لأولِ مَنْ يَسُـــومُ
يفضِّلنى على الفتيانِ أنِّى * أَبيتُ فـــلا أُلامُ ولا أَلُومُ
أعاذل إن يكن بُرْدَاىَ رَثًّا * فـــلا يَعْـــدَمْكِ بينهما كريمُ
شُقِقْتُ من الصبا واشْتُقَّ منِّى * كما اشْتُقَّتْ من الكَرَمِ الكُرُومُ
فلستُ أَسُومُ للذات نفسِي * مساومـــةً كما دفع الغـــريمُ

ومتصلٍ بأسباب المعالى * له فى كل مكرمةٍ قديمُ
رفعتُ له النداءَ بقُمْ نخُذها * وقد أخذتْ مطالَعها النجومُ
بتَفْديةٍ تزال النفسُ فيها * وتُمْتهن الخؤولةُ والعمومُ
فقام وقمتُ من أخوينْ هاجا * على طربٍ وليلُهما بَهيمُ
أجرّ الزِّقَّ وهو يجرّ رجلا * يجور به النعاسُ ويستقيمُ
سَلِ النَّدْمان ما أولتْه منها * وسَلْها ما احتوى منها الكريمُ
كلا الشخصينْ منتصِفٌ ولكن * قضتْ وَطَرًا وذا منها سَقيمُ

وقال :

إنّى صرفتُ الهوى الى قمرٍ * لم تبتذله العيونُ بالنظرِ
اذا تأملته تعاظمك آل * إقرارُ أنه من البَشرِ

ومن قوله :

يا شقيقَ النفسِ من حَكَمٍ * نمتَ عن ليلى ولم أنمِ
فاسْقِني البكرَ التى اختمرتْ * بخمار الشيبِ فى الرَّحِمِ
ثُمَّتَ انصاتَ الشبابُ لها * بعد ما جازتْ مَدى الهَرِمِ
فهى لليومِ التى بُزِلتْ * وهى تِرْبُ الدهرِ فى القِدَمِ
عَتُقتْ حتّى لو اتصلتْ * بلسانٍ ناطقٍ وفَمِ
لاحتبتْ فى القوم ماثلةً * ثم قصّتْ قصّةَ الأممِ
فرعَتْها بالمزاج يدٌ * خُلقتْ للسيف والقلمِ
فى نَدامى سادةٍ زُهُرٍ * أخذوا اللذاتِ من أَمَمِ
فتمشّتْ فى مفاصلهم * كتمشّى البُرْءِ فى السَّقَمِ
فعلتْ فى البيتِ اذ مُزِجَتْ * مثلَ فعلِ الصبحِ فى الظُّلَمِ
فاهتدى سارى الظلام بها * كاهتداء السَّفْرِ بالعَلَمِ

ومن طَرْدِيّاتِ أبي نواس في صفة الكلب :

أنعتُ كلباً أهــلُه من كَدِّهْ * قد سـعِدتْ جُدودُهم بجَــدِّهْ
فكلّ خيرٍ عندَهم من عِنْـدِه * وكل رِفْـد نالهم من رِفْدِهْ
يظَلّ مـــولاه له كعبــدهْ * يبيتُ أدنى صاحبٍ من مَهْدِهْ
وإنْ عرى جلّله ببُرْدِهْ * ذا غُـــرَّة محجَّــلا بزَنْدِهْ
تلَذُّ منــه العينُ حسنَ قدِّه * يا حُسْنَ شِدْقَيْــه وطولَ قدِّه
تلْقَ الظباءُ عنتًـا من طَرْدِهْ * يشربُ كأسًا شُدُّها من شَدِّهْ
* يا لك من كلبٍ نسيجِ وَحْدِهْ *

أبو نواس وجَنَـان

قال أبو الفرج : كانت جَنَانُ هذه جاريةَ آلِ عبد الوهاب بن عبد المجيد الثَّقَفِي، وكانت حلوةً جميلةَ المنظر أديبةً، ويقال : إن أبا نواس لم يَصْدُق في حبِّ امرأةٍ غيرِها، وقيل له يوما إن جنانَ قد عزمتْ على الحج، فكان هذا سببَ حجه وقال : أما والله لا يفوتني المسيرُ معها والحجُّ عامي هذا إن أقامت على عزيمتها، وقال وقد حج وعاد :

ألم تر أنني أفنيتُ عمري * بمطلبِها ومطلبُها عسيرُ
فلما لم أجِـدْ سببًا اليها * يقرّبني وأعيَتْني الأمورُ
حَجَجْتُ وقلتُ قد حَجّتْ جنانٌ * فيجمعُني وإياها المَسيرُ

قال مَنْ شهده حين حجّ مع جنان وقد أحرم : لما جَنَّه الليلُ جعل يلبّي بشعر ويَحْدُو به ويطرَب، فغنّى به كلُّ من سمعه وهو قوله :

إلهنا ما أعدلَكْ   مَليكَ كلِّ من مَلَكْ
لبّيكَ قد لبّيتُ لكْ   لبيكَ إنّ الحمدَ لكْ
والملكَ لا شريكَ لكْ   والليلَ لما أن حَلَكْ

والسابحات فى الفَلَكْ * على مَجَارِى المُنْسَلَكْ
ما خاب عبدٌ أمَّلَكْ * أنت له حيثُ سَلَكْ
لولاكَ يا ربِّ هلَكْ * كلُّ نبيٍّ ومَلَكْ
وكل مَنْ أهلَّ لكْ * سبَّح أو لبَّى فلَكْ
يا مخطئاً ما أغفلكْ * عجِّل وبادرْ أجَلكْ
واختمْ بخيرٍ عملَكْ * لبَّيك ان الملكَ لَكْ
والحمدُ والنعمةُ لكْ * والعزُّ لا شريكَ لكْ

وفيها يقول :

جَفْنُ عيني قد كاد يسـ * ـقطُ من طولِ ما اختلجْ
وفؤادى من حرّ حبـ * ـك والهجرِ قد نَضَجْ
خبِّرينى فدتكِ نفـ * ـسى وأهلى متى الفرجْ
كانَ ميعادُنا خرو * جَ زيادٍ فقد خرجْ
أنت من قتلِ عائذٍ * بكِ فى أضيقِ الحَرَجْ

قال الأصفهانى : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصُّوفى : دخلنا على أبى نواس نَعُوده فى علته التى مات فيها ، فقال له على بن صالح الهاشمى : يا أبا على ، أنت فى أول يوم من أيام الاخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، و بينك و بين الله عز وجل هَنَاتٌ ، فتُبْ الى الله عز وجل ، فبكى ساعةً ثم قال : سانِدُونى سانِدُونى ، ثم قال : أَأُخَوَّفُ بالله عز وجل وقد حدثنى حماد ابن مسلم عن زيد الرَّقاشِى عن أَنَسِ بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبيٍّ شفاعةٌ وانى اختبأتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يومَ القيامة » أفترانى لا أكونُ منهم ؟

ومن قوله فى مرض موته :

دبَّ فيَّ السقامُ عُلوًّا وسُفْلًا . وأرانى أموتُ عُضْوًا فعُضْوًا
ليس تمضى من لحظةٍ بىَ إلّا .. نقصــتنى بمـــرِّها فىَّ جُزْوَا
ذهبتْ جِدّتى بطــاعة نفسى .. وتطلبتُ طاعةَ الله نِضْـــوا
لهفَ نفسى على ليــالٍ وأيا :: م تجاوزتُهن لِعْبًا ولهْـــوًّا
قـــد أسأنا كلَّ الإساءة فالله :: ـهمّ صفحًا عنــا وغَفْرا وعَفْوَا

ثم قال :

شِعْر حتىّ أتاكَ من لفظ مَيْتٍ : صار بين الحياة والموت وَقْفَـا
قد برتْ جسمَه الحوادثُ حتى :: كاد عن عين الخــلائق يَخْفَى
لـــو تأملتنى لتُبْصِرَ وجهى لم تبنْ من كتاب وجهىَ حَرْفَا
ولكرَّرْتَ طَرْفَ عينيكَ فيمن قـــد براه السقام حتى تعَــفَّى

وكان عمر أبى نواس تسعا وخمسين ســنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينــة السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ — العَتَّابِي (١)

قال أحمد بن سَهْل : تذاكرنا شعرَ العَتّابى فقال بعضُنا : فيــه تكلّف ، ونَصَره بعضُنــا ، فقال : شيخٌ حاضرٌ ويحكم ! أيقال إن فى شعره تكلّفا وهو القائل :

رُسُلُ الضّمير اليكَ تَتْرَى * بالشوق ظالِعةً وحَسْرَى
مترجِّيــات (٢) ما يَنِيــ * ـنَ على الوَجَا من بعد مَسْرَى
ما جَفَّ للعينين بعــ * ـدك ياقرِيرَ العين مَجْرَى
فاسْــلَمْ سَلِمتَ مُبرّأً * من صَبْوتى أبدا مُعَرَّى

---

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابى التغلبى من ولد عتاب بن أسيد ثم من بنى تغلب بن وائل ، شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف فى فنون الشعر مقدّم ، من شعراء الدولة العباسية ، وكان منقطعا الى البرامكة فوصفوه للرشــيد ووصلوه به ، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه .

وكان حسن الاعتذار فى شعره ورسائله وله مصنفات فى المنطق والأدب واللغة وكان يقيم فى رأس عين بعيــدا عن دور الخلفاء والأمراء . وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه اليه فجاء وعليه قميص غليظ وفروة وخف ، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل ، فلما رفع الخبر بقدومه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجرة وتقام له وظيفة ففعلوا ، وكانت المائدة إذا قدّمت اليه أخذ منها رقاقة وملحا وخلط الملح بالتراب فأكلها ، فاذا كان وقت النوم نام على الأرض ، والخدم يتفقدونه ويتعجبون من فعله . وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلى وهو فى منزله فسلم عليه وانتسب له فرحب به وقال له « ارتفع » فقال « لم آتك للجلوس » قال « فما حاجتك » قال « دابة أبلغ عليها إلى رأس عين » فقال : يا غلام ، أعطه الفرس الفلانى : فقال : لا حاجة لى فى ذلك ولكن تأمر أن تشترى لى دابة أتبلغ عليها : فقال لغلامه « امض معه فابتع له ما يريد » فمضى معه فعدل به العتابى إلى سوق الحمير فقال الغلام : إنما أمرنى أن ابتاع لك دابة : فقال له : انه أرسلك معى ولم يرسلنى معك فان عملت ما أريد والا انصرف : فمضى معه فاشترى حمارا بمائة وخمسين درهما وقال : ادفع اليه ثمنه : فدفعه اليه فركب الحمار عريا بمرشحة عليه وبرذعة وساقاه مكشوفتان ، فقال له يحيى بن سعيد « فضحتنى ! أمثلى يحمل مثلك على هــذا ! » فضحك وقال « ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك » ومضى إلى رأس عين .

توفى ســنة ٢٢٠ هـ وتجد أخبــاره فى الأغانى (ج ١٢ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ٢ ص ١٣٧) .

(٢) أى متبلغات بالقليل حتى يصلن اليك .

إن الصبابة لم تَدَعْ * منّي سوى عَظْمٍ مُبَرّى
ومدامعٍ عَـــبْرَى على * كبدٍ عليك الدهرَ حرّى

أو يقال إنه متكلّف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخصٌ يَبين * اذا ما تأمّـــله الناظرُ
لمثّلتُـــه لك حتى تراه * لتعلم أنّى آمرؤ شاكر

وَجِدَ الرشيدُ على العتّابى فدخل سرًّا مع المتظلّمين بغير إذن، فمثل بين يدى الرشيد وقال له : ياأمير المؤمنين، قد آذتْنِي الناس لك ولنفسي فيك، وردّنى آبتلاؤهم الى شكرك، وما مع تذكّرك قناعة بغيرك، ولنِعْمَ الصائنُ لنفسى كنت لو أعاننى عليك الصبر، وفى ذلك أقول :

أَتخضِني المقامَ الغَمْرَ إن كان غرّنى * سَـــنَا خُلّبٍ أو زَلّت القَدَمانِ
أتتركنى جَـــدْبَ المعيشـــة مُقْتِرًا * وكفّاك من ماء النـــدى تكِفانِ
وتجعلنى سهمَ المطامع بعـــد ما * بَلَلْتَ يمينى بالنـــدى ولسانى

فأعجب الرشيدَ قولُه، وخرج وعليه الخِلَع، وقد أمر له بجائزة .

كلّم العتّابى يحيى بن خالد فى حاجة بكلمات قليلة، فقال له يحيى : لقد نَزُر كلامُك اليوم وقلّ، فقال له : وكيف لا يقلّ وقد تكنفنى ذلّ المسألة وحَيْرة الطلب وخوف الردّ؟ فقال : والله لئن قلّ كلامك لقد كثرت فوائدُه، وقضى حاجته .

قال يحيى بن خالد البرمكى لولده : إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتّابى فضلا عن رسائله وشعره، فلن تَرَوْا أبدا مثلَه .

وقف العتّابى بباب المأمون يلتمس الوصولَ اليه، فصادف يحيى بن أكثم جالسا ينتظر الإذن، فقال له : إن رأيتَ أعزّك الله أن تذكر أمرى لأمير المؤمنين اذا دخلتَ فافعل، فقال له : لستُ أعزّك الله بحاجبه، قال : فإن لم تكن حاجبا فقد يفعل مثلك ماسألتُ، واعلم أن الله عز وجل جعل فى كل شيء زكاة، وجعل زكاة المـــال رِفْدَ المستعين، وزكاةَ الجاه إغاثة الملهوف؛ واعلم أن الله عز وجل مقبِلٌ عليك بالزيادة إن شكرتَ، أو التغيير إن كفرتَ .

و إنى لك اليومَ أصلحُ منك لنفسك، لأنى أدعوك الى آزدياد نعمتك وأنت تأبَى، فقال له يحيى : أفْعَلُ وكرامة ، وخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشىء بعد السلام إلا أن آستأذن المأمونَ للعتّابى، فأذِن له .

وقيل له : لو تزوّجتَ، فقال : إنى وجدت مكابدة العفّة أيسرَ علىّ من الآحتيال لمصلحة العيال .

قال دِعْبِل : ما حسدتُ أحدا قطّ على شعر كما حسدتُ العتّابىَّ على قوله :

هَيْبَةُ الإخوانِ قاطعـــةٌ * لأخى الحاجات عن طَلَبِهْ
فإذا ما هِبتَ ذا أمل * مات ما أمّلتَ من سببهْ

كان العتّابى جالسا ذات يوم ينظر فى كتاب، فمرّ به بعضُ جيرانه، فقال : أيش ينفع العلمُ والأدبُ من لا مالَ له ؟ فأنشد العتّابى قوله :

يا قَاتَـــلَ اللهُ أقواماً اذا ثقفـــوا * ذا اللبّ ينظر فى الآداب والحِكَمِ
قالوا وليس بهـــم إلا نَفَاسَـــته[1] * أنافِعٌ ذا من الإقتار والعُـــدْم
وليس يدرون ما الحظّ الذى حُرِمُوا * ـــ ـلحاهم الله ـــ من عِلْم ومن فَهَم

ومن قوله أيضا :

لئن كانت الدنيـا أنالتْك ثروةً * فأصبحتَ ذا يُسر وقد كنت ذا عُسْر
لقـــد كشّف الإثراء منـــك خلائقاً * من اللؤم كانت تحت ستْر من الفقر

وقال أيضـا :

رحَلَ الرجاءُ إليـــك مغتربا * [illegible] نوائبُ الدهر
ردّتْ إليـــك ندامتى أملى * [illegible]
وجعلتُ عتْبَك عتْبَ موعظة * [illegible] منتهى أملى

لمـا سعى منصور النَّمَرى بالعتّابى الى الرشيد [illegible] جعفر بن يحيى عنه مدّة وجعل يستعطفه عليه [illegible] جعفر بن يحيى :

---

(١) حسده .

ما زلتُ فى غَمَرات المـــوت مُطَّرَحًا * قد ضاق عنى فسيحُ الأرض من حِيلى
ولم تزل دائبـا تسعى بلطفـــك لى * حتى ٱختلستَ حياتى من يَدَىْ أَجَلى

عاد عبد الله بن طاهر و إسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب كلثوم بن عمرو العتّابى فى علّة ٱعتلّها، فقال الناس : هذه خَطْرة خطرَتْ ، فبلغ ذلك العتّابى ، فكتب الى عبـد الله بن طاهر :

قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ خَطَرتْ * وبِحارُ بِرّك ليس بالخَطْر
أَبْطِلْ مقالتهـم بثانيـــة * تستنفِد المعروفَ مِنْ شكرى

فلما بلغت أبياتُه عبـدَ الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو و إسحاق فعاداه مرة ثانيـــة .

كانت له ٱمرأة من باهلة، فلما مضى الى رأس عَيْن قالت له : هذا منصور النّمرى : قد أخذ الأموال فحلّى نساءه و بنى دارَه وٱشترى ضِيَاعا وأنت ههنا كما ترى، فأنشأ يقول :

تلوم عـــلى تَرْك الغِنى باهليّــــةٌ * ذوى الفقر عنها كلَّ طِرْف وتالد
رأت حولها النّسوان يرفُلْن فى الثرى * مقـــلَّدة أعناقُهـا بالقـــلائد
أسرّكِ أنى نلتُ ما نال جعفـر * من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أميرَ المؤمنين أغصّنى * مغصهما بالمُــرْهَفات البَـوارد
رأيتُ رفيعاتِ الامور مَشُــوبةً * بمستودَعات فى بطون الأســاود
دعينى تجئْنى ميتتى مطمئنـــةً * ولم أتجشّم هولَ تلك الموارد

لمـا قدِم العتّابى مدينة السلام على المأمون أذِن له، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلى، وكان العتابى شيخا جليلا نبيلا، فسلم فردّ عليه وأدناه وقرّبه حتى قرُب منه، فقبّل يَده، ثم أمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه يسائله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذُلَق طُلَق، فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح، فظن الشيخ أنه ٱستخفّ به، فقال : ياأميرالمؤمنين، الإيناس قبل الإبْسَاس (١)، فاشتبه على المأمون قولُه، فنظر الى إسحاق مستفهما،

(١) الابساس : دعوة الناقة الى الحلب .

فأومأ اليه وغمَزه على معناه حتى فهِم، فقال : ياغلام، ألفَ دينار، فأُتِى بذلك، فوضع بين يدى العتابى وأخذوا فى الحديث، وغمز المأمونُ إسحاقَ بن إبراهيم عليه، فجعل العتّابى لا يأخذ فى شيء إلا عارَضه إسحاق، فبقى العتابى متّعجبا، ثمّ قال : يا أمير المؤمنين، أتأذن لى فى سؤال هـذا الشيخ عن اسمه ؟ قال : نعم سَلْ، فقال لإسحاق ياشيخ، من أنت وما آسمك؟ قال : أنا من الناس وآسمى كُلْ بَصَل، فتبسّم العتّابى وقال : أما أنتَ فمعروف وأما الاسم فمُنكَر، فقال إسحاق : ما أقلّ إنصافك ! أتنكر أن يكون آسمى كل بصل، وآسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم ؟ فقال له العتّابى : لله درّك ! فما أحجّك ، أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى أن أصله بما وصلتَنى به ؟ فقال المأمون : بل ذلك موفَّر عليك ونأمر له بمثله : فقال له إسحاق : أما إذ أقررتَ بهذه فتوهّمْنِى تجدْنى ، فقال : ما أظنك إلا إسحاق الموصلىّ الذى يَتَناهى الينا خبرُه، قال : أنا حيثُ ظننتَ، وأقبل عليه بالتحيّة والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما — : أما إذ قد آتفقتما على المودّة فانصرِفا متنادميْن، فانصرف العتّابى الى منزل إسحاق فأقام عنده .

قال عثمان الورّاق : رأيت العتّابى يأكل خبزا على الطريق بباب الشام، فقلت له : وَيْحَك ! اما تستحيي ؟ فقال لى : أرأيتَ لو كنا فى دار بها بَقَر كنت تستحى وتحتشم أن تأكل وهى تراك؟ فقال : لا، قال : فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوَعَظ وقصّ ودعا حتى كثر الزّحام عليه ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنه من بلَغ لسانُه أرْنبةَ أنفه لم يدخل النار، فما بقى أحد إلا أخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ويقدّره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرّقوا قال لى العتّابى : ألم أخبرك أنهم بقر ؟

قال الفضل : رأيت العتّابى بين يدى المأمون وقد أسَنّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فما زال المأمون يُنْهِضه رويدا رويدا حتى أقلّه فنهض .

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابى الى صديق له يستجديه :

أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك الى رضوانه والجنّة — فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب اليها، وكنا نعفيها من النُّجعة(١) آستبقاءً لزهرتها، وشفقةً على خضرتها، وآدّخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سَنَةٌ كانت عندى قطعة من سِنِي يوسف آشتدّ علينا كَلَبها(٢)، وغابت قِطّتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالحَ الإخوان فيها، فانتجعتُك . وأنا بانتجاعى إياك شديدُ الشفقة عليك، مع علمى بأنك موضع الرائد(٣)، وأنك تغطّى عين الحاسد . والله يعلم أنى ما أعدك إلا فى حَوْمَة(٤) الأهل . وآعلم أن الكريم اذا آستحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير، لم يُعرف جوده ولم تظهر همّته . وأنا أقول فى ذلك :

اذا تكرمت عن بذل القليل ولم تقدر على سَعَة لم يظهر الجُود
بث النوالَ ولا تمنعك قلّته فكل ما سدّ فقرا فهو محمود

قيل فشاطره جميعَ ماله .

---

(١) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه . (٢) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة هنا : الجماعة والطائفة .

٣ — دِعبــــل (١)

شاعر متقدّم مطبوع هَجّاء خبيث اللسان، لم يسلَم منه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نَباهة أحسن اليه أم لم يُحسن، ولا أفلت منه كبيرٌ أو صغير.

وكان دعبل من الشّيعة المشهورين بالميل الى عليّ صلوات الله عليه. وقصيدته: «مدارس آيات خَلَت من تِلاوة» من أحسن الشعر وفاخر المدائح المَقُولَة فى أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا على بن موسى الرِّضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خِلْعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قُمّ ثلاثين الف درهم، فلم يَبِعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها، فقال لهم: إنها إنما تُراد لله عز وجل وهى محرّمة عليكم، فدفعوا اليه ثلاثين الف درهم، فحلَف ألّا يبيعها أو يعطوه بعضَها ليكون فى كفنه، فأعطوه فردَ كُمٍّ، فكان من أكفانه.

قال ابراهيم بن المهدى للمأمون قولا فى دعبل يحرّضه عليه، فضحك المأمون وقال: إنما تحرّضنى عليه لقوله فيك:

يا معشرَ الأجناد لا تَقنَطوا * وآرضَوْا بما كان ولا تَسخَطوا
فسوف تُعطَون حُنَينِيّةً (٢) * يَلتَذّها الأَمْرَدُ والأشْمَط
والمَعْبَديّاتِ (٣) لقُوّادكم * لا تدخل الكيسَ ولا تُربَط
وهكذا يَرزق قُوّادَه * خليفةٌ مُصْحفُه البَرْبَط

(١) هو دعبل بن على بن رزين من خزاعة، أصله من الكوفة وجاء بغداد يطالب من الرشيد. وهو شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه احد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير، فكان الناس يخافونه ويتقونه حتى المأمون فإنه هجاه هجاء شديدا واحتمل ذلك منه. توفى سنة ٢٤٦ هـ. وتجد أخباره فى الاغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١).

(٢) يريد أصواتا منسوبة الى حنين الحيرى المغنى.

(٣) يريد أصواتا منسوبة الى معبد المغنى.

قــد ختمَ الصّـــكَّ بأرزاقكم * وصحّح العزمَ فــلا تسخَطوا
بَيْعــةُ ابراهــيم مشــئومةٌ * يُقْتَل فيها الخَلق أو يَقْحَطوا

فقال له ابراهيم : فقد والله هجاك أنت يا أمير المؤمنين، فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه فى هجائه إيّاى لقوله هذا، وضحك . ثم دخل أبو عبّاد، فلما رآه المأمون من بُعْــد قال لإبراهيم : دعبل يجسر على أبى عبّاد فى الهجاء ويُحجم عن أحد! فقال له : وكأن أبا عبّاد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنيــن ؟ قال : لا ! ولكنّه حديد جاهل لا يؤمَن، وأنا أحْلُمُ وأصفح، والله ما رأيتُ أبا عباد مقبلا إلا أضحكنى قولُ دعبل فيه :

أولى الأمور بضَيْعةٍ وفساد * أمرٌ يدبِّره أبـو عبّـاد
خَرِقٌ على جلسائه فكأنهم * حضَروا لمَلْحَمة ويومِ جلاد
يَســطو على كُتَّابه بِدَواته * فَمُضَمّخ بدم ونَضْح مِداد
وكأنه من دَيْرِ هِرْقِل مُفْلتٌ * حَرِد يجرّ سلاســل الأقياد
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين وَثاقه * فأصَحُّ منــه بقيّــة الحَــدّاد

وكان «بقيّة» هذا مجنونا فى البيمارستان .

قال أبو خالد الخُزاعى لدعبل : ويحك ! قد هجوتَ الخلفاءَ والوزراء والقوّاد ووترْتَ الناس جميعا، فأنت دهرَك كلّه شريدٌ طريد هارب خائف، فلو كففتَ عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك! فقال : ويحك ! انى تأملتُ ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يُنتَفع بهم إلا على الرهبة، ولا يبالَى الشاعر وإن كان مُجيدا اذا لم يُخَف شرّه، ولَمَنْ يتّقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك فى تشريفه، وعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم، وليس كل من شرّفته شَرُف، ولا كل من وصفته بالجود والمجــد والشجاعة ولم يكن ذلك فيــه آنتفع بقولك، فاذا رآك أوجعتَ عِرْض غيره وفضحتَه آتّقاك وخاف مــن مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أباخالد! إن الهجاء المقذع آخَذُ بضَبْع الشاعر من المديح المضرع، فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتْفَ أنفه .

كان سببُ خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطّر ويصحب الشُّطار، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعَتَمة، فجلسا على طريق رجل من الصّيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله، فلما طلع مقبلا اليهما وثبا اليه فجَرحاه وأخذا ما فى كُمّه، فاذا هى ثلاث رُمّانات فى خِرْقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه، ومات الرجل مكانه، وآستتر دعبل وصاحبه وجدّ أولياء الرجل فى طلبهما وجدّ السلطانُ فى ذلك، فطال على دعبل الآستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد: كنا يوما بدار صالح بن على من عبد القَيْس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت دِيك طار من دار دعبل، فلما رأيناه قلنا: هذا صَيْدنا، فأخذناه، فقال صالح: ما نصنع به؟ قلنا: نذبحه، فذبحناه وشويناه. وخرج دعبل فسأل عن الديك فعرَف أنه سقط فى دار صالح، فطلبه منّا فجحدناه وشربنا يومنا، فلمّا كان من الغد خرج دعبل فصلّى الغداة ثم جلس على باب المسجد — وكان ذلك المسجد مَجْمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويَنتابهم الناس — فجلس دعبل على باب المسجد وقال:

أَسَرَ المؤذّنَ صالحٌ وضيوفُه * أَسْرَ الكَمِىّ هَفَا خِلال المأقِط

بَعَثوا عليه بَنِيهمُ وبَناتِهم * من بين ناتِفةٍ وآخَر سامِط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا * خاقانَ أو هَزَموا قبائلَ ناعط(١)

نَهَشوه فانتُزِعت له أسنانُهم * وتهشّمت أقفاؤُهم بالحائط

فكتبها الناس عنه ومَضَوا؛ فقال لى أبى، وقد رجع الى البيت: ويحكم! ضاقت عليكم المآكل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبل! ثم أنشدنا الشعر، وقال: لا تدع ديكا ولا دَجاجة تقدر عليه إلا آشتريته وبعثتَ به الى دعبل وإلا وقَعْنا فى لسانه؛ ففعلتُ ذلك.

قال أحمد بن أبى كامل: كان دعبل ينشدنى كثيرا هِجاءً له، فأقول له فيمن هذا؟ فيقول ما آستحقّه أحدٌ بعينه بعد، وليس له صاحب، فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر آسمه فى الشعر.

(١) قبيلة من همدان، وأصله جبل نزلوا به فنسبوا اليه.

كان دعبل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرّجه وفهّمه وأدّبه، فظهر له منه جَفاء وبلغه أنه يَعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوه :

يا بُؤْس للفضل لو لم يأت ما عَابَهْ * يستفرغ السّمّ من صَماء قِرضَابَهْ
ما إن يزال وفيـــه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهلِ المجد عيّابهْ
إن عابني لم يَعِبْ إلا مؤدِّبه * ونفسَـــه عاب لما عاب أدّابهْ
فكان كالكلب ضَرّاه مكلِّبه * لغـــيره فعـــدا فاصطاد كلّابهْ

كان دعبل يقول : ما كانت لأحد قط عندى مِنّة إلا تمنّيتُ موته .

كتب دعبل الى أبي نَهْشَل بن حُمَيد الطُّوسى قوله :

إنما العيشُ فى مُنادمة الإخوا * ن لا فى الجلوس عند الكَعاب
وبصِرفٍ كأنها ألسُن البر * قِ اذا استعرضَتْ رقيقَ السّحاب
إن تكونوا تركتُمُ لذّةَ العيـ * ـش حِذارَ العِقاب يومَ العقاب
فدعونى وما ألذّ وأهـــوى * وادفعوابى فى صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغانى : سمعت دعبلا يقول فى كلام جرى «لَيْسَك» فأنكرته عليه، فقال : دخل زيد الخَيْـل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصِف لى رجل إلا رأيتُه دون وصفه لَيْسَك» يريد غيرك .

قال عمرو بن مَسْعَدة : حضرتُ أبا دُلَف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شىء تروى لأخى خُزَاعة يا قاسم؟ فقال : وأىّ أخى خزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال : ومَنْ تعرِف فيهم شاعرا؟ فقال : أمّا من أنفُسِهم فأبو الشِّيص ودعبل وابن أبى الشّيص وداود بن أبى رزين، وأما من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل ! هات أىّ شىء عندك فيه، فقال : وأى شىء أقول فى رجل لم يسلَم عليه أهلُ بيتـه حتى هجاهم، فقرَن إحسانَهم بالإساءة وبذْلهم بالمنع وجودهم بالبخل، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه، قال : حين يقول ماذا؟ قال : حين يقول فى المطّلب بن عبد الله

آبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد اليه الى مصر فا
وولّاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

اِضرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحات متئِدا * بلؤم مطَّلِبٍ فينا وكن حَ
تُخْرِج نُخَزاعةَ من لؤم ومن كَرَم * فلا تحِسّ لها لؤما ولا

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوَصَه وألطفه وأدهاه، وجعل يضحك، ثم د
آبن طاهر فقال : أى شىء تحفظ يا عبد الله لدعبل؟ فقال : أحفظ أبياتا له فى
أمير المؤمنين، قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقْياً ورَعياً لأيام الصَّبابات * أيام أرفُل فى أثواب لذّات
أيام غصنى رطيبٌ من لَيانته * أصبو الى غير جاراتٍ وكُنّات
دع عنك ذكر زمان فات مَطلبُه * وآقذف برحلك عن متن الجهالات
وآقصِد بكل مديح أنت قائلُه * نحو الهُداة بَنى بيت الكَرامات

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال، ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله فى وصف غيرهم

ومن قول دعبل وفيه غناء :

أينَ الشباب وأيّةً سلكا * لا أين يُطلب ضَلّ من هلكا
لا تعجبى يا سَلْمَ من رجل * ضحِك المشيبُ برأسه فبَكى
يا ليت شعرى كيف بومُكما * يا صاحبىّ اذا دَمى سُفِكا
لا تأخذوا بظُلامتى أحدًا * قلبى وطَرْفى فى دمى آشتركا

قال إبراهيم بن المدبّر : لقيت دعبل بن على فقلت له : أنت أجْسَرُ الناس عندى
وأقدمهم حيث تقول :

إنى من القوم الذين سيوفهم * قتلَتْ أخاك وشرّفتك بمقْعد
رفعوا محلّك بعد طول خموله * وآستنقذوك من الحضيض الأوْهَد

وأوّلها :

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيدِ * والنائباتُ من الأنام بمَرْصد

فقال : يا أبا اسحاق ، أنا أحمل خَشَبتى منذ أربعين سنة ، فلا أجد من يصلبنى عليها .

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدُور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكانت الشُّراة والصّعاليك يلقَوْنه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرّونبه ، وكان اذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم اليه ودعا بغلاميه : نفنف وشعف ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنّيان وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم ، فكانوا قد عرفوه وألِفوه لكثرة أسفاره ، وكانوا يواصلونه ويصلونه . وأنشد دعبل لنفسه فى بعد أسفاره :

حلّتْ مَحَلّا يقصُر البرقُ دونه * ويعجز عنه الطيفُ أن يتجشَّما

قال البحترى : دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم ؛ وكان يتعصّب له .

كان المعتصم يبُغْض دعبلا لطول لسانه . وبلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب الى الجبل ، وقال يهجوه :

بكى لِشَتات الدين مكتئبٌ صبٌّ * وفاض بفرْط الدمع من عينه غَرْبُ

وقام إمام لم يكن ذا هِداية * فليس له دِين وليس له لُب

وما كانت الأنباءُ تأتى بمثله * يُملَّكُ يوما أو تدين له العُرْب

ولكن كما قال الذين تتابعوا * من السّلَف الماضِين اذ عَظُم الخطب

ملوك بنى العباس فى الكُتْب سبعةٌ * ولم تأتنا عن ثامن لهم كُتْب

كذلك أهلُ الكهف فى الكهف سبعةٌ * خيارٌ اذا عُدّوا وثامنهم كَلْب

وإنى لأُعلِى كلبَهم عنك رفعةً * لأنك ذو ذَنْب وليس له ذنب

لقد ضاع مُلك الناس اذ ساس مُلكَهم * وَصِيفٌ وأَشناس وقد عَظُم الكرب

وفَضْل بن مروان يُثَلّم ثُلمةً * يظل لها الإسلام ليس له شَعْب

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيّات يرثيه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وانصرفوا * فى خير قبر لخير مدفون
لن يجبر اللهُ أمّةً فقدتْ * مثلَك إلا بمثل هارون

فقال دعبل يعارضه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وانصرفوا * فى شرّ قبر لشر مدفون
اذهب الى النار والعذاب فما * خَلْقُك إلا من الشياطين
ما زلت حتى عقدتَ بَيْعةَ مَنْ * أضرّ بالمسلمين والدين

وقال فى ذلك وفى قيام الواثق :

الحمدُ لله لا صبرٌ ولا جَلَدُ * ولا عزاءٌ اذا أهلُ البَلَا رقدوا
خليفةٌ مات لم يحزَن له أحد * وآخَرٌ قام لم يفرح به أحد

ولقد أحسن فى وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه :

ألم يَأنِ للسَّفْر الذين تحمّلوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوابِقَ عَبْرة * نَطَقْن بما ضُمّت عليه ضلوع
تبيّنْ فكم دارٍ تفرّق شملُها * وشَمْلٍ شتيتٍ عاد وهو جَميع
كذاك الليالى صَرْفُهنّ كما ترى * لكل أناس جَدْبةٌ ورَبيع

ثم قال : ما سافرتُ قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عينى فى سفرى وهِجّيراى ومسليتى حتى أعود .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

سَرَى طيفُ ليلى حين آن هُبُوبُ * وقضّيت شوقا حين كاد يذوب
فلم أرَ مطروقًا يحلّ برحلة * ولا طارقا يقرى المُنى ويُثيب

ومن قوله :

لقد عجبتْ سَلْمى وذاك عجيبُ * رأت بى شيبا عجّلته خُطوبُ
وما شيّبتنى كَبرةٌ غير أننى * بدهرٍ به رأسُ الفطيم يَشيب

وقال فى صالح بن عطيّة الأضجم وكان من أقبح الناس وجها، وخاطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمام آل محمـــد * قول امرئ حدبٍ عليك مُحَام
أنكرت أن تفترَّ عنــك صنيعةٌ * فى صالح بن عَطيّة الحَجّام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طَوائلُ الإســـلام
إضربْ به جيشَ العــدوّ فإنه * جيشٌ من الطاعــون والبِرْسام

قال أبو تمّـام : ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرّا بأُسْتاذيّته، حتى ورد عليه بجُرجان فجفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب اليه :

أبا مَخْـــلَدٍ كنا عَقيـــدَى مودّة * هـــوَانا وقَلْبانا جميعـا مَعًا معا
أحوطك بالغيب الذى أنتَ حائطى * وأجزع إشـــفاقا مِنَ آنْ تتوجّعـا
فصــيّرتنى بعـــد انتكاثك مُتْهِما * لنفسى عليها أرْهَبُ الخلق أجمعـا
غششتَ الهوى حتى تداعت أصولُه * بنا وابتذلتَ الوصـــلَ حتى تقطّعا
وأنزلتَ من بين الجوانح والحَشى * ذخـــيرةَ وُدٍّ طالمـا قـــد تمنّعـا
فلا تَلْحَيَنّى ليس لى فيـــك مطمعٌ * تخرّقتَ حـــتى لم أجـــد لك مرقعا
فَهَبْك يمينى استأكلتْ فقطعتُهـا * وجشّمتُ قلبى صـــبرَه فتشجّعـا

ثم تهاجرا فما التقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سنّيا، فكان أوّل من حرّضه على قول الشعر . فوالله مابلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السنّى والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمـــول بأقبح مكافأة، وقال فيه يهجوه من قصيدة مدح بها أهلَ البيت عليهم السلام :

وليس حَىٌّ من الأحياء نعلمه * من ذى يمانٍ ومن بَكْرٍ ومن مُضَرِ
إلا وهم شركـاءُ فى دمائهـــم * كما تَشارك أيْسارٌ عـــلى جُزُرِ
قتـــلٌ وأسْرٌ وتحـــريقٌ ومَنْهبةٌ * فِعلَ الغُــزاةِ بأرض الروم والخَزَر
أرى أميّةَ معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبـنى العباس من عُذُر

أَرْبَعْ بِطُوس على القبر الزكىّ اذا * ما كنت تَرْبَع من دِين على وطر
قبْران فى طوس خيرُ الناس كلهم * وقبرُ شرّهمُ هذا من العِبَر
ماينفع الرّجسَ من قرب الزكىّ ولا * على الزكىّ بقرب الرّجس من ضرر
هيهات، كلّ آمرىءٍ رَهْنٌ بما كسبتْ * له يداه فخُذْ ماشئتَ أو فَذَر

استدعى بعض بنى هاشم دعبلا وهو يتولى للمعتصم ناحية من نواحى الشام، فقصده اليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب اليه دعبل :

دَلّيتنى بغرورِ وعدك فى * مُتَلاطِم من حَوْمة الغَرَق
حتى إذا شمت العدوّ وقد * شُهِرَ آنتقاصك شُهْرة البَلَق
أنشأت تحلف أن ودّك لى * صافٍ وحبلك غير منحذق
وحسبتنى فَقْعًا بقَرْقَرة * فوطِئتَنى وَطْئًا على حَنَق
ونصبتَنى عَلَمًا على غَرَض * ترميننى الأعداءُ بالحَدَق
وظننتَ أرضَ الله ضَيّقةً * عنّى وأرضُ الله لم تَضِق
من غير ما جُرمٍ سوى ثِقةٍ * منّى بوعدك حين قلتَ ثِق
ومودّةٍ تحنو عليك بها * نفسى بلا مَنٍّ ولا مَلَق
فمتى سألتُك حاجةً ابدا * فاشدُدْ بها قُفْلا على غَلَق
وقَفَ الإخاءُ على شَفَا جُرُف * هارٍ فبِعْه بَيْعة الخَلَق
وأعِدّ لى قُفْلا وجامعةً * فاشدد يدىّ بها إلى عنق
أعفيك مما لا تحبّ بها * وآسُدُدْ على مذاهب الأُفُق
ما أطولَ الدنيا وأعرضَها * وأدَلّنى بمسالك الطُرُق

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جئتُ بلا حُرْمة ولا سببٍ * إليك إلّا بحرمة الأدَب
فاقضِ ذِمامى فإننى رجلٌ * غيرُ مُلِحٍّ عليك فى الطّلب

فانتقل عبد الله ودخل الحَرَم ووجَّه اليه بصُرّة فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأتاك عاجــلُ بِرِّنا * ولو انتظرت كثيرَه لم يقلل

فخذ القليلَ وكن كأنك لم تَقُل * ونكون نحن كأننـا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قُرَى السُّوس ، بعث اليه مالك بن طَوْق من ضرب ظهره بعكّاز لها زُجٌّ مسموم فمات من غد .

٤ — حسين بن الضّحّاك [1]

« شاعر [2] ظريف شديد الظُّرف ، ربما انقطع نظيرهُ في شعراء العصر العبّاسى كلّه ، وهو مع ظرفه وإسرافه فى المجون ، قليـلُ الفحش فى اللفظ . غير مُتَهالك على القول الآثم والألفاظ المنكَرة ، لا يتخيّرها ولا يقصـد اليها ، وإنما يَعْرِض لها اذا اضطُر اليها اضطرارا وهو على ظرفه ورقّة حاشيته وحِرْصه على نَقَاء اللفظ وطُهره شاعر بالمعنى الصحيح لهـذه الكلمة ، مجوِّد اذا فكَّر ، مظفّر اذا بحث ، موفّق الى اللفظ المتين ، والأسلوب الرَّصين فى غير جفوة ولا غِلظة ، لا يعرف التكلّف فى لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيّته سهلة مرسَلة غنيّـة غزيرة المـادة ، لا تكاد تنضُب ، ولا ينالهـا إعياء أو كَلَال ، وحياته كلها عِبَر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتى تردّك وتنفّرك ، وتجعل للحزن والأسى الى قلبك سبيلا ، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله ، تقرأ أخباره فتظلّ مبتسما منذ تبتدئ الى أن تنتهى دون أن تَعْبِس أو تقطب . وربما تجاوزتَ الابتسـام الى الإغراق فى الضحك من حين الى حين ، ولكنك لن تترك الابتسام الى الحزن الشديد . وربما اعترضتك فى طريقك سحابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هيّنة ، فهى أضعف من أن تزيل ابتسامتك . وكان هذا الشاعر من المعمَّرين ، بلغ المـائة أو كاد ، وعاصر طبقاتٍ من الشعراء ، وألوانا من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظلّ محتفظا بشخصيّته الوادعة المبتسمة ، تغيّر النـاسُ واختلفت الظروف ، وظلّ هو واحدا

(١) هو مولى باهلة ، ولد فى البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بنى العباس ، وكان خليعا فاسدا وكان مع ذلك حسن التصرف فى النظم ولشعره قبول ورونق ، فهو من المتفننين وله معان جديدة فى الخمر كان أبو نواس يأخذها عنه ، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحاك عمر كثيرا . وهو أوّل من نادم الأمين وله فيـه مدائح كثيرة ، وعمر عمرا طويلا حتى قارب مائة الـسنة ومات فى خلافة المستعين أو المنتصر . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٦ ص ١٧٠) وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لم يتغيّر. كان خليعا ، بل كان يُعرف بالخليع ، وكان كثيرَ المجون مُسْرِفا فيه ، وما أحسب أن أبا نواس سبقه الى لذّة أو برز عليه فى مأثم ، ولكنه على خلاعتــه و إسرافه فى المجون وتهالُكه على اللذات ، احتفظ طول حيـاته بشىء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجَوْدة الأصل ، كأنما كانت هذه اللّذات والآثام تنزلِق على نفسه وأخلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا ، و إنمـا كانت الآثار التى تتركها لياليه الساهرة ، وأيامه المملوءة بالعَبَث ، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التى سأظهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنمـا كانوا يَصلون الى الخلفاء بعد الجهد والكَدّ ، وبعد التلطّف وحسن الحيلة ؛ وإنما كان متصلا بالخلفاء اتّصالا شديدا ، يعاشرهم و يرافقهم و يتدخّل فى حياتهم الخاصة ، وربمـا تدخّل الى أكثر ممـا ينبغى . وكان الخلفاء يبحثون عنه ، ويَحْرِصون على عشرته ويبذلون فى ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء ، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر فى أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء » .

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع ، حسن التصرّف فى الشعر حلو المذهب ، لشعره قَبُول ورونق صاف ، وكان أبو نواس يأخذ معانيــه فى الخمر فيُغِيــر عليها ، واذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس الى أبى نواس ، وله معان فى صفتها أبدع فيها ، وهاجى مسلّم بن الوليد فانتصف منه ، وله غزل كثير جيّد ، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلّف .

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتى التى قلتها فى الخمر وهى :

بُدّلتَ مِن نَفَحات الورد بالآء (١) * ومن صَبُوحك درَّ الإبِل والشّاء

فلما انتهيتُ منها الى قولى

حتى اذا أُسْنِدت فى البيت وآحْتُضِرت * عنـد الصّبوح بَبسّامين أكْفاء
فُضَّت خواتمهـا فى نَعْت واصـفها * عن مثـل رَقراقـة فى جفن مَرْهاء (٢)

---

(١) الآء : ثمر شجر واحدته آءة .   (٢) المرهاء : التى لا تكتحل .

فصُعق صعقة أفزعتْنى وقال : أحسنتَ والله يا أشقر، فقلت : ويلك يا حسن، إنك أفزعتَنى والله، فقال : بلى والله أنت أفزعتَنى ورُعتنى، هذا معنى من المعانى التى كان فكرى لابد أن ينتهى اليها أوأغوص عليها وأقولها، فسبقتَنى اليه واختلستَه منّى، وستعلم لمن يُروى ألِى أم لك؟ فكان والله كما قال، سمعت من لا يَعْلَم يرويها له :

لما قدِم المأمون من خراسان أمر بأن يُسَمَّى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه، فذُكِر له جماعة فيهم الحسين بن الضّحّاك، وكان من جلساء محمد المخلوع، فلما رأى ٱسمَه قال : أليس هو الذى يقول فى محمد :

هلا بقيتَ لسَدّ فاقتنا * أبدا وكان لغيرك التَّلَفُ

فلقد خَلَفْتَ خلائفا سَلَفوا * ولسوف يُعْوِز بعدك الخَلَف

لا حاجة لى فيه، والله ولا يرانى أبدا إلا فى الطريق، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به، وٱنحدر حسين الى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

قال أبو صالح بن الرشيد : دخلت يوما على المأمون ومعى بيتان للحسين بن الضحاك، فقلت : يا أمير المؤمنين، أُحب أن تسمع منى بيتين، فقال : أنشدْهما، فأنشدتهما :

حمدنا الله شكرًا إذ حَبَانا * بنصرك يا أمير المؤمنينا

فأنت خليفة الرحمن حقّا * جمعت سماحة وجَمعتَ دينا

فقال : لمن هذان البيتان ؟ فقلت : لعبدك يا أمير المؤمنين حسين بن الضحاك، قال : قد أحسن، فقلت : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا، فقال : وما هو؟ فأنشدته قولَه :

أَجِرْنى فإنى قد ظَمِئتُ الى الوعد * متى تُنجِز الوعدَ المؤكد بالعَهْد

أُعيذُك من خُلف الملوك وقد بدا * تَقطّع أنفاسٍ عليك من الوَجْد

أيبخل فَرْدُ الحسن عنى بنائل * قليلٍ وقد أفردتُه بهوًى فَرْد

رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده * فملّكه والله أعلم بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عصمة * مميِّزة بين الضّلالة والرشد

فأطرق ساعة ثم قال : ما تطيب نفسى له بخير بعد ما قال فى أخى محمد ما قال .

ومن قوله يرثى محمدا الأمين :

أطِلْ حَزَنا وأبكِ الإمام محمـدا * بحزن وإن خِفتَ الحسام المهندا
فـلا تمّتِ الأشياءُ بعد محمـــد * ولا زال شَمْل الملك منها مُبَـدّدا
ولا فرِح المأمونُ بالملك بعـده * ولا زال فى الدنيا طريدا مشرَّدا

ولحسين فى محمد الأمين مَرَاثٍ كثيرة جيادٌ، وكان كثير التحقّق به والموالاة له لكثرة إفضاله عليه، وميله اليـه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خُولِط فكان يُنكر قتـله لمـا بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستتر وأنه قد وقف على دُعاته فى الأمصار يدعون الى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضَنّا به وشفقة عليه .

ومن جيّد مراثيه إياه قوله :

سألونا أَنْ كيف نحن ؟ فقلنا * من هَوَى نجمُـه فكيف يكون؟
نحن قوم أصابنا حَدَثُ الدهـ * ـر فظَلْنا لريبْـه نستكين
نتمـنى من الأمين إيابا * لَهْفَ نفسى وأين منّى الأمين

ومن جيّد قوله فى مراثيه إياه .

أعَزّى يا محمـدُ عنك نفسى * معاذ الله والأيدى الجسـام
فهـلّا مات قومٌ لم يمـوتوا * ودُوفع عنـك لى يومَ الحِمـام
كأن الموت صادَف منك غُنْما * أو آستشفى بقربك من سَقام

وقال أيضا يرثيه :

يا خير اسْرته وإن زَعمـوا * إنّى عليـك لمُثبَتٌ أَسِفُ
الله يعـلم أن لى كبدا * حَرّى عليك ومقلةً تَكِف
ولئن شَجِيتُ بما رُزئتُ به * إنى لأضْمر فوق ما أَصِف
هلّا بَقِيتَ لسَـدّ فاقتنـا * أبدا وكان لغـيرك التّلَف
فلقد خَلَفتَ خلائفا سَلَفوا * ولسوف يُعْوِز بعدك الخلف

لا بات رَهْطُك بعد هفوتهم * إنى لرهطك بعدها شَنِف (١)
هَتكوا بحرمتك التى هُتِكت * حُرَمَ الرسول ودونها السُّجُف
وثَبَتْ أقاربُك التى خَذَلَتْ * وجميعُها بالذّل معترف
لم يفعلوا بالشّطّ إذ حضروا * ما تفعل الغَيْرانَةُ الأُنُفُ
تركوا حريمَ أبيهم نَفَلا * والمُحْصَناتُ صوارِخٌ هُتُفُ
أبدت مُخَلْخَلَها على دَهَش * أبكارُهنّ ورنّت النَّصَفُ
سُلِبَت مَعاجِرُهنّ (٢) واجْتُلِيت * ذاتُ النّقاب ونُوزِع الشَّنَف
فكأنهنّ خِلالَ مُنْتَهَبٍ * دُرٌّ تكشّف دونَه الصَّدَف
مَلِكٌ تخوّن مُلْكَه قَدَرٌ * فوَهَى وصرفُ الدهر مختلف
هيهاتَ بعدك أن يدوم لنا * عِزٌّ وأن يبقى لنا شَرَف
لا هَيَّبُوا صُحُفًا مشرّفة * للغادرين تحتها الجَدَف
أفَبَعْدَ عهد الله تقتُلُه * والقتل بعد أمانةٍ سَرَف
فستعرِفون غدا بعاقبةٍ * عِزَّ الإله فأوْرِدُوا وقِفُوا
يامن يُخَوّن نومَه أرَقٌ * هَدَتِ الشجونُ وقلبُه لَهِف
قد كنتَ لى أملا غَنِيتُ به * فمضى وحلّ محلَّه الأَسَف
مَرِجَ النّظام وعاد مُنْكَرُنا * عُرْفا وأُنْكِر بعدك العُرُف
فالشملُ منتشر لفقدك والـ * ـدُّنيا سُدًى والبال منكسف

وقال أيضا يرثيه :

اذا ذُكِر الأمينُ نَعَى الأمينا * وإن رقَد الخَلِىّ حمَى الجُفُونا
وما بَرِحتْ منازلُ بين بُصرى * وكَلْوَاذَى تُهَيِّج لى شجونا
عِراصُ الملك خاويةٌ تهادى * بها الأرواح تَنْسِجها فنونا

(١) مبغض متنكر . (٢) جمع معجر بالكسر وهو ثوب تعتجر به المرأة أى تشدّه على رأسها .

تخـــوّن عزّ ساكنها زمانٌ * تلعّب بالقرون الأوّلينا
فشتّت شملهـــم بعد اجتماع * وكنتُ بحسن ألفتهـــم ضنينا
فلم أر بعـــدهم حُسْنا سِـــواهم * ولم تَرَهـُـــم عيونُ الناظرينــا
فوا أسَفَا و إن شَمَت الأعادى * وآهِ على أمـــير المؤمنينــا
أضَلّ العُرفَ بعـــدك مُتْبِعوه * ورُفّــه عن مطايا الراغبينا
وكنّ الى جنابك كلّ يـــوم * يَرُحْنَ على السّـــعود ويغتدينا
هو الجبلُ الذى هوت المعالى * لِهَـــدّته وريع الصّـــالحونا
سَتندُب بعدك الدنيــا جِوارا * وتنـــدب بعدك الدينَ المصونا
فقد ذهبت بشاشةُ كلِّ شيء * وعاد الدين مطروحا مَهينا
تعقّـــد عزّ مُتّصِـــلٍ بكسرى (١) * ومِلّتـــه وذَلّ المســـلمونا

وقال أيضا يرثيه :

أسَفًا عليك سَلاك أقربُ قُرْبَةٍ * منّى وأحزانى عليـــك تزيد

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزْدى : حسين بن الضحاك أشعر المحدّثين حيث يقول :

أىُّ ديباجـــةِ حُسْنٍ * هيّجتْ لوعةَ حزنى
إذ رمانى القمـــرُ الزا * هر عن فَـــتْرة جفن
بأبى شمسُ نهـــار * برزتْ فى يوم دَجْن
قربتنى بالمـــنى حتـ * ـى اذا ما أخلفتـــنى
تركتنى بين ميعـــا * د وخُلْفٍ وتجنّ
ما أرى فىّ من الصّبـ * ـوة إلّا حسنَ ظنى
إنمـــا دامت على الغد * ر لمـــا تعرف مِـــنّى
أستعيذ اللهَ من إعرا * ض من أعرض عنّى

(١) استحكم .

لما وَلِى المعتصم أمر بمكاتبته بالقدوم عليه، فلما دخل وسلّم آستأذنه فى الإنشاد، فأذِن له، فأنشده قولَه :

هلّا سألتَ تلذّذ المشتاق * ومَنَنْتَ قبلَ فراقه بتلاقِ

إن الرقيب ليَستريب تنفُّسًا * صُعُدا إليك وظاهر الإقلاق

ولئن أَرِبْتُ لقد نظرتُ بمقلة * عَبْرى عليك سخينة الآماق

نفسى الفداءُ لخائفٍ مترقِّبٍ * جَعَل الوداع إشارةً بعناق

إذ لا جوابَ لمُفْحَم متحيِّر * إلا الدموع تُصان بالإطراق

حتى آنتهى الى قوله :

خيرُ الوفود مبَشِّر بخلافة * خَصّتْ ببهجتها أبا إسحاق

وافته فى الشهر الحرام سليمةً * من كل مشكلة وكل شِقاق

أعطته صفْقتَها الضمائرُ طاعةً * قبل الأَكُفِّ بأوكد الميثاق

سكنَ الأنامُ الى إمام سَلامةٍ * عَفِّ الضمير مهذَّب الأخلاق

فحمى رعيَّته ودافع دونها * وأجار مُمْلِقها من الإملاق

حتى أتمّها، فقال له المعتصم : آدْنُ منى، فدنا منه، فملأ فمَه جوهرا من جوهر كان بين يديه، ثم أمره بأن يخرجه من فمه، فأخرجه وأمر بأن يُنْظَم ويدفع اليه ويخرج الى الناس وهو فى يده، ليعلموا موقعه من رأيه، ويعرفوا فضله، فكان أحسن ما مُدِح به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أمينَ الله ثِقْ بالله * ه تُعْطَ الصبر والنُّصْرَهْ

كِلِ الأمرَ الى الله * كَلاك الله ذو القُدره

لنا النصر بعون الله * والكَرّة لا الفَرّه

وللمُرّاق أعداء * ئك يومُ السوء والدَّبْره

وكأس تلفظ الموت * كريهٍ طعمُها مُرّه

سَقونا وسقيناهم * ولكن بهم الحِرَّه
كذاك الحرب أحيانا * علينا ولنا مَرَّه

ومن قوله فى غضب حظية للواثق من زيارته أخرى فى نوبتها :

غَضِبتْ أَنْ زرتُ أخرى خِلْسةً * فلها العُتبى لَدَيْنا والرِّضا
يا فَدَتْكِ النفس كانت هَفْوةً * فاغفريها واصفحى عما مضى
واتركى العَذْل على من قاله * وانسُبى جَوْرى الى حكم القضا
فلقد نبهتِنى من رَقْدتى * وعلى قلبى كنيران الغَضا

كان الواثق يتحظَّى جارية له فماتت ، فجزع عليها وترك الشراب أياما ، ثم سلاها وعاد الى حاله ، فدعا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلانة فى النوم فليت نومى كان طال قليلا لأتمتع بلقائها ، فقل فى هذا شيئا ، فقال :

ليت عينَ الدهر عنا غَفَلت * ورقيبَ الليل عنا رَقَدا
وأقام النوم فى مدّته * كالذى كان وكنّا أبدا
بأبى زَوْرٌ تلفّتُّ له * فتنفّستُ اليه الصُّعَدا
بينما أضحك مسرورا به * إذ تقطّعتُ عليه كَبِدا

لما أعيته الحيلةُ فى رضا المأمون عنه رمى بأمره الى عمرو بن مَسْعَدَة وكتب اليه :

أنت طَوْدى من بين هذى الهضاب * وشهابى من دون كل شهاب
أنت يا عمرو قوّتى وحياتى * ولسانى وأنت ظُفْرى ونابى
أتُرانى أنسى أياديك البيـ * ـض اذا اسودّ نائل الأصحاب
أين أخلاقك الرضيّة حالت * فىّ أم أين رقّة الكُتّاب؟
أنا فى ذمّة السحاب وأظما؟ * إن هذا لَوَصْمةٌ فى السحاب
قم الى سيّد البريّة عنى * قومةً تَسْتَجِرّ حُسْنَ الخطاب
فلعل الاله يُطفِئُ عنّى * بك نارا علىّ ذات التهاب

فلم يزل عمرو يُلْطِف للمأمون حتى أوصله اليه وأدرّ أرزاقه .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلّم ، فرد عليه السلام ردّا جافيا، ثم أقبل عليه فقال : أخْبِرنى عنك، هل عرفتَ يوم قُتِل أخى محمد هاشمّية قُتلت أو هُتكت ؟ قال : لا، قال : فما معنى قولك :

وسِربِ ظِباء من ذؤابة هاشم * هَتَفْن بدعوى خيرِ حى وميِّت

أَرُدُّ يَدًا منّى اذا ما ذكرتُه * على كبد حرّى وقلبٍ مُفتّت

فلا بات ليلُ الشامتين بغبطةٍ * ولا بَلَغت آمالُهم ما تمنّت

فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعة غلبتنى، وروعة فاجأتنى، ونعمة فقدتُها بعد أن غمرتنى ، وإحسان شكرته فأنطقنى ، وسيّد فقدته فأقلقنى، فإن عاقبتَ فبحقّك ، وإن عطفت فبفضلك ؛ فدمَعت عينا المأمون وقال : قد عفوتُ عنك ، وأمرتُ بإدرار رِزْقك ، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك آمتناعى من آستخدامك .

ومن قوله :

وكالوردة الحمراء حَيا بأحْمر * من الورد يمشى فى قَراطِق كالورد

له عَبَثاتٌ عند كل تحيّة * بعينيه تَستدعى الحليمَ الى الوجد

تمنّيت أن أُسقَى بكفّيه شَرْبة * تذكّرنى ما قد نَسِيتُ من العهد

سقى الله دهرا لم أَبِتْ فيه ليلةً * خَلِيًّا ولكن من حبيبٍ على وعد

ومن قوله :

وأبِى مُفْحَم لعزّته * قلتُ له اذ خلوتُ مكتتما

تُحِبّ بالله من يخصّك بال * ..ود فما قال لا ولا نَعَما

ثم تولّى بمُقْلَتَىْ خَجِل * أراد رَجْع الجواب فاحتشما

فكنت كالمُبتغى بحيلته * بُرءًا من السُّقم فابتدا سَقَما

وقال فى هوًى له :

عالِمٌ بحُبِّيه * مطرِق من التِّيه

يوسفُ الجمالِ وفر * عون فى تعدّيه

لا وحـقِّ ما انا فيـ * ـه من عطفٍ أرَجّيه
ما الحيـاةُ نافعــة * لى عــلى تأبِّيــه
النعـيم يَشــغَلُه * والجمـال يُطغيــه
فهــو غيرُ مكترث * للذى ألاقيــه
تَائِهٌ تُزَهِّــده * فيَّ رغبتى فيــه

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يَرانى * نُصْب عينى مُمَثّـل بالأمانى
بأبى مَنْ ضميره وضميرى * أبدا بالمَغيب ينتجيـان
نحن شخصان إن نظرت ورو * حان اذا ما آختبرت يمـتزجان
فاذا ما همَمتُ بالأمر أو همّ * بشىء بدأتُه وبدانى
كان وَفْقا ما كان منـه ومنّى * فكأنى حكَيتُه وحكانى
خَطَرات الجفون منّا سـواءٌ * وسـواء تحـرّكُ الأبدان

ومن قوله :

فَدَيتُ من قال لى على خَفَـره * وغَضّ من جفنه على حَوَره
سمّـع بأشـعارك المليـحَ فمـا * ينْفَــكُّ شـادٍ بها على وَتَره
حسبك بعضُ الذى أذعتَ ولا * حَسْبُ لِصَبٍّ لم يَقْضِ من وَطَره
وقلتُ يا مسـتعيرَ سالفــة الـ * ـخِشْفِ وحُسْنِ الفُتور من نَظَره
لا تنكرنّ الحبيبَ من طَرَب * عاوَد فيــك الصِّبا على كِبره

ومن قوله :

سائل بطيفك عن لَيْلِى وعن سهرى * وعن تتـابع أنفاسى وعن فِكَرى
لم يَخْـلُ قلبىَ من ذكراك إذ نظرت * عينى اليـك على صَحْوى ولا سكرى
سَقْيًا ليـومٍ سرورى إذ تُنَـازعنى * صفوَ المُدامة بين الأُنس والخَفَر

وفضلُ كأسك يأتيني فأشربه * جَهْرا وتشرب كأسي غير مُستتر
وكيف أشمله لثمي وألزمه * نحرى وترفعه كفّى الى بصرى
فليت مُدّة يومى إذ مضى سلَفا * كانت ومدّة أيامى على قَدَر
حتى اذا ما انطوت عنّا بشاشته * صرنا جميعا كذا جارَيْن فى الحُفَر

ومن قوله لهوًى كان له :

تَعَزَّ بيأسٍ عن هواىَ فإننى * اذا انصرفت نفسى فهيهات عن ردّى
إذا خُنتُمُ بالغيب ودّى فمالكم * تُدِلّون إدلال المقيم على العهد
ولى منك بد فاجتنبنى مَذمَّما * وان خِلتَ أنى ليس لى منك مِنْ بدّ

لما ولى الواثق الخلافة أنشده حسين :

أُكاتم وجدى فما يَنكتمْ * بمن لو شكوتُ اليه رَحِمْ
وإنى على حسن ظنّى به * لأَحْذَر إن بُحتُ أن يحتشم
ولى عند لحظته روْعة * تحقّق ما ظَنّه المتّهم
وقد علم الناس أنّى له * محبّ وأحسبه قد علِم
وإنى لمُغْضٍ على لوعة * من الشوق فى كبدى تَضْطَرم
عَشيّة ودّعت عن مقلة * سَفُوحٍ وزفرةِ قلبٍ سَدِم
فما كان عند النّوى مُسْعِد * سوى العين تمزج دمْعًا بِدَم
سيذكر من بان أوطانَه * ويبكى المقيمين من لم يُقِم

كتب إلى الحسن بن رجاء فى يومِ شَك، وقد أمر الواثق بالإفطار، فقال :

هَزَزْتُك للصَّبوح وقد نهانى * أميرُ المؤمنين عن الصّيام
وعندى من قِيان المِصر عَشْرٌ * تَطِيب بهن عاتِقة المدام
ومن أمثالهن اذا انتشيْنا * ترانا نجتنى ثَمَر الغرام
فكن أنتَ الجواب فليس شىء * أحبّ إلىّ من حذف الكلام

فوردت رقعته ، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْخُنّر ووجّه اليه بغلامٍ نظيف الوجه ومعــه ثلاثة غلمة أقران حِسان الوجه ، ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير، وختمها فى أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ على آسم الله يا أشـ * ـكل من غصنٍ لُجَيْنِ
فى ثلاثٍ من بَنى الرو * م إلى دار حسيـنِ
أَشْخِص الكهل الى مو * لاك يا قُــرّة عينى
أَرِه العُنْف اذا آسـتعـ * ـصى وطالِبــه بدَيْنِ
ودَعِ اللفــظ وخاطبـ * ـه بغمز الحاجبَيْن
وآحذر الرَّجعة من وجـ * ـهك فى خُفَّىْ حُنَيْن

فمضى معهم .

ومن قوله لمن أعرض عنه :

تَتيـه علينا أَنْ رُزِقْتَ ملاحةً * فمهلًا علينا بعضَ تيهك يا بَدرُ
لقد طال ما كُنّا مِلاحا وربمـا * صـدَدنا وتِهنا ثم غيّرنا الدهرُ

وله فى هوى حُجِب عنه :

ظَنّ من لا كان ظنـّ * ـا بحـبيبى فحَـمَاه
أَرْصَــد البابَ رقيبيـ * ـن له فاكْتنَفاه
فإذا ما آشــتاق قربى * ولقـائى منَـعـَاه
جعــل اللهُ رقيبيـ * ـه من السُّوء فِــداه
والذى أقرح فى الشا * دن قلبى ولوَاه
كلّ مشتاق اليـه * فمن السُّوء فِـداه
سِيما من حالت الأحـ * ـراس من دون مُناه

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه، فلم يطق ذلك لكبر سنه ، فقال للتوكّل بعض من حضر عنده : هو يُطيق الذهاب الى القُرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك؛ فبلّغه ذلك، فدفع الى أحمد بن حَمْدون أبياتا قالها وسأله إيصالها، فأوصلها الى المتوكّل، وهى :

أما فى ثمانين وُفِّيتَها * عذيرٌ وإن أنا لم أعْتَذِرْ
فكيف وقد جزتُها صاعدا * مع الصاعدين بتِسْع أُخَرْ
وقد رفع الله أقلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصرّ على فتنة * وألْحد فى دينه أو كفر
وإنى لمن أُسَراء الإله * فى الأرض نصْبَ صُروف القَدَر
فإن يَقْضِ لى عملا صالحا * أثاب وإن يقضِ شرًّا غفر
فلا تَلْحَ فى كبرٍ هدّنى * فلا ذنب لى أن بلغت الكبر
هو الشيب حَلّ بعقْب الشباب * فمن ذا يلوم اذا ما عذر
وإنى لَفى كَنَفٍ مُغْدِق * وعزٍّ بنصر أبى المُنْتَصِر
يُبارى الرياح بفضل السما * ح حتى تَبَلّد أو تَنْحَسِر
له أكّد الوحىُ ميراثَه * ومن ذا يخالف وحى السُّوَر
وما للحسود وأشباهه * ومن كذَّب الحقَّ إلا الحجر

فلما أوصلها شيّعها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ؛ فقال المتوكل : صدقت، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ — محمد بن عبد الملك الزَّيَّات (١)

كان محمد شاعرا مُجيدا لا يُقاس به أحد من الكتّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله فى ذلك ، فإن إبراهيم مُقِلّ وصاحب قِصار ومقطَّعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيُجيد ، ويأتى بالقِصار فيجيد ؛ وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلّم واذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القَبَاء ، وأن يلبس الدُّرَّاعة ويتقلّد عليها سيفا بحمائل ، فأجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ، وضَعْف فى المُنَّة ، ما رحِمتُ شيئا قط ؛ فكانوا يطعنون عليه فى دينه بهذا القول ، فلما وُضِع فى الثِّقل والحديد قال : ارحمونى ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فتُرحَم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكْمك عليها .

لما ماتت أمّ ابنه عمرو رثاها بقصيدة منها :

يقول لى الخِلّان لو زُرْتَ قبرَها * فقلتُ وهل غير الفؤاد لها قبرُ
على حين لم أحدُث فأجهل قبرها * ولم أبلُغ السِّنّ التى معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشيءَ ترجوه فتُحرَمَه * قد كنتُ أحسب أنى قد ملأت يدى
مالى اذا غِبتُ لم أذْكَر بصالحة * وإن مَرِضتُ فطال السُّقمُ لم أعَد

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة واشتهر بابن الزيات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ، وكان أديبا شاعرا عالما بالنحو واللغة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان فى أول أمره من جملة الكتاب ثم صار وزيرا للمعتصم ولابنه الواثق . ولما تولى المتوكل قبض عليه وأمر بادخاله فى تنور من حديد كان ابن الزيات أعدّه لتعذيب المصادرين وأرباب الدواوين المطالبين بالأموال وقيده بخمسة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر باخراجه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ويجد ترجمته فى الأغانى (ج ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم تعجب لمكتئبٍ حزينٍ * خدين صبابةٍ وحليف صبرِ
يقول اذا سألت به بخير * وكيف يكون مهجورٌ بخيرِ

وكان لمحمد بِرْذَون أشهب لم يُرَ مثلُه فَرَاهة وحُسْنا، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ووصف له فراهته، فبعث اليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيله * عنا فودّعنا الأحَمّ الأشهبُ
دَبَّ الوُشاةُ فأبعدوك وربما * بَعُد الفتى وهو الأحَبّ الأقرب
لله يومَ نأيت عنّيَ ظاعنا * وسُلِبتُ قربك أيّ عِلْق أُسْلَب
نَفسٌ مفرّقةٌ أقام فريقُها * ومضى لِطيّته فريقٌ يُجْنَب
فالان اذ كمُلت أداتك كلّها * ودعا العيونَ اليك لونٌ مُعْجِب
وٱختِير من سِرّ الحدائد خيرُها * لك خالصا ومن الحلِيّ الأغرب
وغدوتَ طَنّان اللجام كأنما * فى كل عُضو منك صَنْج يضرب
وكأن سَرْجك إذ علاك غمامةٌ * وكأنما تحت الغمامة كوكب
ورأى عَلَيَّ بك الصديقُ جَلالةً * وغدا العدوّ وصدرُه يتلهّب
أنساك لا زالت اذا منيته * نفسى ولا زالت يمينى تنكب
أضمرتُ منك اليأس حين رأيتَنى * وقُوى حبالى من قُواك تُقَضّب
ورَجَعتُ حين رجعتُ منك بحسرة * لله ما فعل الأحَمّ الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدىّ على الخلافة ٱقترض من مياسير التّجار مالا ، فأخذ من عبد الملك أبى محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردّها اذا جاءنى مال، ولم يتمّ أمره، فٱستخفى ثم ظهر ورضى عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للسلمين وأردت قضاءها من فَيْئهم، والأمْرُ الآن الى غيرى ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة خاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدى فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطنى

المـال الذى اقترضته من أبى لأوصلنّ هذه القصيدة الى المأمون، فخاف أن يقرأها المأمون فيتـدبّر ما قاله ، فيُوقع به، فقال له : خذ منى بعض المـال ونجّم علىّ بعضـه ، ففعل؛ والقصيدة قوله :

ألم تَرَ أنّ الشيءَ للشيءِ علّةٌ * تكون له كالنار تُقـدَح بالزَّنْدِ
كذلك جَرّبت الأمور وإنما * يدُلُّك ما قد كان قَبْـلُ على البَعْدِ
وظَنّى بابراهيم أنّ مكانه * سَيَبْعَث يوما مِثْـلَ أيامه النُّكْدِ
رأيت حُسَينا حين صارَ محمـدٌ * بغير أمانٍ فى يَدَيْه ولا عَقْـدِ
فلو كان أمضى السيفَ فيه بضربة * فصـيّره بالقاع مُنْعفِرَ الخَـدِّ
اذا لم تكن للجُنْـد فيـه بقيّـةٌ * فقد كان ما بُلِّغْتُ من خبر الجند
هُمُ قتـلوه بعد أن قتلوا له * ثلاثين ألفا من كُهُول ومن مُرْدِ
وما نصروه عن يدٍ سَلفت له * ولا قتلوه يوم ذلك عن حِقدِ
ولكنّه الغَدْر الصُّراحُ وخِفّة الـ * ـحلوم وبُعد الرأى عن سُنَن القَصْدِ
فذلك يومٌ كان للنـاس عِبرةً * سيبقى بقاءَ الوَحْى فى الحجر الصَّلدِ
وما يوم إبراهيم إن طال عمـرُه * بأبْعَد فى المكروه من يومه عندى
تذكّـر أميرَ المؤمنين مَقامَه * وأَيْمانه فى الهزل منـه وفى الجِدّ
أما والذى أمسيتَ عبـدًا خليفةً * له شرّ إيمَـان الخليفة والعبـدِ
اذا هزّ أعوادَ المنابر باسْـتِه * تَغَنَّى بليـلَى أو بِمَيّـة أو هِندِ
فوالله ما من تَوْبةٍ نَزَعتْ به * اليك ولا مَيْـلٍ اليك ولا وُدِّ
ولكنّ إخلاصَ الضمير مقـرِّبٌ * إلى الله زُلْفى لا تَبيـدُ ولا تُكْدِى
أتاك بها كَرْها اليـك بأنْفـه * على رَغْمـه وآستأثر اللّه بالحمـدِ
فلا تَتْركَنْ للناس موضِـع شُبْهة * فإنك مَجْزِىّ بحَسْب الذى تُسْدى
فقد غلطوا للناس فى نَصْب مِثْله * ومن ليس للمنصور بابن ولا المهدى

فكيف بمن قد بايع الناسَ والتقت * ببيعته الرُّكبان غوْرا الى نجد
ومن سَكَّ تسليمُ الخلافة سمعَه * يُنادَى به بين السّماطين من بُعْد
وايّ امرئ سُمِّى بها قط نفسَه * ففارقها حتى يُغيَّب فى اللّحد
وتزعُم هذى النّابتيّة أنه * إمام لها فيما تُسِرّ وما تُبدى
يقولون سُنّى وأيّةُ سُنّة * تَنِمّ بصَعْل الرأس جَوْن القَفا جَعْد
وقد جعلوا رُخْص الطعام بعهده * زعيما له باليُمن والكوكب السّعد
اذا ما رأَوْا يوما غلاءً رأيتهم * يَحِنّون تَحْنانا الى ذلك العهد
وإقبالُه فى العيد يُوجِفُ حَوْله * وَجيفَ الجياد واصطكاك القَنا الجُرْد
ورَجّالةٌ يمشون بالبِيض قَبْلَه * وقد تبعوه بالقضيب وبالبُرْد
فإن قلتَ قد رام الخلافةَ قبْلَه * فلم يُؤْتَ فيما كان حاول مِن جِدّ
فلم أجْزِه إذ خيّبَ الله سَعْيه * على خطأ إذ كان منه على عَمْد
ولم أرْضَ بعد العفو حتى رفعتُه * ولَلْعمّ أولى بالتّغمّد والرِّفْد
فليس سَواءً خارجىٌّ رَمَى به * اليك سَفَاه الراى والرأى قد يُرْدى
تَعادَتْ له من كل أَوْب عصابة * متى يُورِدوا لا يُصدِروه عن الوِرْد
ومن هو فى بيت الخلافة تلْتَقى * به وبك الآباء فى ذِرْوة المجد
فَمولاك مولاه وجُنْدُك جُنْده * وهل يَجْمع القَيْنُ الحُسامين فى غِمْد
وقد رابَنى من أهل بيتك أننى * رأيتُ لهم وَجْدا به أيّما وَجْد
يقولون لا تَبْعَد من آبن مُلِمّة * صبورٍ على اللأواء ذى مِرّة جَلْد
فَدانا وهانت نفسُه دون مُلْكنا * عليه لدى الحال التى قلّ من يَفْدى
على حين أعطَى الناسُ صَفْقَ أكفّهم * علىَّ بن موسى بالوِلاية والعَهْد
فما كان فينا من أبَى الضيمَ غيرُه * كريمٌ كَفَى ما فى القَبول وفى الرَّدّ
وجرّد إبراهيم للموت نفسَه * وأبدى سلاحا فوق ذى مَيْعة نَهْد

وأبلى ومن يبلُغ من الأمر جَهْدَه * فليس بمذموم وإن كان لم يُجْـدِ
فهذى أمور قد يَخاف ذوو النُّهى * مَغَبّتها والله يهـــديك للرّشـــدِ

وكانت الخلافة فى أيام الواثق تدور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب، وعلى أَشناس وكاتبه أحمد بن الخَصيب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها لبعض أهل العسكر، وهى :

يابن الخلائف والأملاك إن نُسِبوا * حُزْت الخـلافةَ عن آبائك الأُوَل
أَجُرْت أم رقدت عيناك عن عَجَب * فيـه البريّة من خوف ومن وَهَل
ولّيتَ أربعـــةً أمرَ العباد معـا * وكلُّهم حاطِبٌ فى حبل مُحْتبِـــل
هـــذا سليمانُ قد ملّكت راحتَه * مشارقَ الارض من سَهْل ومن جبل
ملّكته السِّند فالشِّحْرَيْن من عَدَن * الى الجزيرة فالأطراف من مَلَل
خلافةٌ قد حواها وحده فَمَضَتْ * أحكامُه فى دماء القوم والنُّفَـل
وابن الخصيب الذى ملّكت راحته * خلافةَ الشأم والغازين والقفـل
فنيلُ مِصرَ فبحرُ الشأم قـد جَرَيَا * بما أراد من الاموال والحُلَل
كأنهـم فى الذى قَسَّمتَ بينهـم * بَنُو الرشـــيد زمانَ القَسْم للدُّوَل
حَوَى سليمانُ ما كان الأمينُ حوى * من الخلافة والتبليغ للأمـل
وأحمـــدُ بن خصيب فى إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجامع السُّبل
أصبحتَ لا ناصحٌ يأتيك مستـترا * ولا علانيـــةً خوفا من الحِيَـل
سل بيتَ مالك أين المـال تعرفه * وسل خَراجك عن أموالك الجُمَل
كم فى حُبُوسك ممن لا ذنوب لهم * أسْرَى التَّكَذّب فى الأقياد والكُبَل
سمِّيت باسم الرشيد المُرتضى فَبِـه * تُسْمى الأمور التى تُنْجِى من الزَّلل
عِشْ فيهم مثل ما عاشت يداه معا * على البرامك بالتهـــديم للقُـــلَل

فلما قرأ الواثق هـذا الشعر غاظَه ، ونكب سليمانَ بن وهب وأحمـد بن الخصيب ، وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفي ألف دينار فجعلها فى بيت المـال .

٦ — ٱبنُ البَوّاب (١)

لما أُتى المأمونُ بشعر ٱبن البوّاب الذى يقول فيه :

أيبخَل فَرْدُ الحسنِ فَرْدُ صِفَاته * علىّ وقد أفردتُه بهوًى فَرْدِ

رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده * فملّكه واللهُ أعلم بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عِصمة * مميِّزة بين الضّلالة والرّشد

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أَعَيْنَىّ جُودَا وٱبْكِيَا لِى محمدا * ولا تَذْخَرا دمعا عليه وأَسْعِدا

فلا فرِح المأمون بالمُلك بعده * ولا زال فى الدنيا شريدا مُطَرَّدا

واحدة بواحدة، ولم يَصِلْه بشىء . ولما سخِط عليه قال قصيدة يمدحه بها، ودسّ مَنْ غَنّاه فى بعضها لما وجد منه نشاطا، فسأل : مَنْ قائلُها، فأُخبر به، فرضى عنه وردّه إلى رسمه من الخدمة، وهى :

هل للمحبّ مُعِينُ * إذ شَطّ عنه القرينُ

فليس يبكى لشجو الـ * ـحزينِ إلّا الحزينُ

يا ظاعِنا غاب عنا * غداةَ بانَ القَطِينُ

أَبْكَى العيونَ وكانت * به تَقَرُّ العيونُ

يأيها المأمونُ الـ * ـمباركُ الميمونُ

لقد صَفَتْ بك دنيا * للمسلمين ودينُ

عليك نورُ جلال * ونورُ مُلْكٍ مُبِينِ

---

(١) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى، وجىء بجدّه وجماعة معه رهينة الى الحجاج بن يوسف، فنزلوا عنده بواسط، فأقطعهم سكة بها، فاستطوها ونزلوها طول أيام بنى أمية، ثم انقطعوا من الدولة العباسية الى الربيع فخدموه، وكان عبدالله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجبة الخلفاء، وكان صالح الشعر قليله وراوية لأخبار الخلفاء عالما بأمورهم .

القولُ منــك فَعــال * والظن منك يقــين
ما من يديــكَ شِمال * كلتا يديك يمــين
كأنمــا أنت فى الجــو * د والتّــقى هارون
مَنْ نال من كل فضل * ما نالَه المأمون
تألَّف النــاسَ منـــه * فضــلٌ وجــود ولين
كالبـــدر يبدو عليه * ســكينةٌ وســكون
فالرزق من راحتيـــه * مقسَّـــم مضمون
وكل خَصْلة فضل * كانت فمنه تكون

ومما يغنَّى فيه قوله :

أَفِقْ أيها القلب المعــذّب كم تَصْبو؟ * فلا النَّأْى عن سَلْماك يُسلى ولا القربُ
أقول غَـــدَاةَ ٱستخبرتْ مِمَّ علّتِى ؟ * من الحب كربٌ ليس يُشْــبِهه كرب
اذا أبصرتْكِ العــينُ من بُعْــد غاية * فأدخلت شكا فيــك أثْبَتَــك القلب
ولو أن رَكْبا يَمَّمُــوك لَقَــادهم * نسيمُك حتى يَســتدلّ بِك الركب

أملق ابن البواب حين جَفَــاه الخليفة وعَلَت سِنّه عن الخدمة، فرحَل الى أبى دُلَفَ القاسم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فما نفدت حتى مات؛ وهى قوله :

طرَقَتْك صائدةُ القــلوب رَبابُ * ونَأَتْ فليس لهــا اليـــك مآب
وتصرّمتْ منهــا العهود وغُلّقتْ * من دون نَيــل طِلابها الأبواب
فلأَصْدِفنّ عن الهــوى وطِلابه * فالحبّ فيــه بَلِيّـــة وعــذاب
وأخصّ بالمدح المهذّب ســيّدا * نَفَحاتُـــه للمُجْتدِين رِغاب
والى أبى دُلَفٍ رحلتُ مطيّــتى * قــد شَــفّها الإرقال(١) والإتعاب

(١) الارقال : ضرب من الخبب .

تعــلو بنا قُلَلَ الجبال ودونها * مما هَـوَتْ أهْـويّة وشِعَاب
فاذا حللتُ لدى الأمير بأرضه * نلتُ المنى وتقضّتِ الآرابُ
مَلِكٌ تأثّل عن أبيه وجده * مَجْـدًا يقصّر دونه الطُّلّاب
وإذا وزَنْت قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعتْ لفضل قديمه الأحساب
قوم عَلوْا أملاكَ كلّ قبيلة * فالناسُ كلّهم له أذناب
ضَربتْ عليه المكرماتُ قِبابها * فعلا العمودُ وطالت الأطناب
عَقِم النساءُ بمثله وتعطّلت * من أن تُضَمَّن مثلَه الأصلابُ

٧ — الخُـرَيْمِى (١)

كان متّصلا بمحمد بن منصور بن زِيَاد كاتب البرامكة، وله فيه مدائحُ جِيَاد، ثم رثاه بعد موته، فقيل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك وأجود، فقال : كنّا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، و بينهما بون بعيد .

وهو القائل فى عينيه :

أُصْغِى الى قائدى لِيُخبرنى * إذا ٱلتقينا عمّن يُحَيِّينى
أريد أن أعْدِل السلام وأن * أَفْصِل بين الشريف والدُّون
أسمع ما لا أرى فأَكْرَهُ أن * أَخْطِئ والسمعُ غير مأمون
لله عينى التى فُجِعتُ بها * لو أن دهرا بها يُواتينى
لو كنتُ خُيِّرت ما أخذتُ بها * تَعْمِيرَ نوح فى مُلك قارون
حقّ أخِلّائى أن يَعُودونى * وأن يُعَزّوا عنّى و يبكونى

وهو القائل :

اذا ما مات بعضُك فابكِ بعضًا * فإن البعض عن بعض قريبُ
يُمَنِّينى الطبيبُ شفاء عينى * وهل غير الإله لها طبيب

---

(١) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من العجم، وهو القائل :

إنى آمرؤ من سراة الصغد ألبسنى * عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر

وكان مولى آبن خريم آلذى يقال لأبيه : خريم الناعم . وهو خريم بن عمرو من بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . وعمى أبو يعقوب الخريمى بعد ما أسن، وكان يقول فى ذلك شعرا، فمنه قوله :

فإن تك عينى خبا نورها * فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبى ولكنما * أرى نور عينى إليه سرى
فأسرج فيه إلى نوره * سراجا من العلم يشفى العمى

وقال يذكر بغداد والفتنة التى كانت بها :

قالوا ولم يَلْعبِ الزمانُ ببغـ * ـداد وتَعْـثُرْ بها عـواثِرُها
إذ هى مثـلُ العروس بادِئُها * مُهَـوَّل للفـتى وحاضِرها
جَنّـةُ دنيا ودارُ مَغْبَـطَة * قَلّ من النائبات واثِرُها[١]
دَرّت خُلوفُ الدنيا لساكنها * وقَلّ معسـورُها وعاسِـرُها
وٱنفـرجَتْ بالنعـيم وٱنْتَجعت * فيها بلذّاتها حـواضِرها
فالقـومُ منها فى روضـة أُنُفٍ * أشرق غِبَّ القِطار زاهـرها
من غَرّه العيش فى بُلَهْـنِية * لو أن دنيا يدوم عامِرها
دارُ مـلوك رَسَت قواعـدها * فيها وقـرّت بها منابِرها
أهلُ العـلا والثَّرى وأنْدِيَة الـ * ـفخر إذا عُـدّدَتْ مفاخرها
أفراخُ نُعْـمَى فى إرث مملكة * شَـدّ عُراها لها أكابرها
فـلم يزل والزمانُ ذو غِيَرٍ * يَقدَح فى مُلكها أصاغرِها
حـتى تَساقتْ كأسا مُثَمِّـلة * من فتنـة لا يُقال عاثِرها
وٱفترقتْ بعـد أُلفَـة شـيَعًا * مقـطوعةً بينَها أواصِـرها
ياهَلْ رأيتَ الأملاكَ ما صَنَعَت * إذ لم يَزَعْـها بالنّصح زاجرها
أورد أملاكُـنا نفوسَهـمُ * هُـوّةَ غَىّ أعْيَت مصادِرها
ما ضَـرّها لو وَفَتْ بَموْثِقها * وٱستحكمتْ فى التُّقى بصائرها
ولَم تُسـافِك دماءَ شـيعتها * وتَبْتَعِـل فتيـةً تُكابرها
وأقنَعتْها الدنيـا التى جُمِـعت * لها ورَغْبُ النفـوس ضائرها
مازال حَوْضُ الأملاك [... ...] * مسجورها بالهـوى وساجِرُها
تُبْقِى فُضـولَ الدنيا مُكاثَرةً * حتى أُبِيحت كَرْها ذخائرها

(١) مفزعها وذاعرها .

تبيـــع ما جمّـــع الأبُوّة لد * أبنـاء لا أَرْبحت متـاجرهـا
يا هل رأيتَ الجنانـ زاهرةً * يروق عينَـ البصـير زاهرها
وهـل رأيت القصـــورَ شارعة * تُكِنّ مثل الدُّمَى مقـاصرها
وهل رأيتَ القُرى التي غَرَس الـ * أملاكُ مُخْضــرّةً دَسَاكرُها
محفـوفةً بالكروم والنّــخلِ والـ * ـرَّيْحـان قد دَمِيت محـاجرها (١)
فإنهـا أصبَحت خلايا من الـ * ـإنسانـ قد دَمِيت مَحَاجرها (١)
قَفْرًا خلاء تَعْوِى الكلابُ بهـا * يُنْكِر منهـا الرســومَ داثِرها
وأصــبح البـؤسُ ما يفارقهـا * إلْفًا لهـا والســرورُ هاجرها
بزَنْدَوَرْد والياسِريّة والـ * شّـطّيْن حيث انتهت معـابرها
وبالرحى والخــيْزُرانية الـ * ـعُليـا التى أشــرفت قناطرها
وقَصْر عَبْـــدويه عِبرةٌ وهُدًى * لكل نفس زكَـت سرائرها
فأينـ حرّاســـها وحارسُهـا * وأينـ مَجْبــورها وجابرها
وأينـ خِصيانُها وحشـوتها * وأينـ ســـكّانها وعامرها
أين الجَــرادية الصّقالبُ والـ * أحْبُش تعـدو هُـدْلًا مَشافرها
ينصـدِع الجنـدُ عن مواكبها * تعـــدو بهـا سُرّبًا ضـوامرها
بالسّند والهنـد والصّقالب والـ * نوبة شِـيبت بهـا بَرابرهـا
طيرًا أبابيـــل أرسلت عبثـا * بقـــدُم سُــودانها أحامرها
أين الظباء الأبكار فى روضة الـ * ـمُلك تَهـادى بهـا غَرائرها
أينـ غَضاراتهـا ولذّتهـا * وأينـ مَحبــورُها وحابرها
بالمســك والعنـبر اليمـانىّ والـ * ـيلنجوج مشــبوبةٌ مجـامرها
يرفُلن فى الخَــزّ والمجاســد والـ * ـمَوْشِىّ مخطــومةٌ مَزامرها

(١) كذا فى الطبرى فى حوادث سنة ١٩٧ هـ ، طبع بلاق وطبع أوربا .

فأين رقّاصها وزامرها * يجُبن حيث انتهت حناجرها
تكاد أسماعهم تُسَلّ اذا * عارض عيدانها مزاهرها
أمست بجوف الحمار خالية * يسعرها بالجحيم ساعرها
كأنما أصبحت بساحتهم * عادٌ ومسّتهم صراصرها
لا تعلم النفسُ ما يبايتها * من حادث الدهر أو يباكرها
تُضحي وتمسي دريّةً غرضا * حيث استقرت بها شراشرها
لأسهم الدهر وهو يرشقها * مخْنطها مرة وباقِرها
يابؤس بغداد دارِ مملكةٍ * دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالـ * ـحرب التي أصبحت تُساورها
كم قد رأينا من المعاصي بها * كالعاهر السوء ... ...
حلّت ببغداد وهي آمنة * داهيةٌ لم تكن تُحاذرها
طالَعها السوءُ من مطالعه * وأدركت أهلَها جرائرها
رقّ بها الدين واستُخِفّ بذي الـ * ـفضل وعزّ النُّسّاك فاجرها
وخَطّم العبدُ أنفَ سيّده * بالرّغم واستعبدتْ مخادرها
وصار ربّ الجيران فاسقُهم * وابتزّ أمر الدروب ذاعرها
من ير بغدادَ والجنودُ بها * قد ربّقتْ حولها عساكرها
كلّ طحونٍ شهباء باسلةٍ * تُسقِط أحبالها زماجرها
تُلقي بَغيّ الردى أوانسها * يُرهقها للقاء طاهرها
والشيخُ يعدو حزْما كتائبُه * يُقدِم أعجازَها يعاورها
ولزُهير بالقول مأسدة * مرقومة صُلبةٌ مكاسرها
كتائبُ الموت تحت ألويَة * أبرَحَ منصورُها وناصرها

يعلم أن الأقدارَ واقعة * وقعاً على ما أحَبّ قادرها
فتلك بغدادُ ما يَبِنّ من الـ * ـدَّلَه فى دُورها عصافرها
محفوفةً بالردى منطّقةً * بالصقْر محصورةً جبابرها
وبين شَطّ الفُرات منه الى * دِجلة حيث ٱنتهت مَعابرها
كهادِى الشُّقراء نافِرُه * تركُض من حولها أشاقرها
يُحرقها ذا وذاك يَهدِمها * ويَشتفى بالنّهاب شاطرها
والكَرْخُ أسواقُها معطّلة * يَستَنّ عَيّارها وعائرها
أخرجتِ الحربُ من سواقِطها * آسَادَ غِيلٍ غُلْباً تُساورها
من البَوارى تِرَاسُها ومن الـ * ـخُوص اذا ٱستلأَمتْ مَغافرها
تغدو الى الحربِ فى جواشِنها الـ * ـصّوف اذا ما عَدَت أساوِرها
كتائِب الهِرْش تحت رايته * سَاعَد طَرّارَها مُقامِرها
لا الرّزق تبغى ولا العطاءَ ولا * يحشُرها للقاء حاشرها
فى كل دَرْب وكل ناحِية * خَطّارة يَستهِلّ خاطرها
بمثل هام الرجال من فِلَق الـ * ـصخر يَزود المقلاعَ بائرها
كأنما فوق هامها عِدَف * من القطا الكُدْر هاج نافِرها
والقومُ من تحتها لهم زَجَل * وهى تَرامَى بها خواطرها
بل هل رأيتَ السيوفَ مصْلتة * أشهَرها فى الأسواق شاهرها
والخيلَ تستَنّ فى أزِقّتها * بالتُّرك مسنونة خناجرها
والنَّفط والنار فى طرائقها * وهابِيًا للدخان عامرها
والنّهب تعدو به الرجالُ وقد * أبدت خلاخيلَها حرائرها
مُعْصَوْصِبات وسط الأزِقّة قد * أبرزها للعيون ساتِرها
كلّ رَقُود الضّحى مخبّأةٌ * لم تَبْدُ فى أهلها محاجرها

بَيْضَــة خِدْر مكنونة برَزَتْ * للنــاس منشــورةً غدائرها
تعــثُر فى ثوبهــا وتُعْــجِلها * كَبّةُ خيــل زِيعَت حوافرها
تسأل أين الطّريق والهــةً * والنــار من خلفها تبــادرها
لم تجْتَــل الشمسُ حسنَ بهجتها * حتى آجتلتهــا حَرْب تُبــاشرها
ياهْــل رأيت الثّــكلى مُوَلِوَلةً * فى الطُّرق تسعى والجَهْد باهرها
فى إثر نعش عليــه واحدها * فى صــدره طعنة يساوِرها
فرغاء تُلْقِى النِّشَــار من يدها (١) * يهــزّها بالسّنان شاجرها
تنظُر فى وجهــه وتهتِف بالـ * ـثكل وعز الدمــوع خامرها
غَرْغر بالنّفس ثم أسْــلَمَها * مَطْــلولةً لا يُخَـاف ثائرها
وقد رأيتُ الفِتيان فى عَرْصَة الـ * ـمَعْرك معفــورةً مَنَــاخرها
كلّ فــتى منّــاعٌ حقيقتَــه * تَشْــقَى به فى الوغى مســاعرها
باتت عليه الكلاب تنهشُــه * مخضوبةً من دمٍ أظافرها
أما رأيتَ الخيــولَ جائلةً * بالقــوم منكــوبةً دوائرها
تعثُر بالأوجُه الحسان من الـ * ـقتْــلَى وغُلّتْ دمًا أشــاعرها
يَطأْنَ أكبادَ فتيــةٍ نُجُــدٍ * يفْــلِق هاماتهــم حــوافرها
أما رأيتَ النّســاء تحت المجا * نيق تعَــادَى شُــعْثاً ضفــائرها
عقــائِل القــوم والعجائز والـ * ـعُنّس لم تُختــبر مَعــاصرها
يحملن قوتا من الطّحين على الـ * أكتاف معصوبةً مَعَــاجرها
وذات عيشٍ ضَــنْك ومُقْعِسة * تَشْــدَخُها صَخْــرةٌ تُعَــاوِرها
تسأل عن أهلهــا وقد سُلبت * وأبْتُزّ عن رأسها غَفَــائرها
يا ليت ما والدهر ذو دُوَلٍ * تُرجى وأخرى تُخشى بوادرها

(١) كذا فى هامش النسخة الأوربية من الطبرى . وفى نسخة بولاق وأوربا (فى صلبها) :
* فرغاء ينق الشنار مريدها * وهى رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى .

هل ترجعن أرضُنا كما غَنِيَت * وقد تناهَتْ بنا مَصايرها
مَنْ مُبلغٌ ذا الرياستين رسا * لاتٍ تأتّى للنّصح شاعِرها
بأن خير الوُلاة قد علم النـ * ـاسُ اذا عُدِّدتْ مآثرها
خليفةُ الله من بريّته الـ * ـمأمون سائسُها وجابرها
سَمَتْ اليه آمال أمته * منقادةً برّها وفاجرها
شاموا حيا العدل من مَخايله * وأصحرت بالتّقى بصائرها
وأحمدوا منك سيرةً جلَت الـ * ـشّك وأخرى صحّت معاذرها
واستجمعتْ طاعة برفقك للـ * ـمأمون نَجْديّها وغائرها
وأنت سَمْع فى العالمين له * ومقلةٌ ما يَكِلّ ناظرها
فاشكر لذى العرش فضلَ نعمته * أوجَبَ فضلَ المزيد شاكرها
واحذر فداء لك الرعية والـ * أجنادُ مأمورُها وآمرها
لا تَرِدَنْ غَمرةً بنفسك لا * يصدر عنها بالرأى صادرها
عليك ضَحْضاحَها فلا تَلِج الـ * ـغَمْرَ مُلتَجّةً زواخرها
والقصدَ إن الطريق ذو شُعَبٍ * أشأمُها وَعْثُها وجائرها
أصبحتَ فى أمّة أوائلُها * قد فارقت هَدْيَها أواخرها
وأنت سُرسُورُها وسائسها * فهل على الحقّ أنت قاسرها
أدّبْ رجالا رأيتَ سيرتهم * خالف حكمَ الكتاب سائرها
وامدد الى الناس كف مرحمة * تُسَدّ منهم بها مفاقرها
أمكنك العدلُ إذ هممتَ به * ووافقت مدَّه مقادرها
وأبصر الناسُ قصدَ وَجْههمُ * ومَلّكت أمةً أخايرها
تُشْرَع أعناقنا اليك اذا الـ * ـسّادات يوما جَمّت عشائرها
كم عندنا من نصيحةٍ لك فى الله * ـه وقُربى عزّت زوافرها

وحرمــةٍ قرُبت أواصِــرها * منك وأخرى هل أنتَ ذاكرها
سَـعْيُ رجالٍ فى العـلم مطلبُهم * رائحُــها باكـر وباكرها
دونك غــراءَ كالوَذيلة لا * تفقــد فى بلدة ســوائرها
لا طَمَعًا قلتُهـا ولا بَطَـرا * لكل نفس نفسٌ تُؤَامرهـا
ســيّرها الله بالنصــيحة وال * خَشــية فاستدمجتْ مرائرها
جاءتك تحــكي لك الأمــور كما * ينشُر بَزَّ التِّــجار ناشــرها
حمّلتُهـا صاحبا أخا ثِقَــةٍ * يظــلّ عُجْبًا بهـا يُحاضرها

ومن جيِّد شعره قوله :

النـاسُ أخلاقُهم شـتّى وإن جُبِلوا * على تَشَـابُه أرواحٍ وأجسـاد
للخـير والشرّ أهلٌ وُكّـلوا بهمـا * كلٌّ له من دواعي نفســه هاد
منهــم خليلُ صَـفاء ذو محافظـةٍ * أرسى الوفاءُ أواخِيــه بأوتاد
ومُشْــعَر الغــدر محنيٌّ أضـالعُه * على سريرة غَمْــر غِلّهـا باد
مُشَاكِسٌ خَدِع جَــمّ غوائلُه * يبُدى الصفاءَ ويخفى ضَربةَ الهـادى
يأتيـك بالبغى فى أهل الصـفاء ولا * ينـفَكّ يســعى بإصـلاحٍ لإفساد

ومن جيد شعر الخريمى قوله :

أُضاحِك ضـيفى قبـل إنزال رَحْله * ويُخصب عنـدى والمحـل جَديب
وما الخصب للأضياف أن يكثُرَالقِرى * ولكنما وجه الكـريم خَصِيب

ومن جيِّد شعره قوله :

زاد معـروفَك عنـدى عِظَما * أنّه عنـدك محقــورٌ صـغير
وتناســيه كأن لم تأته * وهو عنـد الناس مشهور كبير

وهو القائل :

وإن أشَدّ الناس فى الحَشر حَسْرَةً * لَمُورِثُ مالٍ غيرَه وهو كاسِــبه
كفى سَفَهًا بالكهل أن يتبَعَ الصِّبا * وأن يأتِىَ الأمرَ الذى هو عائبــه

ويُستجاد له قوله :

ودون النّـدى فى كل قلب ثَنيـة * لهـا مَصْعَدٌ وعر ومُنْحدر سَهْل
وَوَدّ الفتى فى كل نيـل يُنيله * اذا ما ٱنقضى لو أن نائله جَزْل
وأعلم علمـا ليس بالظن أنه * لكل أناس من ضرائبهم شَـكْل
وأنّ أَخلاءَ الزمان غَنـاؤهـم * قليل اذا الإنسانُ زَلّت به النّعل
تزوَّدْ من الدنيـا متاعاً لغـيرها * فقـد شمّرتْ حَذّاء وٱنصرم الحبل
وهل أنتَ إلا هامَةُ اليومِ أو غَدِ * لكل أناس من طوارقها ٱلثّكل

وفى هذا الشعر يقول :

أبا لصُّغْد بأسٌ إذ تعيّرنى جُمْـلُ * سَفاهاً ومن أخلاق جَارَتِىَ ٱلجهل
فإن تفخرى يا جمـل أو تتجمّلى * فلا فخرَ إلا فوقه الدّين وٱلعقـل
أرى الناس شَرْعاً فى الحياة ولا يُرى * لقـبر على قـبر عَلاء ولا فَضْـل
وما ضَرّنى أن لم تَلِدْنى يُحابِر * ولم تَشْـتمل جَرْمٌ علىّ ولا عُكْل

وهو القائل :

ما أحسنَ ٱلغَـيْرةَ فى حينهـا * وأقبـحَ ٱلغيرة فى كل حِين
من لم يزل متّهِما عرْسَــه * مُنَاصِـبا فيهـا لريْب ٱلظنون
أوشـك أن يُغْرِيَهـا بالذى * يَخاف أن يُبرزها للعيون
حسـبك من تحصينها وَضْعُها * منك إلى عِرضٍ صحيح ودين
لا تطّلع منـك على رِيبـةٍ * فيتبع المقرونُ حبـل القرين

٨ — عبد الله بن طاهر[1]

كانَ بمحلّ من علوّ المنزلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستغنَى به عن التقريظ له والدّلالة عليــه ، وأمرُه فى ذلك مشهورٌ عند الخاصّة والعامّة، وله فى الأدب مع ذلك المحلّ الذى لا يُدْفع، وفى السماحة والشجاعة ما لا يقاربُهُ فيه أحدٌ .

وكان أديبا ظريفا جيّد الغناء، نسب اليه صاحب الأغانى أصواتا كثيرة أحسنَ فيها ونَقَلَها أهلُ الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تُلينُنــا الحَـــدَقُ النُّجْـ * ـلُ على أنّنا نُلين الحـــديدا
طَوْعُ أيدى الظِّبــاء تقتادنا العيـ * ـن ونقتاد بالطِّعان الأُســودا
نَمْلِك الصِّــيد ثم تملكنا البيـ * ـضُ المصوناتُ أَعْيُنًا وخــدودا
نتّقى سخطنــا الأســود ونخشى * سَخَط الخِشْف حين يُبدى الصدودا
فترانا يوم الكــريهة أحــرا * را وفى السِّــلم للغوانى عبيــدا

أعطاه المأمونُ مالَ مصر لسَنَةٍ، خَراجَها وضِياعَها ، فوهبه كلّه وفرّقه فى الناس ورجع صِفْرا من ذلك ، فغاظَ المأمونَ فعلُه، فدخل اليه يوم مَقْدَمه ، فأنشده أبياتا قالها فى هذا المعنى ، وهى :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيدا نبيلا عالى الهمة شهما، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه ، حسن الالتفات اليه لذاته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة فى خدمته ، وكان واليا على الدينور فلما خرج بابك الخرّمى على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث الى عبد الله وهو بالدينور يأمره بالخروج الى خراسان، فخرج اليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور فى رجب سنة ٢١٥ هـ . وكان المطر قد انقطع عنها تلك السنة ، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا ، فقام اليه رجل بزاز من حانوته وأنشده :

قد قحط النـاس فى زمانهم * حتى اذا جئت جئت بالدرر
غيثان فى ساعة لنا قدما * فـرحبا بالأمير والمطـــر

تولى الشام والعراق ومصر . وتوفى سنة ٢٣٠ هـ . وتجد ترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغانى (ج ١١ ص ١١) .

نَفْسى فِداؤُكَ والأعناقُ خاضعةٌ * للنائبات أبيًّا غيرَ مُهْتَضَم
اليك أقبلتُ من أرضٍ أقمتُ بها * حَوْلَين بعدَك فى شَوْقٍ وفى أَلَم
أَقْفُو مساعيَك اللائى خُصِصتَ بها * حَذْوَ الشِّراك على مِثْل من الأَدَم
فكان فَضْلِىَ فيها أنّنى تَبَعٌ * لِمَا سَنَنْتَ من الإنعام والنِّعم
ولو وُكِلْتُ الى نفسى عَنِيت بها * لكن بدأتَ فلم أعجِزْ ولم أَلَم

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِسْتُ عليك مَكْرُمة نلتَها ، ولا أُحْدُوثةً حَسُنَ عندك ذكرها ، ولكن هذا شيء اذا عَوَّدته نفسَك افتقرت ، ولم تقدر على لَمِّ شَعَثك وإصلاح حالك . وزال ما كان فى نفسه .

لمّا فتح عبدُ الله مصرَ سَوَّغه المأمونُ خَراجها ، فصَعِدَ المِنْبَرَ فلم يزل حتى أجازَ بها كلّها ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها ، فأتاه مُعَلَّى الطائى وقد أعلموه ما صنع بالناس فى الجوائز وكان عليه واجدا ، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير، أنا معلَّى الطائى وقد بلغ منّى ما كان منك من جفاء وغِلَظ ، فلا يَغْلُظَنّ علىّ قلبُك ، ولا يستخفنّك الذى بلغك ، أنا الذى أقول :

يا أعظمَ الناسِ عفوًا عند مَقْدِرَةٍ * وأظلمَ الناسِ عندَ الجود للمال
لو أصبحَ النيلُ يَجْرِى ماؤه ذهبًا * لَمَا أشرتَ الى خَزْنٍ بمِثقال
تُغْلِى بما فيه رِقّ الحمد تملكه * وليس شىءٌ أعاضَ الحمدَ بالغالى
تَفُكّ باليُسْر كَفَّ العُسْر من زَمَنٍ * اذا آستطالَ على قَوْمٍ بإقلال
لم تخلُ كفُّك من جُودٍ لمُختَبِطٍ * ومُرْهَفٍ قاتلٍ فى رأسِ قتّال
وما بَثَثْتَ رَعِيلَ الخيل فى بَلَدٍ * إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجال
إن كنتُ منك على بالٍ مَنَنْتَ به * فإنّ شكرَك من قلبى على بال
ما زلتُ مُقْتَضِبًا لولا مجاهرةٌ * من ألسُنٍ خُضْنَ فى صَدْرى بأقوال

فضحك عبد الله وسُرَّ بما كان منه وقال : يا أبا السَّمراء، أقرِضْني عشرةَ آلافِ دينار فما أمسيتُ أملكها، فأقرضَه فدفعها اليه .

كان موسى بن خاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمَه وجليسَه، وكان له مُؤْثِرا مقدِّما، فأصاب منه معروفا كثيرا وأجازه بجوائز سنيّة هناك وقبل ذلك، ثم إنه وَجَد عليه فى بعض الأمر بجفاه وظهر له منه بعض ما لم يحبّه، فرجع حينئذ الى بغداد وقال :

إنْ كان عبدُ الله خلّانا * لا مُبْدئا عُرْفا و إحسانا
فَحَسْبُنا اللهُ رَضِينا به * ثم بعبد الله مَولانا

يعنى به المأمونَ، وغنّت فيه جاريته وسمعه المأمون، فاستحسنه ووصله و إياها، فبلغ ذلك عبدَ الله بن طاهر، فغاظه ذلك وقال : أَجَلْ! صنعنا المعروفَ الى غير أهله فضاع .

ولعبد الله ألحانٌ صاغها، فمنها ومن مختارها وصدورها ومقدّمها لحنه فى شعر أخت عاصية فإنه صوتٌ نادر جيِّد صحيحُ العمل مُزْدَوج النغم ، بينَ لِينٍ وشِدّةٍ على رسم الحُذّاق من القُدَماء، وهو :

هلّا سَقَيْتُم بنى سَهْم أَسيرَكُمُ * نَفْسى فداؤك من ذى غُلّةٍ صادى
الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ يتبعها * مُضَرَّجٌ بعد ما جادتْ بإزْبَاد

ومن غنائه أيضا :

راحَ صَحْبى وعاودَ القلبَ داءُ * من حبيب طِلَابُه لى عَناءُ
حَسَنُ الرأى والمواعيد لا يُلْـ * ـفى لشىء مما يقول وفاءُ
مَنْ تَعَزَّى عمن يحب فإنى * ليس لى ما حييتُ عنه عَزاءُ

ما قيل في هجاء الأمين ورثائه

قيل في هجائه :

لم نُبَكّيك لماذا للطّرَبْ * يا أبا موسى وتَرْوِيج اللّعبْ
ولِترْك الخَمْس في أوقاتها * حَرَصًا منها على ماء العنب
وَشَنِيفٍ أنا لا أبكي له * وعلى كَوْثَر لا أخشى العَطَب
لم تكن تعرف ما حدّ الرضا * لا ولا تعرف ما حَدّ الغضب
لم تكن تَصلُح للملك ولم * تُعطِك الطاعةَ بالملك العرب
أيها الباكي عليه لا بَكَتْ * عين من أبكاك إلّا للعَجَب
لم نبكّيك لما عَرّضتنا * للمَجانيق وطَوْرا للسَّلَب
ولقومٍ صيّرونا أعْبُدًا * لهم يبدو على الرأس الذّنَب
في عذابٍ وحِصارٍ مُجْهِدٍ * سَدّد الطُّرقَ فلا وَجْهَ طلب
زعموا أنك حيٌّ حاشر * كلّ من قَدْ قال هذا قد كَذَب
ليت من قد قاله في وَحْدَة * من جميع ذاهبٍ حيث ذهب
أوجب اللهُ علينا قتلَه * فاذا ما أوجب الأمرَ وجَب
كان والله علينا فِتنةً * غَضِبَ الله عليه وكَتَب

وقال عبد الرحمن بن أبي الهُداهد يرثيه :

ياغَرْبُ جُودي قد بُتّ من وذَمِه * فقد فقدنا الغَزير من دِيَمِه
ألوت بدنياك كفُّ نائبة * وصرنَ مُغْضًى لنا على نِقَمه
أصبح للموت عندنا عَلَم * يضحك سِنّ المنون من عَلَمه
ما استنزلَتْ دَرّةُ المنون على * أكرم من حَلّ في ثرى رَحِمه
خليفةُ الله في بريّته * تقصُر أيدي الملوك عن شِيَمِه

يفترّ عن وجهه سنا قمر * يَنشقّ عن نوره دُجَى ظُلَمه
زُلزِلت الأرضُ من جوانبها * اذ أولغَ السيفُ من نجيع دَمه
مَنْ سكنت نفسُه لِمَصْرعةٍ * من عُمُمِ الناس أو ذَوى رَحِمه
رأيتُه مثلَ ما رآه به * حتى تذوّق الأمرّ من سَقَمه
كم قد رأينا عزيز مملكةٍ * ينقل عن أهله وعن خَدَمه
يا مَلِكا ليس بعده مَلِك * لخاتم الأنبياء فى أُمَمه
جادَ وحَىّ الذى أقمتَ به * سَحّ غزير الوكيف من دِيَمه
لو أحجم الموتُ عن أخى ثِقَةٍ * أُسْوِىَ فى العزّ مُسْتَوى قَدَمه
أو ملكٍ لا ترام سطوتُه * إلا مَرامَ الشَّتيم فى أجَمه
خَلّدك العزّ ما سَرَى سَدَف * أو قام طِفل العشىّ فى قَدَمه
أصبح مُلكٌ اذا ٱتّزرتَ به * يَقْرع سنَّ الشَّقاةِ من نَدَمه
أثَّرَ ذُو العرْشِ فى عِداك كما * أثّر فى عاده وفى إرَمه
لا يُبعد الله صَيّورةً تَليت * لخيرِ داعٍ دعاه فى حَرَمه
ما كنتُ إلا كَحُلم ذى حُلُم * أُولِجَ بابَ السرور فى حُلُمه
حتى اذا أطلقتْه رَقْدتُه * عاد الى ما ٱعتراه من عَدَمه

وقال أيضا يرثيه :

أقول وقد دنوت من الفِرار * سُقِيت الغيثَ ياقصر القَرارِ
رمتك يدُ الزمان بسهم عَيْن * فصرتَ مُلَوَّحا بدُخان نار
أبِن لى عن جميعك أين حَلّوا * وأين مزارهم بعد المَزار
وأين محمدٌ وٱبناه مالى * أرى أطلالهم سُود الدِّيار
كأن لم يُؤْنَسوا بأنيس مُلْك * يطول على الملوك بخير جار
إمامٌ كان فى الحَدَثان عونا * لنا والغيثُ يمنحُ بالقِطار

لقــد ترك الزمانُ بنى أبيه * وقــد غمرتهــم سُــود البحار
أضاعوا شمسَهم بجَرَتْ بنحسٍ * فصاروا فى الظّلام بلا نهَــار
وأجلَوْا عنهــــم قمــرا منـيرا * وداسَتْهُمْ خيولُ بنى الشِّرار
ولو كانوا لهــم كفؤًا ومثــلا * اذا ما تُوِّجوا تيجانَ عَار
ألا بَانَ الأمامُ ووَارَثاه * لقد ضَرم الحشى منّـا بنـار
وقالوا الخُـلْد بيـع فقلتُ ذُلًّا * يصـــير ببائِعيــه الى صَــغَار
كذاك الملك يُنْبِـع أَوَّليـــه * إذا قُطِع القَرار من القَرار

وقال مُقَدِّس بن صَيْفِيّ يرثيه :

خليلى ما أتتْـك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعتَـه النَّحيب
تدلّت من شماريخ المنـايا * مَنَايا ما تقوم لهـا القــلوبُ
خِلالَ مقــابِر البستان قــبر * يُجَاور قــبرَه أسَــدٌ غريب
لقد عَظُمت مُصيبته على من * له فى كل مَكْرُمة نصيب
على أمثــاله العَــبَراتُ تُذْرى * وتُهْتَــك فى مآتِمِــه الجُيوب
وما آدّخرتْ زُبيدة عنه دمعا * تُخَصّ به النسِــيبةُ والنّسيب
دعُوا موسى ابنــه لبُكاء دَهرٍ * على موسى آبنه دخَل الحَزِيب
رأيتُ مَشَاهدَ الخلفــاء منــه * خَـــلاءً ما بساحتهــا مُجيب
لِيَهْنِــك أننى كهلٌ عليــه * أذوبُ وفى الحشى كَبِد تذوب
أُصِيبَ به البعيــد فخَــرّ حزنا * وعاين يومَه فيــه المُريب
أنادى منْ بطون الأرض شخصًا * يحــرّكه النِّــداء فما يُجيب
لئن نَعَتِ الحروبُ اليــه نفسًا * لقــد فُجِعت بمصرعه الحروب

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخيرِ أمامٍ قام من خيرِ عُنْصُر * وأفضلِ سامٍ فوق أعواد منبر
لِوارثِ علم الأولين وفهمهم * وللملك المأمون من أم جعفر
كتبتُ وعيني مُسْتهِلٌ دموعُها * اليك ابن عمى من جفوني ومَحْجَرى
وقد مَسّنى ضُرٌّ وذلٌّ كآبة * وأرّق عيني يا ابن عمى تفكرى
وهِمتُ لِما لاقيتُ بعد مصابه * فأمرى عظيم مُنْكَرٌ جدّ مُنْكَر
سأشكو الذى لاقيتُه بعد فقده * اليك شكاة المستهامِ المُقَهّر
وأرجو لما قد مَرّ بى مذ فقدتُه * فأنت لبَثّى خير رَبٍّ مُغَيِّر
أتى طاهر لاطهّر اللهُ طاهرا * فما طاهر فيما أتى بمُطَهّر
فأخرجنى مكشوفةَ الوجه حاسرا * وأنْهَبَ أموالى وأحْرَق آدُرى
يَعِزّ على هارون ما قد لقيتُه * وما مَرّ بى من ناقص الخَلْق أعور
فان كان ما أسدى بأمرٍ أمرتَه * صبَرتُ لأمرٍ من قدير مُقَدِّر
تذكّر أميرَ المؤمنين قرابتى * فديتُك من ذى حرمة مُتَذَكِّر

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربّك ربِّ العِزّة الصَّمَد * ماذا أُصِبْنا به فى صُبْحة الأَحَد
وما أُصيب به الإسلامُ قاطبةً * من التَّضعضُع فى رُكْنَيه والأَوَد
مَنْ لم يُصَب بأمير المؤمنين ولم * يُصبح بمَهْلَكة والهمُّ فى صُعُد
فقد أُصبتُ به حتى تبيّن فى * عقلى ودينى ودنياى وفى جسدى
يا ليلةً تشتكى الإسلامُ مُدّتَها * والعالَمون جميعا آخرَ الأَبَد
غَدرتِ بالمَلك الميمونِ طائرُه * وبالإمام وبالضّرغامة الأسد
سارتْ اليه المنايا وهى تُرهِبه * فواجَهَتْه بأوغادٍ ذوى عَدَد
بشُورجِينَ وأغتامٍ يقودهم * قُرَيْش بالبِيض فى قُمْصٍ من الزَّرَد

فصادفوه وحيـدًا لا مُعين له * عليهم غائبَ الأنصارِ بالمَـدَد
فجرّعوه المنايا غير مُمْتنع * فَرْدا فيالك من مُستسلِم فَرَد
يَلقى الوجوهَ بوجه غير مُبْتـذَل * أبهى وأنقى من القُوهيّة الجُدُد
واحَسْرتا وقريشٌ قد أحاط به * والسيفُ مُرْتَعِد فى كَفّ مُرْتَعِد
فما تحرّك بل ما زال منتصِبا * منكّس الرأس لم يُبدئْ ولم يُعِد
حتى اذا السيفُ وافى وسْطَ مَفْرِقه * أذرَتْه عنه يداه فعل مُتئِد
وقام فاعتلقتْ كفّاه لَبّته * كضيغم شَرِس مستبسِلٍ لَبِد
فاجترّه ثم أهوى فاستقلّ به * للأرض من كَفّ ليث مُحْرَج حَرِد
فكاد يقتله لو لم يُكاثره * وقام منفَلِتا منه ولم يَكد
هذا حديثُ أمير المؤمنين وما * نَقَصتُ من أمره حرفا ولم أَزِد
لا زلت أندُبه حتى المماتِ وإنْ * أخنى عليه الذى أخْنَى على لُبَد

وذكر عمر بن شَبة أن محمد بن أحمد الهاشمى حدّثه أن لُبَابة ابنة علىّ بن المهدى قالت البيتين الآتيين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مُمْلَكة بمحمد :

أبكيك لا للنّعيم والأُنْس * بل للمعالى والرّمح والتُّرْس
أبكى على هالكٍ فُجِعتُ به * أرْمَلَنى قبل ليلة العُرس

هجاء يحيي[1] بن أكثم

وعدناك فى المجلد الأول أن نذكر مثلا من الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيي بن أكثم، وها هو ذا :

أرّقه بَرْحُ الهوى وسَدِمُهْ * ومَلّه الحبُّ فبات يألَمُهْ
طورا يُعَانيه وطورا يَشْتُمُه * مثل الحريق فى الحشا يُضَرِّمُه
ففاضتِ العينُ بدمع تَسجُمُه * نَمّت عليه كلّ شوقٍ يكتُمُه
وباح بالحب الذى يُجَمْجِمُه * وبات والقلبُ يُسامى هِمَمَه
من لمحبٍ قد تراه يرحُمُه * أصبح بالبأساء عارٍ أنعُمُه
طال تصابيه وطال سَقَمه * وبَلِي الجسم ورقّت أعظُمُه
يَشْهدنى الله على من يَظلِمُه * يمنعه طعم الكرى ويحرِمُه
واهًا له يصرِم من لا يصرِمُه * أصبح هذا الدين رَثًّا رِمَمُه
عطّله الجور وطال قِدَمُه * سَحت من الجَوْر عليه دِيَمُه
فَبَادَ مغنى رَبْعه وأرسُمُه * إلا بقايا قومه وجُمَمُه
أوطَنَه الجور فأضحى مَعلَمُه * يَرود فيه شاؤه ونَعَمُه
من يَشْهَد الجور فنحن نَعْلَمُه * أنوك قاضٍ فى البلاد نعلمُه
يقول حقا لا تُعَيّث ترحمُه * مذ وَلِيَ الحكمَ أُبيح حَرَمُه
وٱنتُهكتْ من القضاء حُرمُه * وٱضطربت أركانُه ودِعَمُه
والله يَبْنيه ونحن نَهدِمُه * ياليت يحيي لم يَلِده أكثَمُه
ولم تَطأْ أرضَ العراق قَدَمُه * ملعونةٌ أخلاقه وشيمُه[2]

(١) أنظر ما كتبناه عن يحيي بن أكثم فى المجلد الأول (ص ٤٤٠) .

(٢) حذفنا بعد هذا البيت أربعة أبيات رأينا أنها تنافى الآداب العامة .

والله والله لقــد حَلّ دَمُـــه * لو أن للدِّين عِمادا يدعَمُـــه
يعـــدِل عنـــه الميلَ أو يقوِّمُه * لكان قد رنّ عليـه مأتمُـــه
أرجو و يقضى اللهُ لا يُسَـــلِّمه * من وجهـه هــذا ولكن يَقصِمُه
* بالسيف اذ حلت عليه نقمه *

وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سَلْبٍ ونهب وتحريق وتخريب وفتنة شعواء وقتل ودماء، فانا نترك الكلمة فى ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تقطّعتِ الأرحامُ بين العشائر * وأسْلَمهم أهلُ التقى والبصائر
فذاك انتقامُ الله من خَلْقه بهم * لما اجترَموه من ركوبِ الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبةً * ولا نحن أصلحنا فسادَ السرائر
ولم نستمع من واعظٍ ومذكِّر * فَينجَعَ فينا وعْظُ ناهٍ وآمر
فابكِ على الإسلام لما تقطّعت * عراه ورجّى ضرَّه كلّ كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم * فمن بين مقهورٍ عزيزٍ وقاهر
وصار رئيسُ القوم يحمل نفسه * وصار رئيسا فيهم كلُّ شاطر
فلا فاجر للبَرّ يحفظ حرمة * ولا يستطيع البَرّ دَفْعًا لفاجر
تراهم كأمثال الذئابِ رأتْ دمًا * فأمّته لا تَلْوى على زَجْر زاجر
وأصبح فُسّاقُ القبائل بينهم . تسلّ على أقرانها بالخناجر
فابكِ لِقتلَى من صديقٍ ومن أخ * كريم ومن جار شفيقٍ مُجاور
ووالدةٍ تبكى بحزنٍ على ابنها * فيبكى لها من رحمةٍ كلُّ طائر
وذاتِ حليلٍ أصبحت وهى أيِّمٌ * وتبكى عليه بالدموع البوادر
تقول له قد كنتَ عِزّا وناصرا * فغُيِّبَ عنى اليوم عزّى وناصرى
وآبك لإحراقٍ وهدمِ منازل * وقتلٍ وإنهاب اللهى والذخائر

وإبراز ربّات الخدور حواسِرا * خرجن بلا خُمْرٍ ولا بمآزِر
تَراها حَيارى ليس تعرف مَذْهبًا * نوافرَ أمثالَ الظباء النوافر
كأن لم تكن بغدادُ أحسنَ مَنْظَرا * ومَلْهًى رأته عينُ لاهٍ وناظر
بلى هكذا كانت فَأَذْهَب حسنَها * وبدّد منها الشّمْلَ حكمُ المَقادر
وحلّ بهم ماحلّ بالناس قبلهم * فأضحَوْا أحاديثا لبَادٍ وحاضر
أبغداد يا دارَ الملوك ومُجْتَنى * صروف المنايا مستقرّ المنابر
ويا جَنّةَ الدنيا ومطّلَبَ الغنى * ومستنبطَ الأموال عند الضرائر
أبينى لنا اين الذين عَهِدتُهم * يحلّون فى روضٍ من العيش زاهر
وأين ملوك فى المواكب تَغْتَدى * تُشَبَّه حسنا بالنجوم الزواهر
وأين القضاة الحاكمون برأيهم * لِوِرْد أمور مشكلاتِ الأوامر
أو القائلون الناطقون بحكمة * ورَصْفِ كلامٍ من خطيبٍ وشاعر
وأين مراح(١) للملوك عهدتُها * مزخرفةٌ فيها صنوفُ الجواهر
تُرَشّ بماء المسك والورد أرضُها * يَفُوحُ بها من بعد رِيح المَجامر
وتَروْح النّدامى فيه كلّ عَشيّة * الى كل فَيّاض كريم العناصر
وأين قِيانٌ تستجيب لنغمها * اذا هو لبّاها حَنينُ المزامر
وأين الملوك الغُرّ من آل هاشم * وأشياعهم فيها اكتفوا بالمعاذر
يروحون فى سلطانهم وكأنهم * يروحون فى سلطان بعضِ العشائر
يجادل عما نالهم كبراؤهم * فَنالتهمو بالكُرْه أيدى الأصاغر
فأقسم لو أن الملوك تناصروا * لَزَلّتْ لها خوفًا رِقابُ الجبابر

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها صروح .

وقال عمرو بن عبد الملك الورّاق يبكى بغداد ويهجو طاهرا ويعرّض به :

من ذا أصابكِ يا بغـداذُ بالعيْنِ * ألم تكونى زمانا قُـرّة العينْ
ألم يكن فيـكِ أقوامٌ لهم شرف * بالصّالحـات وبالمعروف يَلْقَوْنى
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنُهم * وكان قربُهُمُ زينا من الزّيْنْ
صاح الزمانُ بهم بالبيْن فانقرضوا * ما ذا الذى فجّعَتْنى لوعـة البينْ
أستـودِعُ اللهَ قومًا ما ذكرتُهمو * ألاّ تحـدّر ماءُ العـين من عينى
كانوا ففرّقهم دهرٌ وصدّعهم * والدّهر يَصْدَع ما بين الفريقينْ
كم كان لى مُسْعِد منهم على زَمَنى * كم كان منهم على المعروف من عَوْن
لله دَرُّ زمان كان يجمعنـا * أَيْن الزمانُ الذى ولّى ومن أيْنْ
يا من يُخَـرّب بغـداذًا ليعمرُها * أهلكتَ نفسك ما بين الطريقينْ
كانت قلوبُ جميع الناسِ واحدةً * عينا وليس يكون العينُ كالدّيْنْ
لما استبيتهـمُ فَرّقْتهِـم فـرقًا * والنـاس طُرًّا جميعا بين قلبينْ

ولبعض فتيان بغداد :

بكيتُ دمًا على بغـداد لمـا * فقدتُ غَضارةَ العيش الأنيق
تَبَدّلْنـا همـومًا من سرور * ومن سَعَةٍ تبـدلْنا بضيق
أصابتها من الحُسّـاد عينٌ * فأفنت أهلَهـا بالمَنْجَنيـق
فقـومٌ أُحْرِقوا بالنـار قسْرًا * ونائحـةٌ تنـوح عـلى غَريق
وصـائحةٌ تُنَـادى واصَـباحا * وباكيةٌ لفقْدان الشّـفيق
وحـوراءُ المـدامع ذاتُ دَلّ * مضمّخَة المجاسـد بالخَـلُوق
تَفِرّ من الحريق الى انتهابٍ * ووالدُها يفـرّ الى الحـريق

وسَالِبـــةُ الغـــزالةِ مُقْلَتيها * مَضـاحِكِها كَلَألأة البُروق
حَيَارَى كالهَدايا مُبْكِرات * عليهن القـلائدُ فى الحُلوق
يُنـادِين الشفيقَ ولا شـفيقٌ * وقد فُقِد الشفيقُ من الشفيق
وقومٌ أُخرِجوا من ظِلّ دُنيَـا * متاعُهـمُ يُبَـاع بكل سُـوق
ومُغْـتَرِبٌ قـريبُ الدار مُلْقىً * بلا رأسٍ بقـارعةِ الطـريق
توسّط من قِتالهمُ جميعـا * فمـا يدرون من أى الفَريق
فـلا ولد يُقِـيم على أبيـه * وقد هَرَب الصّديق من صديق
ومهما أَنْسَ من شيء تولّى * فإنى ذاكـر دار الرّقيـــق

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامّة
التى عوّلنا عليها فى المراجعة لكتاب عصر المأمون

نثبت لك هنا الهامّ من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة. التى أشرنا اليها فى مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهى :

المصادر باللغة العربية :

تاريخ الطبرى ، طبعة مصر وليدن .

تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر.

تاريخ مروج الذهب للسعودى ، طبعة مصر و باريس .

تاريخ اليعقوبى ، طبعة ليدن باشراف المسيو هتسما .

تاريخ أبى الفدا للملك المؤيد ، طبعة الأستانة .

تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبدالله محمد بن يوسف ، طبعة أوربا .

تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبعة مصر .

تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ، طبعة مصر .

الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، طبعة ليدن .

نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للمستشرق ادوار بوكوك .

تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط .

تاريخ المشارقة لصليبا بن يوحنا ، مخطوط .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، مخطوط .

تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوربا) .

تاريخ التشريع الاسلامى للرحوم الخضرى بك ، طبعة مصر .

تاريخ الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة أوربا .

تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبردى ، طبعة أوربا .

البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى ، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .

الآثار الباقية للبيرونى ، طبعة ليبسك .

مختصر تاريخ الدول لأبي الفرج الملطي ، طبعة بيروت .
تاريخ الاسحاقي ، طبعة أوربا .
فتوح الشام للواقدي ، طبعة مصر .
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، طبعة مصر .
ولاة مصر وقضاتها للكندي ، طبعة بيروت .
مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ، طبعة مصر .
كشف الظنون لحاجي خليفة ، طبعة الأستانة وليبسك ومصر .
المستطرف للابشيهي ، طبعة بولاق .
معجم البلدان لياقوت الحموي ، طبعة ليبسك ومصر .
المزهر للسيوطي ، طبعة بولاق .
الأحكام السلطانية للماوردي ، طبعة أوربا .
أعلام الناس للاتليدي ، طبعة مصر .
كتاب المعارف لابن قتيبة ، طبعة أوربا .
معجم الأدباء لياقوت الرومي ، طبعة مصر واشراف مرجليوث .
الفهرست لابن النديم ، طبعة ليبسك .
طبقات الأمم لابن صاعد ، طبعة بيروت .
طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، طبعة مصر .
تراجم الحكماء للقفطي ، طبعة مصر .
طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأنباري ، طبعة مصر .
وفيات الأعيان لابن خلكان ، طبعة مصر .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، طبعة مصر .
الملل والنحل للشهرستاني ، طبعة مصر .
ألف باء ليوسف البلوي ، طبعة مصر .
مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، طبعة دار الكتب .
فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني ، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لليعقوبي ، طبعة ليدن .
مسالك الممالك للاصطخري ، طبعة ليدن .
المسالك والممالك لابن حوقل ، طبعة ليدن .
أحسن التقاسيم للمقدسي ، طبعة ليدن .
المسالك والممالك لابن خرداذبه ، طبعة ليدن .
الأعلاق النفيسة لابن رستة ، طبعة ليدن .
حسن المحاضرة للسيوطي ، طبعة مصر .
بلوغ الأرب في أحوال العرب للآلوسي طبعة بغداد .
مقدمة الياذة هوميروس تعريب البستاني طبعة مصر .

حضارة الاسلام فى دار السلام لجميل مدور، طبعة مصر .
كتاب الأغانى للاصبهانى، طبعة بولاق والساسى .
الجـزء الأول من كتاب الأغانى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب المصرية والنسخة الفتوغرافيـة بالدار .
صبح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب التـاج المنسوب للجاحظ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الأمالى لأبى على القـالى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الكامل للمبرد، طبعة مصر .
كتاب البيان والتبيين للجاحظ، طبعـة مصر .
العمدة لابن رشيق، طبعة مصر .
كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى، طبعة فردرك شوالى .
كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ، طبعة ليـــدن .
كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة مصر .
كتاب الحيوان للجاحظ، (نسخة فتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية) .
كتاب الكشكول للعاملى، طبعة مصر .
سراج الملوك للطرطوشى، طبعة مصر .
كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، طبعة ليـــدن .
كتاب الخراج لأبى يوسف، طبعـة بولاق .
تاريخ الوزراء المنسوب للصولى، طبعة بيروت .
أشهر مشاهير الاسـلام، للرحوم رفيق العظم بك، طبعة مصر .
كتاب نفح الطيب، طبعة مصر وأوربا .
مفاتيح العلوم للخوارزمى، طبعة مصر .
مفيد العلوم للخوارزمى، طبعة مصر .
كتاب المواهب الفتحيـة للرحوم الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر .
كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر .
مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر .
خطط الشام للاسـتاذ محمد كرد على، طبعة دمشق .
مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت .
مجموعة مجلة المجمع العلمى، طبعة دمشق .
مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر .
مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر .
بعض فصول ومباحث من المجلة الأسيوية .
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين، طبعة مصر .

منهل الرواد فى علم الانتقاد لقسطاكى الحمصى بك، طبعة مصر.
محاضرات الأستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعة مصر.
الوسيط للاستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعة مصر.
أدبيات اللغة العربية للاستاذ مصطفى صادق الرافعى، طبعة مصر.
أدبيات اللغة العربية للرحوم عاطف بركات بك وزملائه، طبعة مصر.
مهذب الأغانى للرحوم الخضرى بك، طبعة مصر.
بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف، طبعة مصر.
الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن.
طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى، طبعة ليدن ومصر.
كتاب الأذكياء لابن الجوزى، طبعة مصر.
العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر.
العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة مصر.
لطائف المعارف للثعالبى، طبعة ليدن.
عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب وأوربا.
حلبة الكميت، طبعة بولاق.
خزانة الأدب لابن حجة الحموى، طبعة بولاق.
خزانة الأدب للبغدادى، طبعة بولاق.
محاضرات الفلسفة لسنتلانه بالجامعة المصرية.
محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية للسنيور كرلونلينو، طبعة روما.
مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاشكبرى زاده، طبعة حيدر آباد.
محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار بالجامعة المصرية.
محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدى بالجامعة المصرية.
محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الأمم الاسلامية، طبعة مصر.
محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الدولة الأموية، طبعة مصر.
التمدن الاسلامى للرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر.
تاريخ آداب اللغة العربية للرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر.
طبقات ابن سعد، طبعة أوربا.
طبقات الشافعية للسبكى، طبعة مصر.
المنثور والمنظوم لابن طيفور.
رسالة بنى أمية للجاحظ، خطية.

كتاب الوزراء والكتاب لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى طبعة فينا سنة ١٩٢٦

كتاب الاشتقاق لابن دريد الازدى طبعة جوتنجن سنة ١٨٥٤

الأوراق للصولى، خطية .

مطبوعات تذكار جيب الانجليزية وخاصة مؤلفات الأستاذين مرجليوث وبرون .

زهر الآداب للحصرى، طبعة مصر .

المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى، طبعة أوربا .

الوافى بالوفيات للصفدى (المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩) .

أخبار أبى نواس لابن منظور، طبعة مصر .

رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد على، طبع مصر .

جمهرة أشعار العرب لأبى زيد؛ طبعة مصر .

المفضليات للضبى، طبعة مصر .

حماسة البحترى، طبعة بيروت .

الصناعتين لأبى هلال العسكرى، طبعة مصر .

الموشى لأبى الطيب، طبعة أوربا .

ديوان الحماسة لأبى تمام، طبعة مصر .

مجانى الأدب وشرحه، طبعة بيروت .

مختارات البارودى، طبعة مصر .

حياة الحيوان للدميرى، طبعة مصر .

عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى (أجزاء منه محفوظة بدار الكتب المصرية) .

الفرج بعد الشدة للتنوخى، طبعة مصر .

المصادر الافرنجية :

Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.

Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).

The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).

D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series".

H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs Omaiyades Moawia 1er et Yasid 1er". (Beyrouth).

Library of Universal History (N. Y.).

History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).

A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).

A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).

Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).

The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).

Annals of the Early Caliphate by Sir W. Muir. (London).

Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).

Encyclopaedia of Islam. (Luzac).

Encyclopaedia Britannica. (London).

La Grande Encyclopédie. Paris.

The Historians' History of the World by H. S. Williams. (New York).

Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).

The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London).

The History of Philosoply in Islam by J. de Bœr translated by Jones. (London).

Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).

Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).

Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).

Margoliouth's Works Etc.

R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes. 1927.

Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik. (Leipzig).

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧/٥٤٩/ ٣١٥٠)